

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

العلاقات الأسرية في القصة القرآنية

”دراسة موضوعية“

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه
حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو
بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:

اسم الطالب/ة: نادرة هاشم أبو حامدة

Signature:

التوقيع: 

Date:

التاريخ: 2 يناير 2016



الجامعة الإسلامية - غزة
شئون البحث العلمي والدراسات العليا
كلية أصول الدين
قسم التفسير وعلوم القرآن

العلاقات الأسرية في القصة القرآنية

”دراسة موضوعية“

إعداد الطالبة

نادرة هاشم أبو حامدة

إشراف الدكتور

عبد الكريم حمدي الدهشان

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن

2015 - 1436 هـ



نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحثة/ نادره هاشم عبدالفتاح أبو حامده لنيل درجة الماجستير في كلية أصول الدين / قسم التفسير وعلوم القرآن وموضوعها:

العلاقات الأسرية في ضوء القصص القرآني - دراسة موضوعية

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الاثنين 27 ربيع الآخر 1436هـ، الموافق 2015/02/16م الساعة الواحدة ظهراً بمبنى اللحيان، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

د. عبد الكريم حمدي الدهشان	مشرفاً ورئيساً	د. دلال
أ.د. جمال محمود الهوبي	مناقشاً داخلياً	د. هادي
د. زهدي محمد أبو نعمة	مناقشاً داخلياً	د. هادي

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحثة درجة الماجستير في كلية أصول الدين / قسم التفسير وعلوم القرآن.

واللجنة إذ تمنحها هذه الدرجة فإنها توصيها بتقوى الله وازوم طاعته وأن تسخر علمها في خدمة دينها ووطنها.

والله ولي التوفيق ،،،

مساعد نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا

د. د. هادي
أ.د. فؤاد علي العاجز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يٰۤاَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا

وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۗ

وَالْأَرْحَامَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ



لن يكون في حياتك وفاءً، إن لم تذكر يوماً أحباباً عاشوا لك، وأفنوا فيك ريعان شبابهم والصبا، ولن يكون لك فيها فخارٌ، إن لم تسافر بروحك إلى العلا، حيث روح ارتقت هناك، ولديها اختارت البذل والفدا. ثم لن يكون لوجودك في هذه الحياة معنى، إذا لم يكن لك فيها أناس تعش لهم، وبهم الأمل واليوم والغدا، ثم أين برك بوالديك وإحسانك؟ إن لم ترعفي الدنيا الأخت والأخا. وكيف يكون في الأرض عدلٌ، إن أنت أنكرت لصاحبك فضلاله عليك ويدا. فالآن قل لي بربك : هل يُهدى إلا لمثل أولئك الغواليّ الجوهر واللؤلؤا؟

- ◀ إلى روح أمي الغالية نبع الحنان الصافي ورمز العطاء المتناهي، ومصدر الدعم الروحي الذبلا ينتهي، فمعي ستظل أمي بأنفاسها ونظراتها وكلماتها.
- ◀ إلى روح والدي الشهيد الذي غادر الحياة قبل دخولي المدرسة، فبفضل شهادتك يا والدي مُنحتُ الالتحاق بالجامعة الإسلامية، لأتخرج منها بامتياز، وها أنا هنا.
- ◀ إلى من تسكن روحه روحي، إلى المحفور رسمه في سويداء فؤادي، إلى روح ابني الشهيد القسامي المجاهد مهندمازن الناجي، الذي تعلمت كيفتكون دروبالمجد إلى العلا ؟
- ◀ إلى فلذات قلبي، وزهرة شبابي، وثمره عمري، وبلسم جروحي إلى أبنائي:
- ◀ ميسرة ومحمد ومنتصر بالله ومعتصم بالله وميمنة ومالك ومهند الثاني وإبراهيم.
- ◀ إلى ابنتي الوحيدة، والمتريعة على عرش القلب نور.
- ◀ إلى حفيديّ و قرّة عيني مهند ومازن .
- ◀ إلى من إذا رأيتهم رأيت والديّ، إلى أخي الغالي نهاد، وأخواتي الغاليات عرفت وفاتن وهدى.
- ◀ إلى زوجتيّ ولديّ، واللّتين أرجو بهما ذرية صالحة مثلهما إلى سحر وسماح.
- ◀ إلى من وضعت قدمي في دروب الدعوة والعلم، إلى روح أستاذتي وقُدوتي بثينة الدجني رحمها الله وأسكنها فسيح الجنان.
- ◀ وفي مسك الختام، لا بد أن يكون أجمل إهداء وبأحلى الكلام، إلّمن هو لدربي الطويل هورفيق، وهو لحزني وفرحي شريك، وبصبره وكرم أخلاقه ليس له مثل، إلى زوجي الحبيب أبو ميسرة.

الباحثة

شكر وتقدير

قبل ذي بدء لا يكون شكري إلا للذي أكرمني، ووهبني من النعم ما علمني، ويسر لي أمر بحثي، والذي أسأله أن يكون خالصاً لوجهه عملي، فلك الشكر في الأولى والآخرة ياربي، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ ﴾ [النمل: 40] فهل يكون شكر الإنسان إلا ثقل له في الميزان، وإقرار منه بالفضل والعرفان، ورد للمعروف إلى أهله من غير نقصان ولا نكران ، فسبحانه من أمر بالأخلاق الحنان المنان.

ومن منطلق قول الرسول ﷺ (من لا يشكر الناس لا يشكر الله)⁽¹⁾ أتقدم بجزيل الشكر والعرفان، إلى فضيلة الدكتور عبد الكريم حمدي الدهشان، على ما قدمه لي من توجيه ورشاد، وتذليل للمصاعب وتيسير للمتاعب وإخضاع للمشقات، فأسأل الله أن يهبه علم الأنبياء وحكمة الحكماء، وحياة كريمة من غير عناء، ونفساً راضية مرضية دائمة الصفاء.

كما وأتوجه بالشكر والتقدير لأستاذي الكريمين عضوي لجنة المناقشة، لتفضلهما وقبولهما مناقشة هذا البحث وإثرائه بعلمهما الغزير، وتصويب ما فيه من زلل وتقصير.

فضيلة الأستاذ الدكتور / جمال محمود الهوبي حفظه الله.

وفضيلة الدكتور / زهدي محمد أبو نعمة حفظه الله.

فجزاهما الله خير الجزاء، وأبعد عنهما كل عناء، وأجزل لهما العطاء ووحفظهما من كل داء، كما وأتوجه بالشكر والعرفان إلى جميع أساتذتي الكرام في كلية أصول الدين، وأخص بالذكر: الدكتور عصام زهد، والدكتور محمود عنبر، والدكتور وليد العامودي، والدكتور عبد السلام اللوحفظهم الله.

كما أتوجه بالدعاء لجامعتي الغراء، هذا الصرح العظيم الذي تملك حبها النفوس، فأدعو الله أن يحفظها من كل شر ويحميها من كل سوء، والشكر موصول لمن كان لها في حياتي الأثر الكبير، والنصح الرشيد، الأستاذة الفاضلة : سحر كردية حفظها الله.

كما وأتوجه بالشكر لكل من ساعدني، ووقف بجانبني لتخرج رسالتي إلى حيز النور، وأخص بالذكر الأستاذ/ هاني الصوص "أبو خليل" حفظه الله الذي قام بتنسيق وترتيب هذه الرسالة حتى خرجت بصورتها البهية، والله وحده الموفق والمعين

الباحثة

(1) سنن أبو داود/كتاب الأدب/باب في شكر المعروف ص 872/ح4811، الحديث صحيح انظر: الألباني

صحيح سنن أبي داود 182/3

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

يقول المولى ﷺ :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفَؤَارِكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَفَؤُا اللَّهَ

الَّذِي نَسَأَ لُونِيهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء: 1]

أما بعد :-

فإنَّ الأسرة هي لبنة المجتمع الأولى، والركيزة الأساسية التي يقوم عليها صرحه المتين، ويتأثر تقدُّمه أو تأخره بمدى تقدمها أو تأخرها، وذلك بما تضمه بين جناباتها من أفراد، هم صنّاع الحضارة أو معاول هدمها، وحقيقة التقدم والتأخر تُقاس بمستوى القرب أو البعد من تطبيق كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ لقوله ﷺ: (تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه) (1)

فالأسرة بما يخيم على علاقة الزوجين فيها من سكن وتقاهم، وبما يحكم علاقة الأصول والفروع، من ودٍ وتراحمٍ وتعاونٍ، وبما تقدمه من ثمراتٍ صالحة خيرة في الحياة الدنيا هي المسؤولة عن صلاح الأمة، وقدرتها على حمل رسالة الدعوة للإنسانية كافة، ولا سيما الأسرة المسلمة التي وجبت عليها الدعوة بقوله تعالى :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

[آل عمران: 110]

فلهذا كله وغيره لا يستغرب أبداً أن تتناول فروع المعرفة الأسرة دراسة وتحليلاً، فعلماء الاجتماع من جهة تخصصهم، وعلماء التربية من جهتهم تخصصهم، وعلماء النفس والمؤرخون كذلك، وكل من يرجو للمجتمع العالمي خيراً أو شراً يعمل على الأسرة، فنجد الدول الغربية أولت الأسرة في مجتمعاتنا الإسلامية بالذات عناية خاصة لأنها متأكدة أن الأسرة عماد المجتمع وأصل نجاحه واستقامته، فعملت على تحدي الدول والحكومات والشعوب في فرض نمط الحياة الغربية الغربية على المجتمع الإسلامي، وعولمة الرذيلة التي نفضت بها، وعملت على تبديل الطبيعة النسائية في المجتمعات العربية والإسلامية لهدم نظام الأسرة الإسلامي، فإن كانت الحكومات قد رضخت للضغوط الغربية نظراً لما يجتاح الأمر من سراديب السياسة، ومغاليق

(1) "الموطأ"/الإمام مالك بن أنس/باب "النهي عن القول بالقدر"، ص648.

الملفات ذات عنوان "سري جداً"، إلا أن الشعوب الإسلامية الواعية لم ترسخ لمثل هذه الضغوط الصريحة، بل قاومتها قدر ما استطاعت، لكن المحاولات الغربية لم تكف أو تتوقف حيناً من الزمن، بل غيرت من لونها كما تتلون الحراية، متحالفاً معها الشيطان وجنده، وأدرك الغرب أن الهجمات الصريحة التي تحمل الصبغة العدوانية اتجاه الإسلام والمسلمين ونظام الأسرة بالتحديد؛ ليست على قدر المستوى المطلوب من النجاح الذي تأتي به الأساليب الملتوية التي تلعب من وراء الكواليس، وتلبس لباس الحق في الوقت الذي تتلبس فيه بالباطل من داخلها، فعمدت إلى مصطلحات خداعة: من أمثال مؤتمرات تنظيم الأسرة، ومقاومة العنف الأسري ضد المرأة، والحرية الجنسية، والصحة الإنجابية، وما شابهها من المصطلحات التي تخفي في طياتها حية رقطاع تنفت سماً في الدسم، وما مؤتمر بكين⁽¹⁾ 1995م في الصين، وما سبقه من مؤتمرات، تحت مظلة الأمم المتحدة، بأهدافه وخططه ببعيد، فالمخطط منظم عنيد ولا بد أن نقابله بمخطط أقوى وأعدت قاعدته التمسك بقيم الأسرة المسلمة كما أرادها الله ورسوله، فمن الأهمية بمكان وزمان أن ندرس العلاقات الأسرية دراسة موضوعية، مؤصلة من القرآن الكريم الذي قدم نماذج عديدة لهذه العلاقات الأسرية ما بين نموذج طيب يُحتذى به، وآخر خبيث نحذر منه؛ هدفها بيان أهمية الأسرة في هذه الحياة الدنيا للعبور بأفرادها إلى بر الأمان حيث جنان الرحمن لاسيما وهي تخوض بحراً خضماً متلاطم الأمواج في ظل التحديات وما يدبر لها في الليل وفي وضح النهار، فإن لم تكن الأسرة المسلمة في مركب الدين المتين، مجدفةً بمجاديف قوية من الكتاب والسنة، فسيكون الخسران المبين والعياذ بالله. لأن الأسرة هي الرحم الاجتماعي الذي يتلقى الوليد البشري من رحمه البيولوجي، فيقدم له الأمن والحماية والرعاية، ويزوده بأساليب التنشئة، ووسائل التوافق مع الحياة الإسلامية، بأخلاقها وتقاليدها، فحين صحت هذه العملية بامتياز، عز المسلمون الأوائل وسادوا بالإسلام حين اعتصموا به واتخذوه لأنفسهم ولأفراد أسرهم شرعاً ومنهاجاً، وأقاموا بيوتهم على الطهر والتقوى، ومجتمعهم على الإيمان والفضيلة، فلم يضرهم حينها ما كانوا فيه من قلة أو فقر، وما كان عليه أعداءهم من كثرة العدة والعناد، في الوصول.

فبالإسلام قبل كل شيء ساد المسلمون في الماضي، وبالإسلام فوق كل شيء يسود المسلمون في الحاضر والمستقبل بإذن الله تعالى، فجميعنا نتوق إلى ذلك اليوم حين نُشيد الصرح على التقوى كما شيده الأولون، ونقيم قواعد الأسرة على التقاليد والقيم التي أقاموها عليها عظامنا لتعود سيرتها الأولى، ولتكون بحق كما كانت بالماضي، كما شهد لها بذلك خصوم الإسلام، فكانت الحصن المنيع الذي تتحطم عليه كل الغارات المنظمة ضد الإسلام،

(1) هذا اختصار لاسم المؤتمر وعنوانه: "المرأة سنة 2000 المساواة بين الجنسين والتنمية والسلام للقرن 21".

وتتراجع أمامه كل القوى الطامعة في القضاء على المسلمين، فإنه لن يصلح أواخر الأمة إلا بما صلح به أوائلها، وبذلك نكون بحق قد أعدنا بناء الأمة على أساس من العلم والإيمان إذ أن الأسرة حجر الأساس لكل بناء. ولذلك اخترت موضوعي وهو بعنوان :

العلاقات الأسرية في القصة القرآنية

دراسة موضوعية

وقد تناولت هذا الموضوع في إطار دراسة تفسيرية موضوعية محكمة ووفق خطة للبحث

أولاً : أهمية الدراسة

تظهر أهمية الدراسة من خلال نقاط أورد أهمها :

- 1- الشغل في علم هو من أشرف العلوم لأنه يتعلق بكتاب الله عز وجل.
- 2- الوقوف على المعاني والعبر من القصص القرآني ز
- 3- النهوض بالمجتمعات الإسلامية باستنهاض نواتها " الأسرة " .
- 4- بيان المنهج الإسلامي الصحيح في التعامل الأسري.
- 5- تقوية الوازع الديني بين المسلم والقرآن.
- 6- الوصول بالأهل والذري إلى طريق النجاة.
- 7- إبراز نواحي الإتفاق والاختلاف في القصص القرآني والواقع المعاصر .

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع :

لاختيار الموضوع أسباب عديدة أذكر منها :

- 1- الأمراض الاجتماعية الخطيرة التي تهدد بأركان الأسرة.
- 2- كف يد العابثين بروابط الأسرة وبصلات الأفراد بعضهم ببعض.
- 3- إزالة العوائل الدخيلة على الإسلام والتي شابت العلاقات الأسرية.
- 4- الرقي بالأخلاقيات العامة والخاصة بين أفراد الأسرة.
- 5- بيان عناية الإسلام الفائقة بالأسرة وكيف سلط الضوء عليها من خلال القصص القرآني

ثالثاً : أهداف البحث وغاياته :

للبحث أهداف عديدة وغايات سامية أذكر منها :

- 1- ابتغاء الأجر والثواب من الله عز وجل في الدنيا والآخرة.
- 2- مراجعة النفس والاعتبار من القصص القرآني في حياتنا اليومية
- 3- إثبات شمولية وواقعية القرآن الكريم
- 4- اثبات معارف القرآن بمكونات النفس البشرية
- 5- جمع العلاقات الأسرية التي أوردها القرآن في قصص متفرقة ومتباعدة زمانياً ومكانياً في موضوع واحد.
- 6- إثراء المكتبة الإسلامية بموضوع يفيد الأسرة المسلمة ويساهم في رفع درجة الوعي القرآني في العلاقات أفراد الأسرة.

رابعاً :الدراسات السابقة :

بعد الاطلاع على الدراسات السابقة، ومن خلال البحث في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ومن خلال الكشف في المكتبة الالكترونية، لم تجد الباحثة رسالة محكمة تتناول هذا الموضوع، إنما وجدت رسالة بعنوان " العلاقات الأسرية في القرآن " سلت صاحبها الضوء على العلاقات الأسرية من حيث الأحكام في النواحي الفقهية كالخطبة والزواج والمتعة والرضاعة والحضانة والطلاق والنفقة والحداد والنسب والميراث وغيرها من الأمور الفقهية، وهذه الفقهيات لم أتناولها إطلاقاً في بحثي، إنما تناولت فيه العلاقات الاجتماعية العامة بين أفراد الأسرة وهذا هو محور رسالتي

خامساً : منهج البحث :

اعتمدت الباحثة المنهج الاستقرائي حسب خطوات التفسير الموضوعي وذلك كما يلي :

- 1- جمع الآيات التي تتناول موضوع الدراسة من جميع جوانبها.
- 2- فرز الآيات وعنونتها بوضع الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد على حدة، ووضع عنوان مناسب لها.
- 3- تقسيم البحث إلى فصول ومباحث ومطالب ونقاط انطلاقاً من الآيات القرآنية وبما يتناسب مع عنوان البحث.

- 4- كتابة الآيات مدار البحث بالخط العثماني برواية حفص عن عاصم رحمه الله، مع عزوها إلى سورها وذلك بذكر سم السورة ورقمها في المتن تجنباً لإثقال الحواشي.
- 5- تفسير الآيات من كتب التفسير القديمة والحديثة تفسيراً إجمالياً، بما يجعل الدراسة تفسيرية حسب منهج التفسير الموضوعي.
- 6- الاستعانة بالكتب التي تخدم البحث كالمراجع الثقافية والإسلامية العامة مع التوثيق.
- 7- التعرض لأقوال التوراة للاستئناس بما تقره عقيدتنا وبما يخدم موضوعي، وبيان زيفها وتحريفها في ما تناقض مع عقيدتنا وكان له علاقة واضحة بعنوان البحث.
- 8- ذكر سبب نزول الآيات إن وجد وخدم الموضوع.
- 9- الاستدلال بالأحاديث النبوية والآثار التي تخدم البحث، وعزوها إلى مصادرها وبيان حكم العلماء عليها إن أمكن.
- 10- ترجمة الأعلام الواردة في الرسالة.
- 11- ترتيب التوثيق المنقولة في الحاشية حسب الأصول، ذكر اسم الكتاب واسم المؤلف ورقم الجزء والصفحة، وترك البيانات التفصيلية لفهرس المصادر والمراجع، مع تحري الأمانة العلمية في النقل والتوثيق.
- 12- توضيح الكلمات الغريبة من المعاجم اللغوية.
- 13- عمل خاتمة لكل باب بأهم النتائج والثمرات.
- 14- إعداد مجموعة من الفهارس لخدمة البحث وهي كالاتي :
- أولاً: فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- ثالثاً: فهرس الأعلام.
- رابعاً: فهرس المصادر والمراجع.
- خامساً: فهرس الموضوعات حسب ورودها.
- سادساً : خطة البحث :**
- وقد تضمنت الخطة : مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول يتبع كل فصل خاتمة.
- المقدمة وتشمل على :** تتضمن أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهداف البحث والدراسات السابقة ومنهج البحث

التمهيد ويشتمل على :

أولاً : معنى العلاقات الأسرية لغة واصطلاحاً.

ثانياً :معنى القصة القرآنية لغة واصطلاحاً.

ثالثاً:الكلمات القرآنية المناظرة لكلمة الأسرة.

رابعاً:مفهوم الأسرة لدى الأديان والمفهوم اللا ديني للأسرة.

خامساً:أدلة اهتمام الإسلام بالأسرة.

سادساً التيارات المضادة للأسرة المسلمة.

الفصل الأول

علاقة المرء بزوجه

ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : علاقة الرجل الصالح بزوجه الصالح

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول: علاقة إبراهيم عليه السلام بسارة.

المطلب الثاني: علاقة إبراهيم عليه السلام بهاجر.

المطلب الثالث: علاقة زكريا عليه السلام بزوجه.

المطلب الرابع: علاقة أيوب عليه السلام بزوجه.

المطلب الخامس: علاقة موسى عليه السلام بزوجه.

المبحث الثاني: علاقة الرجل الصالح بامرأته السيئة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: علاقة نوح عليه السلام بزوجه.

المطلب الثاني: علاقة لوط عليه السلام بزوجه.

المبحث الثالث: علاقة المرأة الصالحة بزوجها الكافر

وفيه مطلب: علاقة آسية بفرعون.

المبحث الرابع: الأزواج بين الخطيئة والتوبة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علاقة آدم بحواء عليهما السلام.

المطلب الثاني: علاقة عزيز مصر بزليخا.

المبحث الخامس: علاقة الرجل السيئ بامرأته السيئة

وفيه مطلب: علاقة أبي لهب بأم جميل.

الفصل الثاني

علاقة الآباء بالأبناء

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: علاقة الأب الصالح بالابن الصالح

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: علاقة إبراهيم عليه السلام بذريته من بعده.

المطلب الثاني: علاقة إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام.

المطلب الثالث: علاقة يعقوب عليه السلام بيوسف عليه السلام.

المطلب الرابع: علاقة لقمان الحكيم عليه السلام بابنه.

المطلب الخامس: علاقة داوود بسليمان عليهما السلام.

المبحث الثاني: علاقة الأب الصالح بابنه السيء

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علاقة نوح عليه السلام بابنه.

المطلب الثاني: علاقة الوالدين الصالحين بابنهما الكافر.

المبحث الثالث: علاقة الابن الصالح بأبيه الطالح

وفيه مطلب واحد: علاقة إبراهيم عليه السلام بأزر.

المبحث الرابع: علاقة الأب الصالح بابنته الصالحة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علاقة لوط عليه السلام بابنتيه .

المطلب الثاني: علاقة الرجل الصالح ختن موسى عليه السلام بابنتيه.

المبحث الخامس: علاقة الأم بولدها

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: علاقة هاجر بولدها إسماعيل عليه السلام.

المطلب الثاني: علاقة أم موسى بموسى عليه السلام.

المطلب الثالث: علاقة امرأة عمران بمريم عليها السلام.

المطلب الرابع: علاقة مريم بابنها عيسى عليه السلام.

الفصل الثالث

علاقة الأخوة بعضهم ببعض

ويشتمل على ثلاثة مباحث

المبحث الأول: علاقة الصلاح بين الإخوة

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: علاقة يوسف عليه السلام بأخيه بنيامين .

المطلب الثاني: علاقة موسى عليه السلام بأخيه هارون عليه السلام.

المطلب الثالث: علاقة أخت موسى بأخيها موسى عليه السلام.

المبحث الثاني : علاقة الأخوة بين صلاحٍ وطلاح.

وفيه مطلب واحد : علاقة ابني آدم هابيل وقابيل.

المبحث الثالث: العلاقات الأخوية بين الخطيئة والتوبة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: يوسف عليه السلام وإخوته من أبيه بين الخطيئة والتوبة.

المطلب الثاني: الأخوة أصحاب الجنة بين الخطيئة والتوبة.

التمهيد

ويشتمل على :

أولاً :معنى العلاقات الأسرية لغة واصطلاحاً

ثانياً: معنى القصة القرآنية لغة واصطلاحاً

ثالثاً: الألفاظ القرآنية المناظرة لكلمة الأسرة

رابعاً : أنواع الأسر في المجتمع الإسلامي

خامساً :مفهوم الأسرة لدى الأديان

سادساً : المفهوم اللاديني للأسرة

سابعاً : التيارات المضادة للأسرة المسلمة

التمهيد

أولاً : معنى العلاقات الأسرية لغة واصطلاحاً:-

العلاقات لغة :-

كلمة العلاقات كلمة تدل على الجمع، ومفردتها العلاقة وأصل العلاقة الفعل "علق"، العين، واللام، والقاف، أصل كبيرٌ وصحيحٌ يرجع إلى معنى واحد، وهو أن يُنَاطَ الشيءُ العالي، ويتسع الكلامُ⁽¹⁾ فيه: وأن يتعلَّقَ أمرٌ بآخر ويلزمه، وهذا التعلُّقُ أبرزُ ما يكون في العلاقات الأسرية ويؤثّرُ فيها.⁽²⁾

و العلاقات لفظ يُفِيدُ الكثيرَ من المعاني مثل :

1- علاقة المودَّة، والصَّدَاقَة، وعلاقة الحب، الملازم للقلب.

2 - ما يتعلق به الإنسانُ من الأشياءِ النفيسة، والغالية لَدَيْهِ؛ كالمال، والزواج، والولد⁽³⁾.

العلاقات اصطلاحاً :-

العلاقات هي: "الرَّوَابِطُ والآثَارُ المتبادلة بين الأفراد في المجتمع، وهي تنشأ من طبيعة اجتماعهم، وتبادل مشاعرهم، وأحاسيسهم، واحتكاك بعضهم ببعض الآخر⁽⁴⁾.

وهي تشمل: العلاقة الزوجية، العلاقة بالوالدين، العلاقة بالأولاد، العلاقة بالإخوة، العلاقة بالأقارب، العلاقة بعامة الناس.

الأسرة لغة:-

"هي الجماعة، يربطها أمر مشترك⁽⁵⁾ وأسرَّة الرجل: عشيرته، ورَهْطُه الأقربون؛ لأنه يتقوى بهم، ولذلك تُسمَّى الأسرة بالدرع الحصينة⁽⁶⁾، فهي مصدر قوة ومنعة للإنسان.

(1) أساس البلاغة/الزمخشري ص433، مادة "علاقة"،،

(2) لسان العرب/ابن منظور: 261/10-268، مادة "علاقة".

(3) معجم مقاييس اللغة"/ابن فارس: 125/4، مادة "علاقة"

(4) معجم العلوم الاجتماعية/إبراهيم مذكور ص403

(5) لسان العرب/ابن منظور، 9/4، مادة "أسر"

(6) القاموس المحيط/الفيروز أبادي 149/1.

وكلمة الأسرة: مأخوذة من "أسر"، الهزمة والسين والراء أصل واحد: يقول الله تعالى : ﴿مَنْ خَلَقْتَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَنَاتَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان : 28] فهو القيد الذي يقيد أو يربط به، تقول " هذا أسر الأسير " أي قيده، وهو الحبس والإمساك⁽¹⁾، ولذلك يُقال لمن تزوج : إنه طليق قد استأسر⁽²⁾، أي: أصبح مُقيدًا بالأسرة ملتزمًا بها، يؤدي ما عليه من الواجبات والتكاليف.

و قيل : إنه كلُّ الشيء أو جميعه، تقول هذا الشيء لك بأسره أي كله، وجاءوا بأسرهم يعني جميعهم.

ومما سبق نستنتج أن لفظ الأسرة يطلق على :-

- 1- الدرع الحصينة وسميت بذلك ؛ لإحكام صنعتها حتى كأنها حصنٌ يقبمن لاذ به، واحتمي فيه من ضربات الأعداء.
- 2- أهل الرجل وعشيرته ورهطه الأذنون، وسُموا بذلك ؛ لقوة الرباط الذي يربطهم ويوفر لهم الحماية والمنعة.
- 3- الجماعة يربطها أمرٌ مشترك، وسُموا بذلك للأمر الذي يربطهم ويجمع بينهم كما سبق.

الأسرة عرفاً:-

شاع استعمالها عرفاً في المعنى الثاني وهو : أهل الرجل وعشيرته بحيث إذا أُطلقت كلمة " أسرة " انصرف الذهن مباشرة إلى مجموعة أفراد ذوي صلات معينة من قرابة أو نسب يعيشون معاً، أو ينحدر بعضهم من بعض.

الأسرة اصطلاحاً عند الدعاة:-

تطلق ويراد بها :

نفرٌ من المسلمين يتعارفون فيما بينهم، ويلتقون على طائفة من المناشط الفكرية والسلوكية تستوعب الحياة كلها، وتؤهل العمل الجماعي من أجل استئناف حياة إسلامية كريمة، تُصان فيها الدماء والأموال والأعراض، ويقام فيها حكم الله ﷻ في الأرض، كما كانت في زمن الرسول ﷺ إذ كان من هديّه ومن منهجه ﷺ في العمل لدين الله، أن يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند رجلٍ به قوة وسعة من المال فيكونان معه، وبصبيان من فضل طعامه، ويجعل منهم

(1) "معجم مقاييس اللغة"/أحمد بن فارس/107/1، مادة "أسر".

(2) "أساس البلاغة"/الزمخشري ص 16، مادة "أسر".

حلقات فمن حفظ شيئاً من القرآن، علّمه من لم يحفظ، فيكون من هذه الجماعات أسراً تجمعهم أخوة وحلقات تعليم. وقد اتخذت جماعة الإخوان المسلمين هذا المنهج النبوي وكونت أسراً للرجوع إلى الدين والجهاد.

وواضح من هذا التعريف أنه يلتقي بصورة أخص مع المعنى اللغوي الثالث للأسرة.

2 - التعريف الاصطلاحي المطلق للأسرة المسلمة:-

مما سبق يمكن أن نخرج بتعريف مانع جامع لمفهوم الأسرة في الاصطلاح :

" الأسرة، نواة المجتمع، تنشأ من علاقة زوجية على الوجه الشرعي أساسها المودة والرحمة والتعاون وإحسان الزوجين ومن أهدافها تنشئة الأبناء والمحافظة على استمرار الإنسان ."

أوهي "الخلية الأساسية للمجتمع تتكون من أشخاص بصلة تجمع بينهم روابط مختلفة ومصالح مشتركة بصلة الزوجية وصلة القرابة، وهي مصدر التربية والتوجيه والضبط للأفراد المنتمين إليها"

ثانياً: معنى القصة القرآنية لغة واصطلاحاً:-

القصة لغة :

مأخوذة من الجذر " قصص " الذي انتظمت اشتقاقاته عدة معاني في القرآن الكريم فقد ورد بمعنى الاقتفاء وتتبع الأثر، كما في قوله

تعالى: ﴿ وَقَالَتِ لَأُخْتِيهِ قُصِيهِ فَبَصَّرْتَهُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: 11]

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ آثَارَهُمْ قَصَصًا ﴾ [الكهف: 64] لهذا يقال للذي يقص القصص قصاصاً، لأنه يتتبع أحداث القصة خبراً خبراً.

وقال ابن فارس⁽¹⁾: ومن ذلك اشتقاق القصص في الجراح، وذلك أنه يفعل به مثل فعلها لأول، فكأنه اقتصى أثره⁽²⁾.

وورد بمعنى الخبر والشأن والحكاية، فيقال ما قصتك ؟ أي ما شأنك ؟ وتجمع القصة

على قصص، قصص تكون بفتح القاف وكسره⁽³⁾ كقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَقْصَصْنَا الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 176]

(1) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب، أصله من قزوين، وولد

فيها سنة 329 هـ انتقل إلى الري وتوفي فيها 395 سنة هـ، وإليها نسبته/انظر الأعلام للزركلي/193

(2) معجم مقاييس اللغة/ابن فارس 108/1 مادة أسر.

(3) المرجع السابق 11/5

والقصص بالفتح، الخبر المقصوص فقد وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه،
والقصص بكسر القاف جمع القصة التي تكتب⁽¹⁾.

ومن خلال المعاني اللغوية السابقة يتبين أن القصة في أصلها اللغوي مأخوذة من القص وهو اقتفاء الأثر وتتبعه⁽²⁾، وهذا ما عليه محور رسالتي تتبع أحوال الأسر المذكورة في القصص القرآني.

القصة اصطلاحاً:-

"هي الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضاً"⁽³⁾ وهذا التعريف يضم القصة القرآنية وغيرها من القصة الأدبية، ولكن العلماء قد أفردوا للقصص القرآني تعريفات خاصة كالآتي:

فقد عرّف الإمام الرازي⁽⁴⁾ القصص على أنه: "مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة"⁽⁵⁾ وواضح أن هذا التعريف يتضمن القصة القرآنية لكنه لا يحتز عن غيرها من خطب دينية، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وغيرها من الكلام الهادف إلى الهداية والإرشاد.

وقد عرّفها الدكتور عبد الكريم الخطيب بقوله: "أطلق القرآن لفظ القصص على ما حدث به من أخبار القرون الأولى في مجال الرسائل السماوية، وما كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال، وبين مواكب النور وجحافل الظلام"⁽⁶⁾.

بينما عرف الدكتور مناع القطان⁽⁷⁾ قصص القرآن بأنها: "إختباره عن أحوال الأمم

(1) المصباح المنير/الفيومي ص30

(2) لسان العرب/ابن منظور 3651/5

(3) أصول التفسير/ابن عثيمين ص57

(4) أحمد بن محمد بن أحمد المظفر ابن المختار، أبو العباس بدر الدين الرازي الحنفي: عالم بالتفسير والحديث عارف بالأدب، له نظم حسن. دخل دمشق وكان يفسر القرآن على المنبر بجامعها، سمع بها الحديث من أبي اليمن الكندي وغيره. ثم ذهب إلى بلاد الروم وتولى بها القضاء والتدريس/انظر: الأعلام للزركلي 217/1

(5) مفاتيح الغيب/الرازي 74/8

(6) القصص في القرآن الكريم مفهومه ومنطوقه ص40

(7) مناع خليل القطان: أستاذ معاصر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والمشرف على الدراسات العليا، صاحب كتاب مباحث في علوم القرآن

الماضية والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثارهم، وحكي عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه".⁽¹⁾

وأما الدكتورة مريم السباعي، فقد عرّفت القصة بأنها تتبع آثار وأخبار الأمم الماضية وإيراد مواقفهم وأعمالهم وبخاصة مع رسل الله إليهم، مع إظهار آثار الدعوات فيهم وذلك بأسلوب حسن جميل مع التركيز على مواطن العبرة والعظة.⁽²⁾

وتعريف د. مريم السباعي، هو التعريف الذي تستحسنه الباحثة، وذلك لتقاطعه مع التعاريف السابقة، في أن القصص القرآني إيراد لأخبار الأمم السابقة، إلا أنه يركز على آثار الأنبياء في دعواتهم على هذه الأمم، وإعلام البشرية أمة بعد أمة بالسجلات السابقة لمن سبقهم لعلمهم يعتبرون.

ثالثاً: الألفاظ القرآنية المناظرة لكلمة الأسرة

قبل أن نبدأ بالكلمات المناظرة لكلمة الأسرة في القرآن لابد أن نعرف هل ورد مصطلح (الأسرة) في القرآن الكريم؟ ولماذا؟

والإجابة : أن لفظ الأسرة لم يرد في القرآن الكريم وكذلك الأمر بالنسبة للسنة النبوية، فلذلك هو لفظ فضفاض في مدلوله، واشتقاقات الكلمة لم ترد أيضاً بالمعنى الاصطلاحي الشائع الذي أشرنا إليه في المعنى اللغوي سابقاً (أهل الرجل وعشيرته) بينما استخدمت الاشتقاقاً بتبدل المعاني اللغوية الأخرى وإن كان هناك علاقة بين هذه المعاني والمعنى الاصطلاحي الشائع وقد استخدم القرآن الكريم مصطلحات تدل على الأسرة لعل أقربها لفظ الأهل، وآل، ورهط والعشيرة.

وسنستعرض الألفاظ القرآنية التي دلت على الأسرة في سياق آياتها في القرآن الكريم:-

1- الرهط

﴿ قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّينٍ ﴾ [هود: 91]

2- العشيرة والعشير

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ،

(1) مباحث في علوم القرآن/مناح القطان ص300

(2) القصة في القرآن الكريم/مريم السباعي ص30

فَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿[التوبة: 24-25]

﴿ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمْ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾ [الحج: 13]

3- الأهل

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آيَاتِكُمْ بِشَهَابٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَاصْبِرُوا لَهَا إِنَّكُم مِّن الصَّابِرِينَ ﴾ [النمل: 7]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: 6]

4- آل

﴿ وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: 49]

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: 248]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ غَفَّاءَ أَلَيْسَ آتِينَ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 54]

﴿ وَكَذَٰلِكَ يُجَنِّبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: 6]

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: 59]

5- ذو القربى

﴿ وَإِذَا خَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالُوا الَّذِينَ أَحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: 83]

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ﴾ [النساء: 8]

والمستفاد من هذه المصطلحات القرآنية المتناظرة مع لفظة الأسرة أن العلاقات والأواصر والروابط والأوشاج التي تلتقي عليه هذه المفردات القرآنية داخل في صميم موضوع البحث، وأن القاسم المشترك بين لفظة الأسرة وهذه المصطلحات القرآنية المتناظرة والمشابهة لها هو وجود العلاقات المتينة والروابط العميقة التي تشتمل على ماهيتها كل مفردة لوحدها.

رابعاً : أنواع الأسر في المجتمع الإسلامي :-

تتنوع الأسر في المجتمع الإسلامي إلى ثلاثة أنواع حسب عدد أفرادها كما يلي :

1 - الأسرة الصغرى:

وهي المقصورة على الزوجين والأولاد⁽¹⁾، كما يفهم من قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرُّوم: 21]

2 - الأسرة الوسطى:

وهي التي تضم كل ذي رحم، ومنهم الآباء، والأجداد، والإخوة، والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وهي المقصودة بصلة الرحم⁽²⁾؛ كما يفهم من قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنْ
الطَّيِّبَاتِ أَفِيَا بَطِلٌ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: 72]

فهذا الجزء من الآية جاء

(1) الأسرة المسلمة في العالم المعاصر/وهبة الزحيلي، ص 20

(2) الأسرة على مشارف القرن 21/عبد المجيد منصور ص 26

بعد بيان الله ﷻ أن أصل الناس من أب واحد، وأم واحدة، قامت بينهما علاقة زوجية، أنتجت رجالاً كثيراً ونساءً يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْقُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأُنْقُوا اللَّهَ الَّذِي قَسَاءَ لُونِ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:1]،

ثم بيّن الله تعالى في عقب الآية، نوعية العلاقة التي قامت بين الرجال والنساء، وهي علاقة الرَّحْم، وفي ذلك يقول الإمام القرطبي رحمه الله⁽¹⁾ في تفسير الرَّحْم: "الأرحام اسم لكافة الأقارب من غير فَرْق بين المَحْرَم، وغيره"⁽²⁾.

3 - الأسرة الكبرى "أو الممتدة"، وتشمل:

أ - المجتمع المسلم بما فيه من جيران وأصدقاء، تقوم العلاقة بينهم على أساس الأُخُوَّة في الدين؛ كما يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَأُنْقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:10].

ب - المجتمع غير المسلم الذي يُعرف بالمجتمع الإنساني كله، أو البشرية جمعاء، وفي العرف المعاصر بالأسرة الدولية⁽³⁾ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13]

وهذا النوع الثالث من الأسرة الكبيرة لن يكون له حضور في رسالتي.

خامساً : مفهوم الأسرة لدى أصحاب الكتب السماوية :

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان بهدف إعمار الأرض وخلافتها، وكان لا بد من التكاثر والتناسل تحقيقاً لذلك بالطريقة التي فرضها الله سبحانه وتعالى، فمن الطبيعي أن تنص جميع الشرائع السماوية على الزواج كعلاقات شرعية، وتهتم بالأسرة نتاج هذا الزواج لأجل هذا

(1) أحمد بن عمر بن إبراهيم، أبو العباس الأنصاري القرطبي: فقيه مالكي، من رجال الحديث. يعرف بابن المزين. مولده بقرطبة سنة 578 هـ، كان مدرساً بالإسكندرية وتوفي بها سنة 656 هـ. انظر : الأعلام

للزركلي 186/1

(2) "الجامع لأحكام القرآن/للقرطبي 11/5.

(3) نظام الأسرة في الإسلام/محمد عقلة 7/1

الهدف، وأن تدحض العلاقات غير الشرعية التي ابتدعتها الحضارة الشيطانية المقيتة والتي تلغنها جميع الديانات السماوية.

1- الأسرة في نصوص اليهود:

رغم تحريف كتبهم إلا أننا نجد في الديانة اليهودية العديد من الشرائع التي تنظم حياة الأسرة، فاليهودية تشجع بشدة على الزواج حتى أن التلمود يصف الرجل غير المتزوج بأنه ليس رجل حقيقي، والديانة اليهودية تسمح بتعدد الزوجات⁽¹⁾.

وليس في الدين عندهم حد أقصى لتعدد الزوجات، فضلاً عن ملك اليمين من الجوّاري والإماء، وبين الزوجات الشرعيات يسود مبدأ المساواة فلا تفضيل لإحدها هي وأولادها على الأخريات وأولادهن، والحال على خلاف ذلك بالنسبة للإماء، بعد ذلك صدرت فتوى متأخرة ابتداء من القرن الحادي عشر في الغرب بتحريم التعدد، وبعض اليهود لازالوا يمارسون هذا الحق⁽²⁾.

وتُوكّل اليهودية على الزوج مسؤولية تلبية الحاجات الأساسية والضرورية لزوجته وأبنائه. والطلاق في اليهودية مباح، ويكون بيد الرجل ويمكن للمرأة طلب الطلاق من زوجها، أو في المحاكم الشرعية.

ولا يعتبر الطلاق نافذاً حتى تصدر فيه وثيقة من الحاخام، وبهذه الوثيقة تستطيع المطلقة الزواج، أما إذا لم تحصل عليها فلا يحق لها الزواج، ويعتبر زواجها بغير الوثيقة غير صحيح، وأولادها من ذلك الزواج بغير وثيقة غير شرعيين⁽³⁾ كما أن تشريع اليهود يأمرهم أن تتزوج المرأة من سبطها ولا تتزوج من سبط آخر حتى تستمر الأموال في نفس السبط ولا تنتقل إلى أسباط أخرى بواسطة الميراث⁽⁴⁾.

كذلك تحبذ اليهودية ختان الذكور من المواليد من أبنائهم عند بلوغهم اليوم الثامن من العمر طالما كانت صحة المولود تسمح بذلك.

كما تقوم الأسرة في شريعة اليهود على نظام الأسرة الأبوية حيث يتمتع رب الأسرة بسلطات مطلقة تناقصت بالتدرج مع التطور اللاديني للمجتمع، ولكنها ظلت أقرب إلى السلطة منها إلى الولاية على النفس أو المال، ويتبين من نصوص التوراة أن بني إسرائيل كانوا في العهد القبلي يأخذون بنظام زواج الأقارب وتحريم الزواج من الأجانب عن بني إسرائيل، وفي عهد

(1) الفكر الديني اليهودي ص 193-194.

(2) موسوعة اليهود واليهودية 252/5

(3) اليهود واليهودية والصهيونية/250/5

(4) الكتاب المقدس/العهد القديم/سفر العدد (9-6/36)

القضاة أبيض الزواج المختلط ولكنه ظل مكروها، وبعد الأسر البابلي حدث رد فعل ضد الزواج المختلط فأعيد تحريمه (1).

2- الأسرة في نصوص النصارى:

كذلك الحال في الديانة النصرانية، فقد نصت على الزواج والتناسل الشرعي به، والزواج عند النصارى جائز ما عدا القسس والرهبان اقتداءً في زعمهم بالمسيح عليه السلام الذي لم يتزوج. والذي يستطيع أن يضبط نفسه عن الزنا فالأفضل أن لا يتزوج، ولا يجوز عندهم الزواج بأكثر من واحدة، ولا طلاق عندهم إلا في حالة الزنا (2).

ورغم التحريف المفضوح للإنجيل (العهد الجديد) والتوراة (العهد القديم) والتلمود إلا أن الأسرة الشرعية المنصوص عليها من السماء واضحة المعالم في نصوص الزواج والآباء والأبناء ومن ذلك :

" يرتبط الزوج والزوجة معا ولا يجوز لأي منهما الزواج مرة أخرى، بينما قرينه الزوجي لا يزال على قيد الحياة، فذلك يشكل زنا، لا يتزوج ثانية إلا بعد موت قرينه (3). "

" يجب أن تهذب الفتيات ليكن محبات لأزواجهن وأبنائهن، هذا هو شيء يمكن للمرأة أن تتعلم القيام به، والحب هو مسألة اختيار والتزام، وليس مزاجا عاطفيا في المقام الأول.

" يقول الله أن عمل الأمهات هو داخل المنزل، فإن عليهن إدارة أمور الأسرة، وحب ورعاية أسرهن. هذا العمل مبارك وينبغي الاعتزاز به وتقديره حق قدره (4). "

" يجب تعليم الشابات حب أولادهن، الأطفال هم نعمة من الله، وليسوا عبئا غير مرغوب فيه (5). "

" الأهل الذين لا يردعون أبناءهم سوف يقدمون حسابا للرب عن ذلك (6). وبدلا من اتباع فلسفة المجتمع البعيدة عن الله حول تربية الأطفال، يجب على المسيحيين محاربة هذه المفاهيم

(1) موسوعة اليهود واليهودية 252/5

(2) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية/سعود بن الخلف 345/1

(3) الكتاب المقدس/العهد القديم/نبوءة ملاخي/2 : 14-16.

(4) الكتاب المقدس/العهد القديم/رسالة بولس إلى تيطس، 2 : 4، 5.

(5) الكتاب المقدس/العهد القديم/سفر المزامير، 127 : 3-5، 128 : 1-4.

(6) الكتاب المقدس/العهد القديم/سفر صموئيل الأول، 3 : 13.

بكل الأسلحة التي في حوزتهم، وإن الأسر التي تتبع إرادة الله هي التي سوف تحصل على البركة بحق⁽¹⁾

وهكذا نجد أن شريعة اليهود والنصارى والباقية وغير المحرفة تنص على الزواج الشرعي وتكوين الأسر تربية الأبناء.

الأسرة في الإسلام :

من أجل تحقيق هدف إعمار الأرض الذي أراده الله سبحانه وتعالى كان للأسرة ولأفرادها عناية فائقة في الكتب السماوية، لاسيما خاتمة " القرآن " الذي حفظه الله من التحريف، فكان مفهوم الأسرة في الإسلام أوسع من مفهومها في القوانين الشرعية الأخرى⁽²⁾.

فيقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله⁽³⁾: " كلمة الأسرة في الإسلام، أوسع مدى من الأسرة في القوانين الأخرى، فإن الأسرة في الإسلام تشمل الزوجين، والأولاد الذين هم ثمرة الزواج وفروعهم، كما تشمل الأصول من الآباء، والأمهات، فيدخل في هذا الأجداد، والجذات، وتشمل أيضاً فروع الأبوين؛ وهم الإخوة، والأخوات، وأولادهم، وتشمل أيضاً فروع الأجداد والجذات؛ فيشمل العم، والعمة، وفروعهما، والخال، والخالة، وفروعهما، وهكذا كلمة الأسرة تشمل الزوجين، وتشمل الأقارب جميعاً؛ سواء منهم الأذنون، وغير الأذنين، وهي حيثما سارت أوجدت حقوقاً، وأثبتت واجبات، وتفاوتت مراتب هذه الحقوق، بمقدار قربها من الشخص وبُعدها منه، فالحقوق التي للأقارب الأقربين، أقوى من الحقوق التي لمن أبعد منهم وهكذا " ⁽⁴⁾

سادساً : المفهوم اللاديني للأسرة

تعرفنا سابقاً على المعنى الاصطلاحي للأسرة، وكذلك عرضنا شرعية الأسرة في الأديان السماوية الثلاث، واتفقت هذه الأديان على كيفية تكوين الأسرة، وهو زواج الرجل من المرأة فلا بد من وجودهما مقترنين شرعاً بوثيقة وبشهود، أو بإشهار أمام الناس، ليعرف الناس أن فلاناً زوج فلانة وأن فلانة زوج فلان، ويترتب على ذلك ما للزوجين من حقوق وواجبات اتجاه بعضهما البعض، وباتجاه الأبناء ثمرة هذا الزواج لتتحقق الأهداف التي أرادها الله من الزواج الشرعي،

(1) الكتاب المقدس/العهد القديم/رسالة بولس إلى تيطس، 2: 4

(2) الأعلام/خير الدين الزركلي 25/6 - 26.

(3) الدكتور محمد أبو زهرة : من علماء الشريعة المشهورين، والمتخصصين في العقيدة البارزين، ومن

المؤرخين والأدباء الذين لهم مكانتهم، لأنه أستاذ معاصر، من أشهر كتبه تاريخ المذاهب الإسلامية، تنظيم

الإسلام للمجتمع، وله الكثير من المحاضرات في النصرانية توفي سنة 1394هـ

(4) تنظيم الإسلام للمجتمع/محمد أبو زهرة ص 62.

حيث يتم التناسل والإعمار والخلافة في الأرض، ومع هذا قدمت وثائق الأمم المتحدة مفهوماً غير الذي عليه الأديان جميعها، فهي تتحدث عن اقتران لا يقوم على الزواج وهو ما يشيع في العلاقات المحرمة دينياً بين العشيقة والعشيقة، أو بين رجلين أو امرأتين عند الشواذ، ولم يكتفوا بإباحتها هذه الأشكال من الأسرة بل وضعت الأمم المتحدة لها حقوقاً تحميها، ودعت إلى إزالة كل عقبات وألوان التمييز بين هذه العلاقات والاقترانات الشاذة والمحرمة وبين الأسرة القائمة على الزواج الشرعي، وبناءً على ذلك تَفَجَّرَ الصراعُ حول تعريف الأسرة : هل الأسرة خلية اجتماعية يجب تدعيمها؟ أم هي الخلية الأساسية التي يجب تدعيمها؟

وأكثر من ذلك في إثارة سؤال هل للأسرة أنماط مختلفة؟ لينتهي الأمر أمام إصرار كندا ودول الإتحاد الأوروبي إلى وجود أنماط أخرى من الأسر، إشارة إلى الأسر اللادينية، بل وتظهر في بعض المؤتمرات الدولية للمرأة محاولة الاستغناء عن الأسرة في المصطلحات المستخدمة في الإشارة إلى الطفل الذي وُلد خارج نطاق الزواج والأسرة، فهو لم يعد طفلاً غير شرعي عندهم كما كان في الماضي، فقد تطور ليصبح طفلاً طبيعياً وأخيراً يصبح "love baby" " طفلاً الحب والجنس⁽¹⁾

سابعاً : التيارات المضادة للأسرة المسلمة

الحقيقة التي لا شك فيها أن سر قوة العالم الإسلامي في عصوره الزاهرة والزاهية، وسر مقاومته للفناء في عصور الانحطاط إنما في بقاء الأسرة معتصمة بإسلام وتعاليمه، فكانت سليمة من التحلل والفساد، وهو ما فطن إليه أعداء الإسلام فآخذوا يصوبون سهامهم إلى الأسرة وينسبون إليها سر تأخر المسلمين وضعفهم، كأن القوم يشفقون علينا ويحرصون على تقدمنا ورُقينا، ولا يعملون بكل وسيلة لاحتلال بلادنا واستنزاف خيراتها، واستئصال شأفتنا.

ومع أن الكثير من كبار مفكري الغرب ، وقفوا موقف الإنصاف والتقدير من تعاليم الإسلام وتقاليدته فوضعوا الأمور في نصابها، وأعلنوا لبني قومهم ما في الإسلام من سمو وحكمة، وما في تعاليمه من رعاية إلهية للأسرة وأفرادها وخاصة المرأة، ومع أن الكثير من إحصاءات وتقارير الهيئات الدولية جاءت مؤكدة لعظمة الإسلام ومعلنة أن تقاليدته في الأسرة كانت خير علاج للمشاكل المعقدة التي عجز المجتمع الغربي عن حلها مثل: تفشي الزنا في مختلف الأوساط، واطراد الزيادة في الأولاد غير الشرعيين، حتى بلغت نسبتهم في بعض البلاد الأمريكية 75% من جملة المواليد⁽²⁾.

(1) سيكولوجية العلاقات الأسرية/ص28

(2) الإسلام يتحدى/وحيد خان ص 171

ومع أن النشرة الإحصائية لهيئة الأمم المتحدة في القرن الماضي جاء فيها ما نصه: (إن البلدان الإسلامية محفوظة من هذا الوباء، وباء انتشار الفاحشة وكثرة أبناء الزنا، لأنها تتبع نظام تعدد الزوجات.⁽¹⁾ مع كل ذلك فإن بعض المتأثرين بالمدنية الغربية منا ما زالوا يرددون الأباطيل والمفتريات ضد التقاليد الفاضلة التي تقوم عليها الأسرة المسلمة، حتى لقد طالب البعض منهم بقانون جديد للأسرة يمنع تعدد الزوجات، أو قوانين للمرأة تخرجها من حياتها وشرفها أو يُحرّم الطلاق إلا إذا وقع بإذن القاضي مستندا في طلبه لا إلى نص شرعي أو حكم فقهي أو حجة قوية وإنما كان سنده (حقوق الإنسان) التي أعلنتها الأمم⁽²⁾).

ولا عجب أن يقف أعداء الإسلام موقف المتريص من الأسرة المسلمة فإنها بقيامها على أقوى الدعامات وأسمى القيم كانت الحصن الحصين المنيع الذي في كنفه تربت الأجيال الإسلامية المتتابعة فسطرت في الحياة البشرية أروع صفحات البطولة والفداء وضربت أعلى المثل في الفضائل والمكرّمات.

وبالرغم من تخلف المسلمين في بعض الأقطار عن أصول الأسرة المسلمة، فما زالت الأسرة إلى حد كبير هي الحصن الذي يعلق عليه الآمال لأنها ظلت تحتفظ بالكثير من فضائلها ومقوماتها رغم ما تطرق إليها من عادات الغرب وتقاليده، بعكس الأسرة الغربية فإنها رغم التقدم والمدنية والعمران فقدت الكثير من مقوماتها وكان ذلك أفدح الآثار في زلزلة دعائم المجتمع الغربي بصورة أزعجت ولاية الأمور في مختلف دولهم.

ولقد كان احتفاظ الأسرة المسلمة بكيانها رغم ما وُجّه إلى المسلمين من ضربات وحل بهم من مآسي ونكبات، من أهم الأسباب التي مكنت المجتمع الإسلامي من مقاومة الغزو الأوروبي سياسيا وعسكريا وفكريا رغم احتلال الكثير من أقطار الوطن الإسلامي، ذلك لأن البقية الباقية من التقاليد الكريمة التي لم يتطرق إليها التغيير في الأسرة المسلمة كانت كافية لتذكرة المسلمين بأمجادهم الغابرة وحثهم على الصمود والثبات وإشعارهم بالأخطار التي تهددهم من جراء التقليد الغربي الذي ابتعد بهم عن مصدر قوتهم وسبب عزمهم وظهورهم، كما ولأن القوانين التي تحفظ للأسرة أصالتها تتناسب والفترة السلمية للآدميين كما أرادها رب البرية.

(1) الإسلام يتحدى/وحيد خان 171

(2) أهداف الأسرة في الإسلام 11

الفصل الأول

علاقة المرء بزوجه

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: علاقة الرجل الصالح بزوجه الصالح

المبحث الثاني: علاقة الرجل الصالح بامرأته السيئة

المبحث الثالث: علاقة المرأة الصالحة بزوجها الكافر

المبحث الرابع: الأزواج بين الخطيئة والتوبة

المبحث الخامس: علاقة الرجل السيئ بامرأته السيئة

الفصل الأول

علاقة المرء بزوجه

سبحان الذي خلق الناس من نفس واحدة، خلقها بيده فأبدع خلقها، وسبحان من نفخ فيها من روحه فأشرف روحها، وسبحان من جعل منها زوجها فأكثر نسلها، سبحان ربي القائل في كتابه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنثَىٰ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَقْرَبُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]

نعمةٌ كبيرةٌ هذه النعمة التي أنعمها الله علينا، ألا وهي الزواج فقد ذكرها سبحانه وتعالى في معرض ذكره لنعمه الوفيرة وآياته العديدة على العالمين كما بينا ذلك في التمهيد، ليدرك الأزواج ما من الله عليهم من نعمةٍ كبرى فيذكروه ويتقوه.

والمتأمل في الآية العظيمة من سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21] يدرك ما فيها من إعجازٍ بلاغي يدل على العناية بالأسرة، يتمثل في استخدام حرف الجر "إلى" وليس "مع" ليتناغم المعنى مع الطبيعة البشرية في مسألة الزواج، ففي "أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا" يدل استخدام حرف الجر "إلى" على الدقة المعرفية بطبيعة النفس البشرية، التي قد تخرج عن السكن والاستقرار وهدأة البال إلى غيره، نتيجة خلافٍ يحدث بين الأزواج عادة، لترجع بعدها إلى السكن من جديد، بينما حرف الجر "مع" لا يتفق وهذه الطبيعة.

كما نجد إعجازاً بلاغياً آخر في هذه الآية في أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل بين الأزواج المودة فقط حتى لا يظن ظان أن المودة وحدها سبباً للعشرة الزوجية، بل عطف المولى عز وجل الرحمة على المودة، لأنها من موجبات العشرة والسكن أيضاً، فإن لم تقم الحياة الزوجية على المودة، قامت على الرحمة، وذلك إنما من باب العناية بالأسرة المسلمة المنبثقة عن الزواج الذي يُرغَّب فيه الشرع، ويحثُّ على تيسيره وتسهيل طريقه، وينهى عن كل ما يقف في سبيله أو يعوق تمامه، ويعكّر صفوه، فأمر الله به في آيات عدة منها قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾

وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْزِمُهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:

[32]

وكذلك في السنة، فعن النبي ﷺ قال: "يا معشر الشباب، من استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوّج" (1) والأسرة المسلمة أساس المجتمع الذي يقوى ويشتدّ بقدر تماسك وترايط أسرهِ، ولذلك شبّه النبيّ المسلمين بالبُنَيانِ المرصوص الذي يشدُّ بعضه بعضاً (2)، فأمر بتزويج الأكَفَاءِ، ونهى عن عَضْلِ النساءِ (3)، وتبيّن في الكتابِ والسنة الحقوقَ والواجباتِ للأزواج، لأنَّ استقرار البيوتِ وصلاَحَ الأسر لا يكون إلاّ باستقرارِ الزوجين، ففي ذلك استقرار للمجتمع، أمّا خراب البيوتِ فهو خرابٌ للمجتمع، لذا قال النبيّ ﷺ: "إنَّ إبليسَ يضعُ عرشه على الماء، فيبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً. يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتُ شيئاً، ثمَّ يجيء أحدهم فيقول: ما تركتهُ حتى فرقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت" (4)

وجند إبليس من الإنس أيضاً حرصوا على هدم هذا الكيان لتفكيك أواصر المجتمع وروابطه حين أبعَدونا عن كتاب الله وسنة نبيه، فانتشرت معدّلات الطلاق بشكلٍ مخيف، وارتفعت نسبة العنوسة بشكلٍ أسوأ، ولا شكَّ أنّ في هذا خطراً كبيراً، لأن فيه تفرّق المجتمع وضياع الأولادِ وعنوسة النساءِ وانتشار الفساد ونبات الضغينة بين الأسر.

فبالرجوع إلى ما أنزله الله سبحانه وتعالى، واتباع هدي النبي المصطفى ﷺ سنصل بأسرنا إلى بر الأمان ونعمّر الأرض ونستخلفها كما أراد الله ﷻ، فان كانت المعطيات سليمة، حتماً كانت النتائج سليمة بإذن الله تعالى، وسننال الفلاح بالدارين.

ولقد أورد لنا القرآن العظيم نماذج شتى للعلاقات الزوجية، ما بين علاقات طيبة، وأخرى غير ذلك وعلاقات حملت الخطيئة ثم رجعت تائبة إلى الله ﷻ، وما بين علاقات آثمة أصرت على المعصية، وما كانت هذه النماذج إلاّ عظات وعبر يوردها كتاب الله ﷻ لعلنا نأخذ منها رشادنا ونهتدي إلى صراط مستقيم.

وفي هذا الفصل عرضت ما أورده الله ﷻ في كتابه العزيز من علاقات زوجية على النحو الآتي:

- (1) صحيح البخاري/كتاب النكاح/باب مَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الباءَةَ فَلْيَصُمْ 3/7 ح 5066.
- (2) صحيح البخاري/كتاب الأدب/باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً/103/1 ح 459،226،5567، ولفظه «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ».
- (3) من قوله تعالى {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ} البقرة 232 وعضل النساء: أن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فتتقضي عدتها ثم يبدو له في تزويجها وأن يراجعها، وتريد المرأة فيمنعها أولياؤها من ذلك، فهي الله سبحانه أن يمنعوها.
- (4) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور/حكمت بن بشير بن ياسين/394/1.
- (4) صحيح مسلم/باب تحريش الشيطان 2167/4 ح 2813.

المبحث الأول

علاقة الرجل الصالح بزوجه الصالح

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول: علاقة إبراهيم عليه السلام بسارة.

المطلب الثاني: علاقة إبراهيم عليه السلام بهاجر.

المطلب الثالث: علاقة زكريا عليه السلام بزوجه.

المطلب الرابع: علاقة أيوب عليه السلام بزوجه.

المطلب الخامس: علاقة موسى عليه السلام بزوجه.

المطلب الأول

علاقة إبراهيم عليه السلام بزوجه سارة

إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، وأبو الأنبياء، وهو من أولي العزم من الرسل، وهو عليه السلام أمة لوحده، نقرن اسمه دائماً مع اسم نبيينا وحبیبنا محمد صلى الله عليه وسلم في صلاتنا التي هي عمود ديننا وأول ما نحاسب عليه، وقد أفرد القرآن لهذا الرسول الكريم حيزاً عظيماً من القرآن، فأبراهيم عليه السلام مذكور في القرآن الكريم في أمكنة وأزمنة مختلفة ومتباعدة، وقد ذكره في بعض الأمور مع أهل بيته، أبيه وزوجتيه وبنيه، وسنسلط الضوء على علاقته بزوجتيه ابتداءً بسارة من خلال النقاط الآتية :

1- سارة تسلم لله مع إبراهيم عليه السلام وتهاجر معه فرارا بدينها :

سارة هي زوج إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي سارة بنت هاران بن ناحور، بنت عم إبراهيم الخليل عليه السلام (1) وقد كانت أجمل نساء العالمين على الأرض، فقد كان حسن سارة كحسن حواء (2)، وقد آمنت مع إبراهيم عليه السلام في الفترة التي قضاها في العراق، وآمن أيضاً له ابن أخيه لوط عليه السلام وسط جحافل الكفر والإلحاد.

وبعد محاولة حرق إبراهيم عليه السلام، وحدث المعجزة الإلهية بنجاته من النار، لم تؤثر هذه المعجزة العظيمة في قوم إبراهيم عليه السلام، فقد كانت قلوبهم قد طُمست وعقولهم قد عُطّلت، فعندما عزم إبراهيم عليه السلام على الهجرة فرارا بدينه ومعتقداته، وقرر ترك الأهل والعشيرة في الله وفي سبيل دعوته، لأنه لم يعد يربطه بهم أية رابطة، فالعداوة والبغضاء قد ملأت القلوب، وقد يجد عليه السلام عند غيرهم من تقبل دعوة الله سبحانه وتعالى ما لا يجده عندهم.

فكانت أول هجرة على الأرض هجرة إبراهيم الخليل وزوجه سارة، هذه الزوجة الصالحة التي اختارت الهجرة مع زوجها الداعي لله والبعد عن الأهل والعشيرة، هاجرت معه إلى مكان مجهول لا تعرفه، رغم شعورها بخطر المطاردة من أعداء الله لهما ولكن هذا دأب الزوجة الصالحة، تتبع زوجها أينما حل أو ارتحل، تكن له أنيساً وونيساً فكيف وهو خليل الرحمن عليه السلام.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الهجرة فيقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ۖ

إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: 26] وفي أية أخرى يبين سبب هجرته فيحكي القرآن على

(1) تفسير القرطبي/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي 70/9

(2) الدر المنثور بالتفسير بالمأثور/ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي 445/2

لسان إبراهيم عليه السلام ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: 99] والمقصود إلى موضع أمرني ربي بالذهاب إليه، فيه مرضاته بامتثال أمره بالهجرة لأتجرّد فيه إلى عبادته، وإنه سيرشدني إلى ما فيه صلاح ديني.

وقال القرطبي في هذه الآية: " إن فيها أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار، فقال: إني مهاجرٌ من بلد قومي ومولدي، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي فإنه سيهديني فيما نويته إلى الصواب (1)".

وقد كان معه في هجرته لوط عليه السلام فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَبَجَيْنَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71] ففي هذه الآية الكريمة صفة للأرض التي هاجر إليها إبراهيم ولوط عليهما السلام، وكانت هجرتهما من أرض العراق إلى الشام فراراً بدينهما.

قال ابن إسحاق (2): خرج إبراهيم من كوثي من أرض العراق، وخرج معه لوط وسارة، فنزل حران، ثم خرج منها إلى مصر، ثم خرج منها إلى الشام، فنزل السبع من أرض فلسطين بزوجه سارة، بنت عمه هاران الأكبر، ونزل لوط عليه السلام بالموثفة، وبينهما مسيرة يوم وليلة، وكلاهما من الشام. (3)

وقد كانت هجرة ثلاثتهم فراراً إلى ربهم وبدينهم من الكفار، والأمر بالهجرة إلى إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين وهي أرض الشام كما أسلفنا، والبركات من الله لهذه الأرض تتمثل في: أنّ الله أكثر الأنبياء الذين بُعثوا فيها، فانتشرت في العالمين شرائعهم من هذه الأرض، التي هي مبادئ الخيرات الدينية والدنيوية، وفيها ينزل عيسى عليه السلام آخر الزمان وهي أرض المحشر والمنشر، وفيها يُجمع الناس (4).

(1) تفسير القرطبي/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي 70/9

(2) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني: من أقدم مؤرخي العرب، من أهل المدينة، له كتاب السيرة النبوية المشهور التي هذبها ابن هشام، وكان قديراً، ومن حفاظ الحديث. زار الإسكندرية سنة 119هـ وسكن بغداد فمات فيها سنة 151هـ، ودفن بمقبرة الخيزران أم الرشيد. انظر: الأعلام للزركلي 28/6.

(3) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد/أبو العباس أحمد بن محمد 477/3 بتصرف.

(4) تفسير يحيى ابن سلام/يحيى ابن سلام 321/1 بتصرف.

وقيل إن إبراهيم عليه السلام حين هاجر دعا ربه قائلاً { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ }، أي ارزقني من الصالحين ليؤنسوني في غربتي، و دعا الله يريد أولاداً مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم (1).

2- كرامة من الله للأزواج الصالحين ورد الكافر الفاجر عنهما :

حين هاجر إبراهيم عليه السلام مع زوجته سارة وابن أخيه لوط إلى الشام ؛ أتوا حران، فنزلوها، فأصاب أهل حران جوع، فارتحل عليه السلام بسارة يريد مصر إلى بعلبك وصاحبها يومئذ فرعون وقد كانت السيدة سارة أجمل نساء العالمين على الأرض، فقد كان حسن سارة كحسن حواء (2)، وإن جمال يوسف عليه السلام الذي شطر الجمال آتاه من قبل جده إسحاق من أمه سارة، وقد ورثت سارة حسنهما من حواء امرأة آدم عليه السلام، وحسن حواء من آدم لأنها خلقت منه وقد خلقه الله بيده (3).
وقيل : كانت سارة من أحسن النساء وجهاً وكانت لا تعصي إبراهيم شيئاً، فلما وصفت لفرعون مصر، أرسل فرعون إلى إبراهيم فقال: من هذه التي معك ؟ قال: أختي يعني في الإسلام وتخوف إن قال هي امرأتي أن يقتله، فقال له زينها وأرسلها إلي ."

حين خرج إبراهيم الخليل من عند الجبار دخل على سارة، فقال لها: " إِنَّ الْجَبَّارَ سَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتَهُ أَنَّكَ أُخْتِي، وَأَنْتِ أُخْتِي فِي اللَّهِ، فَإِنْ سَأَلَكَ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكَ أُخْتِي " .

يقول عبد الرزاق في تفسيره : أقبلت سارة إلى الجبار، بينما قام إبراهيم يصلي مستعيناً بالله؛ فلما دخلت على الفرعون دعت الله أن يكفهنها، فضبثت (4) بيده، فأخذ أخذة شديدة فعاهدها لنخلٍ عنه لا يقربها، فدعت الله فخلّي عنه، ثم همّ الثانية فأخذ أخذة أشد من الأولى فعاهدها أيضاً لنخلٍ عنه لا يقربها، فدعت الله فخلّي عنه، ثم همّ بها الثالثة فأخذ أخذة هي أشد من الأولىين فعاهدها أيضاً لنخلٍ عنه لا يقربها فدعت الله فخلّي عنه، فقال للذي أدخلها عليه: أخرجها عني فإنك إنما أدخلت علي شيطانا، ولم تدخل علي إنساناً، وأخدمها هاجر، فرجعت إلى إبراهيم وهو يصلي ويدعو الله، فقالت: أبشّر فقد كفّ الله يد الفاجر الكافر واخدمني هاجر. (5)

(1) صفوة التفسير/محمد علي الصابوني 23/2س6 بتصريف

(2) الدر المنثور بالتفسير بالمأثور/عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي 445/2

(3) تفسير مقاتل/أبو الحسن مقاتل بن سليمان 381/2، تفسير الطبري/محمد ابن جرير الطبري 81/16

(4) ضبثت بالشئ ضبثاً، واضطبثت به، إذا قبضت عليه بكفك. وناقاة ضبوت: يشك في سمنها فنضبثت: أي تجس باليد. ومضابث الأسد: مخالفه. وفي الحديث: " الخطايا بين أضبائهم "، أي في قبضاتهم.

الصاحح تاج اللغة وصحاح العربية/أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري 285/1

(5) تفسير عبد الرزاق/أبو بكر عبد الرزاق بن همام الحميري 401/2.

وفي بعض الأخبار أن الله تعالى رفع الحجاب بين إبراهيم وبين سارة حتى ينظر إليها من وقت خروجها من عنده إلى وقت انصرافها كرامةً لها وتطيباً لقلب إبراهيم عليه السلام (1)

وقد ادعى إبراهيم عليه السلام أن زوجته أخته حتى لا يقتله فرعون، واعتُبرت تلك الكذبة الثالثة لإبراهيم عليه السلام، فقد جاء في صحيح مسلم: (ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلهن في ذات الله) وفي رواية: (أن اثنتين منهن في ذات الله) (2)

أما كذبات إبراهيم هي: ﴿ **فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ [الصفافات: 89] كذب في ذات الله ليتركوه فيخلو بأصنامهم ويحطمها، والثانية قوله: ﴿ **قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَعَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ** ﴾ [الأنبياء: 63] يقصد الأصنام، والثالثة قوله في زوجته: هي أختي ويقصد بذلك أخوة الدين، هذه ثلاث كذبات في ذات الله، والمقصود بذات الله: سبيل الله لأنه عليه السلام إنما قصد بذلك إعلاء كلمة الله.

و قال الإمام البيهقي: " من هنا أجاز العلماء الكذب في العمل لنصرة دين الله، وإذا خيف على العمل له فيكون الصدق فيه محرماً والكذب واجباً؛ لأن الصدق يؤدي فيه إلى ضرر، وما حُرِّم الكذب إلا من أجل الضرر الذي يؤدي إليه، وما أوجب الصدق إلا من أجل النفع الذي يحصل به، فإذا ترتب على الصدق ضرر وعلى الكذب نفع انعكس الأمر وانتفض الحكم " (3).

أما المتصيدون لرسول الله وأنبيائه فيقولون في ذلك: إنها أقوال -أي الكذبات الثلاث- منافية لعصمة الأنبياء، لكن ما يضير قول هؤلاء المتصيدين إن كان صاحب الأمر والحكم وهو الله قد شهد له بالصلاح في الدنيا والآخرة.

ثم إن المتأمل في هذه الأقوال يجدها من قبيل المعاريض التي قال عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب) (4) فقله عن سارة: إنها أختي، هي فعلاً أخته في الإيمان، وربما لو قال زوجتي لقتله الملك ليتزوجها هو.

أما قوله { **إِنِّي سَقِيمٌ** } فهو اعتذار عن مشهد كافر لا ينبغي للمؤمن حضوره، كما أن السقم يكون للبدن، ويكون للقلب، فيحتمل أن يكون قصده سقيم القلب لما يراه من كفر القوم.

(1) الأئمة الجليل بتاريخ القدس والجليل/عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي 409/1.

(2) صحيح مسلم/كتاب الفضائل/باب من فضائل إبراهيم الخليل ح/2371، 1840/4.

(3) سلسلة الأسماء والصفات للبيهقي 4/4.

(4) المصنف في الأحاديث والآثار /ابن أبي شيبة /282/5/وقال عنه الألباني صحيح موقوف ..

وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أراد به إظهار الحجة وإقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام، فأراد أن يُنطقهم هم بما يريد أن يقوله؛ ليقرهم بأنها أصنام لا تضر ولا تنفع ولا تتحرك (1)

3- الكرم شيمَةُ الأزواج الأخيار الصالحين

الكرم صفة عربية أصيلة أفرد لها المولى عز وجل في القرآن موقعا فريدا حكاية عن شيخ الأنبياء وأبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام قصة تنزل على أكرم الخلق والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمة الإسلام، فقد ساقها الله في هذا الموضع من القرآن على وجه من المدح والثناء على إبراهيم الخليل، وفيها بيان لمشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمداً وأُمَّته أن يتبعوا ملته فقد كان إبراهيم عليه السلام من أكرم الناس، فإذا قدموا له الطعام قال لخدمه ومواليه: من أتى منكم بضيفٍ فهو حرٌّ لوجه الله، فكيف سيكون حرص المولى أن يأتي بضيف ليتحرر؟!

وأول من أكرم الضيف إبراهيم عليه السلام فيقول ابن حجر (2) عن إبراهيم الخليل: " ماله للضيفان ، وجسده للنيران وولده للقربان، فاستحق أن يُكسى عند الواحد الديان." (3).

وقد ذكر الله عز وجل كرم إبراهيم عليه السلام مشيراً إلى زوجه سارة أيضاً فقال: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ

حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى

أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ [الذاريات: 24-26] فهذه الآية تحكي قصة الملائكة الذين حلوا ضيوفاً عند إبراهيم عليه السلام، وكعادته مع الأضياف أسرع ومعه زوجه سارة ليقدموا واجب الضيافة.

وتصور لنا الآية الكريمة بألفاظها الدقيقة موقف خليل الرحمن في كرمه الذي خلده الله في قرانه وكانت زوجه سارة نعم الزوجة الصالحة المعينة لزوجها في كرمه.

فراغ من الكرم السريع وأخذ عجلاً، والعجل هو ولد البقرة، ولم يأخذ عجلاً نحيفاً بل اختار الأجود السمين فذبحه، حيث كان عامَّةً مَالِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام البقر. (4) ويبدو من وصف العجل الذي ذبحه للأضياف، بوضوح كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال.

(1) انظر : تفسير الشعراوي/محمد متولي الشعراوي 11139/18

(2) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حَجَر: ولد سنة 773 هـ من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان بفلسطين . ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، وأصبح حافظ الإسلام في عصره وولي قضاء مصر مرات ، ثم اعتزل وتوفي بالقاهرة سنة 852هـ/انظر الأعلام للزركلي 178/1

(3) التعليق على العدة شرح العمدة/عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي 13/69

(4) انظر: مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل/البغوي 431/4 بتصرف

وكان منذ سبعة أيام لم يُطعم شيئاً ينتظر ضيفاً، فلما أرسل الله تعالى ملائكته إليه على صورة بشر، استبشر بهم وخدمهم بنفسه ولم يطعم معهم، وهي علامة الخلة المؤكدة أن يُطعم ولا يُطعم، ويشفي الغير من ألم ويُسقم.⁽¹⁾

ومفهوم من قوله تعالى ﴿فَرَأَى إِلَهَ أَهْلِيهِ﴾ أن المقصود زوجه سارة التي كانت تعينه على إكرام الضيف، وتقوم على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة العرب، فكيف وزوجها ﷺ كريماً مضيافاً، وهو محط للضيوف، فقد قدم لأضيافه وبسرعة طعاماً من أخصر الأطعمة وأجودها وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: 69] دلالة على سرعة إكرام الضيف وجودة الضيافة، والعجل قُدْم حنيز، والحنيز هو المشوي على الحجارة في خَد من الأرض، وكان سميئاً يسيل دسماً، وهذا طعام معمول بطريقة مشهية تدل على الكرم وحب الضيافة، ثم أتاهم به وقربه إليهم⁽²⁾ وجلس معهم، وقامت سارة تخدمهم. وذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ وَهُوَ جَالِسٌ﴾ في قراءة ابن مسعود.

ومما يدل على كرم إبراهيم ﷺ وزوجه أن ما قدمه للأضياف طعاماً وفيراً يكفي عشرات، مع أنه ينكرهم ولا يعرفهم⁽³⁾، ومع أنهم كانوا ثلاثة فيما يقالتكفيهم كتف من هذا العجل السمين!⁽⁴⁾

ثم قال لهم: إن لهذا ثمناً! قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره. فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذ ربه خليلاً!
فلما رأى أيديهم لا تصل إليه فزع منهم وأوجس منهم خيفة، ومع ذلك كان حسن ملاحظته ﷺ للضيوفه واضحاً في كلامه اللين معهم خصوصاً عند تقديم الطعام إليهم، لتعلم دروساً في إكرام الضيوف، فإن إبراهيم ﷺ عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: "كلوا" ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: "ألا تأكلون" أو: "ألا تتفضلون علينا وتشرفونا وتحسنون إلينا" ونحوه.⁽⁵⁾

(1) انظر: تفسير التستري/سهل بن عبد الله التستري/1/154

(2) انظر: إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد/صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان 72/2

(3) انظر: الحاوي في تفسير القرآن/محمد الحاوي 7/2 بتصرف

(4) انظر: في ظلال القرآن/الشهيد سيد قطب 6/3382 بتصرف

(5) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي 810/1 بتصرف

وكذلك سارة لما نظرت إليهم ورأت حالهم، وكيف أن زوجها ﷺ قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ومع ذلك لا يأكلون ؟ قالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء، إنا نخدمهم بأنفسنا تكريماً لهم، وهم لا يأكلون طعامنا! (1)

ومن باب إكرام الضيف أن تقرب له الطعام حيث يجلس كما قال تعالى عن فعل إبراهيم: (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)، لأن في هذا اليسر عليهم والسهولة وأن لا نستخدم الضيف في خدمة الطعام لأن في ذلك إهانة له، فليس من أدب الضيافة أن تستخدم الضيف في الخدمة (2).

وفي الآية الكريمة السابقة سمى المولى عز وجل أضياف إبراهيم ﷺ مكرمين لأن إبراهيم الخليل خدمهم بنفسه، فقد أكرمهم ﷺ قولاً وفعلاً، كما أنهم مكرمون أيضاً عند الله تعالى لأنهم سلكوا طريق الأدب في ابتداء السلام على إبراهيم ﷺ، فرد عليهم ﷺ سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، فقال لهم (سلام قوم منكرون) فرد عليهم بجملة اسمية فدلّت على الثبوت والاستمرار، كما كان اللطف منه ﷺ في الكلام معهم حيث قال لهم: {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} ولم يقل: " أنكرتكم " وبين اللفظين من الفرق، ما لا يخفى من أدب الكلام مع الأضياف. (3)

لكن العهد القديم ساق القصة على نحو آخر قبيح ، ينم على أنهم لا سقدرون الله حق قدره ، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، ويكفي ما امتلأ القرآن به من آيات التسبيح والتحميد (4).

4- سارة تغضب لغضب الله وتستبشر بهلاك قوم لوط المجرمين :

المرأة الصالحة التي اتبعت الدين الحنيف مع زوجها، وهاجرت إلى الله في أرض الله الواسعة إلى ربوع الشام، إلى فلسطين حيث أمر الله خليله، كان بالتأكيد لا بد أن تغضب للتجرؤ على محارم الله.

فقد نزل لوط ﷺ في قرى المؤتفة على ضفاف البحر الميت الشرقية، وقد سمي هذا البحر باسمه ﷺ بحر لوط، وكان قريباً من مكان إبراهيم ﷺ وزوجه سارة كان بينهما سفر يوم

(1) تفسير الطبري جامع البيان/محمد بن جرير الطبري 190/15 بتصرف

(2) التعليق على العدة شرح العمدة/عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي 13/69 بتصرف

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي 810/1 بتصرف

(4) نحو تفسر موضوعي/410/1 بتصرف

وليلة، وذلك بعد هجرتهم من كوئي⁽¹⁾ من بلدة «فدان آرام» بالعراق، فرارا من الشرك والوثنية، والتماسا لمقر التوحيد وعبادة الله، فنزل إبراهيم عليه السلام حرّان، ثم رحل إلى مصر، ثم رجع إلى الشام، فنزل بفلسطين، وأقام لوط في قرى المؤتفكة⁽²⁾ التي تبعد عن فلسطين مسيرة يوم وليلة.⁽³⁾

لم يكن إبراهيم الخليل وزوجه سارة بعيدين عن مسرح الكفر والجريمة في قوم لوط، فكل مسلم أسلم الله وانقاد لشرعه لا بد أن يحرق فؤاده انتهاك حرّامات الله مع وجود الرسل بينهم، ورفض سبل الهداية والنجاة، وخاصة إذا ابتدع القوم أشكالا من الرذيلة التي تُخرج الإنسان عن فطرته الآدمية إلى غريزة البهائم، بل من البهائم أرقى في طبيعته مما كان يفعله قوم لوط عليه السلام، حيث وصلوا إلى القاع الأسفل من الانتكاس والشذوذ وعدم الحياء. فكانوا لعنهم الله لا يأتون لارتكاب المنكر فردا أو أفرادا، وإنما يأتون جميعاً في فرح وسرور، في الجهر والعلانية، لا في السر والخفاء وهكذا النفوس عندما ترتكس وتنتكس، تصل في مجاهرتها بإتيان الفواحش معلنة عن الخروج عن آدميتها، فقد كانت هذه الأخبار يعرفها خليل الله وزوجه سارة فيغضبا، ويتمعر وجههما لانتهاك محارم الله.

صور القرآن هذا الموقف لسارة حين جاء المرسلون إلى إبراهيم عليه السلام كأضياف، ثم أخبروه أنهم رسل ربهم لإنزال العذاب بقوم لوط الكافرين، وكانت سارة تسمع ذلك فضحكت واستبشرت بهلاك القوم المجرمين فيقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ

وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:71]

وامراته هنا السيدة سارة⁽⁴⁾ والمراد بالضحك هنا حقيقته أي: فضحكت سروراً وابتهاجاً بسبب زوال الخوف عن إبراهيم، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، أو بهما معاً وقال الشوكاني⁽⁵⁾: والضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب والسرور

(1) كوئي. بالضم ثم سكون والثاء مثلثة، وألف مقصور تكتب بالياء؛ وهي بالعراق معلومة. وهي المدينة التي

ولد فيها إبراهيم عليه السلام بابل/معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع 1138/4

(2) كان بقرب سلمية الشام مدينة تدعى المؤتفكة انقلبت بأهلي/معجم البلدان / شهاب الدين الحموي 219/5..

(3) التفسير المنير/للزحيلي 88/17 .

(4) جامع الأحكام/القرطبي 70/9.

(5) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولد

بهجرة شوكان (من بلاد خولان، باليمن) سنة 1173 هـ ونشأ بصنعاء. وولي قضاءها سنة 1229 ومات

حاكما بهاسنة 1250 هـ. وكان يرى تحريم التقليد. له 114 مؤلفا، منها (نيل الأوطار من أسرار منتقى

الأخبار انظر: الأعلام للزركلي 29/6

كما قاله الجمهور⁽¹⁾. وهذا استيشارا بهلاك القوم المجرمين.

وقال ابن إسحاق: ﴿فَضَحِكْتَ﴾، يعني: سارة، لما عرفت من أمر الله جل ثناؤه، ولما تعلم من قوم لوط، فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، بابن وبابن ابن، فقالت ﴿يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

استحق بيت إبراهيم ﷺ أن يحفه الله بالرحمة المذكورة وذلك في قوله عز وجل ﴿رَحِمْتَ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ ، أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممدّد في صفاته وذاته⁽²⁾.

5- خطاب الملائكة المشترك لإبراهيم ﷺ وسارة والبشرى بإسحاق ويعقوب

لقد بينا سابقاً كيف كان كرم إبراهيم لأضيافه ولكنهم لم يأكلوا فأوجس منهم خيفة إبراهيم كذلك زوجه سارة، فعند العرب إذا لم يأكل الضيف طعام المضيف ففي ذلك نذير شر لا خير، وحرب لا سلم، يفتن إليه المضيف⁽³⁾، وهذا ما صوره القرآن الكريم من ردة فعل إبراهيم الخليل عند امتناع أضيافه عن الطعام فقال ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ، ومع خوفه لم يخرج عن أدب الحوار معهم بل التلطف الشديد في قوله لهم ﴿أَلْ تَأْكُلُونَ﴾ وسرعان ما خاطبوه أنهم رسل ربهم إلى قوم لوط المجرمين، وكانت سارة تسمعهم فاستبشرت بإنزال العذاب على قوم لوط الذين كانوا يفعلون الفاحشة ما سبقهم إليها أحد من العالمين فعندها بشروها بسلام عليم.

رغم أن تلك البشرى خارجة عن طبيعة البشر فسارة زوج إبراهيم ﷺ مسنة علاوة على أنها عاقر، ولكن الوقائع قديماً وحديثاً تبين وقوع معجزات الله لأنبيائه ومن اتبعهم من الأولياء الصالحين، وهذا إنما يدل على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته، وكما أن الله سنناً وأسباباً تقتضي مسبباتها الموضوعه لها شرعاً وقدرًا، فإن الله أيضاً سنناً أخرى لا يقع عليها علم البشر، ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم، كمعجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، بل وأيام الله وعقوباته في أعدائه الخارقة للعادة، كلها تدل دلالة واضحة أن الأمر كله لله، والتقدير والتدبير كله لله، وأن الله سنناً لا يعلمها بشر ولا ملك وما هبة الله سبحانه وتعالى الولد لإبراهيم على كبره ومن سارة العجوز العقيم إلا دليلاً بيناً على قدرته سبحانه وتعالى.

(1) التفسير الوسيط للطنطاوي/محمد طنطاوي 240/7 ،

(2) توفيق الرحمن في دروس القرآن/فيصل بن عبد العزيز الحريمي النجدي 248/2

(3) صفة التفسير/محمد علي الصابوني 21/2

فيقول المولى عز وجل في معرض القصة على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: 39]

فقد كان إبراهيم عليه السلام قد دعا الله بعدما هاجر إليه أن يرزقه الذرية الصالحة فاستجاب الله له علي الكبر فوهب له إسماعيل عليه السلام من هاجر، كما سيأتي تفصيله في محله إن شاء الله ثم إسحاق عليه السلام بعده بسنين.

وعند البشارة بإسحاق عليه السلام كان إبراهيم الخليل كبير السن، وشيخ هرم حتى قيل: إن سنه فوق المائة (1)، وقد كانت البشرية بإسحاق في اللقاء بالملائكة الذين نزلوا بإبراهيم على صورة أضياف رجال، وقد كان اللقاء بهم لقاء وعد ووعد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبُّشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿١١﴾ فَأَمَّا رَأْسُ أَيُّدِيهِمْ لَا تَمَسُّ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 69-71]

كان ضيوف إبراهيم عليه السلام الملائكة الذين جاءوا يبشرونه بهلاك المدينة التي كانت تفعل المنكر، وأن الله سيدمر القرى النجسة التي لم تستجب لنبيها لوط عليه السلام ولم ينصلح حالها، فأرسلهم الله ليستأصلوا شأفتهم ويبيدوهم على ظلمهم، ويبشرون إبراهيم عليه السلام بسلام غلام عليهم.

وقد عني القرآن في هذا المشهد من إبراز طبيعة المرأة وتسليط الضوء على ردة فعلها القولية والحركية في مثل هذه المواقف، فسارة عندما سمعت البشرية بإسحاق كانت ردة فعلها كالاتي بإخبار القرآن الكريم فيقول الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: 29]

السيدة سارة كانت قائمة في المكان على خدمة الأضياف فأقبلت حين سمعت البشرية بإسحاق والإقبال هو الانتقال من مكان إلى مكان، وكان انتقالها هذا مصحوباً بصيحة وضجة، وهذا ما بينه لفظ ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ وقيل الصرة: الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، فقد يكون أن هناك جماعة من الناس عند سارة يستمعون كلام الملائكة (2) فحدثت هذه الضجة والله أعلم.

ثم صَكَّتْ وَجْهَهَا والصك: ضرب الشيء بالشيء العريض يقال: صكه أي ضربه شديداً بعريض، وفي بعض التفاسير أنها لطمت وجهها من الحياء لأنها وجدت حرارة دم الحيض،

(1) زهرة التفاسير/محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة 4042/8

(2) فتح القدير/لمحمد بن علي الشوكاني 104/5 بتصرف

وقيل ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب وهي عادة النساء إذا أنكرن شيئاً، وأنكرت أن تلد عجوز عقيم، وقد بلغت سن الإياس، واستبعدت ذلك⁽¹⁾.

ثم قالت عن نفسها: "عجوز عقيم" وبذلك تكون قد ذكرت سببين لهول مفاجئة البشرى بالغلام، والسببين خاصين بها، وهما العجز والعقم⁽²⁾، فهي عجوز، وقد سُميت العجوز عجوزاً لعجزها عن كثير من الأمور ومن هذه الأمور الإنجاب، لأن مثلها لا يلد، بل الغالب أن ينقطع حيض المرأة في سن الخمسين فيبطل استعدادها للحمل والولادة⁽³⁾، والسبب الآخر العقم، فقد كانت في الشباب عقيمة، وأصل العقم: اليبس المانع من قبول الأثر يقال: عَقَمْتُ مفاصله، وداء عَقَامٌ: لا يقبل البرء ولا يُرَجى الشفاء، والعَقِيمُ من النساء: التي لا تقبل ماء الفحل. يقال: عَقَمَتِ المرأة والرَّحِمَ.

فلذلك أخذتها المفاجأة العنيفة التي لم تكن تتوقعها أبداً، ونسيت السيدة سارة أن البشرى تحملها الملائكة! الذين هم رسل رب العالمين، رسل الذي يقول للشيء كن فيكون.

ما كان للمرسلين في ظل الدهشة الشديدة لسارة إلا أن يَرُدُّوها إلى الحقيقة التي غابت عنها، حقيقة القدرة التي لا يقيدتها شيء، والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم، إنها القدرة الإلهية، فقالوا لها مخاطبينها كما بين ذلك القرآن الكريم: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:30] وإذا قال اللهم ماذا بعد قوله؟ إنه صاحب الكون والمتصرف فيه كيف يشاء.

إن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري، وتحدان من تصوراته. فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له ويعجب كيف يكون، وقد يتبجح فينكر أن يكون! والمشينة المطلقة ماضية في طريقها لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود، فتبدع بما تشاء، بغير حدود أو قيود! (4)

وتعجب السيدة سارة إنما هو استبعاداً بحكم العادة لا تشكيكاً في قدرة الله سبحانه وتعالى، لذلك قالوا لها ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ وكانت سارة لم تلد قبل ذلك في سنين إخصابها، وكان بين البشارة والولادة سنة، فولدت سارة إسحاق وهي بنت سبع وتسعين، وإبراهيم ابن مائة سنة. (5)

(1) تفسير الثعلبي/أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي 118/9 بتصرف

(2) العقم: بالضم هزيمة تقع في الرحم فلا تقبل الولد أو من سد في رحمها، ويقال: رجلٌ عاقر أيضاً لمن لا يولد له. ومنها ریح عَقِيمٌ: يصح أن يكون بمعنى الفاعل، وهي التي لا تلقح سحاباً ولا شجراً، ويصح أن يكون بمعنى المفعول كالعجوز العقيم وهي التي لا تقبل أثر الخير، وإذا لم تقبل ولم تتأثر لم تعط ولم تؤثر، ويوم عَقِيمٌ: أي لا فرح فيه. / المفردات في غريب القرآن/الراغب الأصفهاني 579/1

(3) تفسر المراغي/أحمد بن مصطفى المراغي 60/12

(4) انظر: في ظلال القرآن/للشهيد السيد قطب 6/3382

(5) تفسير الثعلبي/أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي 118/9 بتصرف

وبذلك مَنْ الله سبحانه وتعالى على هذين الزوجين الصالحين بهبة عظيمة، خرجت عن الطبيعة المعتادة لتكون معجزة استحقتها أهل البيت، إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة فقد خاطبوا قائلين كما بين ذلك القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ

أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [هود:73]

فلا عجب أن تتغير النواميس بمشيئة الله من أجل الصالحين فرحمة الله الواسعة وبركاته الكثيرة عليكم يا معشر بيت النبوة، وأهل بيت إبراهيم الخليل تتصل وتتابع إلى يوم القيامة، وهذا يدعو بلا شك إلى عدم العجب أنه جل جلاله حميد يستحق غايات المجد والثناء، مجد في الأرض وفي السماء (1) وأنه تعالى محمود ممدد في صفاته وذاته، مستحق للحمد والتمجيد من عباده، وهو تليل بديع لما سبق من البشارة. (2)

لقد بين القرآن الكريم في عدة مواضع مختلفة أسباب استعجاب سارة من الإنجاب حين بشرها الملائكة بذلك فإذا أردت أن تفسر القرآن فاجمع الآيات كاملة، ولا تأخذ القرآن مجزأ، لأنه كله كلام الله، فليس بعضه بأولى من بعض، فسارة ذكرت سببين لمنع الحمل، كما أوردنا سابقاً: وهما أنها عجوز وعقيم فهذان سببان، وبقي سبب ثالث ذكره الله عز وجل في سورة هود، وهو قوله تعالى عنها: ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ [هود:72]، أي طاعن في السن لا ينجب، فالله عز وجل ذكر هذه الأسباب متفرقة. (3) أما بالنسبة للسبب الثالث فهو يخص إبراهيم عليه السلام، ولكنه على لسان سارة عن زوجها، فلربما كانت سارة قد علمت من حال زوجها إبراهيم عليه السلام بعد ولادة هاجر لابنه إسماعيل بمدة قليلة أو كثيرة أنه أصبح غير مستعد لمباشرة النساء، أو كانت تعتقد كما يُعتقد أن مثله في تلك السن لا يولد له (4)

يقول ابن القيم (5): ردة فعل سارة التي أخبر عنها القرآن فيها بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

(1) انظر: التفسير الواضح/الحجازي، محمد محمود 163/3

(2) انظر: صفوة التفاسير/محمد علي الصابوني 21/2

(3) انظر: تأملات قرآنية/للمغاسي 16/13

(4) انظر: تفسير المراغي/أحمد بن مصطفى المراغي 60/12

(5) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعيّ الدمشقيّ، أبو عبد الله، شمس الدين: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وطيف به على جمل مضروباً بالعصى. وأطلق بعد موت ابن تيمية. وكان حسن الخلق محبوباً عند الناس، أغري بحب الكتب، فجمع منها عدداً عظيماً، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً. وألف تصانيف كثيرة منها / انظر: الأعلام للزركلي 56/6

كما قال القاسمي⁽¹⁾: " ردة فعل سارة حين لطمت وجهها تعجباً، هذا ليس من اللطم الذي هو من النياحة، وإنما هذا على سبيل التعجب، وذلك على عادة النساء في كل غريب عندهن لا يتمالكن أنفسهن من شدة التعجب فتلطمن الوجه، ويضيف إن المرأة كتلة من العاطفة فتتفعل أحياناً ولا تتضبط في انفعالها، لذلك يشترط دائماً إبعادها عما يهيج عواطفها، مثل: اتباع الجنائز وقد نهاها الشرع عن ذلك؛ لأنه من الممكن أنها إذا حضرت الجنائز أو حضرت عند الدفن ألا تتمالك نفسها، ومعلوم ما يحصل من بعض النساء من الصراخ والعيويل وهذه الأشياء، وحتى عند الفرح لا تتمالك المرأة نفسها إلا من رحم الله، فترى النساء عند الفرح يأتين بهذه الأصوات المنكرة التي يفعلنها، ولذلك الشريعة لا تقبل شهادتها في الجنايات بسبب هذه الانفعالات⁽²⁾"

6- سارة صديقة وليست نبيّة كما يقول ابن حزم وغيره :

خاطبت الملائكة إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة، مما ذهب بالبعض إلى اعتبارها نبيّة لإشراك الملائكة لها في خطاب إبراهيم عليه السلام، على زعم ابن حزم وغيره وكذلك ذهبوا إلى نبوة مريم أم المسيح عليه السلام وأم موسى عليه السلام استدلالاً منهم بخطاب الملائكة.

والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال⁽³⁾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا

رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: 7] وعلى هذا تكون السيدة سارة ليست نبيّة وإنما صديقة.

(1) جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط: إمام الشام في عصره، علما بالدين، وضيعاً في فنون الأدب، ولد سنة 1283هـ في دمشق وتوفي فيها سنة 1332هـ كان سلفي

العقيدة وله كتاب تفسير القرآن محاسن التأويل في 17 مجلداً. انظر: الزركلي 135/2

(2) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/شهاب الدين محمود بن عبد الله الألويسي/15/14

(3) انظر : التفسير الوسيط/محمد سيد طنطاوي 442/4

المطلب الثاني

علاقة إبراهيم عليه السلام بهاجر

لقد ذكرتُ سابقاً كيف نجّى الله سارة من فرعون مصر حين أرادها لنفسه فمنعه الله عنها ببركة صلاة إبراهيم عليه السلام ودعاء الزوجين الصالحين لله، فقد هم بها وفي كل مرة كان يؤخذ أخذاً شديداً ثم قالَ للذي أدخلها عليه : أَخْرِجْهَا عَنِّي فَإِنَّكَ إِنَّمَا أُدْخِلْتَ عَلَيَّ شَيْطَانًا، وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيَّ إِنْسَانًا⁽¹⁾، وأخدمها هاجر، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام وهو يصلي ويدعو الله، فقالت: أبشر فقد كفّ الله يد الفاجر الكافر عني، وأخدمني هاجر.⁽²⁾

وهكذا أصبحت هاجر في بيت إبراهيم عليه السلام وستتعرف على العلاقة بين إبراهيم عليه السلام وهاجر من خلال النقاط الآتية :

1- هاجر هبة سارة لإبراهيم عليه السلام لتنجب ولداً

جاء في التوراة أن سارة امرأة إبراهيم لم تكن تلد له، وكانت هاجر أمة مصرية لها، فقالت سارة لإبراهيم : إن الرب قد حرمني الولد، فأدخُلْ على أمّتي وابن بها لعلّي أرزق بولد منها، فسمع إبراهيم عليه السلام قول سارة وأطاعها، فانطلقت سارة امرأة إبراهيم بهاجر أمّتها المصرية، وذلك بعدما سكن إبراهيم أرض كنعان⁽³⁾ عشر سنين، فأدخلتها على إبراهيم زوجها، فدخل إبراهيم على هاجر فحبلت، فلما رأت أنها قد حبلت استسفتت وزرت بسيدتها⁽⁴⁾، وهانت في عينها، فقالت سارة: يَا إِبْرَاهِيمَ أَنْتَ صَاحِبُ ظِلَامَتِي أَنَا وَضَعْتَ أُمَّتِي فِي حِضْنِكَ، فَلَمَّا حَمَلْتُ هُنْتُ عَلَيْهَا، يَحْكُمُ الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِسَارَةَ إِمْرَأَتِهِ هَذِهِ أُمَّتُكَ فِي يَدَيْكَ فَاصْنَعِي فِيهَا مَا أَحْبَبْتِ وَحَسَنِي فِي عَيْنَيْكَ وَسِرْكَ وَوَأَفْكَ.⁽⁵⁾

وفي رواية أخرى في الأثر: أن إبراهيم استوهب هاجر من سارة فوهبتها له، وشرطت عليه أن لا يسرها، فالتزم ذلك ثم غارت منها فكان ذلك السبب في تحويلها مع ابنها إلى مكة⁽⁶⁾،

(1) انظر : تفسير القرآن العظيم/أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير 81/2.

(2) انظر : تفسير عبد الرزاق/أبو بكر عبد الرزاق بن همام الحميري 401/2.

(3) كانت الشام يقال لها أرض كنعان، و الكنعانيون سكان هذه البلاد نسبة إلى كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار 505/3.

(4) التوراة/السفر الأول/الإصحاح السادس عشر والحادي والعشرين .

(5) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد/أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر 231/1.

(6) أخبار مكة للفاكهي/أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي 120/5.

لأنها خافت أن تستحوذ هاجر وابنها على قلب إبراهيم عليه السلام فلا يبقى مكانا لها، أو لأنها لا تريد أن ترى ذلك وهي أمتها القبطية التي وهبتها لإبراهيم عليه السلام، فتزوجها فولدت له إسماعيل. فحينها دبت الغيرة في قلب سارة ولم تصبر على بقاء هاجر معها فأخرج إبراهيم عليه السلام هاجر وابنها إلى أرض مكة. (1)

2- غيرة سارة زوج إبراهيم عليه السلام من هاجر

إن الغيرة بين النساء تقع حتى بين الصالحات، سارة مع أنها حرّة وهاجر أمة؛ وهي من وهبتها لإبراهيم ليرزقه الله الولد منها إلا أنها غارت حين أنجبت هاجر إسماعيل عليه السلام.

ولقد غارت زوج الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فلما جيء للنبي وهو صلى الله عليه وسلم عندها بإناء فيه طعام من إحدى زوجاته، بمجرد ما رأت عائشة الإناء قالت: في بيتي؟ - ترسله في بيتي - فأخذت الإناء ورمته في الأرض، وانكسر الإناء، والنبي صلى الله عليه وسلم بكل حكمه، لملم الطعام وجمعه، وأخذ فلقني الإناء، وقال: (كلوا، غارت أمكم) أي: عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأخذ من بيت عائشة رضي الله عنها إناء، وأرسل به إلى تلك بدل الإناء المكسور، واحدًا بواحد، ولا عنف ولا شتم ولا سب ولا هجر.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله شرحاً لحديث كسر عائشة لإناء إحدى ضرائرها قال: "جميع من شرحوا الحديث قالوا: فيه إشارة إلى عدم مؤاخذه الغيرة بما يصدر منها، لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوباً بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة. وقد أخرج أبو يعلى بسند لا بأس به عن عائشة مرفوعاً: (أن الغيرة لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه) (2) "

كما أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لها مشاهد كثيرة، تغار فيها غيرة شديدة، فقد غارت من خديجة رضي الله عنها مع أن خديجة رضي الله عنها كانت ميتة، ومع ذلك كانت تقول: (ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة)، وكانت تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تريد من عجوز حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها كل شيء خديجة وخديجة وخديجة - قال: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد). (3)

فالغيرة تقع حتى بين كبار الصالحات، وهكذا وقع بين سارة وهاجر غيرة، فباعد إبراهيم عليه السلام بينهما، فكانت سارة في الشام وهاجر في مكة والأمر كله قدر من الله.

(1) الوسيط في تفسير القرآن المجيد/أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد علي الواحدي 568/7.

(2) فتح الباري لابن حجر/أحمد بن علي بن حجر العسقلاني 325/9.

(3) المختصر النصح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح/ابن أبي صفرة 90/4.

فحين وضعت هاجر إسماعيل، تحركت مشاعر الغيرة لدى سارة، ووجدت في نفسها ما تجده النساء في مسألة الولد، وهي تري حب إبراهيم ﷺ لإسماعيل، وكيف يكون لإبراهيم ولد من هاجر التي زوّجتها له دون أن يكون لها مثله لذلك ألحّت سارة على إبراهيم أن يدعو الله أن يرزقها الولد، فدعا إبراهيم ربه بذلك (1)، ولما اشتدت غيرة سارة، أمر الله سبحانه وتعالى أن يبعد عنها "هاجر" وابنها، ويسكنها في أرض مكة لتبرد عنها حرارة الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورأفته (2) بآل البيت.

قال الحافظ ابن حجر ويقال: إن سارة اشتدت بها الغيرة فخرج إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة لذلك (3) ومما يدل على هذا قول هاجر: "يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: أالله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا

وقد شكّا إبراهيم ﷺ إلى الله ما كان يجده من غيرة سارة، فأوحى الله عز وجل إليه أن ألبسها على ما كان فيها إلا أن تجد جرحاً في دينها (4).

وفي هذا قال محمد بن رشد (5): إن النساء يدركهن من الغيرة على الرجال ما يدرك الرجال من الغيرة على النساء. فينبغي أن يُعَدَّر النساء فيما يدركهن من ذلك، إذ هو أمر يغلبهن ولا يُثْرِب عليهن فيه، كما كان يفعل عمر بن الخطاب ﷺ فيما كان يقال له في ذلك على جزالته ومهابته، وعلى ما أوحى الله عز وجل به إلى إبراهيم - ﷺ - فيما شكّا إليه من غيرة سارة (6).

وعلى هذا يُحمل ما جاء من السلف الصالح عن النساء في ذلك، لأن غيرة المرأة من ضرائرها أمرٌ جُبلت عليه، وفي ذلك قال الطبري وغيره من العلماء: "الغيرة مسامح للنساء فيها ولا عقوبة عليهن فيها، لما جُبلن عليه من ذلك (7).

(1) انظر : تفسير الخواطر/محمد متولي الشعراوي/9589/15.

(2) انظر : تفسير البغوي/محيي السنة، أبو محمد الحسين بن الفراء البغوي 215/4.

(3) انظر : التعليق على فتح الباري/عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش 410/6.

(4) انظر : تفسير البغوي/محيي السنة، أبو محمد الحسين بن الفراء البغوي 215/4.

(5) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ض الأندلسي، أبو الوليد: الفيلسوف. من أهل قرطبة. يسميه الإفرنج.

(Averroes) عني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية، وزاد عليه زيادات كثيرة. وصنف نحو خمسين كتاباً،

منها " فلسفة ابن رشد ولد سنة 520هـ وتوفي سنة 595 هـ/انظر : الأعلام للزركلي 318/5.

(6) انظر : البيان والتحصيل محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد 198/18.

(7) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري/أحمد بن علي بن حجر العسقلاني 326/1.

وقال الحافظ ابن حجر : "أصل الغيرة غير مكتسب للنساء، لكن إذا أفرطت في ذلك بقدر زائد عليه تلام⁽¹⁾" كأن تتعدى، وتقع بسبب الغيرة فيما حرم الله عليها من ظلم ضررتها، فتقع في غيبة أو نميمة أو تؤدي بها غيرتها إلى طلب طلاق ضررتها أو الكيد لها وما شابه ذلك فإنها تلام. وضابط ذلك ما ورد في الحديث عن جابر بن عتيك الأنصاري رفعه:

(إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْهَا مَا يَبْغُضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي الرَّبِيبَةِ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يَبْغُضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رَبِيبَةٍ)⁽²⁾.

وما حصل من غيرة "سارة" من هاجر هو من هذا الباب، فطلب الزوجة من زوجها أن لا ترى ضررتها أو أن لا تجاورها أمرٌ غير مستنكر، مع أن الذي ذكره أهل العلم أن إبراهيم عليه السلام هو الذي خرج بهاجر وابنه لا أن سارة زوجه طلبت منه ذلك.

وقد تذكروا النساء يوماً عند عمر رضي الله عنه فقال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: (يا أمير المؤمنين ما أستطيع أن أقبل ابن إحداهن في يوم صاحبته، وإنني لأكون في حاجة إحداهن فترى أنني في غير ذلك)، قال: فوقع عمر رضي الله عنه في النساء ونال منهن فقال ابن مسعود رضي الله عنه: (أما علمت أن إبراهيم شكاً إلى ربه ذراً⁽³⁾ في خلق سارة، فأوحى الله إليه: "إنما المرأة كالضلع إن أقمتة كسرته، فدارها تعش بها) ف ضرب عمر رضي الله عنه على جنب عبد الله وقال: (لقد جعل الله بين جنبيك من العلم غير قليل⁽⁴⁾).

وقد قال بعض الشعراء في غيرة المرأة وقدرتها:

أليس عجيباً ضعفها واقتدارها

أتجمع ضعفاً واقتداراً على الفتى

ألا إن تقويم الضلع انكسارها⁽⁵⁾

هي الضلع العوجاء لست مقيمها

(1) انظر : الآداب الشرعية والمنح المرعية/محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله 248/1.

(2) كتاب الإرواء 80/7 الحديث المرفوع ، وقد حسنه الألباني .

(3) ذرا الشيء يذروه ذرواً، إذا نسفه، وذرا يذرو ذرواً، إذا أسرع في عدوه/ اصلاح المنطق 18/1.

(4) انظر : تاريخ المدينة/ابن شبة 791/3 بتصرف.

(5) أخبار مكة/ الأزرقي 9 / 56.

3- هروب هاجر وهي حبلى بإسماعيل من أذى سارة :

لقد كانت هاجر جارية للسيدة سارة وصارت زوجة لسيدنا إبراهيم عليه السلام لإنجاب نسل له، وظنت السيدة سارة أن مهمة جارتها هاجر هي إنجاب النسل، مع بقائها جارية تُسخرها السيدة سارة كيفما شاءت، ورغم أن السيدة سارة ذات منزلة رفيعة تظل امرأة، فطر الله فيها الشعور بالغيرة من ضررتها التي ستتجب الولد لزوجها فأذنتها، ولأن هاجر جارتها وملاك لها ففعلت بها ما دفعها إليه غيرتها.

فقد جاء في كتاب النوادر: أن سارة غضبت على هاجر فأقسمت أن تقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأمرها الخليل أن تنقب أذنيها، وأن تخفضها فتبر قسماً⁽¹⁾.

فكانت السيدة هاجر أول من اختتن من النساء، وأول من ثقت أذننها منهن، وأول من طوّلت ذيلها.⁽²⁾ حتى لا تعرف سارة آثارها فتلقح بها وتؤذيها.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (إن أول من سعى بالوصف والمرورة هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وإن أول ما أحدثت جرّ الذبول لهي، وذلك أنها لما فرت من سارة فأرخت من ذيلها ليعفى أثرها، فجاء بها إبراهيم عليه السلام ومعها ابنها إسماعيل عليه السلام حتى انتهى بهما إلى موضع البيت فوضعهما ثم رجع).⁽³⁾

وأنجبت السيدة هاجر ابناً لإبراهيم عليه السلام، وكان هذا الابن قرة عينها وبهجة قلبها، لكن أذنتها سيدتها سارة، وخضعت هي لها، وازدادت السيدة سارة إذلالاً لها وتعنتاً. فاستجارت بزوجه إبراهيم عليه السلام لكنه تركها لسيدتها سارة بقوله لها: "هي ذا جاريتك" فاشتدت بها إيلاًماً وإيذاءً حتى هربت طلباً النجاة مما ألم بها⁽⁴⁾

4- الملاك يبشر هاجر بإسماعيل عليه السلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم

تشير الرواية التوراتية بصريح اللفظ إلى اضطهاد سارة لهاجر فتقول: "إن هاجر اضطهدتها سارة سيدتها مما دفع هاجر للهروب منها، فقد لقيها ملاك الرب على عين ماء في البرية في طريق جرار فقال لها يا هاجر أمة سارة، من أين لك أقبليت وأين تريدان؟ فقالت أنا هاربة من سارة سيدتي. فقال لها ملاك الرب انطلي إلى سيدتك وتعبدي لها، ثم قال لها ملاك الرب عن قول الرب: "أنا مكثرت زرعك ومنميه حتى لا يحصوا من كثرتهم" ثم قال لك الرب :

(1) انظر : النوادر والزيادات/الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ص 89.

(2) انظر : قصص الأنبياء/الحافظ ابن كثير 202/1.

(3) انظر : تفسير الثعلبي/الثعلبي/ج5 322.

(4) انظر : لإعلام بما في دين النصارى من الفساد/أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر 231/1.

"إِنَّكَ حُبْلَى وَسَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ إِسْمَاعِيلَ" لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ عَرَفَ ذَلِكَ وَخُضُوعَكَ وَيَكُونُ ابْنُكَ هَذَا وَحَشِيًّا مِنَ النَّاسِ يَدُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَيَدُّ كُلِّ شَيْءٍ بِهِ وَسِيحِلُّ عَلَى جَمِيعِ حُدُودِ إِخْوَتِهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ"⁽¹⁾.

لقد بشرها الملاك بابن عظيم يسود على كل أحد، لكنه أحياناً يكون على خلاف ذلك، فيتسلط عليه كل أحد⁽²⁾ فدعت اسم الرب الذي كلمها فقالت أنت الله ذو الوحي والرؤيا.⁽³⁾ هذه رواية التوراة واكن هل فعلا هاجر قد كلمها الملك وبشرها بهذا ليس في ديننا ما يؤيد ولا يكذب فأقول الله اعلم .

وحيث وضعت هاجر إسماعيل عليه السلام ازدادت غيرة سارة واضطهادها لهاجر، وخاصة حين كان إبراهيم يندفع إليها وإلى ابنه بعاطفة الأبوة، فرأت سارة أنه لابد أن تبعتها عن إبراهيم عليه السلام، رغم أن إسماعيل عليه السلام كان بكرًا لإبراهيم عليه السلام، وكان عمره ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل⁽⁴⁾، واسم إسماعيل من عبارة عبرية تعني «الإله يسمع» وسُمِّي بهذا الاسم بأمر من الإله، ومن أغرب ما نُقِلَ في تسمية إسماعيل عليه السلام بهذا الاسم : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَمَّا دَعَا اللَّهَ أَنْ يُرْزِقَهُ وَلَدًا كَانَ يَقُولُ: اسْمَعْ إِيْلَ اسْمَعْ إِيْلَ، وإيْل هو الله تعالى فَسَمَّى وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ ⁽⁵⁾ وتم تخطينه وعمره ثلاثة عشر عاماً، وتقول الرواية التوراتية: " وعد الإله إبراهيم بأن يجعل من نسل إسماعيل أمة كبيرة من اثني عشر أميراً"⁽⁶⁾.

5- إبراهيم يخرج بهاجر وولده إسماعيل إلى ارض فاران⁽⁷⁾ (مكة)

صارحت سارة إبراهيم عليه السلام بما تجده في نفسها، وطلبت إليه أن يأخذ هاجر وطفلها إلى أرض بعيدة عنها حتى لا تراهما، فتردد إبراهيم في الأمر شفقة منه على ابنه الصغير، ولكن الله أوحى إليه أن ينفذ رغبة سارة، فأخذ هاجر وطفلها بأمر من الله وانتقل إلى شبه الجزيرة العربية حتى وصل بها إلى المكان الذي نبعث فيه بئر زمزم، وكان وادياً مجدباً لا زرع فيه ولا ثمر. ولما هم بالرحيل قالت له هاجر: (إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، وأستودعكما إياه فقالت :

(1) التوراة سفر التكوين/الإصحاح 16/11-12.

(2) التوراة سفر التكوين/الإصحاح 16/16.

(3) التوراة السفر الأول/الإصحاح 16 و الإصحاح 21.

(4) هل بشر الكتاب المقدس بمحمد/قسم الفرق والريود 40/1.

(5) الدر المصون / 2 / 107.

(6) التوراة سفر التكوين الإصحاح 17/20.

(7) جبال فران وكانت مدينة فاران من جملة مدائن، مدين إلى اليوم، وبها نخل كثير مثمر. المواظ والاعتبار

الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا).⁽¹⁾

ثم انصرف إبراهيم عليه السلام من عندهما وهو يدعو قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ
غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]

والسؤال الذي يلح هنا، هل يكره إبراهيم عليه السلام هاجر وابنها، فإنه الأمل الذي عاش طويلاً ينتظره، فعمره حينها ستة وثمانون عاماً، وقد جاءه الولد أخيراً، فكيف هان عليه أن يتركه في تلك الصحراء الموحشة؟ من منا يترك ولده أو زوجه أو حتى رجلاً بكل قواه في فلاة لا ماء فيها ولا نبات ولا أنيس ولا جليس؟! في مكان غير مسكون، وليس فيه ماء، إنه قدر الله وتدبيره في كونه! وحده يعلم ولا نعلم كل شيء عنده بحساب .

ويقول المولى عز وجل على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّمُ
وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 38] دعاها إبراهيم عليه السلام بعد أن دعا ربه أن يحفظ ذريته من إسماعيل بإقامة الصلاة وبالحج وأن يرزقهم الثمرات، ومقصود إبراهيم عليه السلام في هذه الآية أن الله يعلم ما نخفي وما نعلن، هو ما يُكِنُّه من الحُبِّ لهاجر وإسماعيل، وما يُعلنه من الجفاء الذي يُظهره لهما أمام سارة، وما يُخفي من الحزن والوجد على إسماعيل وأمه حين تركهما بوادٍ لا ماء فيه ولا زرع وكان المعاني النفسية عاودته لحظة أن بدأ في سلام الوداع لهاجر وابنه إسماعيل ⁽²⁾

ونقول: لقد كانت هاجر هي الأخرى تعيش موقفاً صعباً؛ ذلك أنها قد وُضعت في مكان ليس فيه زرع ولا ماء مع رضيعها، وكأنها كتمت نوازعها البشرية طوال تلك الفترة وصبرت، ولحظة أن جاء إبراهيم عليه السلام ليؤدِّعها؛ قالت له: أين تتركنا؟ وهل تتركنا من رأيك أم من أمر ربك؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام: بل هو من أمر الله. فقالت: إذن لن يضيعنا، فحق لمثلها بهذا اليقين بالله أن تكون الوعاء الناقل الأول لنطفة أشرف الخلق والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

6- هاجر الموقنة بالله مع رضيعها لوحدها بصحراء مقفرة:

كان المكان موحشاً حين تركها إبراهيم عليه السلام في مكة، وإسماعيل رضيع. ولم يكن من الطعام والماء ما يكفيهم، ولكن هاجر كانت مطمئنة لأن الأمر من عند الله، رغم أن السبب المباشر في

(1) الخواطر/محمد متولي الشعراوي 7580/12.

(2) تأويلات أهل السنة/الماتريدي 405/6

وجودها في هذه الصحراء غير سارة، ولكن السبب المقدر في قدر الله سبحانه وتعالى هو الذي جعل إبراهيم يخرج بهما من الشام إلى مكة عند موضع الحجر، ويعود إلى الشام.⁽¹⁾

بقيت هاجر مع طفلها فنصبت لنفسها عريشاً وكان معها شيء من الطعام والشراب قد تركه معها زوجها إبراهيم، ولما نفذ ما لديهما من الماء عطش إسماعيل عطشاً شديداً، فجعلت أمه تبحث له عن ماء، ولعلها ترى أحداً أو تجد مغيثاً، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا، وتطلعت فلم تر أحداً، ثم ذهبت إلى المروة فصعدت عليه فتطلعت، فلم تر أحداً، ثم جعلت تتردد في ذلك الموضع وهي مكروية مضطرة مستغيثة بالله لها ولابنها، وهي تمشي وتلتفت إليه خشية السباع عليه، فإذا هبطت الوادي سعت حتى تصعد من جانبه الآخر؛ لئلا يخفى على بصرها ابنها.

وأخذت تتردد هكذا بين الصفا والمروة سبع مرات لم تجد شيئاً فرجعت أسفة حزينة ولكن حزنها لم يلبث أن انقلب سروراً واطمئناناً حين رأت الماء ينبع منتحت عقبه.⁽²⁾

عندها تأكدت هاجر من أن ما قالتها قد تحقّق؛ ولن يُضيّعها الله، وهي ترى تفجّر الماء تحت قدَمي ابنها في المكان الذي تركته فيه؛ ويبدأ بئر زمزم في عطاء البشر منذ ذلك التاريخ، ومياهه التي لا تنضب.⁽³⁾

حمدت هاجر الله على هذه النعمة الكبرى، وحوطت على الماء لئلا يسبح، ثم عثر بها قبيلة من قبائل العرب يقال لهم جرهم، فعزلوا عندها وتمت عليها النعم وشب إسماعيل شبا حسناً، وأعجبت القبيلة بأخلاقه وعلو همته.⁽⁴⁾

7- آثار أقدام هاجر الصالحة تصبح شعيرة للمسلمين إلى قيام الساعة:

كان مع هاجر في الصحراء المقفرة حين تركها إبراهيم عليه السلام سقاء ماء وجراب تمر، ومهما كان السقاء، ومهما كان جراب التمر فلا بد أن ينتهي وينفد، فلما انتهى وليس عندها مدد عطشت، وقل حليبيها، وعطش الصبي وبكى، فأخذت تبحث عن الماء، أين تجده؟ فلم تر شيئاً، ولم تر رائحاً ولا غادياً⁽⁵⁾.

(1) انظر : المختصر في أخبار النشر/أبو الفداء عماد الدين إسماعيل 22/4.

(2) انظر : القول المبين في سيد المرسلين/محمد الطيب النجار 46/1 .

(3) انظر : الخواطر/محمد متولي الشعراوي 7580/12.

(4) انظر : تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن/عبد الرحمن بن حمد آل سعدي 250/1.

(5) جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 19/17.

وقد وردت قصة بحث هاجر عن الماء والتي أصبحت خطواتها شعيرة من شعائر الحج، حيث إن الطواف بين الصفا والمروة مأخوذ من طوافها في طلب الماء، وقد وردت القصة بتفصيلها في صحيح البخاري عن ابن عباس في قصة هاجر أم إسماعيل ولفظها: " وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. حتى رأت الماء تتبع من تعت قدميه فأخذت تزمها خوفاً على رضيعها، وفي ذلك قال ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْلَا أَنَّهَا عَجَلَتْ لَكَانَ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا) (1)

وقيل: " لما ترددت هاجر في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، تطلب الغوث من الله تعالى متذلةً، خائفةً، مضطرةً، فقيرةً إلى الله عز وجل، كشف تعالى كربتها، وأنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي طعامها طعام طعم، وشفاء سقم."

فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه، وصلاح حاله، وغفران ذنبه، وأنه يلتجئ إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبت عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر عليها السلام (2) حين نظر الله إلى قلبها وإلى حالها فأسعفها بجبريل الذي نزل فشق الصخر حتى نبع الماء، وأصبحت زمزم تفيض للعالم، وأصبحت مكة هي السكن والأمن الغذائي -كما يقولون- وفيها الاستيطان، كل ذلك متوفر فيها، ونحن الآن إذا سعينا بين الصفا والمروة، إذا انصببت أقدامنا في بطن الوادي تُسرع مع أن السبب قد ذهب، وسبب الإسراع في السعي قد انتهى ولكن بقي التشريع (3) كرامة لهاجر.

(2) صحيح البخاري/كتاب الحج/باب ماء زمزم/ح/3362/8/421

(2) انظر: محاسن التأويل/محمد جمال القاسمي/33/2

(3) انظر: شرح بلوغ المرام/عطية سالم 174/3

وقد أورد الفاكهي⁽¹⁾ في أخبار مكة عن صفية بنت شيبة عن بعض نساءها أنها قالت: أشرفت من حق لآل جبير بن مطعم في نسوة، فسمعت النبي ﷺ يقول: (يا أيها الناس كتب عليكم السعي فاسعوا " وكانت عندها بئر جاهلية يسقى منها الحاج بين الصفا والمروة⁽²⁾).

ورأى ابن عباس⁽³⁾ قوما يطوفون بين الصفا والمروة فقال: " هذا ما أورتكم أمكم أم إسماعيل⁽³⁾ انطلقت حين ابنها عطش وجاع، فوجدت الصفا أقرب جبل إلى الأرض فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الوادي، ورفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أنت المروة وقامت عليها تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرّات".⁽⁴⁾

8- استجابة الله السريعة دعاء إبراهيم ﷺ لزوجه وولدها

لقد دعا إبراهيم ﷺ دعاء الموقن بالإجابة فقال: ﴿ فَأَجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَى

إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: 37]⁽⁵⁾ وهو يغادرهم راحلا عنهم إلى الشام، إلى حيث سارة، وقال ابن عباس: سأل إبراهيم ﷺ أن يجعل الله الناس يهون السكن بمكة، فيصير بيتا محرما، وكل ذلك كان والحمد لله. وأول من سكنه جرهم.

وأخرج البخاري: " كان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، وكذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم قافلين من طريق ما، فنزلوا بأسفل مكة، فأروا طائرا عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء! لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ؛ فأرسلوا يستفسروا فإذا هم بالماء، فأخبروهم بها فأقبلوا⁽⁶⁾، وكانت أم إسماعيل عند الماء ؛ فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء⁽⁷⁾ قالوا: نعم.

- (1) محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي: مؤرخ. من أهل مكة،. كان معاصرا للأزرق، متأخرا عنه في الوفاة. له كتاب تاريخ مكة، توفي بعد سنة 272 هـ. انظر : الأعلام للزركلي 28/6.
- (2) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه/أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي 258/3.
- (3) لجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي/أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي 132/2.
- (4) الكشف والبيان عن تفسير القرآن/أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي 28/2.
- (5) (أفعدة) جمع فؤاد وهو القلب والمراد الناس أصحاب القلوب (تهوي إليهم) تقصدهم وتسكن إليهم، والجماعة من الناس تنزع إليهم/معاني القرآن/الزجاج 165/3.
- (6) مختصر صحيح الإمام البخاري/باب النسلان في المشي 415/2
- (7) معالم التنزيل في تفسير القرآن/محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي 44/3.

وعن ابن عباس "فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس" (1) فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم وأنفسهم أعجبهم، فلما أدرك زوجته امرأة فيهم، وماتت أم إسماعيل (2)

9- هاجر الصالحة تعين إبراهيم الخليل أن يبر بقسمه :

عندما ترك إبراهيم عليه السلام أم إسماعيل وابنها إسماعيل عليه السلام في أرض مكة ورجع إلى الشام، قيل إنه كان قد أتى مكة عدة مرات ليتفقد ذريته هناك، وفي معرض تفسير العلماء لمقام إبراهيم في الآية الكريمة لقوله تعالى ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَكَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: 97]

حيث قال المفسرون: إن المقام هو الحجر الذي استخدمه إبراهيم عليه السلام في كثير من أعمال بناء الكعبة وأعمال الحج، ومن بين هذه الأعمال التي ذكروها، قيل إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة، وكان قد حلف لامرأته سارة - وهذا من باب غيرتها على زوجها - أن لا ينزل بمكة حتى يرجع، فلما عاد إلى مكة قالت له أم إسماعيل: انزل حتى تغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر، فوضعت على الجانب الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت أحد جانبي رأسه، ثم حولته إلى الجانب الأيسر، حتى غسلت الجانب الآخر، فبقي أثر قدميه عليه، فاندرس من كثرة المسح بالأيدي. (3)

ولكن هل الممكن أن يقطع إبراهيم عليه السلام كل هذه المسافة ولا ينزل عن راحته ، وهل من الممكن أن ينصاع إبراهيم عليه السلام لطلب سارة إلى هذه الدرجة .

وهذا يبين مدى مساعدة هذه الزوجة الصالحة لزوجها في أن يبر بقسمه لزوجته سارة، دون مناقشة أو عتاب أو لوم أو اتهامه بالتقصير نحوها وابنها، على العكس من ذلك فقد أبدعت بالجمع بين ما يتوجب عليها من إصلاح مظهر زوجها وبين أن تجعله لا يحنث بيمينه، فقد كان بإمكانها أن لا تفعل ولا تلام، لأنه رفض النزول، ولكنها الزوجة الصالحة التي اختارها الله تعالى لتكون الرحم الذي يحمل نطفة أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد عليه أفضل صلاة وأتم تسليم.. فلو رجعنا للوراء حيث قصة فرعون مصر الذي أراد سارة، وكيف كانت معجزة الله بإبعاده عنها حتى يدعها تذهب، وليس ذلك فحسب، بل أهداها هاجر أمة لها لتذهب بها إلى إبراهيم عليه السلام، كل ذلك تمهيدا لاحتضان نطفة الرسول الكريم محمد عليه السلام.

(1) انظر : الجامع لأحكام القرآن/أبي عبد الرحمن عادل بن سعد 374/9

(2) انظر : أحكام القرآن/ابن العربي 96/3

(3) انظر : اللباب في علوم الكتاب/أبو حفص سراج الدين عمر بن علي 409/5

ولقد بُشّرت هاجر به حسب رواية التوراة، ومن الأدلة الواردة في التوراة ما ذكره غير واحد من العلماء منهم ابن قتيبة⁽¹⁾ في "أعلام النبوة": وفي رواية: " جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران " ⁽²⁾

فسينا: هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى ﷺ، وساعير: هو الجبل الذي أرسل الله فيه عيسى ﷺ وظهرت فيه نبوته، وجبال فاران: وهي جبال بني هاشم التي كان رسول الله ﷺ يتحنث في أحدها، وفيه فاتحة الوحي.⁽³⁾ وهذه الثلاثة أقسم الله بها⁽⁴⁾ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّتِائِينَ وَالزَّيْتُونَ ۖ وَطُورِ

سَيْنِينَ﴾ [التين: 1-2]

قال ابن قتيبة: " وليس بعد هذا غموض، لأن مجيء الله من سينا إنزاله التوراة على موسى ﷺ بطور سيناء، فيجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح ﷺ، والمسيح يسكن من ساعير أرض الخليل بقريّة تدعى ناصرة وباسمها سمي منابعه⁽⁵⁾، وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على عيسى ﷺ، فكذلك يجب أن يكون استعلائه من فاران بإنزاله القرآن على محمد ﷺ، وهي جبال مكة.⁽⁶⁾ والله أسكن هاجر وإسماعيل فاران. وليس بين المسلمين وأهل الكتاب اختلاف أن فاران هي مكة، وإن ادعى مدع أنها غير مكة وخاصة اليهود نقول: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وابنها إسماعيل فاران⁽⁷⁾

10- محمد ﷺ يوصي بأهل مصر براً بالزوجة الصالحة أم إسماعيل ﷺ

محمد ﷺ يوصي بمصر وأهلها براً بهاجر الصالحة ، فعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: (إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً؛ فإن لهم ذمةً ورحماً، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة فاخرج منها)⁽⁸⁾

(1) أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الديّوريّ، أبو جعفر، قاضي، من أهل بغداد، له اشتغال بالأدب والكتابة. كان يحفظ كتب أبيه وهي 21 كتاباً في غريب القرآن والحديث والأدب والأخبار. ولي القضاء بمصر سنة 321 هـ فجاءها، وعرف فضله فيها فأقبل عليه طلاب العلوم والآداب، توفي سنة 322 هـ أنظر: الأعلام للزركلي 1/156.

(2) انظر : إرشاد التفات إلى اتفاق الشرائع/محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني 27/1

(3) انظر : هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى/ابن قيم الجوزية 222/1

(4) انظر : منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب/عبد العزيز بن حمد بن ناصر آل معمر 280/1

(5) انظر : نهاية الأرب في فنون الأدب/أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم 107/16

(6) انظر : محاسن التأويل/محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي 499/9

(7) انظر : الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني/محمد بن علي بن محمد الشوكاني 510/1

(8) صحيح مسلم/الإمام مسلم/باب وصية النبي ﷺ/ح/2343/ج 4/1970

والقيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم كان أهل مصر يكثر من استعماله، فيوصي بها الرسول لأن لأهلها حرمة وحقا وهي الذمة المذكورة، ورحمًا كون أم إسماعيل من مصر. كما أن هاجر أم إسماعيل من "أم العرب" وأم العرب قرية كانت أمام الفرما من مصر. (1)

وفي الحديث معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ منها إخباره بأن الأمة تكون لهم قوة وشوكة بعده بحيث يقهرون العجم والجبابرة، ومنها أنهم يفتحون مصر، ومنها تنازع الرجلين في موضع اللبنة، ووقع كل ذلك والله الحمد (2)

ولما سئل الإمام سفيان بن عيينة (3) رحمه الله عن قول الرسول ﷺ "ذمة ورحما"؟ قال: من الناس من قال: إن المقصود أم إسماعيل هاجر فقد كانت قبطية، ومن الناس من قال: المقصود أم إبراهيم؛ ابن رسول الله ﷺ. (4) مارية فهي قبطية من مصر.

وفي رواية " فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمًا أو قال ذمة وصهرًا" قال العلماء : الرحم التي لهم كون هاجر أم إسماعيل ﷺ منهم والصهر كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم. (5)

(1) البداية والنهاية/الحافظ ابن كثير/1577/1

(2) شرح صحيح مسلم للإمام النووي 97/16

(3) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد: محدث الحرم المكي. من الموالي. ولد بالكوفة سنة

هـ 107، وسكن مكة وتوفي بها سنة 198 هـ. كان حافظاً ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي: لولا

مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. وكان أعور. وحج سبعين سنة، انظر: الأعلام للزركلي 105/3

(4) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم/حمود بن عبد الله التويرجي 363/1

(5) الولاء والبراء والعداء في الإسلام/أبو عاصم الشحات شعبان البركاتي 86/1

المطلب الثالث

علاقة زكريا عليه السلام بزوجه

زكريا عليه السلام نبي من أنبياء بني إسرائيل اجتباه ربه برحمة منه ووهب له على الكبر ابناً يرثه في النبوة والعلم من ذرية يعقوب، وجعل سبحانه وتعالى لهذا الوريث اسماً لم يكن لأحد من قبله من العالمين، وزكريا عليه السلام من سلالة سليمان بن داود، وهو أبو يحيى النبي عليه السلام دخل البثنية⁽¹⁾ من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى عليه السلام وقيل إنه كان بدمشق حين قُتل ابنه يحيى والله أعلم⁽²⁾.

وقالوا إن زكريا بن أزن من ولد داود كان رجلاً نجاراً وكانت تحته اشباع بنت عمران بن ماثان أخت مريم بنت عمران أم عيسى، وكان يحيى وعيسى ابني خالة وسمي بذلك لأن الله أحياه بالإيمان⁽³⁾. وكان زكريا الرئس الذي يقرب القران ويكتب التوراة وهو الذي كفل مريم، فلما ظهر بها الحمل زعمت يهود أنه ارتكب منها الفاحشة، فهرب منهم واتبعوه فقيل: إنهم قطعوه نصفين بالمنشار⁽⁴⁾.

قال ابن كثير: "اختلفت الرواية هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتلاً؟ على روايتين منها قول وهب بن منبه: "إنه هرب من قومه فدخل شجرة، فجاؤوا فوضعوا المنشار عليها". وروي عنه أيضاً أنه قال: "إن الذي انصدعت له الأرض هو أشعيا، فأما زكريا فمات موتاً⁽⁵⁾" وسنسلط الضوء على زكريا عليه السلام وزوجه من خلال النقاط التالية:

1- إعلان في القرآن من الله سبحانه وتعالى بصلاح زكريا وأسرته:

أسرة زكريا نموذج طيب لسلوك الأسرة الصالحة في حركاتها وسكناتها، فقد ذكر القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَٰٓ وَهُودًا وَكَوْنًا عَلَىٰ الْعَلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنَيبَتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: 85-87] ففي هذه الآيات الكريمة يصف ربنا سبحانه وتعالى زكريا

(1) بفتح أوله وثانيه، وبالنون ثم الياء أخت الواو مثقلة، وهي بالشام معروفة، من كور دمشق. والبثنة والبثنة الأرض السهلة، وبذلك سميت المرأة بثينه، معجم ما استعجم من أسماء البلاد 226/1
(2) البداية والنهاية/الحافظ ابن كثير 55/2 بتصرف.
(3) تفسير القاسمي 94/4، 95 وتفسير ابن كثير 361/1 والبداية والنهاية 47/2.
(4) البدء والتاريخ/المطهر بن طاهر المقدسي 16/2.
(5) قصص الانبياء/الحافظ ابن كثير 549.

الأب ويحيى الابن بالصلاح، فهما فرع من شجرة النبوة الطيبة الثابتة ذرية بعضها من بعض، وكل واحد من هؤلاء الأنبياء فضله الله على عالمه الذي كان يعيش فيه، إذ كان رسول الله المبعوث لهداية عالمه هذا، وهو بهذه الصفة صفوة هذا العالم، والإنسان المتخير لرسالة السماء. وهم الذين اختصهم الله بهذا الذكر، ليسوا هم وحدهم الذين شملهم فضل الله، ومستهم رحمته، بل إن من آباءهم وذرياتهم وإخوانهم أيضا من شملهم هذا الفضل ببركتهم، ومستهم تلك الرحمة⁽¹⁾ وهُدوا إلى صراطٍ مستقيم وهذا ما نجده في أسرة زكريا عليه السلام.

ثم يبين ربنا في آية أخرى صلاح زوج زكريا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

وَوَهَبْنَا لَهُ إِيْحَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَيَدْعُوكَ رَعْبًا وَرَهَبًا ۗ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ [الأنبياء: 90]

وقد بينت الآية الكريمة الأعمال الصالحات التي كانت تفعلها أسرة زكريا عليه السلام، وشهد لها بذلك في قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار، لتكون نموذجا طيبا تحتذي به الأسرة المسلمة في كل زمان ومكان

2- الزوج الصالح زكريا عليه السلام يكفل مريم أم المسيح عليه السلام :

يقول الله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا

دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمَرِمُ أَنَّ لِي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ

مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 37]

تتحدث الآية الكريمة عن مريم أم المسيح عليه السلام بنت حنة امرأة عمران، التي اشتهت الولد وهي تنظر إلى طائر يطعم فرخه، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً، فاستجاب الله لها وحملت حملها ثم مات زوجها عمران، وظنت أن ما في بطنها ذكراً، فذرتة الله محرراً، وعتيقاً لعبادته⁽²⁾

(1) التفسير القرآني للقرآن/عبد الكريم يونس الخطيب 299/1.

(2) العتيق: الذي لا ينتفع به شيء من أمور الدنيا فقط يكون حبيساً لخدمة الكنيسة، وخدمة بيت المقدس

الهداية إلى بلوغ النهاية/أبو محمد مكي بن أبي طالب 994/2.

ولتقي بنزرها لما وضعت أم مريم حملها، لفتها في خرقتها ثم أرسلت بها إلى بيت المقدس، فوضعتها فيه، فتنافست الأحبار في بني هارون أيهم يكفلها، فقال زكريا عليه السلام: أنا أحكم بها عندي خالتها، فذروها. (1)

فردت عليه الأحبار: لو تركت لأفقر الناس إليها لتركت لأمها، ولكننا نقترح عليها، فاقترحوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها الوحي، ففرعهم زكريا، وأصبحت مريم بنت عمران في كفالة نبي الله زكريا عليه السلام، واسترضع لها حتى إذا شب، بنى لها محراباً في المسجد فلا يُرقى إليها إلا بسلم.

وكان زكريا نجاراً وأخت مريم عنده، فيحيى وعيسى ابنا خالة (2)، وقد كفلها لأن قلمه خرج دون أقلامهم، وكان زكريا عليه السلام كاهن (3) بيت المقدس في زمانه والمسئول عن البخور عندهم. (4)

والكهانة كانت في بني لاوي كما هي شرعة اليهود (5). وزوج زكريا عليه السلام "أليصابات" يقال: إنها خالة مريم (6) وليست أختها، وهي من نسل هارون عليه السلام أيضاً من سبط لاوي بن يعقوب عليه السلام (7)، ومريم كذلك من بنات لاوي، لأن كل رجل من بني إسرائيل يأخذ من سبطه وليس من سبط آخر. وذلك أن تشريع اليهود يأمرهم أن تتزوج المرأة من سبطها (8) ولا تتزوج من سبط آخر حتى تستمر الأموال في نفس السبط ولا تنتقل إلى أسباط أخرى بواسطة الميراث (9)

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةٍ أُسْرِي بِهِ (ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَنْقَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا خَالَةٍ، قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَا، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ) (10)

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية/أبو محمد مكي بن أبي طالب 994/2.

(2) انظر: البداية والنهاية 47/2 وتفسير القاسمي 94/4، 95 وتفسير ابن كثير 361/1.

(3) الكاهن في اصطلاح اليهود: هو الذي يقدم الذبائح والخدمات الدينية، وخاصة الأمور المتعلقة بالأشياء المقدسة لديهم/دراسات في الأديان والنصرانية/سعود بن عبد العزيز الخلف 230/1.

(4) انظر: لطائف الاشارات تفسير القشيري/عبد الكريم بن هوازن القشيري 238/1.

(5) انظر: البحث الصريح في أيما هو الدين الصحيح/زيادة بن يحيى النصب الراسي 222/1.

(6) قاموس الكتاب المقدس ص 791.

(7) الكتاب المقدس/إنجيل لوقا (10-5/1).

(8) الكتاب المقدس/سفر العدد (9-6/36).

(9) انظر: دراسات في الأديان والنصرانية/سعود بن عبد العزيز الخلف 230/1.

(10) صحيح البخاري/للإمام البخاري/كتاب الصلاة/باب ذكر رحمة ربك عبده 163/4.

وبذلك اختلفت الروايات هل زكريا عليه السلام زوج أخت مريم، أم زوج خالتها، فمن الروایتين يتبين أن زوج زكريا عليه السلام قريبة مريم أم المسيح عليه السلام، إما خالتها أو أختها، والحديث الصحيح السابق في البخاري عن رسولنا الكريم ﷺ أن عيسى ويحيا ابنا خالة، فإن ابن الخالة أو ابن بنت الخالة يقال عنهما تجاوزاً أبناء خالة، تماماً كابن العم وابن ابن العم يقال عنهما أبناء عم، عند بيان الصلة بينهما.

3- كرامات مريم كانت الباعث للزوج الصالح زكريا عليه السلام في طلب الولد

عندما تكفل زكريا عليه السلام مريم وهي رضية، استرضع لها، حتى إذا شبت بنى لها محراباً في المسجد على الباب فلا يرقى إليها إلا يسلم⁽¹⁾ وكان يتفقدتها باستمرار هذا ما بينه القرآن الكريم فيقول الله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنْ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الأنبياء: 37]

تتحدث الآية الكريمة عن مريم أم المسيح عليه السلام التي نذرتها أمها لخدمة المسجد الأقصى وهي في رحمها معتقدة أنها ذكر وليس أنثى، ولكن الله تقبل مريم نذراً لأمرها، وأجاب دعائها، فأنبثها نباتاً حسناً، ورباها في خيره ورزقه وعنايته تربية حسنة، مقومة لجسدها بالعمل الصالح، وجوارحها في خدمة الله، وقلبها في معرفة الله عز وجل⁽²⁾

شأنه سبحانه وتعالى أن يرزق من يشاء من عباده رزقاً كثيراً، فكان كلما دخل عليها زكريا عليه السلام في معبدها وهو المسمى المحراب، وجد عندها رزقاً غير معهود في وقته فيقول متعجباً: يا مريم من أين لك هذا الرزق؟ قالت: هو من فضل الله، وجعل زكريا عليه السلام كافلاً لها. وكان رزقها بغير عدد ولا إحصاء.⁽³⁾

وكان كلما تفقدتها زكريا كان يجد عندها في الشتاء فاكهة الصيف، وفي الصيف فاكهة الشتاء، هذا من كرامات الأولياء، كان هذا من الله إكراماً لها⁽⁴⁾، فتعجب زكريا عليه السلام من هذا فهي تصلي في هذا المحراب ولا يتصل بها أحد من الخلق ولا تتصل مع أحد، ثم مع هذا يجد

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب/2/994.

(2) تفسير التستري/أبو محمد سهل بن عبد الله التستري/1/48.

(3) المنتخب في تفسير القرآن/لجنة من علماء الأزهر /1/76.

(4) انظر : لوامع الأنهار البهية/السفاريني 2/394.

عندها ﷺ هذا الرزق، فعندها ألهم ﷺ الدعاء وطلب الولد فيقول الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا

زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [الأنبياء: 38]

وَفِي قَوْلِ زَكَرِيَّا ﷺ لِمَرْيَمَ {أَنْتِ لَكِ هَذَا} دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ مَقَامِهَا فِي الْغُرْفَةِ فَإِنَّ الْمَقَامَاتِ عِنْدَ الْقَوْمِ مَرْتَبَةٌ بِعِلْمٍ مَخْصُوصَةٍ وَأَعْمَالٍ مَخْصُوصَةٍ، وَكَذَلِكَ الْأَحْوَالُ وَالْكَرَامَاتُ أَيْضًا هِبَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى قَدْرِ مَقَامَاتِهِمْ (1).

ثم كان زكريا ﷺ يقول: أنى لك هذا؟ لأنه لم يكن يعتقد فيها استحقاق تلك المنزلة، أو كان يخاف أن غيره يغلبه وينتهز فرصة تعهدتها ويسبقه بكفاية شغلها، فكان يسأل ويقول: أنى لك هذا؟ ومن أتاك به؟ فكانت مريم تقول: هو من عند الله لا من عند مخلوق، فيكون في هذه الإجابة راحتان لزكريا ﷺ: إحداهما شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدتها، ولم يسبق به.

وتنفيد لفظة كلما في قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب) تكرر زيارة زكريا لها مرة بعد مرة، فهو لم يذر تعهدتها وإن كان يجد عندها رزقا، بل كان كل يوم يتفقد حالها، ولم يكن يركن إلى الرزق الذي يجده عندها، لأن كرامات الأولياء ليست مما يجب أن يدوم قطعا، فيجوز أن يظهر الله ذلك عليهم دائما، ويجوز توقف هذه الكرامات وامتناعها، فكان زكريا ﷺ لذلك دائم الزيارة لمريم وكان يجدد السؤال عنها بقوله: (يا مريم أنى لك هذا؟) فقد يكون الذي هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس، فإنه لا واجب على الله سبحانه وتعالى، ولا ثابت فكل شيء متغير ولا يدوم إلا وجهه الكريم.

فلما رأى كرامة الله سبحانه وتعالى معها، ازداد يقينا على يقين، ورجاء على رجاء، فسأل الولد على كبر سنه، وإجابته إلى ذلك كانت نقضا للعادة (2) فاتجه إلى الله ضارعا أن يهبه من فضله وكرمه وبقدرته ولداً، فهو يسمع دعاء الضارعين، وهو القدير على الإجابة وإن وقفت الأسباب العادية من شيخوخة أو عقم دون تحقيقها (3).

توسل زكريا ﷺ إلى الله بإظهار الفقر والحاجة إليه سبحانه، فقال ﷺ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي

وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: 4] وهو نوع من

أنواع التوسل المشروع (4)

(1) انظر: تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم من الحثالة 127/1.

(2) انظر: لطائف الإشارات تفسير القشيري/ عبد الكريم بن هوازن القشيري 238/1 .

(3) انظر: المنتخب في تفسير القرآن/ لجنة من علماء الأزهر 77/1.

(4) انظر: بيان حقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل/ 38/1.

كان توسله ﷺ بأدب وتلطف، يُظهر لطف قوله تعالى حاكياً عن زكريّا ﷺ (إني وهن العظم مني) فقال العظم ولم يقل العظام، فإن بلاغة هذا اللفظ تختلف عن ذلك، فقد وحد العِظَامَ لِأَن الْوَأَجِدَ هُوَ الدَّالُّ عَلَى مَعْنَى الْجِنْسِيَّةِ، وَقَصْدُ بِهِ عَمُودَ الْبَدَنِ وَأَصْلُ قَاعِدَتِهِ، وَقَدْ أَصَابَهُ الْوَهْنُ، وَلَوْ جُمِعَ لَكَانَ قَصْدُ إِلَيَّ مَعْنَى آخِرٍ وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَهِنَ مِنْهُ بَعْضُ عِظَامِهِ وَلَكِنْ كَلَّمَهَا⁽¹⁾ وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْعِظْمَ لِأَنَّهُ أَصْلُ بِنَائِهِ، فَإِذَا وَهِنَ تَدَاعَى وَتَسَاوَيْتْ قُوَّتُهُ، وَهُوَ أَشَدُّ مَا فِيهِ وَأَصْلِبُهُ كَانَ مَا وَرَاءَهُ أَوْهَنُ وَأَضْعَفُ⁽²⁾

ثم قال ﷺ ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ ولياً من صلبه يخلفه في منصب النبوة، فإنما كان قصده الدعاء له وتكثير سواد الأمة.⁽³⁾

4- زكريا ﷺ يدعو الله الولد ليرثه في النبوة لا في المال

قال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ [الأنبياء: 89-90]

ظهر على نبي الله زكريا ﷺ الكبر، فرقَ عظمه، واضطرم الشيب برأسه، ولم يولد له؛ إذ كانت امرأته عاقر لا تلد، وخشي على قومه من بعده أن يتصرف فيهم مواليه وعصبته تصرفاً سيئاً، فيكون فتنة لهم، فدعا الله عز وجل أن يهب له ولداً يرثه العلم والنبوة، والقيام على شؤون قومه⁽⁴⁾ وخاصة أن مواليه، وهم عصبته: إخوته وبنو عمه شرار بني إسرائيل، فخاف منهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه، وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته وذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾. فقد طلب ولداً من صلبه صالحاً يقتدي به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه من ورائه بعد موته⁽⁵⁾ فيقول تعالى: ﴿ كَهَيْعَتِكَ ﴾ ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءُ خَفِيًّا ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهِنَ الْعِظْمِ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا

(1) انظر: معنى لا إله إلا الله للزركشي/صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان 90/1 .

(2) انظر: تفسير الكشاف عن حقائق الغوامض/للزمخشري 4/3 .

(3) انظر: السيوف المشرقة ومختصر الصواعق المحرقة/نصير الدين محمد الشهير بخواجه 3/5 .

(4) انظر: تفسير مجاهد/أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي/453/1 .

(5) انظر: تفسير الكشاف عن حقائق الغوامض/للزمخشري 4/1 .

وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴿٦﴾ [مريم: 1-6]

ويقدم زكريا بين يدي دعائه ما عهده من إجابة الله عز وجل دعائه، فقد قال زكريا عليه السلام (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) فإنك يارب عودتي إجابتك، ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إلى الله تعالى بما سلف من إجابته له، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوّده من قضاء حوائجه، وإجابته إلى ما سأله. (1) فلم أكن بأي حال يا رب شقيًّا خائباً خاسراً مردوداً، بل قد عودتني أنت بفضلك وجودك بالإجابة والإنجاح (2)

وقد اتهم اليهود والنصارى زكريا عليه السلام أنه طلب الولد ليرثه في المال في ميراثه، وليس من أجل حماية الدين، والنص القرآني نفسه من نص الآية فيه برهان الرد عليهم فقوله عليه السلام " يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ " وهم مئات ألوف، وإنما طلب أن يرث عنه النبوة فقط. والذي يؤكد أن زكريا عليه السلام إنما أراد الولد ليرثه في النبوة، أنه سأل الله عز وجل في قوله " واجعله رب رَضِيًّا " أي : أن يكون الولد الذي يهبه إياه مرضيا عند ربه عز وجل، وعند خلقه، يحبه الله عز وجل، يقوم بطاعته، ويحبه خلق الله لكمال دينه، وحسن خلقه، ومثل هذا لا يكون إلا من أجل الدين وليس الدنيا.

كما أنه من المحال أن يرغب زكريا عليه السلام في ولد يحجب عصبته عن ميراثه، فإنما يرغب في ذلك ذو الحرص على الدنيا وحطامها، وقد طلب الولد لما كان يجد من كرامات عند مريم الصديقة التي اصطفاه ربه وفضلها على نساء العالمين، فعندها دعا زكريا عليه السلام ربه فقال: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَيَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا)

و في معنى يرثني أي: يرث حكمتي، ويرث نبوة آل يعقوب. وقد أنكر قوم وراثه النبوة إلا بعطية من الله، لقولهم لو ورثت بالنسب لكان الناس كلهم أنبياء، لأنهم أولاد نبي وهو آدم ونوح (3) وأنكر آخرون وراثه المال في هذا المقام والمراد بالإرث إرث الشرع والعلم، لأن الأنبياء لا تورث المال. وقيل يرثني الحبورة وكان حبراً، ويرث من آل يعقوب الملك. (4)

(1) انظر: التوسل في كتاب الله عز وجل/طلال بن مصطفى عرقسوس 4/1

(2) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية 494/1.

(3) الهداية إلى بلوغ النهاية/أبو محمد مكي بن أبي طالب 4495/7

(4) لطائف التفسير للقسيري/عبد الكريم بن هوازن القشيري 38/1

وَهَناكَ مِنْ اغْتَرَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وِرَائِي) فنقول له: بطلان هَذَا الظَّنَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُعْطِهِ وَلِذَا يَكُونُ لَهُ عَقَبٌ فَيَتَّصِلُ الْمِيرَاثُ لَهُمْ بَلْ أَعْطَاهُ وَلِذَا حَصُورًا لَا يَقْرِبُ النِّسَاءَ قَالَ تَعَالَى (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) فَصَحَّ ضَرُورَةٌ أَنَّهُ ﷺ إِنَّمَا طَلَبَ وَلِذَا نَبِيًّا لَا وَلِدَ يَرِثُ الْمَالَ⁽¹⁾. وَفِي هَذَا أَقْوَى بَرَهَانَ عَلَى أَنَّ زَكَرِيَّا ﷺ طَلَبَ الْوَلَدَ مِنْ أَجْلِ الدِّينِ وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا.

5- موجبات استجابة الدعاء لزكريا ﷺ وزوجه

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى صفات من كان جديرا باستجابة الله دعاءه فقد قال

سبحانه وتعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: 89-90]

بينت الآيات الكريمة السابقة كيف أن العمل الصالح يشفع بأهله، وكذلك الدعاء والتضرع

إلى الله في السراء والضراء، استجابة لأمره تعالى في كتابه العزيز: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: 55] فهذا أمر من الله بتعبده بالدعاء ثم قرنعز وجل الأمر

بصفات تحسن معه، وهي الخشوع والاستكانة والتضرع، وفي قصة زكريا ﷺ نجده يدعو ربه خفية وسرا لوحده ليعود عن الرياء، وبهذا أثنى الله سبحانه وتعالى على نبيه زكريا ﷺ إذ قال مخبرا عنه (إذ نادى ربه نداء خفياً) . وقد قال النبي ﷺ: (خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي)⁽²⁾ والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجرا من الجهر.⁽³⁾

كان حق على الله أن يستجيب دعاء من تمتعوا بتلك الصفات ويهب لهم ما يسألونه،

فلذلك يقول المولى عز وجل: (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) فقد كانت عاقراً فصارت ولوداً، فولدت له وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وهي قريبة من سنه، أو قيل كان في لسانها طول فحسَنَ خلقها⁽⁴⁾.

(1) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل/أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم 75/4.

(2) مسند الإمام أحمد/ مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص/168/3 إسناده ضعيف لضعف محمد بن عبد

الرحمن بن لبيبة، ثم هومنقطع، ابن لبيبة هذا لم يدرك سعداً

انظر أيضاً : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد باب لا اله الا الله/أبو الحسن نور الدين الهيثمي 81/10.

(3) انظر : الجامع لأحكام القرآن/أبو عبد الله محمد بن أحمد 223/7.

(4) انظر : معاني القرآن وإعرابه/للزجاج/403/3

وقد كانت أسرة زكريا عليه السلام أسرة فلاح وصلاح وتقوى، لأنهم كانوا يبادرون بالأعمال الصالحة والخيرة، رغبة في ثواب الله وفي الطاعات ورهبةً من عقاب الله والمعاصي. (1)

ويحمل الفعل المضارع يسارعون معنى التعود والاستمرار، فقد تعود زكريا عليه السلام وزوجه وابنه يحيى عليه السلام على فعل الخيرات (2) أضف إلى ذلك أن زكريا عليه السلام وزوجه كانا راضيين بالعمق على أنه ابتلاء وقضاء، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به، فلا ينبغي للمؤمن أن يتمرد على قدر الله، ومن الخشوع الاطمئنان لمقادير الخلق في الناس. (3)

فكان جديرًا بمن كان بهذه الصفات أن يجاب دعاؤه؛ وأن لا يخيب رجاؤه لربه، وهذه الصفات أهلت زكريا الصالح وزوجته الصالحة لهذا العطاء الإلهي.

6- علامة تقبل دعاء الصالحين والبشرى بيحيى

تقبل الله دعاء زكريا وزوجه لصلاحهما، وبشرهما بسلام لم يجعل له من قبل سمية فقد قال تعالى: ﴿يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7] فقد نادته الملائكة: يا زكريا إنا نبشرك بغلام سميناه يحيى، ولم نسم به أحداً قبله، وهذا شاهد على أن الأسماء جديرة بالآثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز.

ويحيى في أسمائهم تعني يعمر ويعيش وهي تسمية عربية، وقالوا: لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهجم بمعصية قط، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر، وأنه كان حصورا (4).

عندما بشر زكريا عليه السلام بيحيى تعجب من هذا، وقد عبّر القرآن عن هذا التعجب فيقول المولى على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنِّي كَارِهُةٌ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ

الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8]

يقول زكريا عليه السلام: يا رب كيف يكون لى ولد وزوجتى عقيم وأنا فى سن الشيخوخة؟ (5) استفهم سيدنا زكريا عن الطريقة، ووجه هذا الاستفهام أنه أصابه الكبر أي أصبح مُسِينًا.

(1) انظر: تفسير القرآن/العز بن عبد السلام/336/2.

(2) انظر: الهداية في بلوغ النهاية/أبو محمد مكي بن أبي طالب 4809/7.

(3) انظر: تفسير الشعراوي/محمد متوي الشعراوي/9963/16.

(4) انظر: تفسير الزمخشري الكشاف عن حقائق الغوامض/للزمخشري 4/3.

(5) انظر: المنتخب في تفسير القرآن/لجنة من علماء الأزهر 444/1.

فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه كان يوم بُشِّرَ بالولد ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت تسعين وثمان والله أعلم. وقد استفهم زكريا عن البشري من ربه استفهام استخبار واستعلام هل سيأتيه الولد من زوجه العجوز على كبر سنهما على سبيل خرق العادة أو يتزوج شابة، أو يردهما الله شابيين؟ كما استعجب زكريا عليه السلام من كمال قدرة الله .

وقيل إن الشيطان سول لزكريا عليه السلام أن نداء الملائكة إنما هو نداء الشيطان فقال عليه السلام: رب اجعل لي آية ليتيقن أن النداء من الله، أو ليتمطمأنينته بوقوع ما بُشِّرَ به، كما أراد أن يعرف بالعلامة ابتداء حمل امرأته حيث يكون الحمل مخفياً في أوله والله أعلم. (1)

لذلك قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكَّرَ

رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ [آل عمران: 41]

كان زكريا عليه السلام مسرورا بالبشري بيحيى بعدما طعن به العمر فطلب من ربه علامة ليعلم بها تحقق البشري، فأجابه الله بأن علامتك أن تعجز عن كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة إليهم بما تريد، وثابر على ذكر ربك وتنزيهه في المساء والصباح. (2) بالتسبيح والتهليل معرضا عن الخلق والدنيا شاكرا لله تعالى على إعطائك إياها فإذا أمرت بهذه الطاعة فاعلم أنه قد حصل المطلوب.

(1) انظر : الجموع البهية السلفية/محمود بن محمد بن مصطفى 52/2.

(2) انظر :المنتخب في تفسير القرآن/لجنة من علماء الأزهر 77/1.

المطلب الرابع

بزوجه ﷺ علاقة أيوب

أيوب ﷺ نبي من أنبياء الله عز وجل وهو من ذرية إبراهيم ﷺ، فأبراهيم أبو الأنبياء وإليه ترجع أصول الأنبياء وأنسابهم جميعاً، وقد منح الله عز وجل مراتب معتبرة للأنبياء بعد النبوة كالمملك والقدرة والسلطان وغيرها، كان نصيب نبي الله أيوب ﷺ من هذه المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد، فقد خصه الله بهذه المرتبة ليكون مثلاً يُحتذى به في الصبر على الشدائد، مع الشكر الدائم لله على كل حال، حتى وإن لم يملك الإنسان إلا القلب الخاشع واللسان الذاكر لله، ولنا في نبي الله أيوب الأسوة الحسنة.

نبي الله أيوب ﷺ كان رجلاً من الروم وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم ابن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران، وقد بعث الله إسحاق ﷺ نبياً في الشام وحران وما والاها وكان من ذريته العيص، ومن سللته: نبي الله أيوب ﷺ بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ⁽¹⁾

وبعث الله تعالى أيوب نبياً واصطفاه ونبأه وبسط له الدنيا. وقد ابتلاه الله بِالْغَنَى وَكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ⁽²⁾ وسمي أيوب لكثرة إيابه إلى الله في جميع أحواله في السراء والضراء، والشدة والرخاء⁽³⁾

وزوجه اسمها: ليا بنت منشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ويقال: ليا بنت يعقوب ﷺ وقيل هي رحمة بنت افرائيم وكانت معه بأرض البُنِّيَّةِ⁽⁴⁾.

وقد جاء ذكر أيوب ﷺ في القرآن الكريم في أربعة مواضع فيقول الله تعالى:

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ مَسْنَى الشَّيْطَانِ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذَّ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرَبَ بِهِنَّ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: 41-44]

(1) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام/بكر بن عبد الله أبو زيد 65/1

(2) تفسير الخازن لباب التفسير في المعاني/علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم 234/2

(3) اطائف الإشارات/عبد الكريم بن هوازن 514/2

(4) تهذيب الاسماء واللغات/أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي 473/2، للمزيد انظر حاشية ص 55 في الرسالة.

ونسلسط الضوء على العلاقة الإيمانية الراقية لنبي الله أيوب وكذلك زوجته من خلال

ما يلي :

1- نِعَمَ اللهُ عَلَى الْعَبْدِ الصَّالِحِ أَيُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلِهِ :

لقد أنعم الله على أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بنعم كثيرة من المال والأرض والولد والعبيد وقوة البدن، فقد كانت لنبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَنِّيَّةُ من أرض البلقاء من أعمال خوارزم مع أرض الشام كلها، سهلها وجبلها أعلاها وأسفلها خالصة له، وكان له فيها من أصناف المال كله: من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدد والكثرة⁽¹⁾

وكان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية، كما وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال، ويحمل له آلة كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان أو ثلاثة أو أربع أو خمس وفوق ذلك، وكان الله تعالى قد أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء كثر⁽²⁾

2- عِبَادَةُ أَيُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ وَامْتِعَاضِ الشَّيْطَانِ :

كان أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ براً تقياً رحيماً بالمساكين يطعمهم ويحمل الأراذل ويكفل الأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لنعم الله مؤدياً لحقه⁽³⁾ فقد قال أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب، إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك. ولم ألبس قميصي وأنا أعلم مكان عار، وقد كان يمهد لي الفراش فأتركه وأقول لنفسي يا نفس إنك لم تخلقي لوطء الفرش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك⁽⁴⁾.

وقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ للغريب داراً، وللمسكين قراراً، ولليتيم ولياً، وللمرأة قيماً⁽⁵⁾ وقد وصفه القرآن بقوله: (نعم العبد إنه أواب) أي أنه على طاعة الله مقبل، وإلى رضاه رجّاع⁽⁶⁾ وقد كان من الأنبياء الذين مكن الله لهم بعد أن صبروا على ما امتحنهم الله به.

فقد قيل للشافعي رحمه الله يوماً: أي أفضل؟ الصبر أو المحنة، أو التمكين؟

(1) الرقة والبكاء/عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة 81/1.

(2) تفسير البغوي إحياء التراث/محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود 303/1.

(3) تفسير الإمام ابن عرفة النسخة الكاملة/محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي 375/3.

(4) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم/عبد الرحمن الرازي ابن أبي حاتم 2458/8.

(5) اللباب في علوم الكتاب/عمر بن علي بن عادل الحنبلي 565/13.

(6) جامع البيان تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 214/21.

فقال الشَّافِعِي (1) رحمه الله: التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر، وإذا صبر مُكَّن، ألا ترى أن الله عزَّ وجلَّ، امتحن أيوب عليه السلام ثم مكَّنه، كما مكَّن لإبراهيم وموسى ويوسف من قبل بعد الصبر على الامتحان، والتمكين أفضل الدرجات وأيوب بعد المحنة العظيمة مُكَّن يؤكد ذلك قوله تعالى: (وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ).

وقد مدح الغزالي رحمه الله (2) هذا الكلام للشَّافِعِي قائلاً عنه: "رحمه الله يدل كلامه على تبحره في أسرار القرآن، وإطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء." (3)

ما ذكره جماعة من المفسرين: أن الله سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاءً لأيوب، فأهلك ماله وولده، ثم سلطه على بدنه فنفخ في جسده نفخةً اشتعل منها، فصار في جسده ثأليل، فحكها بأظفاره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه، فغالب ذلك من الإسرائيليات. (4)

وقد عصم الله قلب نبي الله أيوب ولسانه من الشيطان فليس له سلطان على لسانه وقلبه وعقله، وكان الله أعلم به، وإذا سلط الله الشيطان على أيوب عليه السلام على ماله وأهله وبدنه، فلا يكون إلا رحمة به ليعظم له الثواب، ويجعله عبرةً للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب. (5)

وفي قصة تسليط الشيطان عليه أن إبليس كان لا يُحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهن حيث ما أراد حتى رفع الله عيسى، فحجب من أربع، فعندما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم حُجِبَ من الثلاث الباقية، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فأدركه البغي والحسد، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه، فقال: إلهي نظرت في عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ولو ابتليته بنزع

(1) محمد بن إدريس الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة سنة 767 م (بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين. وزار بغداد مرتين. وقصد مصر، برع في الشعر واللغة وأيام العرب، ثم أقبل على الفقه والحديث، ونبغ في كثير من العلوم وتوفي بها سنة 820 م انظر: الأعلام للزركلي 26/6

(2) أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد، أبو الفتوح الغزالي: واعظ، هو أخو الإمام أبي حامد الغزالي. درس بالنظامية نيابة عن أخيه لما ترك التدريس زهادة فيه. أصله من طوس، ووفاته بقزوين سنة 520 هـ.

وشهرته بالغزالي بالنتشديد أو الغزالي بالتخفيف انظر: الأعلام للزركلي 214/1

(3) تفسير الإمام الشافعي/لشافعي 1076/3

(4) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن/محمد الأمين الشنقيطي 239/4

(5) تفسير الخازن لباب التفسير في المعاني/علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر 234/2

ما أعطيته لحال عما هو عليه من شركك وعبادتك ولخرج من طاعتك. فسأطه الله على أيوب عليه السلام على ماله وغنمه وإبله وفداده وحرثه ثم أولاده وأخيراً صحته فلم يكن أيوب عليه السلام إلا صابراً. (1)

وقد كان من عظيم ما أحزن نبي الله عليه السلام، قول قومه عنه : إنه لو كان نبياً حقاً لما أصابه كل هذا البلاء، وإنه عليه السلام قد ارتكب ما استحق عليه البلاء، ولكنه عليه السلام والأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب، بل هم أشد الناس بلاءً (2)

وغاية ما دل عليه القرآن أن الله ابتلى نبيه أيوب عليه السلام، وأنه دعا عليه السلام ربه فاستجاب له وكشف عنه الضر ووهبه أهله ومثلهم معهم، وقد نسب أيوب عليه السلام الضر إلى الشيطان في قوله

تعالى على لسان أيوب عليه السلام ﴿ **أَيُّ مَسِّىَ الشَّيْطَانُ بِضَيْبٍ وَعَذَابٍ** ﴾ [ص: 41] ويمكن أن يكون الله سلب الشيطان على جسده وماله وأهله عليه السلام ابتلاءً ليظهر صبره الجميل، وتكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة. وقد يرجع له كل ما أصيب فيه والله أعلم وهذا لا ينافي أن الشيطان ليس له على أيوب عليه السلام سلطان. (3) لأن ما أصاب أيوب عليه السلام من جنس الأسباب التي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض وموت الأهل وهلاك المال لأسباب متنوعة، ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء. (4) لكنه عليه السلام كان في منتهى الحياء والأدب مع الله، وما روي من أكل الدود لجسد نبي الله أيوب عليه السلام أثناء مرضه من الإسرائيليات المنكرة (5)

3- صبر أيوب عليه السلام وزوجه على البلاء

بعدما أهلك مال أيوب عليه السلام، إبله وغنمه وزرعه وحرثه وأهلك أولاده، ابتلاه الله ببذنه وعافيته فخرج من قرنه إلى قدمه ثاليل مثل آليات الغنم، ووقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة.

فلم يزل يحك حتى قرح لحمه، فكانت امرأته، وهي رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب، كانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه (6).

(1) اللباب في علوم الكتاب/عمر بن علي بن عادل الحنبلي 560/13 بتصرف

(2) الرسل والرسالات/عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر 75/1.

(3) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن/محمد الأمين الشنقيطي 239/4.

(4) الجموع البهية للعقيدة السلفية/محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف 488/2.

(5) معترك الأقران في إعجاز القرآن/جلال الدين السيوطي 273/2.

(6) لباب التفسير في المعاني 234/2.

وكان أيوب عليه السلام كلما أصابته مصيبة قال: اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت مهما تبقى نفسك أحمدك على حسن بلائك⁽¹⁾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة أيوب قالت: يا أيوب إنك رجل مجاب الدعوة فادع الله أن يشفيك فقال: ويحكنا في النعماء سبعين عاما فدعينا نكون في البلاء سبع سنين.⁽²⁾

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمانية عشر سنة أو شهرا فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم، تعلم والله إن أيوب قد أذنب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذلك؟ قال: منذ ثمانية عشر عاما لم يرحمه الله فيكشف ما به.⁽³⁾"

فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه السلام ما أدري ما تقولان؟ غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتراغمان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما أن يذكر الله إلا في حق⁽⁴⁾

4- وفاء الزوجة الصالحة لأيوب عليه السلام والثغاني فيه:

لقد فقد أيوب عليه السلام كل ما يملك حتى عافيته، فقد ابتلاه الله من المرض ما لا يطاق، حتى أن أهل قريته أخرجوه خارج القرية مشمئزين منه يخشون العدوى فقد كان ما أصابه عليه السلام جرب معدي، وقيل: إن رائحته أنتنت، ولكن زوجته الصالحة لم تتركه وبقيت بجانبه تراعي مصالحه، واضطرت أن تعمل خادمة عند أهل القرية لتأتي بالطعام لأيوب عليه السلام، بعد فقدانهم كل شيء، وهي التي كان لها الخدم والحشم والعبيد والمال بجميع أنواعه من الحرث والزرع والفدادين والأنعام والبيوت، فلولا صلاحها لما طاقت ذلك فمن اعتاد على شيء صعب أن يتعود على نقيضه، ولكن المرأة الصالحة هي التي تكون نعم الزوجة لزوجها في أحلك الظروف وأسوأها.

اغتاظ الشيطان لأنه لم يحقق ما أراد من أيوب في كفر النعمة، على العكس فقد وجد أيوب شاكراً لله رغم البلاء الذي ألم به، فعمل على التصديق عليه أكثر، فوسوس لأهل القرية أنه ستصيبهم العدوى من أيوب بواسطة زوجته التي تخدم في بيوتهم، وكان يأتي إلى أصحاب الخبز

(1) الدر المنثور في التفسير بالمأثور/ السيوطي 197/7.

(2) شعب الإيمان/ ابن القيم 240/12.

(3) الأمراض والطب النبوي/ للمقديسي 29/1.

(4) المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج البخاري ومسلم في صحيحهما، إسناده صحيح، الإحسان

244/4 ح 2887.

والشوي الذين كانوا يتصدقون عليها، فيقول لهم : اطردوا هذه المرأة التي تغشاكم، فإنها تعالج صاحبها وتلمسه بيدها، فالناس يتقذرون طعامكم من أجل أنها تأتكم وتغشاكم على ذلك⁽¹⁾

تحقق للشيطان ذلك، فخافوا من العدوى أن تنتقل إليهم بواسطتها فطردوها ومنعوا أن تعمل في بيوتهم، فكيف ستحصل الآن على الطعام لزوجها المريض عليه السلام.

طلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤاباتها⁽²⁾ على أن تعطيها قدر القوت فاضطرت أن تبيع شعرها لشراء الطعام لزوجها، ولقد كان لها شعر جميل هو زينة جمالها كما أي أنثى، وكان لها ثلاث ضفيرات طويلة فعمدت إلى إحداهن فقطعتها وباعتها فأعطوها بذلك خبزاً ولحماً.

فقال لها أيوب عليه السلام : من أين هذا الطعام ؟ فهو يعلم أن أهل القرية منعوها من العمل عندهم، فقالت: كُلْ فَإِنَّهُ حَلالٌ، فلما كان من الغد لم تجد شيئاً فباعت الضفيرة الثانية، وكذلك فعلت في اليوم الثالث، وكان عليه السلام يسألها من أين ؟؟ فتجيبه: كُلْ فَإِنَّهُ حَلالٌ، فقال في الثالثة: لا أكل ما لم تخبريني، فأخبرته فحزن حزناً شديداً.⁽³⁾ فقد كان عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بواحدة من تلك الذؤابات، ووقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتد غمه، فعند ذلك قال: " أني مسني الشيطان بنصب "⁽⁴⁾

5- أدب رفيع مع الله وكشف الضر عن أيوب عليه السلام

لبث أيوب عليه السلام ثمانية عشر عاماً وهو مبتلى، وقد عافه الجميع وأبعده عن القرية اشمزازاً منه وخوفاً من مرضه أن يصيبهم ولم يبق معه سوى زوجه الصالحة، ثم دعا أيوب عليه السلام ربه بأدب رفيع ممزوج بنسمات الإيمان والحياء من الله فقد أخبرنا القرآن الكريم على لسانه : (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) الأنبياء 83 وقوله تعالى في سورة

ص: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41]

في الآيتين السابقتين يتجلى أدب راق في حياء رفيع مع استكانة وخضوع لله أرحم الراحمين، يظهر جلياً من إمام الصابرين أيوب عليه السلام في معرض حديث القرآن عنه عليه السلام فلم ينسب ما أصابه إلى الله مع أنه منه عز وجل وهو وحده القادر عليه، فرغم ما أصابه عليه السلام إلا أنه وبعد سنين من المرض الشديد والفقر المدقع الذي أصابه بعد سنين الصحة والعز والجاه، لم يغير

(1) جامع البيان/ابن جرير الطبري 213/21.

(2) ذؤابات: جمع ذؤابة وهي الضفيرة في الشعر .

(3) اللباب في علوم الكتاب/سراج الدين عمر بن علي 565/13 بتصرف.

(4) مفاتيح الغيب/للرازي 398/26 بتصرف.

ذلك شيئاً من قلبه ﷺ المفعم بالإيمان، بل ازداد إيماناً فوق إيمانه، ففي سورة الأنبياء نجد أنه لم يذكر ممن الضر؟ وفي سورة ص نجده ينسبه ﷺ للشيطان.

ونرى أن إيمانه المقترن بحيائه، يمنعه من أن ينسب ما أصابه إلى الله عز وجل وقيل: إن الذي جعل أيوب ﷺ يدعو ربه ما بلغه من قول الناس وكان شديداً عليه قولهم: "لو كان نبيا ما ابتلي بالذي ابتلي به" فعندها دعا الله قائلاً: اللهم إن كنت تعلم أنني لم أعمل حسنة في العلانية إلا عملت في السر مثلها؛ فاكشف ما بي من ضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجاب الله له، فوقع ساجداً، وأمطر عليه فراش الذهب، فجعل يلتقطه ويجمعه⁽¹⁾

إن نسبة الضر للشيطان كما في سورة ص دعى بعض المفسرين إلى القول:

"إن الله سبحانه أذن لإبليس لعنه الله في إهلاك مال أيوب، وفي إهلاك بنيه وقرايته، ففعل ذلك أجمع" والله أعلم بصحة ذلك⁽²⁾ وبعضهم قال: إن المراد ما يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك البلاء أو يوفقه في دفعه وردة بالصبر الجميل، وهناك من قال: إن المقصود من الآية أن ما أصاب نبي الله أيوب كان بسبب الجن⁽³⁾.

وعلى كل حال لقد أقبل أيوب ﷺ على الله تعالى متضرعاً إليه فقال: رب لأي شيء خلقتني يا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت، فصرفت وجهك عني، ألم أكن للغريب داراً، وللمسكين قراراً، ولليتيم ولياً، وللمرأة قيماً، إلهي أنا عبدٌ ذليلٌ إن أحسنت فالمنُّ لك، وإن أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء غرضاً، وللفتنة نصيباً، وسلطت عليّ ما لو سلطته على جبل لضعف عن حملة، إلهي تقطعت أصابعي، وتساقت لهوائي، وتناثر شعري، وذهب المال فصرت أسأل اللقمة فيطعمني من يمن بها عليّ، ويعيرني بفقرتي وهلاك أولادي⁽⁴⁾.

ومن قمة الأدب مع الله والحياء منه أنه ﷺ، لم يصرّح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب، ثم كان من الله سبحانه وتعالى وحده صرف الضر، فقد كان ﷺ من شدة ضره، يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه " أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب"، فاستبطنته

(1) انظر : تفسير القرآن العزيز/محمد بن عبد الله لابن أبي زمنين 156/3.

(2) انظر : الجواهر الحسان/عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي 96/4.

(3) انظر : عالم الجن والشياطين/عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر 61/1.

(4) انظر : المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز/عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام 54/2.

زوجها، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، رأيت نبي الله المبتلى؛ والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو⁽¹⁾ وكان له أندران⁽²⁾، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله صاحبتيين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض⁽³⁾.

وبذلك قد تقبل الله سبحانه وتعالى منه التضرع والدعاء، الذي لم يخرج من طور الصبر، وفرّج ما به من كرب.

يقول الله تعالى لأيوب: ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ ص 42، فقد قال له جبريل عليه السلام: " اضرب الأرض برجلك"، فضرب فنبعت عين من تحت قدميه، فاغتسل فيها، فخرج منها صحيحاً، ثم ضرب برجله الأخرى فنبعت عين أخرى ماء عذب بارد، فشرب منها، فذلك قوله: "هذا مغتسل" أي العين التي اغتسل منها ثم قال: "بارد وشراب" يعني العين التي شرب منها، وبرا مما كان فيه من الظاهر والباطن⁽⁴⁾

وعندما كشف الله عنه الضر، أحيا ولده ورزقه مثلهم. وروى أن امرأته ولدت بعد ذلك ستة وعشرين ابناً، وهذا رحمة من الله للعابدين، وأن الله يذكرهم بالإحسان ولا ينساهم، ورحمة لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أُنيب في الدنيا والآخرة⁽⁵⁾.

أكثر التفاسير أن الله تعالى أحيا من مات من بنيه وبناته ورزقه مثلهم من ولد، فقال ابن مسعود عليه السلام: " مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي أحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات". والمعنى أعطينا أهلها في الدنيا ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع⁽⁶⁾ وقيل عن البعض: آتينا مثلهم في الآخرة وليس في الدنيا⁽⁷⁾ والله أعلم.

(1) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن/أبو الطيب محمد صديق خان 361/8.

(2) الأندر: الموضوع الذي يدرس فيه القمح وغيره. الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 216/15.

(3) انظر: فتح القدير للشوكاني/محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني 500/3.

(4) انظر: تفسير السمرقندي بحر العلوم/أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد 169/3.

(5) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/أبو القاسم الزمخشري 130/3.

(6) انظر: الجامع لأحكام القرآن/أبو عبد الله القرطبي 326/11.

(7) انظر: معاني القرآن وإعرابه/إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج 401/3.

وذلك رحمة من الله عز وجل لأيوب وزوجه وتذكرة للعابدين ربهم ليعتبروا به، ويعلموا أن الله قد يبئلي أوليائه ومن أحب من عباده في الدنيا بضروب من البلاء في نفسه وأهله وماله، من غير هوان به عليه، ولكن اختباراً منه ليبلي بصره عليه واحتسابه إياه، وحسن يقينه منزلته من الكرامة التي أعدها الله تبارك وتعالى له عنده⁽¹⁾

6- رفق الله عز وجل بالزوجين الصالحين :

قالت امرأة نبي الله أيوب عليه السلام له يوماً: لو دعوت الله حتى يفرج كربك، فقال لها: كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة، فقال: إني استحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي⁽²⁾. وقد أخبر القرآن عز وجل في معرض ذكر قصة أيوب عليه السلام من قوله تعالى:

﴿ وَخُذْ بِذِكْرِكَ ضِعْفًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنَطْ إِنََّّا وَجَدْتُهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص: 44] ما

يشير إلى أن هناك ما دعا أيوب عليه السلام أن يحلف ضرب زوجته، وذكرت التفسير أنه عليه السلام حلف ليضربن امرأته مائة سوط، والسبب الأصلي في ذلك وإن اختلفت الروايات، هو استماعها للشيطان الذي كان يظهر لها في صورة من يريد شفاء زوجها، فقد ظهر لها أنه طبيب يدلها على شفاء زوجها، وأن شفاؤه يتم إذا أشرك بالله سبحانه وتعالى، ولم تكن تعرف أنه الشيطان، فقد قالت لزوجها عليه السلام يوماً: لو ذبحت عناقا باسم الشيطان؟ فقال: لا، ولا كفاً من تراب. فحلف أن يضربها مائة سوط لاستماعها للشيطان، وأمره الله أن يبر بيمينه عندما فرج الله كربيه⁽³⁾.

ومن الأقاويل في محاولة إبليس لعنه الله إشراك أيوب من خلال امرأته: أنه في يوم أخذ تابوتاً وقعد على الطريق يداوي الناس، فجاءته امرأة أيوب، فقالت له: أتداوي رجلاً به علة كذا وكذا؟ قال: نعم، بشرط إن شفيتها قال لي: "أنت شفيتني لا أريد منه أجراً غير هذا". فجاءت امرأة أيوب إلى أيوب، فقال لها: ذلك الشيطان! والله لئن برأت لأضربنك مائة، فلما برأ أخذ شمراخاً فيه مائة عرجون فضربها به ضربة واحدة وبر بقسمه كما أمره الله⁽⁴⁾ وتخفيفاً على امرأته الصالحة الوفية التي لم تترك زوجها في شدته⁽⁵⁾.

وقد جمع صاحب الكشاف وغيره من المفسرين عدة أسباب لحلف أيوب عليه السلام أن يضرب زوجته فقال: " كان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فحرج صدره. وقيل: باعت ذوابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام.

(1) انظر : تفسير الطبري جامع البيان/ابن جرير الطبري 506/18.

(2) انظر : صفوة التفسير/محمد علي الصابوني 249/1 .

(3) تفسير السمرقندي بحر العلوم/أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد 169/3 بتصرف .

(4) انظر : الهداية في بلوغ النهاية/أبو محمد مكي بن أبي طالب 6258/10

(5) انظر : أحكام القرآن/أحمد بن علي الجصاص 258/5.

وقيل: قال لها الشيطان اسجدي لي سجدة فأرد عليك ما لكم وأولادكم، فهمت بذلك فأدركتها العصمة، فذكرت ذلك له، فحلف ، وقيل: أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ، فعرضت له بذلك. وقيل: سألته أن يقرب للشيطان بعناق (1) أحد هذه الأسباب والله أعلم كانت سبباً في أن يحلف ليضرينها حين يشفى أو قد يكون غير ذلك والعلم عند الله .

وهكذا كان يحاول الشيطان معها في طرق وأساليب جديدة، فتأتي تخبر أيوب عليه السلام فيقول لها: لقيك عدو الله فلقنك هذا الكلام؛ ويلك، إنما مثلك كمثل المرأة الزانية إذا جاء صديقها بشيء قبلته وأدخلته، وإن لم يأتها بشيء طردته، وأغلقت بابها عنه! لما أعطانا الله المال والولد آمننا به، وإذا قبض الذي له منا نكفر به، ونبدل فيره! إن أقامني الله من مرضي هذا لأجلدك مئة (2)

ورحمةً به عليه السلام وبزوجه علمه سبحانه وتعالى كيف يخرج من هذا اليمين دون أن يؤدي زوجته " بضربها بضغث " (3) أو قبضة من سنبل فيها مائة سنبله مجتمعة.

وقيل الضغث القبضة الواحدة من عيدان رطبة من الآس فيه مائة عود، أو الحزمة منها، فاضرب امرأتك بها حتى تبر بقسمك ولا تحنث (4)

وعن الضحاك (5) عن ابن عباس أن أيوب عاش بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية وعلى ذلك مات، وتغيروا بعد ذلك وغيروا دين إبراهيم كما غيره من كان قبلهم. وأوصى عند موته إلى ابنه حرم، وقد بعث الله بعده بشر بن أيوب نبياً وسماه ذا الكفل وكان مقيماً بالشام حتى مات ابن خمس وسبعين سنة، وأن بشراً أوصى إلى ابنه عبدان ثم بعث الله بعدهم شعيباً وقيل عن أيوب عليه السلام أنه كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من جار عينه تراني، وقلبه يرعاني إن رأى حسنة أطفأها وإن رأى سيئة أذاعها) (6)

(1) انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/أبو القاسم الزمخشري 98/4.

(2) انظر : تفسير الطبري جامع البيان/ابن جرير الطبري/21/212.

(3) الضغث: الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو نحو ذلك، انظر : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن/محمد الأمين الشنقيطي 240/4.

(4) انظر : بحر العلوم للسمرقندي/أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد 169/1.

(5) ثابت بن الضحاك بن خليفة الأشهلي الأوسي المدني، أبو زيد: صحابي، ممن بايع تحت الشجرة. كان رديف رسول الله ﷺ يوم الخندق ودليله إلى حمراء الأسد. له 14 حديثاً، وتوفي سنة 45هـ انظر الأعلام للزركلي 98/2.

(6) انظر : تفسير الدر المنثور بالتفسير بالمأثور/جلال الدين السيوطي 660/5.

المطلب الخامس

موسى عليه السلام وزوجه

لم يذكر القرآن الكريم الكثير من أخبار الزوجة الصالحة زوج موسى عليه السلام، فقد أشار القرآن إليها في ثلاثة مواضع مخبراً عن نفس الحدث وذلك في طريق عودته من أرض مدين إلى مصر مروراً بفلسطين، فيقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: 29].

اسم زوج موسى عليه السلام اختلف فيه وكذلك الأمر في اسم والدها حمو موسى عليه السلام⁽¹⁾، فيقال إن امرأة موسى هي ابنة نبي الله شعيب عليه السلام، فقد وُلِدَ لشعيب ابنتان إحداهما صفوراء امرأة موسى بن عمران عليه السلام⁽²⁾. والثانية اسمها "ليا". وامرأة موسى عليه السلام هي الصغرى منهما. وهناك من قال: إن اسمها سوريا وليس صفوراء، وقيل: إن قبرها في كفر منددة وهي قرية بين عكا وطبرية⁽³⁾ في فلسطين.

وفي الاختلاف بأبيها قال ابن إسحاق: حمو موسى عليه السلام هو شعيب النبي عليه السلام. وقيل: هو بيرو (ابن أخ شعيب عليه السلام) وعن ابن عباس: أن اسمه يثرى وهو صاحب مدين⁽⁴⁾.

ومع اختلاف المفسرين في اسم حمو موسى عليه السلام الوارد ذكره في قصة موسى عليه السلام، فلا دليل على أيٍّ من الأقوال، ولسنا متعبدين بمعرفته ولا بمعرفة اسمي المرأتين بل بالإيمان والتصديق بالقصة دون معرفة الأسماء⁽⁵⁾، ومن خلال قصته عليه السلام الواردة في القرآن سنسلط الضوء على جانب منها لإبراز العلاقات الأسرية لهذا النبي الكريم من خلال النقاط التالية:

1- حياء المرأة وأدب موسى عليه السلام والطيبون للطيبات

يقول الله سبحانه وتعالى واصفاً موقف المرأة التي قَدَّرَ لها أن تكون امرأة كليمة موسى

عليه السلام في قرآن تنزل على العالمين: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَنْتِ مُوسَى ﴾

(1) انظر: مختصر تاريخ دمشق/ابن عساكر 307/10.

(2) انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم/جمال الدين الجوزي 109/19.

(3) انظر: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع/عبد المؤمن بن عبد الحق 117/39.

(4) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 5521/8.

(5) انظر: الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية/سليمان الصرصري 326/1.

لِيَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿ [القصص: 25]

يصف القرآن الكريم سلوك المرأة الصالحة مع موسى عليه السلام حين أرسلها أبيها في طلبه، سلوك يدل على أدب وحياء، فهي من بيت صلاح وفلاح، قد بين الله سبحانه وتعالى صلاح أبيها حين قال لموسى عليه السلام بعدما قص عليه قصته، قال له: (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) ويبين القرآن أيضاً صلاحه في موقف آخر حين قال لموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القصص: 27]، فهذا الرجل الصالح الذي اختلف فيه هل هو نبي الله شعيب عليه السلام أم غيره، قد أدب ابنته وأحسن تربيتها فكانت حيية قوية الشخصية، نزل فيها قرآن من فوق سبع سموات يصف مشيتها وأدب معاملتها مع الرجال، مظهراً صفة الحياء فيها فيقول الله تعالى: " فجاءته إحداهما تمشي على استحياء".

وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه واصفاً سلوكها: (ليست بسلفع⁽¹⁾ من النساء خراجه ولاجه⁽²⁾)، ولكنها جاءت مستتره قد وضعت كم درعها على وجهها استحياءً.⁽³⁾

كما أنها كانت أمينة على سمعة أبيها الذي أرسلها في طلب موسى، فتكلمت في الموضوع مباشرة قائلةً "إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا " ولم تتكلم إلا بالمفيد المختصر، محترمة شبيهة أبيها وضعفه، فقد قيل: إنه كان كفيف البصر من كثرة بكائه شوقاً لله⁽⁴⁾، كما كانت المرأة صحيحة الحكم والانطباع على من تعاملت معه ولو لفترة وجيزة ويظهر هذا في أمانة النقل لأبيها عما كان فحدثته بصحيح ما رأت ولاحظت.

وفي المقابل كان موسى عليه السلام في قمة الأخلاق والأدب، بالتأكيد فهو أدب من قال له ربه ﴿ وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ طه: ٣٩ ، فقد قالت له وهي تداري وجهها من الخجل: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فانطلق موسى معها يتبعها، فهبت الريح، فألزقت ثوبها بردفها، فكره

(1) السلفع من النساء: الجريئة على الرجال، السليطة/الصَّخَابَةُ البَدِيئَةُ السَّيِّئَةُ الخلق، تاج العروس/21/219
(2) خراجه ولاجه: كثيرة الخروج والدخول من البيت، لا خير فيها ولا ملاحه ممتهنة مبتدلة، والحره مصونة محصنة من هذه النقائص/الجموع البهية للعقيدة السلفية/المنياوي/2/677، مفاتيح الغيب/الرازي/10/47 .
(3) انظر : الدر المنثور المنثور في التفسير بالمأثور/جلال الدين السيوطي 406/6.
(4) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل/علاء الدين الشيجي المعروف بالخازن 3/363.

موسى أن يرى ذلك منها، فقال لها : (امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، ودليني عليها إن أخطأت، فإننا بني يعقوب لا ننظر إلى أعجاز النساء)، فلما جاء إلى أبيها وقص عليه القصص، علم أبوها بأمره والسبب الذي أخرجه من أرضه، فقال له: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، يعني فرعون وقومه لا سلطان له بأرضنا⁽¹⁾.

ثم قالت إحدى المرأتين وهي التي تزوجها موسى ﷺ: يا أبت استأجره لرعي أغنامنا إن خير من استأجرت القوي الأمين، فقال لها أبوها: وما علمك بقوته وأمانته؟ فقالت: أما قوته فإنه لما رأنا حابسي أغنامنا عن الماء، قال لنا: فهل بقركما بئر؟ قلنا: نعم، ولكن عليها صخرة لا يرفعها إلا أربعون رجلا، قال: انطلقا بي إليها فأخذ الصخرة بيده فنحاهما.⁽²⁾

وأما أمانته فإنه قال لي في الطريق: امشي خلفي، وإن أخطأت الطريق، فارم قدامي بحصاة حتى أنهج نهجها⁽³⁾ حتى لا يراني، فجعل الله سبحانه وتعالى هذه المرأة الحيية ذات الشخصية القوية زوج الكليم ﷺ، لتعينه في رسالته ودعوته إلى الله بعد ذلك.

2- مهر امرأة موسى ﷺ :

جرت العادة أن يخطب الرجل المرأة ولكن في هذا الزواج الميمون، زواج كليم الله من صفوراء اختلف العرف المعتاد الغالب عند العرب، فقد خطب موسى ﷺ ولم يخطب. وذلك في موقف عرضه القرآن الكريم، فيقول المولى ﷺ على لسان والد زوج موسى ﷺ: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتِي عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرِي ثَمَنِي حَبْجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القصص: 27]

فقد عرف هذا الرجل الصالح الذي ورد ذكره في القرآن أن موسى ﷺ نبي، وقد طمأنه بقوله: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: 25]، فعرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه بعدما استشف من وصفها له بالقوة والأمانة إعجابها به، كما أشار القرآن على لسانها ﴿ يَكْتَابُ أَسْتَجِرَّةً إِلَيْكَ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: 26] فقبل موسى ﷺ هذا العرض وتزوج إحدى المرأتين وعلى الأغلب صفوراء.⁽⁴⁾

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد/أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة 244/4 بتصرف.

(2) تفسير مجاهد/أبو الحجاج مجاهد بن جبر 526/1 بتصرف.

(3) تفسير الثعلبي الكشف والبيان/أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي 245/7 بتصرف.

(4) اللباب في علوم الكتاب/عمر بن علي بن عادل 220/15 بتصرف.

جاء في سورة القصص أن موسى أصدق امرأته من مدين خدمة ثماني أو عشر حجج لأبيها بناءً على طلب والدها، هذا ما أخبرنا به القرآن ومن أصدق من الله قبلاً، بينما تنكر التوراة أن هناك مهراً دفعه موسى ﷺ وأنه ﷺ لم يمهراً المرأة لا بالخدمة ولا بما يقوم مقامها، وأن زواج موسى من ابنة الرجل الصالح إنما هو عطية من الرجل الصالح لموسى لتكون زوجة له⁽¹⁾.

ونحن نصدق قرآننا ونكذب ما خالفه وكفى، ومنطقياً أن موسى ﷺ هارب من أرض مصر بلا مال معه، فكيف يتزوج في أرضٍ هو غريب عنها دون أن يقدم مهراً للمرأة التي سيتزوجها، فقد قيل إن والد المرأتين كان كفيف البصر، ولم يكن لديه أجير، وكانت ابنتاه تسوقان الأغنام مكان الرعاة، ولم يكن لهما قدرة على إخراج الماء من البئر، فكان الرعاة يستقون ويستضعفونهما، فإذا انفضوا، فإن بقيت في الحوض بقية من الماء استقت البنات الأغنام⁽²⁾، فالرجل الصالح كان يحتاج من يري له غنمه بدل من بناته الضعاف.

كما ونختلف مع التوراة في عدد بنات الرجل الصالح فالتوراة أنهن سبعة وليس اثنتين، وقد تكون الرواية صحيحة سبعة، ولكن اللتين خرجتا لسقي الماشية وهما الناضجتان منهم اثنتان فقط .

3- حسن وفاء العهد صفات الأنبياء عليهم السلام :

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة القصص على لسان الرجل الصالح: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نُنَادِي بِكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَنَمُنَّ بِيَوْمِ نَبَأِ الْبُرْجِ وَنَمُنَّ بِمَا نَعُدُّكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَمِنْ أَقْسَامِكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [القصص: 27-28]

أخبر الله سبحانه وتعالى أن موسى ﷺ اتفق مع الرجل الصالح في مدين على أن يعمل عنده ثماني أو عشر سنوات مقابل أن يزوجه ابنته. والعمل هو رعي ماشيته، وجعل الرجل ذلك صداقاً لابنته، ثم قال له: فإن أكملتها عشر سنين فهذا من عندك، فتكون السنان تامة العشرة زيادة وفضلة غير مفروضة عليه، وموسى ﷺ متبرع منفضل بها وليس مما اشترطه الرجل عليه في عقد النكاح، وأردف الرجل قائلاً: وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين أي من الوافين بالعهد، المحسنين الصلبة⁽³⁾.

(1) القرآن ونقض طعائن الرهبان/د صلاح عبد الفتاح الخالدي 140/1 بتصرف.

(2) لطائف الاشارات تفسير القشيري/عبد الكريم بن هوازن 60/3 بتصرف.

(3) معالم التنزيل في تفسير القرآن/محي السنة البغوي 203/6 بتصرف.

فقال له موسى عليه السلام: ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت الثمان أو العشر فلا عدوان عليّ والله على ما نقول شهيد وحفيظ.

وتظهر هنا واقعية شخصية موسى عليه السلام في رده على الرجل، فلم يلزم نفسه بالعشر حجج كاملة وترك الأمر للظروف حينها مع إيمانه بإرادة الله ومشيتته، ولكنه لم يناقش في صداق زوجه والذي فرضه أبوها، باعتباره حق لزوجه مفروض عليه وقادر على إيفائه بحول الله ومشيتته. وواضح أن موسى عليه السلام يصاهر رجلاً مؤمناً مثله في العقيدة والدين، في زمن سيادة الكفر والإشراك، والدليل على ذلك أن موسى عليه السلام قال بعد عقد النكاح (والله على ما نقول شهيد وحفيظ) ولم يقل " والله على " ما أقول"، فمفهوم الكلام أن كليهما يقران بمفهوم الشهادة والحفظ من الله، وهذا لا يتأتى إلا من وحدة العقيدة، وهذا من أهم عوامل إنجاح الزواج.

سؤل ابن عباس رضي الله عنهما عن أي الأجلين قضى موسى فقال: (قضى أكثرهما وأطيبهما، فإن رسول الله عليه السلام إذا قال فعل⁽¹⁾). وفي ذلك أيضاً روي عن أبي ذر مرفوعاً: (إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبرهما، وإذا سئلت: فأبي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت، فقالت يا أبت استأجره⁽²⁾، فترجح عليه السلام أصغرهما وقضى أوفاهم⁽³⁾)

4- زوج موسى الصالحة ترحل معه بعيداً عن مدين:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

[القصص: 29]

عندما انتهت العشر حجج كما تعاهد الرجل الصالح وصهره موسى عليه السلام، رحل موسى إلى وطنه الذي هرب منه خوفاً من فرعون، رحل إلى مصر مصطحباً معه زوجته التي بدورها تركت الوطن والأهل خلفها لتكون مع زوجها، وهي تعلم أنه مطلوب لفرعون قد يُسجن أو يُقتل ولكنه دأب المرأة الصالحة تكون مع زوجها في كل الأحوال في السراء والضراء وفي الأمن والسلام، ولا عجب من ذلك فهي من بيت صلاح، فأبوها كما قال عنه القرآن صالح أحسن تربيتها وتأديبها فكانت حبية قوية الشخصية، أمينة في القول والفعل فاستحقت أن تكون زوج رسول الله وكليمه.

(1) صحيح البخاري /كتاب الشهادات/ باب من أمر بإنجاز الوعد 289/5.

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط 19/2، وقد وثقه ابن حبان، وقال بقية رجال الطبراني ثقات .

(3) انظر : تاريخ بغداد/أبو بكر البغدادي 128/2.

وقد تحدثت الآية الكريمة عن موسى عليه السلام عندما ارتحل من مدين بطريقه إلى مصر عابراً بسيناء حيث جبل الطور المكان الذي كلمه عنده الله سبحانه وتعالى، فالآية الكريمة تصور لنا مشهداً بين موسى عليه السلام وزوجه، وتسلط الضوء على موقف للأزواج الصالحين، ورغم أن موسى عليه السلام لم يكن معه عند خروجه من مدين إلا زوجه، نجد أن القرآن استعمل لفظة أهله وذلك للتعظيم، وهو الوجه في تسمية الله سبحانه وتعالى امرأة موسى عليه السلام بالأهل⁽¹⁾.

وقوله تعالى: "وسار بأهله" فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء، لما له عليها من فضل القوامة وزيادة الدرجة، فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحلتم به الفروج.⁽²⁾ فلو كان شرط امرأة موسى أو أبيها أن لا تغادر مدين بعد الزواج، ووافق على هذا الشرط موسى عليه السلام لالتزم عليه السلام بذلك.

وقد كان قدر الله ومشيتته لموسى عليه السلام في أن يقضى عليه السلام من الأجل أقصاهما، فمكث بذلك موسى عليه السلام عند الرجل الصالح عشر حجج بعد ما تزوج ابنته، فكانت سنوات استرشاد واستكمال لشخصية النبوة وكسب للأخلاق والأطوار، وقد كمل بصحبة المرشد الكامل المكمل وشرف بشرف تربيته⁽³⁾ هذا القول علي اعتبار أن الرجل هو شعيب عليه السلام والله أعلم.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن موسى عليه السلام كان شرطه أن ما ولدت من الغنم في ذلك العام ولداً أبلق فهو له، فولدت في ذلك العام كلها بلقا، فأخذ الغنم البلق وقيل: مثل هذا الشرط في شريعتنا غير واجب، إلا أن الوعد من الأنبياء عليهم السلام واجب، فوقاه وعده.

فلما أراد أن يرجع قال للرجل: يا شيخ أعطني عصاً أسوق بها غنمي. فقال لابنته: التمسى له عصا، فجاءت بعصا أبيها فقال لها أبوها: ردي هذه، وكانت تلك العصا أودعها إياه ملك في صورة إنسان، وكانت من الجنة، فردتها والتمست غيرها، فلم يقع في يدها غيرها، فأعطتها زوجها موسى عليه السلام⁽⁴⁾ وهي العصاة التي سأله الله عنها في ميقاته في جبل الطور والله عز وجل أعلم بها فيقول الله تعالى: ﴿ وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴾ [طه: 17]

قال عكرمة رضي الله عنه عن العصا: هي التي خرج بها آدم من الجنة ثم أخذها جبريل بعد موت آدم، فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه. وقال آخرون: العصا التي نزل بها آدم ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصلت إلى شعيب عليه السلام وكانت عصى الأنبياء عنده، فأعطاه موسى عليه السلام⁽⁵⁾ والله أعلم.

(1) تفسير الألوسي روح المعاني/للألوسي 156/10 بتصرف.

(2) انظر: لجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي/شمس الدين القرطبي 281/13.

(3) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية/نعمة الله بن محمود النخجواني 81/2.

(4) انظر: تفسير السمرقندي بحر العلوم/نصر السمرقندي 606/2.

(5) الكشف والبيان عن تفسير القرآن/أبو إسحاق الثعلبي 255/7 بتصرف.

ولما أتم موسى ﷺ أجل المحنة، ودنت أيام الزلفة، وظهرت أنوار النبوة، سار بأهله ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه (1)، فقد اشتاق موسى ﷺ إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة (2)..

فحين سار بأهله في البرية، أوى إلى جانب الطور الغربي الأيمن، في ليلة مظلمة شديدة البرد، وكان قد اعتمد غير الطريق، يخاف ملوك الشام، لعلمهم كانوا من تحت يد فرعون وقد ضل الطريق (3)، وقيل إن موسى ﷺ كان رجلاً غيوراً، فرحل وحده لم يصحب من الرفاق دليلاً وهذا ما جعله يضل الطريق ليلاً لإرادة الله (4)

وقد ورد في القصة أنه ﷺ وُلد له عند الطور ابن، في ليلة شاتية ومظلمة متلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته فرأى النار فقال لأهله ما قال (5) فقد قيل كانت امرأته حاملاً، فأخذها الطلق، ففدح زنده، فلم يشعل ناراً، فأبصر من جانب الطور ناراً، ففرح من رؤيتها، فقال لأهله أقيموا هنا إني أبصرت ناراً، وهذا يدل أن أهله لم يروها بل رآها موسى ﷺ فقط، فأخبر امرأته إنه ذاهب نحوها لعله يأتيهم منها بخبر عن الطريق، أو يستخبر من عندها أو يحضر منها جذوة (6) ليستدفنن من البرد.

ونلاحظ المعاملة الراقية في التعامل بين الزوج الصالح وامرأته الصالحة والمتمثلة في إشراكها بأموره فقد أخبرها موسى ﷺ بما رأى، وأخبرها ما ينوي فعله، بل طرح أمامها الخيارات المتوقعة لديه حول النار التي ظن أنه رآها، وهذا دليل على احترام الزوجة وعدم الاستخفاف بها، دون احتكار للتفكير ومن غير دكتاتورية التصرف، فمكثت زوجه الصالحة راضية وحدها وبادر موسى ﷺ نحو النار سريعاً (7) فلما أتى جانب الطور حيث يرى النار ناداه ربنا سبحانه وتعالى إني أنا الله رب العالمين، مخبراً سبحانه وتعالى موسى ﷺ بالوهيته وربوبيته، ولزم من ذلك، أن يأمره سبحانه وتعالى بعبادته، وتألّفه، (8). كما صرح به في الآية الأخرى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ

الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ [طه: 14]

- (1) انظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل/للنسفي 64/2،
- (2) انظر : تفسير ابن كثير/للحافظ ابن كثير 234/6
- (3) انظر : اللباب في علوم القرآن/عمر بن علي بن عادل 227/15.
- (4) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي أبي طالب 5526/6.
- (5) انظر : تفسير الألوسي روح المعاني/للألوسي 156/10
- (6) الجذوة : وهي العود الغليظ مع شيء من النَّارِ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري 407/3.
- (7) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد/ابن عجيبة 248/4.
- (8) انظر : تيسير الكريم الرحمن/عبد الرحمن للسعدي 616/1.

5- زوج موسى تطلب أن تكون زوجته في الجنة

كان لا بد لمن صنعه الله على عينه، وأهله أن يحمل رسالته إلى بني إسرائيل، وأن يكون معلماً بما علمه ربه، ونموذجاً يُحتذى به ويُقتدى بشخصه، كان لا بد أن تكون له زوجاً صالحة تحبه أشد الحب، ولذلك أحببت امرأة موسى زوجها وطلبت منه أن يدعو لها أن تكون زوجته في الجنة. فقد قالت امرأة موسى له يوماً: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا أيم⁽¹⁾ منك منذ كلمك ربك، -فقد كان موسى لا يأت النساء منذ كلمه ربه، وكان لا ينظر إليه أحد إلا مات، لما غشي وجهه من نور العرش يوم تجلى ربه للجبل، فلذلك ألبس على وجهه حريرة أو برقع، فكان إذا كشف عن وجهه غشيت الأبصار، وكانت امرأته يأخذها من غشيه مثل شعاع الشمس، فتضع يدها على وجهها وتخر الله تعالى ساجدة، وتقول لموسى ﷺ: ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة، قال: ذاك إن لم تتزوجي بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها. قالت: فأوصني، قال: لا تسألي الناس شيئاً.⁽²⁾ ولا تأكلي إلا من رشح جبينك.⁽³⁾

وعندما جاء ملك الموت ليقبض موسى ﷺ قال له موسى ﷺ: أما منه من بد؟ قال: لا، فقال موسى ﷺ: فامض لما أمرت به، ولكن دعني أدخل على أُمي فأسلم عليها، وعلى زوجتي وولدي فأودعهم، قال: نعم. فدخل على أُمه فأكب عليها يقبلها ويقول: يا أمه! قد كُبرت السن، ودنا الأجل، وقد أحببت لقاء ربي، فبكت وبكى وأوصاها وعزاها.

وأكب على زوجته صفوراء، فسلم عليها ثم قال لها نعم الشريكة كنت! فأوصاها، وودعها، وودع ولده وأوصاهم⁽⁴⁾ ثم قالت له زوجته من شدة حبه فيها: ادعو الله أن يجعلني زوجتك في الجنة، قال: على أن لا تضعي ثوباً حتى ترقعيه، وتدخري طعاماً لشهر. قالت: أفعل.

وكانت بعد موسى تلتقط السنبل من وراء الحاصدين، فيطرحون لها الحبوب، ويحبون أن تأخذ شيئاً صالحاً، فإذا رأت ذلك وعرفت أنهم قد عرفوها تركتهم، ولحقت بمكان آخر حتى ماتت رحمها الله.⁽⁵⁾ والله أعلم .

(1) الأيم: هي الزوجة التي لا يأتيها زوجها بكرة كانت أو ثيباً. و"رجل أيم"، لا زوجة له، جامع البيان/ابن جرير الطبري 563/8.

(2) انظر: مختصر تاريخ دمشق/لابن عساكر 392/95، تاريخ دمشق لابن عساكر 61.

(3) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/أبو نعيم الاصبهاني 120/6.

(4) الدر المنثور في التفسير المأثور/جلال الدين السيوطي 573/3

(5) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/للأوسى 156/10

المبحث الثاني علاقة الرجل الصالح بامرأته السيئة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : علاقة نوح عليه السلام بزوجه.

المطلب الثاني : علاقة لوط عليه السلام بزوجه.

المبحث الثاني

علاقة الزوج الصالح بامرأته السيئة

قليلٌ هو اجتماع التناقضات مع بعضها البعض، فقد يجتمع النقيضان ولكن ليس لأمد طويل وخاصة إذا كان النقيضان صلاحاً وطلاحاً، نوراً وظلاماً، حقاً وباطلاً، لا بد لأحدهما أن ينتهي من الآخر يغادره بأي طريقة طالما لم يؤثر أحدهما على الآخر لدرجة الانسجام، فالانسجام والتوافق سبب أكيد من مسببات استمرارية المشتركات وبقائها، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالأزواج، فوجود التناقضات بينهما وخاصة الجوهرية كالعقائدية أمر صعب لا يؤدي إلى الاستمرارية والبناء ولقد ضرب القرآن الكريم مثلاً للأزواج الذين اجتمعت فيهم التناقضات العقائدية نوح عليه السلام وزوجه، ولوط عليه السلام وزوجه وكذلك آسية عليها السلام وزوجها فرعون، فالسنة الإلهية الطبيعية تحتم للمتناقضات الانفصال السريع فلا يمكن تواجد الليل وقمره مع النهار وشمسه في نفس الزمان والمكان.

وفي هذا المبحث نحن على موعد مع التناقضات البشرية العقدية مبتدئين بالزوج الصالح وزوجه الطالحة، فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا كافرتين بإعلان القرآن تحت نبين صالحين وبالرغم من وجودهما في كنف الأنبياء، لم يفدهما قريهما الشديد من خير البشر شيئاً، فلم تختار هاتان الزوجتان الإيمان وإن كانتا في حظيرته الخاصة بل الخاصة جداً.

المطلب الأول

بزوجه الكافرة عليها السلام علاقة نوح

نوح عليه السلام أول الرسل، فهو نوح بن لامك من ذرية شيث بن آدم أبي البشر، وهو أول الرسل كما جاء في حديث الشفاعة عن أبي هريرة في الصحيحين: "يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض" (1) إلى آخر الحديث الشريف. فقد أرسله الله إلى قوم كانوا يعبدون الأصنام التي سموها على أسماء صالحين منهم، فلما مات هؤلاء الصالحون، وسوس إليهم الشيطان أن يصنعوا لهم تماثيل تذكرهم بصالحهم، ثم رويداً رويداً عبدوا هذه التماثيل لتقريبهم من الله زلفى، وبذلك أشركوا بالله وتحقق للشيطان ما أراد، فكان أسماء أصنامهم ودد، وسواع، ويغوث ويعوق، ونسرا، وغيرها، فحذرهم نوح عليه السلام عليه من شركهم، وأنذرهم عاقبة كفرهم فكذبوه، ولم يتوانوا في إيقاع صنوف العذاب به، فقد كانوا يضربونه حتى يفقد وعيه فيظنون أنه مات فيتركوه، وحين يفيق يستحم ويعاود دعوته لهم من جديد (2).

ولما يئس منهم دعا ربه أن يهلكهم، فقال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا ۝﴾ [نوح: 26] فاستجاب الله له وكان ما كان من قصة السفينة والطوفان مما هو معروف مشتهر، وخرج نوح ومن معه من السفينة وبارك الله فيهم فتناسلوا وملأوا الأرض (3).

ونوح عليه السلام هو أبو البشرية الثاني لقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝﴾ [الإسراء: 3] وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا بَالِقِينَ ۝﴾ [الصافات: 77] فالذين نجوا بعد هلاك قومه بالطوفان هم الذين عمروا الأرض، وكانوا نواة الانتشار في العالم، فالبشر كلهم بعد الغرق والطوفان من ذرية نوح عليه السلام.

قال ابن عباس وقتادة: (أهل الأرض كلهم من ذرية نوح) وقيل: "العرب من أولاد سام والسودان من أولاد حام، والترك والصقلب وغيرهم من أولاد يافث" (4).

(1) صحيح مسلم كتاب الإيمان ح 184/1/327، صحيح البخاري/كتاب الإيمان 134/1.

(2) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/أحمد بن محمد الثعلبي 415/3.

(3) انظر : الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية/سليمان الصرصري 731/2.

(4) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/عبد الحق المحاربي 477/4.

كما أن نوح عليه السلام رسول من أولي العزم من الرسل فيقول الله تعالى: ﴿وَلِإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7]

فهذه الآية تعدد أولي العزم من الرسل وهم " محمد وعيسى وموسى وإبراهيم ونوح " عليهم السلام ورغم أن نوحاً عليه السلام من أولي العزم من الرسل إلا أن ابنه وزوجته كانا من الكافرين لأن الهداية في النهاية بيد الله عز وجل، وإن كان من المحزن والمؤسف أن يكون هناك من عاش في كنف اليقين ونوره ولم يبصره، واستمر ماضياً في دهاليز الظلام.

فكيف كانت العلاقة بين الحق والباطل في بيت الزوجية، وكيف كانت هذه النهاية للزوجة التي هي أقرب ما تكون لزوجها الرسول الكريم؟ هذا ما سنتعرف عليه من خلال الآتي:

1- لا ملك ولا بشر، ولا زوج ولا زوجة، يغني من الله شيئاً :

امرأة نوح التي نتحدث عنها في هذا المطلب كانت في بيت النبوة، ولكنها خانت زوجها في الكفر ولم تختار الإيمان، فلم تفدها رابطة الزواج من نبي كريم من عذاب الله شيئاً، لأنه لا يغني أحدٌ من عذاب الله شيئاً، لا ملك في السماء ولا مرسل في الأرض، والمثل المضروب في القرآن الكريم لامرأة نوح وامرأة لوط لدليلٍ على أن من كفر لا يغني عنه من الله شيئاً، ولا ينفعه ملجأ أو معتصم، ولو كان متعلقاً أو متأملاً بأقوى الأسباب. والأمر كله بيد الله، فبيده سبحانه وتعالى الهدى لمن يطلب الهدى، فمن أراد الهدى واختار الإيمان لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالولول كان في أسوأ منشأ وأخس حال، فها هي امرأة فرعون اختارت الهدى رغم وجودها في بؤرة الكفر والضلال، فلم يمنعها طغيان زوجها وشدة كفره أن تهتدي إلى الله⁽¹⁾.

والإعلام القرآني من الله عز وجل يخبر أمة الإسلام بهذه النماذج لتتحقق لنا منها

العظة والعبرة فيقول الله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ

كَانَتَا تَحْتِ عِبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ

أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: 10] لقد أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة على

لحكمة أرادها من ضرب هذا المثل، فمن المفسرين من قال: إن المراد تحذير عائشة رضي الله عنها وحفصة رضي الله عنها، أي أنكما إن عصيتما ريكما لم يدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عنكما شيئاً من الله، كما لم يدفع

نوح عليه السلام ولوط عليه السلام عن امرأتهما⁽²⁾.

(1) انظر : تفسير الوسيط للزحيلي/وهبة الزحيلي 2693/9.

(2) انظر : تفسير القرآن/منصور المروزي السمعاني/479/5.

وقيل: كان بعض الكفرة الذين لهم برسولنا الكريم اتصال من حرمة القرابة، يطمعون منه الشفاعة في الآخرة إن كانت عاقبة كفرهم صحيحة كما يندرهم الرسول الكريم ﷺ، فهم عرفوه بالشفقة والرحمة على الخلق جملة، فكيف يدع شفقتهم ورحمته على قرابته وهو يراهم يتردون في الهلاك؟! فطمعوا فيه واستمروا على كفرهم، فلذلك بين لهم القرآن شأن امرأة نوح وامرأة لوط وما كان بينهما وبين نوح ولوط عليهما السلام من الاتصال لئلا يغتروا باتصالهم بالنبي ﷺ.

وجائز أن هذا كان في بدء الإسلام، في الوقت الذي كان يتفرد الآباء بالإسلام دون الأبناء، والأبناء دون الآباء؛ والرجل دون زوجته، والزوجة دون زوجها، فيكون المثل لمكانة أولئك الذين التزموا وداوموا عليه أوقع لحالهم وأبين له. (1) فضرب الله لرسوله الكريم مثل هاتين المرأتين في كنف النبيين الكريمين وكيف كانت خيانتها لهما.

وليس في القرآن مدح لأحد لمجرد كونه من ذوي القربى، أو من أهل البيت ولا الثناء عليهم بذلك، ولا ذكر استحقاقه الفضيلة عند الله بذلك، ولا تفضيله على من يساويه في التقوى بذلك، وإن كان القرآن قد ذكر ما ذكره من اصطفاء آل إبراهيم واصطفاء بني إسرائيل، فمع ذلك بين أن الجزاء والمدح بالأعمال وليس بالانتساب، ولهذا ذكر القرآن ما ذكره من كفر من كفر من بني إسرائيل وذكر ذنوبهم وعقوبتهم مع ذكر اصطفائهم، فقد أورد سبحانه وتعالى في بني إسرائيل النوعين الثواب والعقاب، وهذا من تمام تحقيق أن النسب الشريف قد يقترن به المدح تارة إن كان صاحبه من أهل الإيمان والتقوى، وإلا فإن ذم صاحبه أكثر. (2)

فقد كانت امرأة نوح تحت عصمة عبد من خالص عباد الله الصالحين، فخانتته بالتآمر عليه وإفشاء سره إلى قومها، فلم يدفع هذا النبي الصالح عن زوجته من عذاب الله شيئاً، وقيل لها عند هلاكها: ادخلي النار مع الداخلين (3).

كذلك الحال مع ابن نوح عليه السلام الذي غرق بسبب عدم إيمانه، ولحكمة أرادها الله تعالى جعل زوجة نوح وولده من الكافرين؛ ليهلكا مع المغرقين، وهذه الحكمة أن يعلم كل إنسان بعدهما أن الإيمان هو طريق النجاة، وأنه صانع القرابة الحقيقية، فالزوجة الكافرة، والابن الكافر، ليسا من أهل الزوج المؤمن، والأب المؤمن؛ لأن الكفر يفرق بينهما، أما الإيمان فإنه العروة الوثقى بين المؤمنين، وهو الصلة القوية الدائمة بينهم (4).

(1) تأويلات أهل السنة/محمد أبو منصور الماتريدي 95/1 بتصرف

(2) انظر: آل رسول الله وأوليائه/محمد الحنبلي 63/1.

(3) المنتخب في تفسير القرآن الكريم/لجنة علماء الأزهر 839/1.

(4) انظر: دعوة الرسل عليهم السلام/أحمد أحمد غلوش 59/1.

وجاء هذا المثل ليؤكد للكفار أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبين الرسل من النسب والمصاهرة، حتى إن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً كما هو الحال في امرأة نوح وامرأة لوط، فلما نافقتا وخانتا الرسولين بالكفر، لم يغن الرسولان الكريمان عنهما شيئاً من عذاب الله بحق ما بينهما من الزواج، وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة ادخلا النار مع سائر الداخلين، تماماً كالذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء من قومهم. (1)

2- نساء الأنبياء معصومات من الزنا :

ذكر القرآن خيانة امرأتي نوح ولوط لزوجيهما، ولكن الخيانة المذكورة ليست خيانة أخلاقية، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما بغت زوجة نبي قط ولا ابتلي الأنبياء في نسائهم بهذا). (2)

والأمة مجمعة على أنه ما زنت امرأة نبي قط سواء كانت مؤمنة أو كافرة، وخيانة امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام إنما كانت في إظهارهما الإيمان وإخفائهما الكفر لا غير. (3)

وقد سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كيف لم يسمهما الله تعالى؟ أي امرأة نوح وامرأة لوط فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ليغضها (4)، فقالت عائشة رضي الله عنها: فما اسمهما؟ فأتاه جبريل عليه السلام فقال: أخبر عائشة رضي الله عنها أن اسم امرأة نوح والغة (5) وقيل والقة (6)

وهناك الجاهلون الذين يزعمون أن امرأة نوح عليها السلام كانت بغياً، وأن الابن الذي دعاه نوح لم يكن منه وإنما كان منها، وأن معنى قوله: إنه عمل غير صالح "أن هذا الولد من عمل غير صالح أي من الزنا. ومنهم من يقرأ: "ونادى نوح ابنه " يريدون ابنها، ويحتجون بقوله: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) ويتأولون قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ

كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ

ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿ [التحریم: 10] على أن امرأة نوح خانته في الفراش وأنها كانت زانية.

(1) انظر : تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل/النسفي/805

(2) انظر : تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة/محمد بن محمد الورغمي 4/255.

(3) تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء/ابن خمير 1/39 بتصرف.

(4) يغضها: من الغض وهو ترك النظر وعدم الإمعان أي التجاهل .

(5) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 4/380.

(6) انظر : تفسير الجزري/ابن الجزري 1/350.

وضاهى في ذلك المنافقون والفساقون أهل الإفك الذين رموا أم المؤمنين عائشة بالإفك والفاحشة، ثم لم يتوبوا، وفيهم خطب رسول الله ﷺ فقال: (أيها الناس من يعذرني من رجل بلغ أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً والله ما علمت عليه إلا خيراً⁽¹⁾) ومن المعلوم أن أعظم أنواع الأذى للإنسان أن يكذب على امرأته رجل فيقول: إنها بغي، ويجعل الزوج أنه زوج زانية، فإن هذا من أعظم ما يشتم به الناس بعضهم بعضاً⁽²⁾

وقال الزمخشري⁽³⁾: " ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور، لأنه سمح في الطباع ونقيصة عند كل أحد، بخلاف الكفر، فإن الكفر يستمجونه ويسمونه حقاً".⁽⁴⁾

وقد ورد القول بأنه يجب صون منصب الأنبياء عن مثل هذه الفضيحة (الزنا) لقوله تعالى: (الخبثاتُ لِلْخَبِيثِينَ⁽⁵⁾) وعن ابن عباس لم تبغ امرأة نبي قط⁽⁶⁾. وعن الضحاك قال: "ما بغت امرأة نبي قط، فالخيانة في الدين".⁽⁷⁾

أما قوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط: (فَخَانَتَاهُمَا) فالمراد آذنتاهما، فقد قالت امرأة نوح في حقه: إنه لمجنون، وامرأة لوط دلت على أضيافه كما سيأتي فيما بعد، وإنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة نعم، كفر العقيدة والدين، كامرأة نوح ولوط، ولم يجز أبداً أن تكون زانية لأن النبي مبعوث إلى الكفار ليدعوهم إلى الدين وإلى قبول ما قاله، من الأحكام والثواب والعقاب وهذا المقصود لا يحصل إذا كان في الأنبياء ما ينفر الناس عنهم، والكفر ليس مما ينفر عندهم لأنه فيهم بخلاف الفجور فإنه من أعظم المنفرات⁽⁸⁾

وقيل في تفسير قوله تعالى (فَخَانَتَاهُمَا) عن امرأة نوح وامرأة لوط: " أي خانتاهما في الإيمان، فلم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاها في الرسالة"⁽⁹⁾.

(1) صحيح البخاري 173/3، صحيح مسلم 2129/4

(2) انظر: آل رسول الله وأولياؤه/محمد بن عبد الرحمن الحنبلي 54/1

(3) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخش من قرى خوارزم سنة 467هـ، وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله. أشهر كتبه الكشاف في تفسير القرآن، و أساس البلاغة توفي سنة 538 هـ/انظر: الأعلام للزركلي 178/7

(4) انظر: البحر المحيط/أبو حيان الأندلسي 152/10

(5) غرائب القرآن و رغائب الفرقان/النيسابوري 2/4

(6) انظر: سبل الهدى والرشاد لسيرة خير العباد/محمد بن يوسف الصالحي 497/10.

(7) تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 497/23 بتصرف.

(8) روح البيان/إسماعيل الخلوئي 125/6.

(9) التفسير الوسيط للقرآن الكريم/محمد سيد طنطاوي 14/482 بتصرف.

وروى ابن جرير عن مجاهد: "لا ينبغي لامرأة كانت تحت نبي أن تفجر" ومن يقذف الطاهرة، يكون مع ضرب عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين⁽¹⁾.

3- كيف خانَت امرأة نوح زوجها ﷺ

يقول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: 10]

ضرب الله مثلاً في عدم انتفاع الكافر بقربة المؤمن مهما كانت درجة القرابة عنده، فهي امرأة نوح كانت تحت رسول كريم فخانتته في دينه فكانت عاقبتها النار، فقد كانت نفسي سر من يؤمن بزوجه، وتخبر به الجابرة من قوم نوح حتى يبطشوا به⁽²⁾، وكانت تقول لهم: إن زوجها مجنون⁽³⁾، فليست الخيانة التي يتحدث عنها القرآن خيانة فراش وإنما الخيانة العقائدية الدينية، فامرأته لم تستجب للدعوة التي كان يدعو إليها وعملت ضد الدين، وكانت تشكك في عقل نوح ﷺ، وهذا من أسوأ الأمور، لأن المجنون ليس أهلاً لأن يسمع منه الناس فكيف يهتدوا.

كما قال ابن عباس ؓ: "نساء الأنبياء معصومات، ولكنها خيانة دينية بعدم إسلامهنّ وبإخبار أقوامهنّ بمن يؤمن مع أزواجهن⁽⁴⁾ وقد أجمع المفسرون هنا على أن الخيانة ليست زوجية⁽⁵⁾ وقد قيل إن معنى خيانة امرأة نوح أنها أسرت النفاق وأظهرت الإيمان⁽⁶⁾. وقول آخر لابن عباس ؓ: خيانتها أنها كانت على غير دينهما⁽⁷⁾.

وعلى هذا يكون المفسرون قد اختلفوا في تفسير الخيانة لامرأة نوح على عدة أقوال، الأول: أنها خيانة بالكفر، والثاني أنها خيانة بالنفاق، فقد كانت تظهر الإيمان وتسركفر، والثالث أنها خيانة بالنميمة، والرابع خيانة بنسبة الجنون لنوح ﷺ فكانت امرأة نوح تقول لمن يقصد نوحاً ﷺ، ليسمع كلامه: إنه مجنون لا تسمعه⁽⁸⁾.

(1) انظر: في الرد رافضة/محمد بن عبد الوهاب 25/1.

(2) انظر: الولاء والبراء في الإسلام/الشحات البركاتي 154/1.

(3) انظر: أيسر التفاسير للجزائري/جابر بن موسى الجزائري 390/5.

(4) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن/محمد الأمين الشنقيطي 224/8.

(5) انظر: الجموع البهية للعقيدة السلفية/محمود المنياوي 44/2.

(6) انظر: التفسير الوسيط للواحد/مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر 322/4.

(7) انظر: مختصر ابن كثير/محمد علي الصابوني 525/2.

(8) انظر: تفسير القرآن/منصور السمعاني 478/5.

المطلب الثاني

علاقة لوط عليه السلام بامرأته

لوط عليه السلام نبي من أنبياء الله، نُبيّ في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو لوط بن هاران ابن تارخ ابن أخ إبراهيم عليه السلام حيث إن تارخ هو آذار والد إبراهيم عليه السلام فيكون الخليل إبراهيم عم لوط (1)، وقد كان أول من أسلم مع إبراهيم الخليل، وأول من هاجر إلى الله مع الخليل إبراهيم وزوجته سارة هرباً بدينهم من عبدة الأصنام (2)، فيقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي

مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: 26]

وحين هاجر عثمان بن عفان رضي الله عنه الهجرة الأولى إلى الحبشة، ومعه زوجه رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم قيل له: "صحابهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام" (3) " وكان لوط عليه السلام قد نزح عن محلة عمه الخليل عليه السلام بأمر له وأذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض فلسطين، وكان أم تلك المحلة، ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها (4).

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على رسوله لوط عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس بالصواب والسادق، فيقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلُوطًا إِذْ أَنبَتْهُ حُكْمًا وَعَلَّمَا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْتِثِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: 74-75]

والقرى التي أرسل إليها لوط عليه السلام أهلها من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية، وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النساء، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش والمنكرات، والأفاعيل المستقبحات، ولكنهم تمادوا في ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله به العقاب الشديد (5)

(1) انظر : تفسير الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 339/13 .

(2) انظر : السراج المنير/محمد الشربيني الشافعي 490/1

(3) انظر : الدر المنثور بالتفسير بالمأثور/جلال الدين السيوطي 224/19.

(4) قصص الأنبياء/أبو الفداء إسماعيل بن كثير 254/1.بتصرف .

(5) الدر المنثور في التفسير بالمأثور/جلال الدين السيوطي 224/19بتصرف.

ومن أشد ما فعلوا هو إتيان الذكور دون النساء، فهم الذين ابتدعوه لم يسبقه إليه أحد من العالمين، وفي هذا أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ أَيُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ جَهْلُونَ ﴾ [النمل:55]، وبإتيانهم الذكور تركوا النساء اللاتي أحل الله وهن محلّ للنسل وهم يجهلون تحريم ذلك وعقوبته (1).

وقد روي أن قوم لوط عليه السلام كانت فيهم عشر خصال مذمومة، أهلكهم الله بسببها: كانوا يتضارطون في الطرقات، ويتغيطون فيها، وعلى شطوط الأنهار، ويرفعون ثيابهم قبل أن يجلسوا له، ويحذفون من مرّ بهم، وإذا اجتمعوا في مكان أظهرها المنكر بالضرط، والصفع على الرقاب، ويلعبون بالحمام الطيارة، ويرمون بالجلاهق وهو قوس البندق، وكشف العورات في الحمام، وشرب الخمر، وإتيان الذكور، وقص اللحية، وتطويل الشوارب، ومضغ العلك. (2)

ومن خلال ما ورد من أخبار عن هؤلاء القوم المجرمين سنعرض العلاقة بين لوط عليه السلام وزوجه السيئة في نقاط آتية :

1- خيانة امرأة لوط لزوجها ليست خيانة فراش

يقول الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم:10] امرأة لوط عليه السلام كانت من أهل سدوم، تزوجها لوط عليه السلام حين نزل إلى سدوم بعد هجرته، مع خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فقد أقام عليه السلام في سدوم سنين طويلة، وليست هي أم بناته الوارد ذكرهن في القرآن أو التوراة، فقد هلكت أم بناته قبل أن يرسل، ثم تزوج بهذه المرأة المعلن عن كفرها في القرآن الكريم، ولم تُذكر هذه المرأة الكافرة إلا في آخر قصة لوط عليه السلام (3) وقيل: إن اسم امرأة لوط الكافرة والهة (4).

ولقد ذكر القرآن خيانة امرأتي نوح ولوط، ولكن كما أسلفت في امرأة نوح ليست الخيانة أخلاقية، وكذلك الأمر بالنسبة لامرأة لوط عليه السلام، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ما بغت زوجة نبي قط ولا ابتلي الأنبياء في نسائهم بهذا." (5)

(1) حسن الأسوة/محمد صديق خان 172/1

(2) حقيقة السنة والبدعة/جلال الدين السيوطي 190/1

(3) التحرير والتنوير/ابن عاشور 236/8

(4) تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 380/4

(5) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة/محمد بن محمد الورغمي 255/4

والأمة مجمعة على أنه ما زنت امرأة نبي قط سواء كانت مؤمنة أو كافرة، وخيانة امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام إنما كانت في إظهارهما الإيمان وإخفائهما الكفر لا غير (1).

وخيانتهما كانت بالكفر بدين زوجيهما، والتجسس عليهما، وإخبار قومهما بمن يؤمن بهما، ومن يأتي إليهما، وتحريض قومهما عليهما، لا بالبغي أبداً فحاشاهما منه، فما بغت امرأة نبي قط لأن البغي يقدر بأزواجهم الأنبياء ويمس جانبهم العالي التزيه المبرأ من كل عيب، المنزه من كل ما به وصمة مطلقاً (2).

كما لا يجوز أبداً أن تكون زوجة النبي زانية، لأن النبي مبعوث إلى الكفار ليدعوهم إلى الدين وإلى قبول ما قاله، من الأحكام والثواب والعقاب وهذا المقصود لا يحصل إذا كان في الأنبياء ما ينفر الناس عنهم، والكفر ليس مما ينفر عندهم لأنه فيهم بخلاف الفجور فإنه من أعظم المنفرات (3)

2- كيف خانت امرأة لوط زوجها عليه السلام :

لقد خانت امرأة لوط زوجها عليه السلام بمعاونة قومها على فواحشهم ونصرتهم على زوجها لوط عليه السلام، ويضرب القرآن مثلها لأنها كانت رداءً لقومها، وكانت على طريقتهم، راضية بأفعالهم القبيحة، تدل قومها على ضيوف زوجها عليه السلام (4)، فقد كان لوط عليه السلام يسر الضيف، ويعمل على أن لا يعلم به أحد من قومه فلا يأتون به الفاحشة كعادتهم، بينما هذه المرأة الكافرة التي لم تستتر بنور الهدى والإيمان وهي في حظيرته كانت تخبر قومها بضيوفه عليه السلام (5)، وتدل عليهم من أجل فعل سوء القبيح بهم، فإذا ضاف لوط أحداً أخبرته به أهل المدينة من أهل سوء (6) بل أكثر من ذلك فقد كانت تغريهم بالأضياف وجمالهم وقوامهم ليفعلوا بهم المنكر (7).

كما كانت لها معهم طريقة لإعلامهم بالضيوف متفقة عليها معهم، فإذا نزل بلوط عليه السلام أضياف بالنهار ترسل لهم رسول يخبرهم (8)، أما بالليل فتخبرهم بواسطة النار فتدخن وتوقد فيعلم قومها بوجود أضياف عن زوجها فيأتوا يهرعون ليفعلوا بهم الفاحشة (9)

(1) انظر : تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم من الحثالة/ابن خمير 39/1 .

(2) بيان المعاني/عبد القادر حويش 290/6 بتصرف .

(3) انظر : روح البيان/إسماعيل الخلوئي 125/6 .

(4) انظر : الولاء والبراء في الإسلام/الشحات البركات 140/1 ،

(5) الرد على الرافضة/الفيروزي 25/1 بتصرف

(6) انظر : تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 498/23

(7) شرح مختصر الروضة/سليمان الصرصري 697/2 بتصرف

(8) تفسير السمعي/المروزي السمعي 478/5

(9) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد/محمد الواحدي 322/4

3- عاقبة قوم لوط المجرمين من رب العالمين :

أنذر الله سبحانه وتعالى قوم لوط بواسطة نبيه لوط عليه السلام، ولكنهم لم يستمعوا لنصيحته واستمروا على كفرهم وعنادهم وما يمارسونه من الرذيلة، بل أخبر الله تعالى عن ردهم السلبي لنبيهم لوط عليه السلام في القرآن فيقول الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [النمل: 56] فقد كانت سلبيتهم حادة إلى درجة قلب الموازين، فجعلوا ما هم عليه من شواذ هو الطبيعي المعمول به بينهم، بينما الطهر والنقاء والتقاء هو المرفوض والذي لا بد أن يخرجوه بعيداً عن قريتهم. فلذلك نزل عليهم غضب الله وعقابه فبعث الله جبريل عليه السلام إلى قراهم، قرى لوط عليه السلام، فاحتلمها عليه السلام بجناحه، ثم صعد بها إلى السماء، حتى إن أهل السماء الدنيا سمعوا نباح كلابها وأصوات دجاجها، ثم كفأها جبريل عليه السلام على وجهها وألقى بها إلى الأرض، ثم أتبعها الله بالحجارة⁽¹⁾.

ويصف القرآن المجيد هذا المشهد العقابي الشديد فيقول الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: 74]، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات، وكانت القرى خمس قريات: صنعة وصعوة وعثره، ودوما وسدوم، وسدوم هي القرية العظمى أو المركزية لهذه القرى، أهلكها الله جميعاً بمن فيهن من الأمم وكانوا قريباً من أربعمئة ألف، وما معهم من الدواب والحيوانات، وما لتلك المدائن من الأراضي والعمارات؛ على طرف جناحه، حتى بلغ بهن عنان السماء، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها⁽²⁾، ونجى الله لوطاً ومن معه من أهله، إلا امرأته كانت فيمن هلك⁽³⁾.

4- نجاة أهل لوط عليه السلام أجمعين إلا امرأته :

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى العذاب إلى القوم المجرمين إلا آل لوط فنجاهم الله أجمعين ما عدا امرأته كانت من الغابرين المهلكين، كما يخبرنا الله عز وجل فيقول: ﴿فَأَنجَيْنَا مُوَاهِبَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: 57]، أما أهل لوط عليه السلام المقصودين في الآية الكريمة الذين نجاهم الله، ابنتان له بكر لم تتزوجا، وقيل: كان له ابنتان متزوجتان غيرهما امتنع زواجهما من الخروج مع لوط عليه السلام، فهلكتا مع زوجيهما وأهل القرية والله أعلم⁽⁴⁾.

(1) تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 443/15 بتصرف .

(2) أصول الإيمان ووصف العذاب/محمد عبد الوهاب 92/1 بتصرف .

(3) انظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/السعدي 527/1

(4) التحرير والتنوير/ابن عاشور 236/8 بتصرف

وعندما خرج لوط عليه السلام بأهله، كما أمره الله سبحانه وتعالى أن يسري بهم ليلاً ليعيدوا عن القرية، في مشهد صورته القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر: 65] فسروا وامتثلوا إلى ما أمر الله عز وجل ولم يلتفت منهم أحداً إلا امرأته التفتت فأصابها ما أصاب القوم.

أما لوط عليه السلام وابنتيه فنجوا من فضل الله عليهم ومنته، وأدخلهم الله برحمته وكانوا من الأمنين، أمنهم من جميع المخاوف، وجعلهم من النائلين كل خير وسعادة، وبر، وسرور، وثناء، وذلك لأنهم من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد، سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً، الأنبياء عليهم السلام ولهذا يصفهم الله بالصالحين (1)

لم يتبع لوط عليه السلام من قومه رجل واحد، فكانت عاقبتهم جميعاً حين طلعت الشمس عند شروقها تماماً، فجاءهم من أمر الله ما لا يُرَد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يُصد وقد كان عذابهم الصبح لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: 81]

وعند أهل الكتاب: أن الملائكة أمروا لوط عليه السلام أن يصعد إلى رأس الجبل الذي هناك فاستبعده، وسألهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم، فقالوا اذهب فإننا ننتظر حتى تصير إليها وتستقر فيها، ثم نُجَل بهم العذاب، فذكروا أنه ذهب عليه السلام إلى قرية " صوعر " أو غو زغر، فلما أشرقت الشمس نزل بالقوم المجرمين العذاب. (2).

أما امرأة لوط عليه السلام فقد أخبر الله عنها أن الله لم ينجها، فهلكت مع قوم لوط، وأعلن القرآن في سورة التحريم فيقول الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: 10] أنها كانت كافرة، وقال المفسرون عنها: إنها كانت تُسر الكفر وتُظهر الإيمان، ولعل ذلك سبب التفاتها رغم الأمر من الله بعدم الالتفات لقوله تعالى: " ولا يلتفت منكم أحد " فلأنها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قومها تلتفت (3). وفي آية أخرى يقول الله تعالى عنها: " إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين " والمقصود بالغابرين:

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/عبد الرحمن السعدي 138/23 .

(2) قصص الانبياء/ابن كثير 264/1 بتصرف.

(3) التحرير والتنوير/ابن عاشور 236/8 .

الباقيين في العذاب⁽¹⁾، والغابر: هو الباقي، يقال: غبر الشيء غبوراً إذا بقي، وأصله من الغبرة، وهي بقية اللبن في الضرع..⁽²⁾

واستخدم القرآن الكريم جمع المذكر وليس المؤنث، فقال من الغابرين ولم يقل من الغابرات لأنه أريد أنها ممن بقي مع الرجال، فضم ذكرها إلى ذكر الرجال⁽³⁾، ولأنها كانت في قيادة الكفر ترسم له وتدل عليه، وترضى بأعمالهم القبيحة وتساعدهم عليها.

وكان الإخبار عما أصاب قوم لوط وامرأته من أجل العبرة، حيث حذر الله تعالى مشركي مكة ونبههم إلى ضرورة العظة من مصير الذين كذبوا رسولهم، حتى لا يحل بهم ما حل بغيرهم.⁽⁴⁾ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَنَمُرُونَهُمْ مُّصِحِّينَ ۗ ﴿١٣٧﴾ وَبِأَيْلِ أَفْلا

تَعْقُلُونَ ﴿[الصفات: 137-138]﴾، ففي هذه الآيات يخاطب الله تعالى أهل مكة، الذين كانت لهم رحلات الصيف والشتاء إلى الشام واليمن، وخاصة القرشيين منهم، أن يعقلوا ما حدث لقرى لوط وهم يمرّون عن ديارهم المخسوفة في رحلاتهم فيعتبرون⁽⁵⁾ وخاصة أن هذه المساكن يرونها بوضوح في طريق قوافلهم التجارية وهي تمر على شواطئ البحر الميت في غور أريحا في فلسطين، فآثار التدمير ما تزال موجودة إلى اليوم، فلا بد لهم من العظة والاعتبار، وقد كانوا يعرفون قصة قوم لوط وتدمير الله لمساكنهم من طريق اليهود قبل الإسلام، وبذلك استحكم فيهم الإفحام والتنديد⁽⁶⁾.

(1) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 432/2 .

(2) انظر : التفسير الوسيط للطنطاوي/محمد سيد طنطاوي 58/8 .

(3) تفسير الطبري جامع البيان/ابن جرير الطبري 521/12 .

(4) التفسير المنير/وهبة الزحيلي 138/23 بتصرف.

(5) انظر : التفسير الميسر/نخبة من أساتذة التفسير 214/1 .

(6) أنظر : التفسير الحديث/دروزة محمد عزت 229/4 .

المبحث الثالث علاقة المرأة الصالحة بزوجها الكافر

وفيه مطلب:

علاقة آسية بفرعون

المطلب الأول

علاقة آسية بزوجه الكافر فرعون

هذا نموذج آخر من نماذج اجتماع النقيضان في العقيدة بين الأزواج، ففي المبحث السابق كان الزوج هو صاحب الهدى والإيمان، واختارت الزوجة الكفر ولم ينفعها الاتصال والتواصل المستمر مع الأنبياء الأطهار المصطفين الأخيار، فانزل الله فيهما آيات تبين خيانتهم لنوح ولوط عليهما السلام، أما في هذا المبحث فهو نفسه اجتماع الأضداد المؤقت وغير الطبيعي ولكن مع تبادل الأدوار فهنا الزوجة هي المؤمنة الصالحة، بينما زوجها هو الكافر وأي كافر إنه الطاغية فرعون الملك المتعطرس الظالم الذي ادعى الإلهوية، وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية، تقف وحدها هذه المرأة الصالحة وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء، توجهت بقلها ووجدانها إلى الله معلنة الإسلام له والانقياد التام لإلهيته، ونادت الله وناجته أن ينجها منهم إليه. إنها نموذج عالٍ رفيع في التجرد لله، استحقت به الذكر في كتاب الله الخالد، الذي تتردد كلماته في جنبات الكون، وهي تنتزل من الملأ الأعلى إلى العالم كله.

يقول الله تعالى: ﴿وَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِئْسَ مَا كَانَتْ تَعْمَلُ﴾ [التحریم: 11] جاءت هذه الآية بعد الآيات في سورة التحريم التي عاتبته الرسول ﷺ بعد تحريمه وتحليله أشياء على نفسه، قبل ورود وحي سماوي، بيتغي في ذلك مرضاة أزواجه، كما وتحذر الزوجات الطاهرات من إيذائه وإظهار سره، وأمرهن بالتحرز والتجنب من جهنم، وأمرهن بالتوبة النصوح، لإتمام النور يوم القيامة، وبيان أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة، وأن قرب المفسدين لا يضر مع وجود الصدق والإخلاص.

ثم ضرب القرآن لهن الأمثال فكان المثل أولاً عن زوجتي نوح ولوط الكافرتين في كنف الأنبياء، وكيف لم تغن عنهما قرابتهما للرسول من الله شيئاً، ثم ضرب مثلاً للمرأة المؤمنة الصالحة في كنف الرجل الطاغية فرعون⁽¹⁾ لتتم العظة والعبرة لأمهات المؤمنين خاصة ولنساء المسلمين عامة.

فمن هي هذه المرأة؟؟ التي ضربت مثلاً لأمهات المؤمنين خاصة، ولنساء المسلمين عامة؟؟ والجواب هي: آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف الأول،

(1) تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 373/4 بتصرف .

وقيل: كانت من بني إسرائيل من سبط موسى، وقيل: كانت عمته⁽¹⁾ فلما كلف الله موسى بالرسالة كان فرعون مصر الوليد بن مصعب، وكان عمره طويلاً، وكان أعتى فرعون وأفجر، وهو من أمر الله موسى وهارون أن يأتياه بالرسالة⁽²⁾

قيل إن آسية بنت زاحم كانت جميلة جداً فلما وُصفت لفرعون مصر أحب أن يتزوجها على كره منها، لكنه بذل لأهلها أموالاً جزيلة، ورُفَّت إليه ودخل عليها فلما همَّ بها أخذه الله فلم يقدر عليها، وكان هكذا حاله معها، وكان قد رضيَّ منها بالنظر إليه الجمالها⁽³⁾ وقيل: عن ابن عباس رضي الله عنه في دعائها: (ونجني من فرعون وعمله) أي نجني من جماعه⁽⁴⁾

ومن خلال ورود خبرها في القرآن الكريم سأسلط الضوء على العلاقة بين الزوجين آسية الصالحة وفرعون الطاغية من خلال النقاط الآتية:

1- آسية زوج فرعون تكون سبباً في نجاته موسى من الذبح

حين أُلقت أم موسى ولداها موسى في اليم بوحى من الله عز وجل، خوفاً من أن يقتله فرعون، وصل التابوت إلى قصر موسى عبر اليم، فكانت جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التابوت، فأدخلنه إلى آسية، فوقعت عليه رحمتها وحنينها، فلما أخبرت به فرعون، أراد أن يذبحه، فلم تزل تكلمه حتى تركه لها.⁽⁵⁾ فقد قالت له لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً⁽⁶⁾ فاستجاب فرعون وألقى الله عليه محبته ورأفته، وقال لامرأته: عسى أن ينفعك، فأما أنا فلا أريد نفعه. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: " لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت امرأته آسية (عسى أن ينفعنا) لنفعه الله به، ولكنه أبى إلا الشقاء الذي كتبه الله عليه".⁽⁷⁾

أما امرأة فرعون منذ وقع نظرها على موسى باشر حبه قلبها، وكذلك أوقع الله محبته في قلب فرعون، ولكنها كانت أضعف قلباً، فسبقت بقولها " قرت عين لي ولك لا تقتلوه."، ولولا أنها علمت أنه أخذ شعبةً من قلب فرعون ما أخذ من قلبها هي، لم تقل قرت عين لي ولك " ⁽⁸⁾ وهذه المرة الأولى التي أنقذته بها من قتل فرعون.

(1) اللباب في علوم الكتاب/عمر بن علي بن عادل 217/15 بتصرف

(2) انظر: الكامل في التاريخ/علي الشيباني 150/1

(3) الأنس الجليل/عبد الرحمن الحنبلي 74/1

(4) الدر المنثور في التفسير بالمأثور/جلال الدين السيوطي 298/8

(5) الهداية إلى بلوغ النهاية/أبو طالب مكي 5487/8 بتصرف

(6) البدء والتاريخ/المطهر بن طاهر المقدسي 84/3

(7) انظر: التفسير الوسيط/الواحي 391/3

(8) لطائف الإشارات/عبد الكريم القشيري 54/2 بتصرف

ومرة ثانية تنفذ آسية موسى من ذبح فرعون، وذلك يوم نتف لحية فرعون، فعندما تحرك الغلام، وكبر قليلاً أخذت آسية ترقصه وتلعب به ثم ناولته فرعون، وقالت: خذه، فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها، فقال فرعون: عليّ بالذباحين⁽¹⁾ فقالت آسية: إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، ولكن يبدو أن الأمر لم يكن مقنعاً لفرعون فلم يمتنع عن إرادة ذبحه. فقالت له آسية: قد علمت أنه ليس في أهل مصر من هي أكثر حلياً مني، فسأضع له حلياً من الياقوت، وأضع له جمراً، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنه صبي لا يعقل، فأخرجت له ياقوتها ووضعت له طستا من جمر⁽²⁾.

فجاء جبرائيل عليه السلام، فطرح في يده جمرة، فطرحها موسى في فيه، فأحرقت لسانه، ونجا من فرعون، ولكن ثقل لسانه إثر ذلك وبقي هكذا طول حياته، لذلك طلب من ربه أن يحلل عقدة من لسانه حين كلفه الله سبحانه وتعالى بالرسالة، فيقول الله تعالى على لسانه: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۚ يَقْفَهُمْ أَوْقِي ۙ﴾ [طه: 27-28]⁽³⁾

وآسية امرأة فرعون هي التي سمت موسى عليه السلام بهذا الاسم، فلما وُجد بالتابوت بين ماء وشجر ناسب الاسم الحال، فإنّ "مو" في لغة القبط الماء، و"شى" في تلك اللغة الشجر، فعُرب من شي إلى سي فأصبح اسمه موسى⁽⁴⁾.

2- إيمان آسية وولاء وبراءة لله

لقد رأت آسية امرأة فرعون عذاب فرعون لماشطة القصر، لأنها آمنت بالله عز وجل، وشاهدت بأم عينها كيف تمسكت الماشطة بمعتقداتها بالله، ورفضت أن تجعل فرعون إلهها رغم حجم وفضاعة العذاب الذي ذاقتة على يد فرعون حتى ماتت.

فيقال: إن سبب إيمان آسية، أنها سمعت كلام أبناء ماشطة فرعون وهم يبشرونها بالثواب الجزيل، والعطاء الوافر، ثم أطلعها الله تعالى على مقام الماشطة بعد وفاتها؛ فازدادت إيماناً، ورسوخاً.⁽⁵⁾

تبرأت آسية من ظلم فرعون، وعمله، وبالرغم من أنها كانت تعيش معه، لكنها لم تتأثر بضلاله، فجعلها الله مثلاً للمؤمنين؛ الذين يختارون الإيمان بالله لا يثنّيهم عن ذلك شيء،

(1) الجامع لأحكام القرآن/أبو عبد الله القرطبي/13/254.

(2) الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي أبو طالب 4/4630 بتصرف.

(3) تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 18/300 بتصرف.

(4) وسائل الوصول إلى شمائل الرسول/يوسف بن إسماعيل النبهاني 1/231 بتصرف.

(5) تفسير ابن كثير/إسماعيل ابن كثير 4/394 بتصرف.

فرغم أن فرعون أعتى أهل الأرض على الله وأبعده منه، فما ضر امرأته كفره ، حين أطاعت ربها لنعلم أن الله حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه⁽¹⁾ وأنه لا يضر المؤمن أن يعاشر الكافرين والظلمة، إذا كان محتاجاً إليهم، ما دام لا يشاركهم الظلم، ولا يعينهم عليه، فو الله ما ضر كفر فرعون آسية أبداً.

فقد كانت هذه المرأة الصالحة تسأل من غلب؟ تقصد موسى أم السحرة؟ وهي متابعه لمجريات الأمور، فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون، ولهذا قال المفسرون: لما غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون آسية بالله⁽²⁾

علم فرعون بإيمان امرأته، فأرسل إليها فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها- يقصد على إيمانها - فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها في السماء، فمضت على قولها، فانتزع الله روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.⁽³⁾

وقيل في الحديث: (كانت امرأة فرعون تُعذَّب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة)⁽⁴⁾ استجابةً لدعائها " رب ابن لي عندك بيتا في الجنة"⁽⁵⁾ فأراها الله تعالى بيتها في الجنة، ونسيت ما هي فيه من العذاب، وحين رأت بيتها في الجنة ضحكت، فأراها فرعون وهي تضحك، فقد كان يحضر تعذيبها فقال: " ألا تعجبون من جنونها، إننا نعذِّبها وهي تضحك، فقالوا عند ذلك: إنها مجنونة تضحك، وهي في العذاب.⁽⁶⁾ وقيل: إن قبر آسية امرأة فرعون في القاهرة عند جامع ابن طولون⁽⁷⁾

وقيل " رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة فهي تأكل وتشرب".⁽⁸⁾ وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين والصالحات وديدن المؤمنين والمؤمنات بيوم الدين⁽⁹⁾.

(1) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 7584/12 .

(2) معالم التنزيل في تفسير القرآن/الحسين البغوي 123/5.

(3) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 500/23.

(4) المستدرک على الصحيحين/للحاكم النيسابوري 538/2 ، تعليق الذهبي على الحديث: الحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(5) معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 196/5.

(6) انظر : تفسير بحر العلوم/أبو الليث السمرقندي 472/3 .

(7) انظر : الإشارات إلى معرفة الزيارات/علي بن أبي بكر الهروي 38/1 .

(8) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري/أحمد القسطلاني 389/5 .

(9) حسن الأسوة/محمد صديق خان 243/1 بتصرف.

3- فضل الزوجة الصالحة آسية بنت مزاحم على نساء العالمين

آسية زوج فرعون من نساء أهل الجنة، ونساء أهل الجنة يتفاضلن، وسيدات نساء أهل الجنة أربعة: خديجة، وفاطمة، ومريم، وآسية، فعن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة أخطط ثم قال: " تدرّون ما هذا؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، فاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون".⁽¹⁾

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية زوجة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد)⁽²⁾

(1) الجنة والنار/عمر بن سليمان الأشقر 221/1، مسند أحمد/للإمام أحمد 409/4، سلسلة الأحاديث

الصحيحة 13/4 ح 1508

(2) صحيح البخاري/باب "وضر الله مثلاً للذين" 158/4، صحيح مسلم/باب فضائل خديجة 1886/4

المبحث الرابع الأزواج بين الخطيئة والتوبة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : علاقة آدم بحواء عليهما السلام.

المطلب الثاني: علاقة عزيز مصر بزليخا.

المطلب الأول

آدم وحواء عليهما السلام بين الخطيئة والتوبة:

آدم عليه السلام هو أبو البشر خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه، وسماه آدم عليه السلام من الأدمة⁽¹⁾ والأدمة: وهي السُمرة في الإنسان، والبياض الشديد في الإبل. يقال: بعير آدم وناقاة أدماء. وإنما سُمِّي أبو البشر آدمَ للونه⁽²⁾ وقيل من أديم الأرض وقيل اسمه من اسم الأرض الرَّابِعة أديم لأن مادته منها فنُسبَ إليها، والله تَعَالَى خلقه من أنواع متضادة وطباع مختلفة من تراب الأرض، فجاء فيه من كل شيء فيها.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: "سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض كلها أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها، فلذلك كان في ولده الأسود والأحمر والطيب والخبيث. وقيل: إنه اسمٌ أعجمي"⁽³⁾

وكان سكان الأرض قبله ألجن، وقيل: ألجنّ والبن، وقيل: الطم والرم، ولما أهلكهم الله لفسادهم في الأرض وسفكهم الدماء جعل آدم بدلهم⁽⁴⁾، ولذلك قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: 30] ثم خلقه الله وصوره ونفخ فيه من روحه، وأسكنه الجنة، فكان يمشي فيها وحشياً، ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومةً فاستيقظ فوجد عند رأسه امرأة قاعده، خلقها الله تَعَالَى من ضلعه، فسألها ما أنت؟ فقالت: امرأة، قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي⁽⁵⁾

فأرادت الملائكة معرفة ما مبلغ علمه فسألوه ما اسمها؟ قال: حواء، قالوا: لم سميت حواء؟ قال: لإنتها خلقت من شيء حي⁽⁶⁾.

ومقتضى ظاهر الآية ﴿وَيَتَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ

الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19] يقتضى الظاهر أن خلق حواء كان قبل دخول آدم عليه السلام إلى الجنة والله أعلم⁽⁷⁾.

(1) انظر: الكشاف عن غوامض حقائق التنزيل/للزمخشري جار الله 125\1 .

(2) مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية/الفراهي 1 333\1 .

(3) غرائب القرآن و رغائب الفرقان/للنيسابوري 174/2 .

(4) انظر: سمط النجوم العوالي في أنباء الاول/عبد الملك العصامي 82/1 .

(5) الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 1212/2 بتصرف.

(6) انظر: البحر المحيط في التفسير/أبو حيان الأندلسي 253/1 .

(7) آكام المرجان في أحكام الجنان/محمد الشبلي 264/1 .

وقد خلق الله تعالى حواء من جنبه الأيسر وهو نائم، من ضلعه مما يلي الشرسوف، وهو ضلع أعوج، ولثم مكانه لحم، وقيل: إنّه لم يؤذّه أخذ الضلع شيئاً، ولو آذاه لما عطف رجل على امرأة أبداً⁽¹⁾، فكانت حواء على طول آدم وحسنه وجماله، إلا أنها أرق منه جداء، وأحسن صوتاً، ولها صفائر مرصعة محشوة بالمسك تسمع لذوائبها خشخشة، وحين جلست عند رأسه، وانته فرآها، فتمكّن حبّها من قلبه؛ ومال إليها وألفها⁽²⁾.

قال: يا ربّ، من هذه؟ قال: أمتي حواء⁽³⁾ وهذا معنى قوله تعالى "وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا"، ووضع محبتها والعطف عليها في قلب آدم منذ رآها، وهذا سر حب الرجل للمرأة وعاطفته نحوها وهو مصداق قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيّاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189]

أفرد القرآن الكريم لقصة آدم وحواء عليهما السلام مساحة لا بأس بها في سور عديدة، يمكن من هذه القصة التعرف إلى حياة أبينا آدم وأما حواء عليهما السلام وطبيعة العلاقة بينهما من خلال النقاط التالية :

1- حكاية عداوة إبليس الرجيم لآدم وزوجه

لما صور الله ﷻ آدم ﷺ ثم تركه بلا روح من صلصال كالفخار، كان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيظهر له صوت صلصلة كظهوره من الفخار، ويدخل من فيه ويخرج من دبره، ويقول: " لأمر ما خلقت، لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت علي لأعصينك " ⁽⁴⁾ ثم نفخ فيه الروح يوم الجمعة، وكانت من روح الله عزوجل فيقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29] فنظرت الملائكة إليه كأنه الفضة البيضاء، فسقطت كلها سجوداً كما أمرهم الله تعالى، إلا إبليس فأبى أن يكون مع الساجدين، فقال الله تعالى: ما منعك أن تسجد لآدم إذ أمرتك، فعصيتني ولم تكن لي طائعا فبعداً لك وسحقاً، فقال إبليس: (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) ومن هنا بدأت عداوة إبليس الرجيم لبني آدم ⁽⁵⁾.

(1) تفسير القرآن/للسمعاني 393/1 بتصرف.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 229/1 بتصرف.

(3) نهاية الأرب في فنون الأدب/أحمد بن عبد الوهاب النويري 13/13.

(4) الفوائد لابن القيم/ابن القيم الجوزية 65/1 بتصرف.

(5) انظر : البداية والنهاية/لابن كثير 77/1 .

وهذه معصية إبليس عليه لعنة الله، فقد امتنع عن أمر الله تكبراً واتهاماً لهذا الأمر بالخلو من الحكمة والعلم حسداً منه لآدم عليه السلام، ولهذا لم يصبح الأمر مجرد معصية وإنما أصبح قدحاوذاً في علم الله وحكمته⁽¹⁾.

وقد عصا إبليس بناءً على قياسه الباطل في أن النار خيرٌ من الطين، وهذا غير صحيح، فإن الطين والتراب خير من النار، فالنار طبعها الفساد والإتلاف، والتراب طبعه النفع والإنبات، والنار طبعها الخفة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون، والتراب يخلق الله فيه أرزاق الحيوان ولباسهم ومساكنهم، بخلاف النار التي تحرق كل شيء، والتراب إذا وضع فيه الحب أخرجها أضعافاً كثيرة، بخلاف النار التي تأكل كل ما يوضع فيها، كما أن الأرض وصفها الله بالبركة، أما النار فهي مذهبة للبركة، وأودع الله في الأرض من المنافع والأقوات، والثمار والأشجار، والمعادن والعيون، والنبات والحيوان، ما لم يودع في النار شيئاً منه⁽²⁾.

ثم أقسم اللعين بعزة الله ليغوين بني آدم أجمعين إلا العباد المخلصين قائلاً: ﴿فَبِعِزَّتِكَ

لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82] وهو مع هذا يعلم أن هناك من بني آدم من لن يستطيع أن يغويه

فلذلك أردف قسمه باستثناء كما أخبر المولى عز وجل: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾

[ص: 83] أي المعصومين من الغواية، أو المخلصين قلوبهم وأعمالهم لله عز وجل.⁽³⁾

فكانت معصية إبليس معصية معاندة وكفر، وفي تفصيل الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم؟. نقول: إبليس عصى وعاند وجاء بحيثية رفض الأمر ولم يتب، ولكن آدم عصى وأقر بالذنب وطلب المغفرة⁽⁴⁾ فلقد سأل آدم عليه السلام التوبة، فتیب عليه، وأما إبليس فسأل النظر، فأنظر⁽⁵⁾.

2- خطيئة الزوجين آدم وحواء بازال الشيطان لهما :

حين خلق الله حواء لتونس آدم عليه السلام أسكنهما الجنة، ولحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى

كانت الأوامر والنواهي واختبار العزيمة والطاعة لآدم عليه السلام: فيقول الله تعالى ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ

(1) الحد الفاصل بين الإيمان والكفر/عبد الرحمن اليوسف 45/1 بتصرف.

(2) انظر : موسوعة فقه القلوب/محمد التويجري 568/1 .

(3) تفسير الألوسي روح المعاني/شهاب الدين الألوسي 218/1 .

(4) معاني القرآن وإعرابه/للزجاج 322/2.

(5) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار/يحيى العمراني 659/3.

أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾

[البقرة: 35] فالأمر هنا لآدم وزوجه من الله سبحانه وتعالى بسكن الجنة، والتمتع بما فيها حيث شاء، ولكن نهاهما عن الأكل من شجرة معينة، فالأكل منها ظلّم لأنفسهما (1).

ولأن الشيطان كان لهما بالمرصاد، فقد تعهد آدم وذريته بالغواية بعد لعنه الله وطرده من الجنة، فاستدرج اللعين آدم وحواء بخداعه وحيله وغرهم باليمين الفاجرة الكاذبة، فنفذ قضاء الله تعالى وقدره ليهبطوا إلى دار أخرى هي دار الامتحان والابتلاء بعد معصيتهما (2)

عمل إبليس الرجيم على ما تعهده من غواية آدم وذريته، واستغل الملعون تمني آدم الخلد في الجنة فدخل إليه من هذا الباب، فعن بعض أهل العلم أن آدم ﷺ حين دخل الجنة ورأى ما فيها من الكرامة، وما أعطاه الله منها قال لو أن لي خلدا فيها، فاغتم إبليس ما سمعه منه فأتاه من قبل الخلد (3)، وقال له : يَا آدَمُ، هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ إِذَا أَكَلْتَ مِنْهَا كُنْتَ مَلَكًا، وَتَكُونُ مِنَ الْخَالِدِينَ فَلَا تَمُوتُ أَبَدًا؟ كان كلام إبليس الرجيم موجهاً إلى آدم وحواء معاً بما تفيده الآية الكريمة {إِنِّي لَكَمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ}، وحلف لهما على ذلك، وبهذا اليمين الكاذب الذي حلفه إبليس لآدم وحواء كان إبليس أول من حلف بالله كاذباً (4) أمام آدم .

كان اللعين كل همه أن يعصي آدم ربه بأكله من الشجرة وبذلك يبدي لهما ما توارى عنهما من سواتهما، ويهتك لباسهما، فقد كان يعلم أن لهما سوات لما كان يقرأ من كتاب الملائكة (5)، بينما آدم لم يكن يعلم بذلك.

والأقاويل التي تتهم حواء بأنها سبب إخراج آدم من الجنة مفادها : أن آدم بدايةً أبقى أن يأكل من الشجرة، فتقدمت حواء فأكلت منها ثم قالت يا آدم كُلْ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُ فَلَمْ يَضُرَّنِي، فلما أكل آدم بدت لهما سواتهما فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ثم جعلتا يلصقان عليهما من ورق التين (6)

(1) التفسير المنير/للزحيلي 1/138.

(2) معارج القبول بشرح سلم الوصول/حافظ الحكمي 2/461.

(3) انظر :أكام المرجان في أحكام الجنان/محمد الشبلي 1/264.

(4) تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 2/32.

(5) جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 1/526 بتصرف.

(6) تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 1/526.

ويؤكد تهمة حواء هذه حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: "لما أكل آدم من الشجرة قيل له: أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً، قال: فرئت حواء عند ذلك، فقيل لها: الرنة⁽¹⁾ عليك وعلى ولدك."

3- قبول الله توبة الزوجين آدم وحواء وهبوطهما من الجنة :

حين بدت سوءة آدم هرب في الجنة يتوارى من سوءته التي انكشفت، وفي حديث لأبي بن كعب يصف موقف آدم حينها يقول: "كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحق، كثير شعر الرأس، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة. فقال لها: أرسليني. فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل: يا آدم أمني تفر؟ قال: يا رب إني استحييتك.⁽²⁾

ثم قال الله سبحانه وتعالى لآدم وحواء معاتباً: ألم أنهكما عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرها، وأعلمكما أن إبليس لكما عدو مبين، قد أظهر عداوته لكما بترك السجود لآدم حسداً وبغياً⁽³⁾.

عندها انقضت غمامة الغفلة عنهما، وخاصة وقد بدت عوراتهما، وأدركا عظيم ما صنعا، وأنهما قد عصيا ربهما بطاعتها لعدو الله إبليس، فندما غاية الندم وقالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] إن هذه الألفاظ تحمل حرارة الأسى، وعظيم الندم من آدم وزوجه عليهما السلام، ويتبين من كلامهما استسلامهما وانكسارهما بين يدي ربهما، طالبين المغفرة والرحمة، وإلا كانا من الخاسرين لأنفسهم بظلمهم وعصيانهم، إنه موقف النادم على المعصية، العائد إلى ربه، المعترف بذنبه، المتذلل بين يدي مولاه يطلب رحمته وصفحه، ويتوسل إليه⁽⁴⁾.

لم يكن آدم وحواء يتصوران أن يقسم أحد بالله عز وجل وهو كاذب، فانخدعا بإبليس، ثم طلبا من ربهما العفو والمغفرة عن هذه المخالفة له والتعدي على ما منعا منه، فتقبل الله منهما توبتهما وهذا ما تفيدته الآية ﴿ثُمَّ اجْبَنَهُ رَبُّهُ، فَغَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: 122] أي اصطفاه ربه

(1) رنت المرأة ترن رنيناً: أي صوتت وصاحت من الحزن والجزع. والرنة: الصيحة الحزينة عند البكاء، وأنها

تكون مع البلاء والشدة، المزهر في علوم اللغة وأنواعها 317/2.

(2) التعليقات السنوية على العقيدة الواسطية/فيصل ابن المبارك 88/1 بتصرف.

(3) تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 355/12.

(4) انظر: التوسل في كتاب الله/طلال عرق سوس/88.

من بعد معصيته إياه، فرزقه الرجوع إلى ما يرضى عنه، والعمل بطاعته، وتلك هي توبته التي تابها الله عليه، وهداه إليها، ووفقه لها. (1)

ولكن النعيم الذي تمنى آدم الخلد فيه بالجنة قد انتهى، فيقول المولى عز وجل في هذا الموقف: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: 123] وبهذا صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى الأرض، وبذلك أعلنت الخصومة في الثقلين، فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة، ومن حيث لا أدري. فقد درى، وأعلن هذا الأمر العلوي في الوجود كله: (بعضكم لبعض عدو) إعلان دوت به السماوات والأرضون، وشهده الملائكة أجمعون (2)

ويشعر آدم بأسى ما حُرِمَ منه من نعيم الجنة، فيحاول أن يعمل على استردادها، ويعرف طريق العودة إليها، وعن هذا يروي سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 37] قال: أي رب ألم تخلقني؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تسبق رحمتك إلي قبل غضبك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تُسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: رب أرايت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم (3)

4- خطيئة أبينا وأما آدم وحواء عقيدة فاسدة للنصارى

استخدم النصارى خطيئة آدم وحواء عليهما السلام أسوأ استخدام، فقد جعلوا في عقيدتهم المنحرفة أن المسيح عليه السلام ضحى بنفسه صلباً وقدمها قرباناً لله، تكفيراً عن خطيئة آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة وخرج من الجنة، ويدعون أنه ابن الإله.

وهذا كلام غير منطقي لا يعقله عاقل، فخطيئة آدم التي لم تزد عن أن تكون أكلاً من شجرة نُهي عنها، قد عاقبه الله عليها بإخراجه من الجنة وهذا باتفاق النصارى والمسلمين، ولا شك أنه عقاب كاف، فالحرمان من الجنة والخروج إلى الكدح والنصب عقاب ليس بالهين. (4) "

(1) جامع البيان في تفسير القرآن/ابن جرير الطبري 388/18 بتصرف .

(2) انظر : في ظلال القرآن/الشهيد سيد قطب 2355/4.

(3) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار/يحيى بن أبي الخير 65/3 بتصرف.

(4) مناظرة بين الإسلام والنصرانية/محمد جميل غازي 23/1 بتصرف.

ومن المثير للتساؤل بما يحمل إدحاض الإدعاء، لماذا يتحمل أبناء آدم وزر هذه الخطيئة؟؟ كما يدعي النصارى أن المسيح تحمل وزر خطيئة آدم، أليس لديهم في الكتاب المقدس: " لا يُقتل الآباء عن الأولاد ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يُقتل".⁽¹⁾

فكيف القانون العام يخالف العقيدة المعمول بها، فما ذنب عيسى يُصلب بذنب أبيه آدم عليه السلام؟ فليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده؟ كما تقول نظرية الكنيسة، فإن خطيئة آدم عليه السلام كانت خطيئة شخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة أيضاً، وكل إنسان يحمل وزره، والله تواب رحيم⁽²⁾.

ألم يكن أوفق لعدل الله ورحمته أن يعفو عن عباده بدلاً من أن يعاقب ابنه الوحيد المزعوم، كما يدعي النصارى أن الله اتخذ عيسى ولداً ليُصلب ويكفر به عن خطيئة آدم، - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- إنه الله سبحانه وتعالى غافر الذنب، قابل التوب، ذوالطول لا إله إلا هو⁽³⁾. ثم لماذا النصارى لا يكتشفون هذا الهراء والكنيسة لا تكتشفه إلا بعد حادثة الصلب؟⁽⁴⁾

ومن أقبح الأقوال في أصل معتقدتهم هذا: أن أرواح الأنبياء عليهم السلام كانت في الجحيم في سجن إبليس، من عهد آدم إلى زمن المسيح، وكان إبراهيم وموسى ونوح وصالح وهود معذبين مسجونين في النار بسبب خطيئة آدم عليه السلام، وأكله من الشجرة، وكان كلما مات واحد من بني آدم أخذه إبليس وسجنه في النار بذنب أبيه، حتى أنقذهم المسيح بالتكفير عن خطيئة أبيهم حين احتال الله على إبليس الرجيم.

والأسخف أن الله احتال على إبليس والتحم ببطن مريم ليكون هناك ابنا له يقدمه قربانا يُكفر به عن خطيئة آدم ويفك أسر الأنبياء في جهنم. كم هو قبيح قبيح قولهم⁽⁵⁾، فقد نسبوا للإله الحق سبحانه ما يأنف أسقط الناس وأقلمهم أن يفعله بمملوكه وعبده، وكذبوا الله عز وجل في كونه تاب على آدم عليه السلام وغفر له خطيئته، ونسبوه إلى أقبح الظلم، حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأوليائه في الجحيم، بسبب خطيئة أبيهم، ونسبوه إلى غاية العجز حيث عجز أن يخلص

(1) الكتاب المقدس سفر التثنية إصحاح 24.

(2) في ظلال القرآن/الشهيد سيد قطب 61/1 بتصرف.

(3) زهرة التفاسير/أبو زهرة محمد ن أحمد 541/10.

(4) الأديان والمذاهب/مناهج جامعة المدينة العالمية 271/1.

(5) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان/ابن قيم الجوزية 284/2 بتصرف.

أنبياءه بقدرته من غير هذه الحيلة، ونسبوه إلى غاية السفه والنقص، حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من ابنه، حتى قتلوه، وصلبوه وأراقوا دمه (1)

ذُكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في النصارى: (أهينوهم ولا تظلموهم؛ فلقد سبوا الله عز وجل مسبة ما سبه إياها أحد من البشر⁽²⁾) وقد ذكر هذا أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية من قول معاذ بن جبل رضي الله عنه: (3) (فلقد نسبت النصارى إلى الله من الظلم العظيم ما لم ينسبه إليه أحد من الأمم، كما سبوه وشتموه مسبة ما سبه إياها أحد من الأمم، فهم من أبعد الأمم عن توحيدِه وتمجيدِه وحمده والثناء عليه⁽⁴⁾).

وكان بعض أئمة الإسلام إذا رأى صليبياً أغمض عينيه عنه، وقال: " لا أستطيع أن أملاً عيني ممن سب إلهه ومعبوده بأقبح السب⁽⁵⁾."

ولهذا قال عقلاء الملوك: " إن جهاد هؤلاء واجب شرعاً وعقلاً، فإنهم عار، على بني آدم، مفسدون للعقول والشرائع⁽⁶⁾."

5- الافتراء على أن آدم وزوجه عليهما السلام أنهما أشركا بالله :

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: 189-190]

تأول البعض في تفسير هذه الآية وبروايات للأسف غير صحيحة في أن الذين عنتهما الآية في الشرك هما آدم وزوجه حواء عليهما السلام.

ومن هذه التأويلات: لما أهبط آدم وحواء إلى الأرض أُلقيت الشهوة في نفس آدم فأصاب حواء، أي واقعها فحملت، فلما ثقل الحمل أتاها إبليس اللعين فقال: إني أخاف أن يكون

(1) العلمانية نشأتها وتطورها/سفر بن عبد الرحمن الحوالي/1/665.

(2) منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب/عبد العزيز آل معمر 1/183 بتصرف.

(3) وسطية أهل السنة بين الفرق/محمد باكريم محمد 1/265.

(4) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح/ابن تيمية 2/107 بتصرف.

(5) فتح الباري في شرح البخاري/ابن حجر العسقلاني 11/505 .

(6) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية/يحيى بن أبي الخير 3/659 بتصرف.

الذي في بطنك بهيمة أو كلبا أو خنزيرا⁽¹⁾، وقال لها: وما يدريك من أين يخرج؟ أمّن دبرك أو فيك؟، أو يشق بطنك فيقتلك؟

فخافت حواء من ذلك، ثم عاد إليها فقال: إني بمنزلة من الله، فإن دعوت الله أن يجعله خلقا سويا، ويُسهل خروجه عليك تسميه عبد الحارث؟

كان اسمه لعنه الله في الملائكة الحارث، فذكرت حواء ذلك لآدم، فقال لها: لعله صاحبنا الذي قد علمت، فعاودها إبليس، فلم يزل بهما حتى غرهما، فلما ولدت سمياه عبد الحارث فعاش⁽²⁾

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لما حملت حواء طاف عليها إبليس عليه اللعنة، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان من وحي الشيطان وأمره⁽³⁾ أي من وسوسته وحديثه.

كما جاء أنه خدعهما مرتين مرة في الجنة، ومرة في الأرض⁽⁴⁾ قال ابن عباس: لما ولد لآدم أول ولد أتاه إبليس فقال: إني أنصح لك في شأن ولدك هذا سمه عبد الحارث وكان اسمه لعنه الله في السماء الحارث فقال آدم: أعوذ بالله من طاعتك، إني أطعتك في أكل الشجرة فأخرجتني من الجنة، فلن أطيعك فمات ولده، ثم ولد له بعد ذلك ولد آخر، فقال: أطعني وإلا مات كما مات الأول فعصاه، فمات الولد الثاني فقال: لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبد الحارث، فلم يزل به حتى سماه عبد الحارث، فذلك قوله عز وجل "فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا"

قال ابن عباس رضي الله عنه: أشركه في طاعته في غير عبادة، ولم يشرك بالله، ولكن أطاعه⁽⁵⁾.

وقال قتادة رضي الله عنه: أشركا في الاسم، ولم يشركا في العبادة⁽⁶⁾، وقال عكرمة رضي الله عنه: ما أشرك آدم ولا حواء، وإنما كان لا يعيش لهما ولد فأتاهما الشيطان وقال: إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث⁽⁷⁾.

(1) تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد/العجيلي/458/2

(2) جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 145/6 بتصرف

(3) سنن الترمذي 267/5 ح 3077 أخرجه وقال حديث حسن غريب، وافقه الذهبي و وضعه الألباني .

(4) الجامع لأحكام القرآن/أبو عبد الله القرطبي 880/7 بتصرف

(5) تفسير ابن الجوزي/ابن الجوزي 20/2 بتصرف

(6) معالم التنزيل في تفسير القرآن/البغوي 221/2 بتصرف

(7) لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 281/2 بتصرف

للأسف قد تلقى كثير من مفسري السلف والخلف الأثر الوارد في خدع إبليس للزوجين آدم وحواء علي الأرض، وأولوا الآية الكريمة السابقة من سورة الأعراف، إلى أن المعني فيها آدم وحواء عليهما السلام، ولكن الحسن البصري رحمه الله تعالى على أنه ليس المراد من سياق الآية آدم وحواء، بل المراد من ذلك المشركون من ذريتهما ولهذا قال تعالى: ﴿ تَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: 63] ولم يقل يشركان لأن المقصود الذرية، وأن ذكره تعالى آدم وحواء في أول الآية كالتوطئة لما بعدها من الوالدين، وهو كالاسترداد من ذكر الشخص إلى الجنس، وفي القرآن نماذج من هذا القبيل كقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: 5]

ومعنى ما تأوله الحسن وعكرمة رحمهما الله : أي جعل أولادهما أي أولاد آدم وحواء عليهما السلام له شركاء فيما آتاها بقريته قوله أيشركون بالجمع فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما أقام الأبناء مقام الآباء في إضافة الفعل إلى الأبناء والفاعل إنما هو الآباء، أو المقصود أولاد آدم الكفار فقد سماوا أولادهم بعبد العزى وعبد مناف وعبد شمس وعبد اللات وعبد مناة.⁽¹⁾ وعلى فرض صحة الرواية في الآية عنهما في ذلك وعلى حسب الظاهر من السياق، قد يكونان عليهما السلام أخطأ في قبول ما عرضه إبليس عليهما من تشريك غير الله معهما، ولربما كان ذلك لعدم علمهما أنه إبليس كما يدل عليه قوله لهما (إني بمنزلة من الله) وقول آدم لحواء لما شكت إليه: (لعله صاحبنا الذي قد علمت)، ومع ما ابتليا به من موت الولد وحبهما لبقائه كما جاء في بعض الروايات: (فأدركهما حب الولد) فسمياه عبد الحارث، ثم لما علما أنه إبليس غيرا ذلك الاسم وتابا ويدل على ذلك أنه لم يعلم في التاريخ ولا في النصوص أن من أبناء آدم من يقال له: عبد الحارث، وإن كان المراد أن الذم لغير آدم وحواء وإنما كان لبعض نسلهما من بني آدم كما رجحه بعض أهل العلم فلا إشكال⁽²⁾

أما إطلاق الشرك في حق سيدنا آدم عليه السلام الذي هو نبي معصوم" فهذا مرفوض ولا يصدق على من خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه، ومن أعجب ما يحكى ويقال، جزم بإطلاق الشرك على آدم عليه السلام، ثم القول هو نبي معصوم في نفس المقام، فهذا من المعترض الجاهل لأنه يجمع بين النقيضين، وجهل لا يخفى على ذي سمع وعين.⁽³⁾

(1) التوضيح عن توحيد الخلاق/سليمان بن عبد الوهاب 339/1 بتصريف

(2) تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد/العجلي 458/2 بتصريف

(3) منهاج التأسيس والتقييس/عبد اللطيف عبد الوهاب 317/1 بتصريف.

ولقد أُبقت الآيات قصة الزوجين مبهمة، لم تبيّن من تفاصيلها شيئاً، أبهمت اسمي الزوجين وزمانهما ومكانهما، وتفاصيل حمل المرأة وولادتها، وتفاصيل الشرك بالله! وهذا كله لا نخوض فيه، لأنه لا دليل عليه. (1)

هل ممكن لآدم وحواء وقد هبطا من الجنة بسبب غواية إبليس وخداعه لهما، والذي لم يكن سهلاً طردهما من الجنة والراحة التي كانا فيها إلى دار الضنك في الدنيا، وقد توسلا إلى الله بخالص الدعاء معاً، فهل من المعقول أن ينسيا هذا وبسرعة يقعا مرة ثانية لغواية إبليس لعنه الله ويشركان بالله. كما أن التاريخ لم يذكر اسم عبد الحارث لأحد من أولاد آدم عليه السلام، فكيف هذا الإدعاء والافتراء.

فأبونا آدم كسائر الأنبياء معصوم من الشرك، فالشرك من الكبائر التي لا تنسجم إطلاقاً مع وظائف الأنبياء الأبرار الأخيار المصطفين من الله لهداية البشر، وإرشادهم إلى عبادة الله وحده، ونفي الشركاء عنه، فهذه في المرتبة الأولى وظيفتهم، فكيف السبيل إلى ذلك وهم على غير هدى وهذا يكفي لضحد هذه الافتراءات.

(1) القرآن ونقض مطاعن الرهبان/صلاح الخالدي 99/1.

المطلب الثاني

عزيز مصر وامراته بين الخطيئة والتوبة

نموذج آخر يورده القرآن الكريم للعلاقات بين الأزواج وتصوير لما يمكن أن يحدث من الأزواج، فكان نموذجاً يحمل الخطيئة والتوبة، فزوجة العزيز التي عملت للخطيئة بإصرار تراجعت واعترفت بخطيئتها وبرأت يوسف عليه السلام مما اتهمته به، وثابت وأمنت بنبي الله يوسف عليه السلام وكذلك آمن بيوسف عليه السلام فرعون مصر .

وقد اعتدنا أن نصف كل فرعون بالظلم والتكبر والتجبر، فإذا وصف القرآن الكريم والتوراة الفرعون الذي عاصره موسى عليه السلام بوصفه بالتجبر والطغيان وادعاء الربوبية، فعلينا أن نصدق ونؤمن بكل ما وصف به، ولكن ليس علينا أن نعمم صفاته هذه على كل الفراعنة، لا سيما وأن القرآن الكريم لم ياب أن يصف عزيز مصر وملكها الفرعون اللذين آويا يوسف عليه السلام بأوصاف طيبة. وما من شك في أن الحكام في كل مجتمع وكل زمان، وأياً ما كانت ألقابهم، يتعاقب منهم العادل والظالم، الصالح والظالم.⁽¹⁾

عزيز مصر صاحب يوسف عليه السلام هو الريان بن الوليد كان أبوه الوليد بن ريان الذي قتل ملك مصر واسمه القبط بن حام واستولى على ملك مصر⁽²⁾ وقد روي أن عزيز مصر صاحب يوسف عليه السلام، لم يكن ملكاً برأسه. وأن ملك مصر وفرعونها كان في ذلك الوقت الريان بن الوليد ابن مروان وكان من العماليق، وكان عزيز على خزائنه بمصر، فسمي العزيز فيهما واسمه قطفير وقيل أطفير بن روحيب، وكان في ما روي لا يأتي النساء.⁽³⁾

أما اسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل، وقيل كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها، وقال ابن إسحق⁽⁴⁾: هي امرأة العزيز وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر⁽⁵⁾.

ومن خلال قصة يوسف عليه السلام سنعرف كيف يمكن أن تنتكس العلاقات الزوجية إذا لم تنتق الله إلى الخطيئة وذلك من خلال النقاط الآتية :

(1) انظر : الأندى القديم في مصر والعراق/عبد العزيز صالح 1/ 88.

(2) انظر : الأخبار الطوال/الدينوري 1/ 4

(3) انظر : المناقب المزيدية في أصحاب الأسيدي/أبو البقاء الحلي 1/ 34.

(4) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني: من أقدم مؤرخي العرب، من أهل المدينة. له السيرة النبوية هذبها ابن هشام. ومن الأصل أجزاء مخطوطة كتبت سنة 506 هـ في خزن، وكان قدريا، ومن حفاظ الحديث..الأعلام للزركلي 6/ 28 .

(5) انظر : البداية والنهاية/ابن كثير 1/ 232.

1- العزيز وامراته في كنفهما يوسف عليه السلام :

كان الذي باع يوسف عليه السلام بمصر مالك بن ذعر العربي واشتراه من العرب عزيز مصر وهو وزيرها أو صاحب شرطتها⁽¹⁾، قيل اشتراه بعشرين ديناراً، وقيل بوزنه مسكاً ووزنه حريراً ووزنه ورقاً، ولم يكن للعزيز ولد، فأخذ يوسف لزوجته وقال لها: ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف: 21] لذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه في ذلك : (أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامراته: " أكرمي مثواه "، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى: " يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين وأبو بكر حين استخلف عمر)⁽²⁾

اشترى العزيز يوسف عليه السلام وعمره سبع عشرة سنة، وأقام عنده ثلاث عشرة سنة، وأعطاه الريان ملك مصر الوزارة وهو ابن ثلاثين سنة، وأعطاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتولى ملك مصر وهو ابن مائة وعشرين سنة، ومات الريان في حياة يوسف بعد أن آمن به.⁽³⁾

وهكذا بمشيئة الله وقدرته أصبح يوسف عليه السلام بقصر الملك بدل الجب؛ ليتمتع فيه بكرم المنزلة، وطيب الطعام، وحسن الملبس، والاطلاع على أمور الناس، وكانت أمنية العزيز من تبني يوسف أن يساعده في مهامه، أو يتخذه وزوجه ولداً يؤول إليه الأمر من بعده، فرحبت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام، واهتمت بتربيته، واعتنت بتعليمه، وسرعان ما أحبه كل من عاشره من خدم وحشم القصر، لما كان يتمتع به من جمال باهر، وأدب رفيع، وطاعة سريعة.⁽⁴⁾

يقول تعالى في ذلك: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 21] أي قيضنا هذا العزيز وامراته يحسنان إليه ويعتنيان به⁽⁵⁾

(1) انظر : ديوان المبتدأ والخير/ابن خلدون 45/2.

(2) انظر : موا رد الظمان/عبد العزيز السلطان 733/6.

(3) انظر : نزهة المجالس ومنتخب النفائس/الصفوري 155/2.

(4) انظر : دعوة الرسل عليهم السلام/أحمد غلوش/203/1.

(5) انظر : البداية والنهاية/ابن كثير/235/1.

2- سحر جمال يوسف عليه السلام يوقع امرأة العزيز في عشقه :

لقد أوتي يوسف عليه السلام شطر الجمال وقد جاء في حديث الإسراء: (فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن).⁽¹⁾ قال كثير من الأئمة كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه فكان في غاية نهايات الحسن البشري، ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم عليه السلام وحسنه، ويوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ولم يكن بينهما أحسن منهما⁽²⁾

قال ابن مسعود رضي الله عنه: وكان وجه يوسف عليه السلام مثل البرق، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطي وجهه وقال غيره: كان في الغالب مبرقعا لئلا يراه الناس.⁽³⁾

3- امرأة العزيز في قصرها تراود يوسف عليه السلام عن نفسه:

هامت زوجة العزيز بيوسف عليه السلام، وتعلق قلبها به، وشغفت بحبه، فكانت تتزين أمامه، وتظهر مفاتها ومحاسنها ليميل إليها، لكنه لم يلتفت إلى شيء من هذا، واستمر مستمسكا بالعفة والطهارة، والخلق الكريم، فلم تصبر زوجة العزيز على ذلك فانتقلت من التعريض للتصريح، وأعدت العدة لتتال من يوسف ما تشتهي، وتبغى⁽⁴⁾

ويحدثنا القرآن ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه فيقول:

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُبْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي

أَحْسَنَ مَتَوَاتِرًا إِنَّهُ لَا يَقْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 23-24] تصور

الآيات طلب امرأة العزيز من يوسف عليه السلام لتنتقلنا إلى الحادث بتصوير شامل كامل للموقف.

وموقف امرأة العزيز الذي لا يليق بحاله ومقامه، فهي سيدة مجتمع، امرأة الوزير في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، فقد شب يوسف عليه السلام وكان في غاية الجمال والبهاء في بيت العزيز، واكتملت ملامح الرجولة والجمال فيه، فإذا بها تهيم حبا به عليه السلام⁽⁵⁾

(1) صحيح مسلم/باب الإسراء برسول الله 145/1.

(2) تفسير القرآن العظيم/ابن كثير 364/4 بتصرف.

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 2316/7.

(4) نزهة المجالس ومنتخب النفايس/الصفوري 155/2.

(5) موجز التاريخ الإسلامي/أحمد العسيري 23/1.

ويعد أن بلغ يوسف عليه السلام أشده في بيتها، راودته عن نفسه فغلقت الأبواب وتهيأت له، وتصنعت، وليست أحسن ثيابها، وأفخر لباسها، ولكنه عليه السلام أبى واستعصم ولم يتأثر عليه السلام بهذه المغريات، ولكن عاطفتها الثائرة وإصرارها على مرادها جعلتها تلح وتهيئ الأجواء في إحكام الإغلاق والخلوة واستسلامها وانقيادها لشهوتها الثائرة، وأتبع ذلك بالدعوة الصريحة في قولها (هيت لك) فقال لها على الفور: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: 23]

تذكر ربه واستعاذ بالله مما دعته إليه، وتذكر العزيز الذي أكرم مثواه فقال لها : وزوجك هو سيدي وربي، الذي أكرمني ورباني، فكيف أخونه في أهله، وأجيبك إلى ما تريد، وفي الاستجابة لك ظلم وعدوان على حق الله، وحق الناس ولا يفوز الظالم أبداً (1) فلما رفض ذلك طارده في البيت الخالي كالمحمومة وهو يهرب منها، فإذا بزوجه العزيز وهي على هذه الحالة من الهيجان والانفعال (2)

4- الزوجة الخاطئة تبريء نفسها أمام زوجها وتتهم يوسف عليه السلام بالخيانة

تحولت امرأة العزيز أمام زوجها العزيز من النقيض إلى النقيض، من الخيانة إلى الطهر والعفاف، واتهمت يوسف عليه السلام بالخيانة حين فاجئها زوجها لدى الباب، ويصور القرآن المشهد المؤثر فيقول تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 25-27]

استخدمت امرأة العزيز سياسة خير وسيلة للدفاع الهجوم، واتهمت يوسف بالخيانة وبرت عرضها، وإحكام الأمر في إيهاام زوجها ببراءتها، قالت بذكاء (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) تريد الرِّزَا، وتقرر الحكم الذي تريده فتكمل قائلة (إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أرادت له السجن أو عذاب أليم بالضرب، وذلك لتقر أن الذنب ثابت متقرر على يوسف عليه السلام (3).

(1) فتح القدير/للشوكاني 17/3 بتصرف.

(2) انظر : وظيفة الصورة الفنية في القرآن/عبد السلام الراغب 295/1.

(3) انظر : الوجيز/للواحدي 543/1.

كان لآبِد ليوسف عليه السلام أن يدافع عن نفسه بعد قلب الموازين، فقال عليه السلام للعزير (هي راودتني عن نفسي)

وبذلك ادعى كل منهما أمام العزير براءته من الحدث الواقع أمامه ولا يمكن نفيه، فعندها تدخل رجل كان قريباً لها، لمعرفة المتهم والبريء، فقال (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) لأنه يكون قد راودها فدافعت حتى قادت مقدم قميصه (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه من الخلف لذلك.

وفعلاً ذلك كان الحاصل فقميصه قد من دبر، فتبينت براءته، وذلك قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: 28] فهذا الذي جرى من مكرك، أنت راودته عن نفسه ⁽¹⁾ وقد اقتنعوا جميعاً بصدقه وكذبها، ومع ذلك أدخلوه السجن وبقي فيه بضع سنين ⁽²⁾

5- عزيز مصر يهادن يوسف ويطلب من امرأته الاستغفار :

وجد العزير نفسه أمام قضية خطيرة تهمة فلم يرد العزير أن يهتك ستر امرأته، وخاف من الفضيحة وهو العزير في مصر، فطلب من يوسف عليه السلام أن لا يذكر هذا الحديث لأحد لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وهو قوله تعالى على لسانه أو على لسان الشاهد ⁽³⁾: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: 29]

ثم انتقل الزوج بالكلام إلى زليخا فقال لها كما يقول الله تعالى على لسانه: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 29] سريعاً ضرب بعلمها عن ما حدث صفحاً، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، والتوبة إلى ربها فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. وبذل هذا على أنه لم يكن في شرعهم حد للزنا وإن كان محرماً حيث عده العزير ذنباً. ⁽⁴⁾ وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال لها بعلمها: " استغفري لذنبك إنك كنت

(1) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ابن عطية 3/235.

(2) انظر : موجز التاريخ الإسلامي/أحمد العسيري 1/23.

(3) انظر : الهداية بلوغ النهاية/مكي القبرواني 5/3545.

(4) انظر : لطائف الإشارات/القشيري 2/81.

من الخاطئين) وفيه قولان : أحدهما: استعفي زوجك لئلا يعاقبك، قاله ابن عباس. والثاني: توبي من ذنبك إلى الله فإنك قد أثمت. (1)

قيل: عذر العزيز امرأته من بعض الوجوه لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله ويقصد جمال يوسف عليه السلام، إلا أنه عفيف نزيه برئ العرض سليم الناحية (2)
أراد الملك بذلك ستر الموضوع بتركه، والتوبة عنه، والاستغفار له، و لكن أمر النساء لا يبقى سراً.

6- علاقات نسوية مآكرة ومأدبة نسائية فريدة :

كان عزيز مصر حريصاً أن ينتهي الموضوع، وأن يلمه بأي شكل من الأشكال ولكن الموضوع تسرب من بيت العزيز يقال من امرأة الخباز والسجان والساقى والحارس والدواة في القصر (3) فيقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: 30].

والمتأمل في الكلام يدرك ما يتضمنه من وجوه المكر للنسوة في المدينة، فهم لم يسمونها باسمها، بل سموها بما يثبت عليها قبيح فعلها، بكونها ذات بعل، وبعلاها ليس زوج عادي إنه عزيز مصر، والذي تراوده مملوك لا حر، فبذلك يكون صدور الفاحشة منها أقبح وأكثر تشنيعاً لها. (4)

وسرعان ما أخذ النسوة يتحدثن عن امرأة العزيز، وشغفها بحب يوسف، وخيانتها لزوجها، وتفريطها في طهارتها، فسمعت امرأة العزيز بحديث النسوة، امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني وهو مقتنها، فأرادت إحاطتهن بما لم يحطن به ليعذرنها، فدعتهن إلى طعام (5) وأجلستهن على المقاعد، وأحضرت وهيات لهن مأكلاً (6) كعادة المترفين، وسلمت كل واحدة سكيناً تستعمله في أكلها، واتخذت لهن ضيافة عظيمة من ألوان الأطعمة وأنواع الأشربة بحيث لا توصف، ثم أخرجت يوسف إليهن بحسنه وجماله، فلما رأينه سُحرن به، وقطعن أيديهن

(1) انظر : زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي 434/2

(2) انظر : البداية والنهاية/ابن كثير 232/1

(3) انظر : زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي 434/2

(4) انظر : إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان/ابن القيم الجوزية 115/2

(5) انظر : روح المعاني/الألوسي 416/6

(6) المتكأ : ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد وغيرها/المرجع السابق

بالسكاكين، وهن لا يدرين، ويصف القرآن الكريم ذلك المشهد وما لأصابهن ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَمَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مَّتَّهِنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَّ فُلْمَا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31] حينئذ أبدت امرأة العزيز عذرها، حين رأت ما أصابهن وهذا ما يبينه القرآن على لسانها ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زَادْتَهُنَّ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: 32]

7- امرأة العزيز تجاهر بإرادة الخطيئة ويوسف ﷺ يتمسك بالفضيلة :

بعد مأدبة الطعام التي مكرت فيها امرأة العزيز لنسوة المدينة، وبعد أن افتتنت النسوة جميعهن بجمال يوسف ﷺ، فقبل : إن أولئك النسوة عشقنه وماتت جماعة منهن من عشقه.⁽¹⁾ عندها جاهرت امرأة العزيز بحبها له، وتصميمها على معاشرته متخفية عن برقع الحياء دون أن تخشى الفضيحة فالأمر الآن أمامهن جميعاً، بل أكثر من ذلك فما كانت تنكره بالأمس من مراودته له، تعترف به وتقره وتصرح به علناً في قولها: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زَادْتَهُنَّ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: 32]

وهكذا تصر امرأة العزيز على الخطيئة، وتأمره بفعل ذلك وتهدهه بالسجن والإذلال والإهانة، وازداد الأمر سوءاً حين انضم إليها النسوة في موقفها، فقد كانت امرأة العزيز وحدها تدعوه إلى الخطيئة فأصبح عدة نسوة.⁽²⁾

يرى يوسف ﷺ هذا الموقف من جماعة النسوة فيعلنها بكل وضوح، أن السجن أحب إليه من ارتكاب ما يدعونه إليه⁽³⁾ ويدعو الله تعالى قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 33-34] ونلاحظ في دعائه في الآية الكريمة أنه قال : يدعونني ولم يقل تدعونني وبذلك جمع كل النسوة ففي هذا الإشارة إلى أنهم جميعاً دعونه إلى

(1) انظر : تفسير القرآن/السمعاني 28/3.

(2) انظر : زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي/437.

(3) انظر : روح المعاني/الألوسي 244/4.

أنفسهن، أو لأنهن قلن له أطع مولاتك فيما تدعوك إليه أو لأنه كان بحضرتهم، أو يكون بهذا خروجاً من التصريح إلى التعريض والله أعلم (1).

تقبل الله من يوسف عليه السلام الدعاء واستجاب له فصرف عنه كيدهم إنه السميع العليم، بعد أن أقر عليه السلام لربه بضعفه ولسان حاله إن وكلتني يا رب إلى نفسي، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، وإن لم تعصمني منهن قد أصبو إليهن، والسجن أحب إلي من ركوب المعصية (2)، ولكن الله تعالى استجاب دعاءه فعصمه منهن وبرأه ونزّهه عن الفاحشة وحماه وصانه منها.

9- الزوجان يقران سجن يوسف عليه السلام جزاء فضيلته

بعد رفض يوسف عليه السلام أن يجيب طلب امرأة العزيز والنسوة، وكبر الأمر في نفس امرأة العزيز، وأحست بطعنة ثوجه لكبريائها، فلا هي حققت غرضها، ولا هي تعففت، فحينها هددته بالسجن الطويل والإذلال والهوان الذي ينتظره نتيجة لموقفه هذا.

ومع ذلك فضّل يوسف عليه السلام السجن على ما يدعونه إليه، فعندها أشارت النسوة على امرأة العزيز بسجنه عسى أن يستهوينه حين يخلو لهن في السجن، وقلن لها: إذا سجنته قطع ذلك عنك كلام الناس الذي شاع، ورأوا أنك تبغضينه، ويذلّ لك السجن (3).

فلما بيئت منه، قالت لسيدها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني، وقال: إني راودته عن نفسي، وقد أبغضت رؤيته، فائذن لي في سجنه، فأذن لها، فسجنته وأضرت به (4).

وقيل: بعدما ظهرت براءة يوسف، رأى العزيز وأصحابه سجنه مدة يتصور الناس بها براءة زوجته، وإدانة يوسف فيما اتهم به (5).

يدخل يوسف عليه السلام السجن، ويظل في غيابته ظلماً واقتراءً وبهتاناً سنين، ويلتقي هناك بصنوف من الناس، يتعامل معهم بخُلُقِه وطهارته، فاشتهر بينهم بالأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمات، وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير، والإحسان إلى المسجونين بعبادة مريضهم، والقيام بحاجاتهم فأحبوه، وكان يداوي جرحاهم، ويعزي حزينهم، ويجتهد لربه في السجن، فأخذوا برأيه ومشورته (6).

(1) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن/2/526.

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم/ابن كثير/4/386.

(3) انظر: تفسير القرآن/العز ابن عبد السلام/2/120.

(4) انظر: زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي/2/438.

(5) انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل/الكرماني/1/537.

(6) انظر: المرجع السابق/1/537.

ويقولون له : بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك، لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى؟ فيقول أنا يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم⁽¹⁾

ثم يدخل السجن فتیانِ أحدهما ساقى الملك، والثاني خبازه؛ لأنهما اتهما بمحاولة دس السم للملك في طعامه وشرابه، ولما لقيا يوسف تعارفا عليه، وتعلقا به كسائر المسجونين، وقالوا له: لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل علي من وراء حبه بلاء، لقد أحببتي عمتي فجعلتني سارق لتحتفظ بي، وأحبني أبي فألقاني إخوتي في الجب، وأحببتي امرأة العزيز فأدخلتني في السجن⁽²⁾.

رأى يوسف عليه السلام الفتيتين وكانا مهمومين فسألهما عن شأنهما، فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما، وقد رأيا رؤيا قد غمتهما، فقال يوسف عليه السلام: قصا علي ما رأيتما، فقصا عليه ما رأيا، ولقد عرض القرآن العظيم رؤية كلاً من الفتيتين التي قصتها على يوسف عليه السلام ليؤولها له، في قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:36]

والفتيان هما غلاما ملك مصر الأكبر، أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه، غضب الملك عليهما فحبسهما بتهمة قبولهم رشوة من جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله، فضمنوا لهذين الفتيتين مالا ليسما الملك في طعامه وشرابه، استجاب اتناهما لهذه الرشوة، إلا أن الساقى تراجع، وقبِل الخباز الرشوة فسم الطعام.

فلما أحضروا الطعام والشراب، قال الساقى: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: اشرب منه فشرب فلم يضره، وقال للخباز: كل من الطعام، فأبى فجرب ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلكت.⁽³⁾ فأمر الملك بحبسهما.

طلب الفتیان من يوسف عليه السلام: (أفنتا في رؤيانا إنا نراك من المحسنين) أي من مَنْ يُحْسِنُ التَّأْوِيلَ. وهذا دليل أن أمر الرؤيا صحيح، وأنها لم تنزل في الأمم الخالية، ومن دفع أمر الرؤيا، وأن منها ما لا يصح فليس بمسلم، لأنه يدفع القرآن والأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد روي

(1) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن/البغوي 493/22.

(2) المرجع السابق 492/2

(3) اللباب في علوم القرآن/عمر النعماني 101/1بتصرف .

عن رسول الله ﷺ : (أن الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة وتأويله أن الأنبياء يُخبرُونَ بما سيُكون والرؤيا الصادقة تدل على ما سيكون⁽¹⁾).

لم يبدأ يوسف عليه السلام بتأويل الرؤيا مباشرة، إنما بدأ أولاً بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل حيث لم يمنعه ما هو فيه من سجن، من الدعوة إلى الله وعبادته بدل الأصنام التي يعبدونها فقال لهم هادياً كما أخبر الله تعالى: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ ۚ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39] فدعاهما إلى الإسلام وقد كانا كافرين، فقال لهما :

يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير، وآلهة شتى تعبدون أفضل أم الله الواحد القهار، ثم قال لهما : إن ما تعبدون من دون الله من الآلهة، ما هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم، ما أنزل الله بها من سلطان إن الله أمر بالتوحيد، وأمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم⁽²⁾.

لما فرغ يوسف عليه السلام من الدعاء إلى توحيد الله وعبادته، رجع إلى تعبير رؤيتهما فقال يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا، فسيرجع إلى منزلته ويسقي الملك خمرا كما كان يسقيه أولاً، وأما الآخر وهو الخباز فيصلب فتأكل الطير من رأسه.

وقال للساقي الذي سينجو اذكرني عند سيدك وهو الملك الأكبر، فقل له : إن في السجن غلاماً محبوباً مظلوماً طال حبسه⁽³⁾ ويحتمل أن يريد أن يذكره عند الملك بعلمه ومكانته، أو يذكره بجملة ذلك⁽⁴⁾

قال مالك بن دينار⁽⁵⁾: "لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قال له ربه يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً، لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبي ذكرك كثرة البلوى⁽⁶⁾"

وقيل إن قوله هذا للساقي جعله يلبث في السجن بضع سنين أخرى لأن الاستعانة بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محمودة في الجملة لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء، فلو لم

(1) انظر : معاني القرآن واعرابه/للزجاج 110/3.

(2) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 334/2.

(3) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل /الخازن 275/2.

(4) انظر : المرجع السابق 275/2

(5) مالك بن دينار البصري، أبو يحيى: من رواة الحديث. كان ورعا، يأكل من كسبه، ويكتب المصاحب

بالأجرة. توفي في البصرة سنة 131 هـ. انظر : الأعلام للزركلي 261/5

(6) انظر : صحيح ابن حبان/الدارمي 86/14

يقول " اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ " لما لبث في السجن سبعاً بعد الخمس (1) قَلْبَتْ فِي السَّجْنِ بِضَعٍ سَنِينَ والبضع هو القطع، وهو ما بين الثلاث إلى التسع من البضع (2)

ومن المفسرين من جعل هاء الكناية في قوله " فأنساه " تعود على يوسف عليه السلام وليس على الساقى، فإن سألنا كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه قلنا بشغل خاطر وإلقاء الوسوسة فقد صح في الحديث (أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم (3)) أما النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر وإزالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه.

أكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين وكان يوسف قد لبث قبلها في السجن خمس سنين فجملة ذلك اثنتا عشرة سنة (4)

10- اعتراف الزوجة الخاطئة بخطيئتها وحصصة الحق:

لم يذكر ساقى الملك يوسف عليه السلام عند الملك، فلبث يوسف في السجن بضع سنين، ثم كانت رؤيا الملك، أخبرنا عنها القرآن فقد قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَنْتُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ يوسف: 43-44 طلب الملك تأويل هذه الرؤيا من ذوي الاختصاص فجمع السحرة والكهنة فقالوا: تخاليط أحلام وأباطيلها، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان وسموها بالأضغاث وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات (5).

تذكر ساقى الملك الذي كان في السجن يوسف عليه السلام، وأنه نسي أن يذكره للملك فقال أنا أدلكم على من يؤوله لكم وقد صور القرآن الكريم هذا المشهد فيقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا لَاقِيًا لِمَا نَأْتِكُمْ ثُمَّ ﴿٤٧﴾ ﴾

(1) شرح الشفا/علي القاري 221/2 بتصريف .

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل/البيضاوي 165/3.

(3) صحيح البخاري/كتاب صلاة التراويح/باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه 50/3.

(4) روح البيان/الخلوتي 264/4.

(5) انظر : الكشف عن حقائق التنزيل/الزمخشري 474/2.

يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادِيًّا كَلْنِ مَا قَدَّمْتُمْ لَهِنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِرُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ

النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ [يوسف: 45-49]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن السجن في المدينة فانطلق الساقى إلى يوسف عليه السلام فقال له "أيها الصديق" وهو كثير الصدق الذي لم يؤخذ عليه كذب قط، أو يجوز أنه سماه صديقا لما عرف أنه رسول الله⁽¹⁾

وقال له يوسف عليه السلام تأويلها كما بينت الآيات البيئات تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله، هو أبقي له "إلا قليلا مما تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما ترفعون ثم يأتي عام خير تعصرون فيه الأعناب والدهن والزيت وغيره؛ وإنما هو إخبار عن الخصب والسعة⁽²⁾.

فلما أتى الملك الرسول وأخبره قال: ائتوني به فلما جاءه الرسول فأمره أن يخرج إلى الملك أبى يوسف وقال: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن⁽³⁾

وفي ذلك حكمة ليوسف فلو خرج يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه ما زالت في نفس العزيز منه حاجة، كأن يقول هذا الذي راود امرأته. فقال الملك: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۗ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوٓءٍ﴾ [يوسف: 51] حاش لله هي كلمة تنزيه وتبرئة من القبيح، ولكن امرأة العزيز أخبرتنا أنها راودته عن نفسه⁽⁴⁾

ويقصدن بعدم علمهن عليه بسوء، ذلك السوء الذي قالتها امرأة العزيز إنه أرادها بها اتهاماً وظلماً. وفيه دلالة قاطعة أن لم يكن منه ما قاله أهل التأويل من حل السراويل وغيره؛ لأنه لو كان منه ذلك لكن قد علمن منه السوء.⁽⁵⁾

فقالت امرأة العزيز ﴿الْقَنَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

[يوسف: 51] أي وضح وانكشف، وتمكن في القلوب والنفوس من قولهم: حصص البعير في

(1) انظر : تأويلات أهل السنة/الماتريدي 2652/6

(2) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان/2/340

(3) انظر : تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 2577/7

(4) تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء/ابن خمير 48/1

(5) تأويلات أهل السنة/الماتريدي 2512/6

بروكه، إذا تمكن واستقر في الأرض، وفي اللغة مشتق من الحصاة أي بانث حصاة الحق من حصاة الباطل. (1)

ثم تقول امرأة العزيز: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52]

هذا القول قيل إنه من كلام يوسف أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنني لم أخنه بظهر الغيب مع زوجه وهو غائب عنى خفى عن عيني، وليعلم أن الله لا يهدي كيد الخائنين لا ينفذه ولا يسدده، وبه تعريض تأكيداً لأمانته، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سدده (2)

و الذي عليه طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم : أنه من تمام كلام امرأة العزيز أي أنها اعترفت بهذا ليعلم زوجها أنها لم تخنه في نفس الأمر ولم يقع منها فعل الفاحشة (3) كما هناك من قال أنها تريد لم تخن زوجها حيث لم يقع المحذور الأكبر ولم تخن يوسف بالكذب عليه وهو غائب، وتكلمت بالحق والصدق (4) ثم تقول كما أورد القرآن: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمْتُ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: 53]

حين من الله على يوسف عليه السلام بالبراءة التامة كما أراد، جاءه الرسول وأخرجه من السجن إلى عالم الحرية الواسع ، وقال الملك : ﴿أَتُوبُنِي بِهِ وَأَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54] وذلك بعدما تحقق من أمانته، وعرف صبره وجلده فعندها عظمت منزلته عليه السلام عنده، وتيقن حسن خلاله.

وقيل : لما دعى الملك يوسف عليه السلام توقف بالباب قبل الدخول عليه فقال: حسبني ربي من خلقه (5)

ثم قال يوسف عليه السلام للملك: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ﴾

يوسف 55 أي إني حفيظ لما وكلتني به، وعالم بلغة الناس كلها.

(1) انظر : مفاتيح الغيب/الرازي 643/18

(2) انظر : تفسير الزمخشري 474/2

(3) انظر : البداية والنهاية 1/ابن كثير/232 بتصرف

(4) انظر : دعوة الرسل عليهم السلام/أحمد غلوش/203/1

(5) انظر : تفسير القرطبي 211/9

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "لبيت بعد ذلك سنة ونصفا ثم ملك أرض مصر".⁽¹⁾ وبذلك مَنَّ الله على يوسف بالتمكين بالأرض بعد أن رد عنه كيد النسوة، وعصمه من الفاحشة، ويبدو أن الملك وزوجة العزيز قد دخلا في دين يوسف بعد ذلك.

(1) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 340/2

المبحث الخامس

علاقة الزوج السيئ بامرأته السيئة

ويشتمل على مطلب واحد بعنوان:

علاقة أبو لهب بزوجه أم جميل

المطلب الأول

علاقة أبو لهب بزوجه أم جميل

عرض القرآن نماذج متعددة للأزواج كما قدمنا عاكساً كيفية العلاقات بينهم، وقد عرضت للأزواج: النماذج الطيبة كلاهما، والنماذج التي كانت على التضاد، وكذلك النماذج التي أخطئت وآبت عائدة إلى الله عز وجل، وفي هذا المبحث سأعرض نموذجاً من العلاقات الزوجية السيئة المتفككة على ذلك وفي غاية الانسجام، إبليس الرجيم إمامها وأمامها في دروب الشر، زواجان أوردهما القرآن موضعاً مدى انسياقهما التام خلف الكفر بعيداً عن الإيمان والهدى، إنهما أبو لهب عم الرسول ﷺ وامراته أم جميل لعنهما الله.

فأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب، عم الرسول الحقيقي وصهر ابنتيه، ومن عشيرته وأقربائه، أنزل الله فيه قرآناً يهجو في سورة المسد ويتوعده بنار ذات لهب⁽¹⁾، كنيته أبو عتبة عبد العزى، وقد سمي عتبة وعتيبة، لضرورة الشعر⁽²⁾، ووُلد له غير عتبة وعتيبة معتبا، وبنات غيرهم، وزوج أبي لهب وأم أولاده هي بنت حرب بن أمية عمة معاوية بن أبي سفيان⁽³⁾، تكنى أم جميل العوراء، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وأخت أبي سفيان وكانت من سادات قريش⁽⁴⁾.

وقيل عن زوجها أبي لهب: إنه أحول، وكُنِيَ أبو لهب لجماله وشدة وضاعته، وقد أصابته العدسة وهي مرض معدي فمات بمكة و يقال: " إنه سارق غزال الكعبة وكان الغزال من ذهب".⁽⁵⁾

كان أبو لهب من أصحاب المال بمكة ومن المرابين، وفي سورة المسد إشارة إلى أن أبا لهب كان ملاًكاً ذا مال فيقول الله تعالى في معرض ذمه في سورة المسد " ما أغنى عنه ماله وما كسب "، إلا أن كسبه كان حراماً وقد كسب كثيراً في بدر⁽⁶⁾

ذُكر أنه كان قد أدان العاصي بن هشام بأربعة آلاف درهم مع الفوائد الربوية، فلما وقعت معركة بدر استأجره بها على أن يجزئ عنه بعثه، فلم يخرج أبو لهب مع من خرج من

(1) المحبر/محمد بن حبيب 157/1 بتصرف

(2) المنمق من أخبار قريش/محمد بن حبيب 36/1

(3) البدء والتاريخ/المطهر بن طاهر المقدسي 6/5 بتصرف

(4) تفسير ابن كثير/أبو الفداء ابن كثير 603/4

(5) نشوة الطرب في تايخ جاهلية العرب/341/1 بتصرف

(6) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام/جواد علي 121/14

رجال قريش. وكان العاصي قد أفلس، فلم يتمكن من دفع المبلغ ورياه، فتنازل أبو لهبعنه على أن يخرج إلى بدر في مكانه وبديلاً عنه (1).

وثوية مولاة أبي لهب أول من أرضع رسول الله ﷺ بلبن ابن له يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فكانت ثوية تأتي رسول الله ﷺ بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها وتكرمها خديجة، فأرسلت إلى أبي لهب أن يبيعه إياها لتعتقها، فأبى، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أعتقها أبو لهب، فكان رسول الله ﷺ يبعث إليها بالصلة (2).

وكان أبو لهب من خطباء قريش فقال له أبو جهل: إن محمداً قد هجاك حين نزلت (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) [المسد: 1]، وأنت قدير على الكلام، فلم لا تهجوه؟ فقال: والله إن لساني حيث أردت إلا في جواب محمد، فاني أراه معقولا! ولما بلغه نصر النبي ﷺ حسده، ومات غماً عقب ذلك، وقبره في الثنية المشرفة على مكة في طريق حجاج الشام، وبعض الناس يرحمونه. (3).

وسنسلط الضوء على بعض النقاط التي تبين العلاقة بين أزواج الكفر.

1- آيات تهجو الزوجين الكافرين إلى يوم الدين :

توعد الله أبا لهب بقرآن يتلى إلى يوم الدين يتلوه الملايين، يهجو ويهجو زوجته أم جميل فيقول تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد: 1-5]

عندما أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم أن ينذر عشيرته الأقربين (وأنذر عشيرتكم الأقربين) حينها صعد الرسول ﷺ على الصفا، ونادى: يا صباحا فاجتمعوا فقال: (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من صخرة بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟ قالوا: نعم؛ قال: فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد! فقال أبو لهب: تباً لك آخر الدهر ما دعوتنا إلا لهذا! (4) فنزلت سورة المسد، ومطلعها (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) [المسد: 1] وكان بعض

(1) الروض الانف/عبد الرحمن السهيلي 62/2 بتصرف.

(2) الكامل في التاريخ/علي الشيباني الجزري 414/1 بتصرف.

(3) نشوة الطرب في تايخ العرب/ابن سعيد الأندلسي 341/1 بتصرف.

(4) الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب/8/5359 بتصرف.

أهل العربية يقول: إن هذه الآية دعاء عليه من الله، وقال قتادة: معناها قد خسرت، فالتب على قول ابن زيد الخسران⁽¹⁾ والهالك، وقيل لأن اليدين للإنسان كالجناحين للطائر، فمن عدت يده فهو والهالك سواء.

وقيلاً: رمى أبو لهب رسول الله ﷺ حجراً بيديه، فكان الدعاء عليه بالهلاك لأن اليدين للإنسان كالجناحين للطائر، فمن عدت يده فهو والهالك سواء⁽²⁾.

قال أبو لهب للنبي ﷺ هذه بنو عبد مناف عندك ماذا أردت، فقال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرين، وأنتم الأقربون من قريش⁽³⁾، وإني لا أملك لكم من الله حظاً ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، فأشهد بها لكم عند ربكم وتدين لكم بها العرب، فقال أبو لهب: تبا لك! ألهذا جمعنا⁽⁴⁾ فنزلت سورة المسد تهجوه.

هجا القرآن الكريم أم جميل بما كانت تؤذي به النبي ﷺ، ليشهد عليها وعلى زوجها الخلق أجمعون إلى قيام يوم الدين، في آيات تُتلى أثناء الليل وأطراف النهار، فقد وصف القرآن الكريم فعلها القبيح مع رسول الله ﷺ وكيفية إيذائها له، فقال فيها: (حمالة الحطب)؟

فقد كانت تجمع كل شوك يعقر وتلقيه على طريق النبي ﷺ ليعقره ويذمي قدميه الشريفتين إذا خرج إلى الصلاة⁽⁵⁾.

ثم توعدا الله بقرانه بما يصنع بها في الآخرة، فقال: في جيبها أي في عنقها يوم الدين حبل من مسد أي سلسلة من حديد⁽⁶⁾، فما أشقى هذه المرأة التي تركت نفسها أداة بيد الشيطان، ما ضرها لو كانت من المؤمنين، فما أشقاها وقد توعدا رب العزة بما تستحق من العقاب، وميزها به لتعرفها أمة محمد ﷺ من الحبل الذي بجيبها، وتقول لها يوم القيامة: لعنك الله أنت التي أذيت رسولنا الكريم ﷺ.

أما زوجها فقد كان إذا جاء وفد على رسول الله ﷺ انطلق إليهم أبو لهب فسألوه عن النبي ﷺ فيقول: إنه ساحر كذاب! فيرجعون عنه ولا يلقونه. فأتاه مرة وفد، وفعل معهم مثل هذا،

(1) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 574/24.

(2) انظر: غاية الأمان في تفسير الكلام الرباني/أحمد بن إسماعيل 455/1.

(3) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول/حافظ بن أحمد 1055/3.

(4) انظر: المنمق من أخبار قريش/محمد بن حبيب 218/1.

(5) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 678/24.

(6) تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 91/4 بتصرف.

فقالوا: لا ننصرف حتى نراه ونسمع كلامه؛ فقال أبو لهب: إنا ما نزل نعالجه من الجنون، فبلغ الرسول ﷺ ذلك، فاكتأب له، ونزلت السورة⁽¹⁾.

وفي رواية إنه أتى رسول الله ﷺ فقال: ماذا أُعطي إن آمنت بك؟ قال: كما يُعطي المسلمون؛ قال: مالي عليهم فضل! قال: وأي شيء تبتغي؟ قال: تباً لهذا من دين، أن أكون أنا وهؤلاء سواء! فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: 1] قال: وذكره الله بكنيته لأنها أشهر من اسمه، ولأن اسمه كان عبد العزى، وهي صنم⁽²⁾

2- أبو لهب تنعدم فيه مروءة العرب :

اجتمعت قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب، وتعاهدوا على أن لا يبايعوهم ولا يخالطوهم ولا ينكحوا منهم ولا ينكحوهم حتى يتبرءوا من صاحبهم محمد ﷺ ويسلمونه للقتل وكتبوا صحيفة كاتبها منصور بن عكرمة بن عامر وعلقوها في الكعبة، فانحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب فدخلوا الشعب حمية ومروءة، ولكن أبا لهب عم الرسول ﷺ لم تكن فيه مروءة بني هاشم، فخرج من بني هاشم وحده واختار أن يحاصر الرسول ومَن معه في شعب أبي طالب بنفسه، ليضيق الأمر عليهم، فلا يصل إليهم شيء من الطعام.⁽³⁾

كان أبو لهب من أعدى أعداء رسول الله ﷺ، هو وامرأته حمالة الحطب بنت حرب بن أمية، التي كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ، وحين توفيت خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعد عمه أبي طالب، وفقد الرسول الكريم أشد مناصريه، نالت منه قُرَيْشٌ وخُصُوصاً عمه أبو لهب، والحكم بن العاص، وعقبه بن أبي معيط بن أمية لأنهم كانوا جيران النبي ﷺ، فيؤذونه في بيته بما يلقون عليه وقت صلواته في طعامه من الأذى.⁽⁴⁾

فلم يرفق أبو لهب بابن أخيه محمد ﷺ حتى في أحلك الظروف وأمرها، ولم يعتبر لصلة الدم والرحم التي تربطهما، ولم تكن فيه على الأقل العصبية القبلية التي اعتاد عليها العرب وكانت في دمهم، وذلك لكرهه للإسلام وحرصه الشديد على اللات والعزى التي اسمه على اسمها، فله من اسمه نصيب، وإنما هو عبد العزى، عبد لصنم العزى وهو من أشهر أصنامهم، فكان له من اسمه نصيب، فلأصنام عند الكفار مقام مقدس في نفوسهم، فهم يتخذونها آلهة يعبدونها لتقريبهم من الله زلفى مشركين بالله عز وجل، وكانوا يسمون أبناءهم عبيداً

(1) تفسير النكت والعيون/للماوردى 364/6 بتصريف.

(2) نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب/ابن سعيد الأندلسي 341/1 بتصريف.

(3) البدء والتاريخ/مطهر بن طاهر المقدسي 153/4 بتصريف.

(4) تاريخ ابن الوردي/عمر بن مظفر 102/1 بتصريف.

لهذه الآلهة، والعزى كباقي آلهتهم كانوا يتعهدون سدانتها، وعندما جاء الإسلام وسفه أحلامهم وأصنامهم ونهاهم عن عبادتها لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً، ألم هذا قريش كثيراً انتصاراً لهذه الآلهة.

ومن المواقف التي تسجل عليهم في ذلك أن سعيد بن العاص بن أمية وكنيته أبو أحيحة وهو في مرضه الذي مات فيه، دخل عليه أبو لهب يعوده، فوجده يبكي فقال له :
ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمِن الموت تبكي ولا بد منه ؟ قال: لا، ولكني أخاف أن لا تُعبَد العزى بعدي. فقال أبو لهب : والله ما عُبدت في حياتك لأجلك ولا تُترك عبادتها بعدك لموتك، فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لي خليفة، وأعجبه شدة نصبه في عبادتها.⁽¹⁾

3- محاربة أبي لهب وامراته وولده للنبي ﷺ:

كانت قريش تريد أن توقع بالرسول ﷺ كل أنواع الأذى، لتمنعه من دعوته ولكن وجود أبي طالب عم النبي وسيد قريش حال دون ذلك، وأنه ﷺ قد امتنع بعمه وعشيرته وأنهم لا يسلمونه للكفار، فعندها طفق الكفار يرمونه عند الناس ممن يفد على مكة بالسحر والكهانة والجنون والشعر يريدون بذلك صدّهم عن الدخول في دينه، ثم انتدب جماعة منهم لمجاهرتهم ﷺ بالعداوة وإيذائه، وكان أول المنتدبين لذلك للأسف: عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب أحد أشد المستهزئين.⁽²⁾

فماذا كان يفعل أبو لهب ؟ كان رسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب يدعوهم فيقول: (يا بني فلان إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني حتى أبين عن الله ما بعثني به) وخلفه عمه أبو لهب الذي تصفه الرواية أنه رجل أحول وضيء له غدירתان عليه حلة عدنية- فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال أبو لهب: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه، فيسألوا من هذا الذي يتبعه فيقولوا: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب⁽³⁾، كما كان المشركون يؤذون النبي ﷺ وهو يصلي، أما زوج أبي لهب أم جميل فقد حملت يوماً حجراً لترضخه في رأس الرسول ﷺ فزل من يدها.⁽⁴⁾

(1) انظر: كتاب الأصنام/هشام الكلبي 23/1.

(2) انظر: تاريخ ابن خلدون/عبد الرحمن ابن خلدون 412/2

(3) انظر: سيرة ابن هشام/عبد الملك بن هشام 32/2

(4) انظر: روح البيان/إسماعيل الخلوتي 167/5

وفي يوم خرج عتبة بن أبي لهب إلى الشام في تجارة، وتبعه ناس من قريش حتى بلغوا الصفاح فلما هموا أن يرجعوا عنه إلى مكة، قال لهم عتبة : إذا رجعتم إلى مكة، فأخبروا محمدا بأني كفرت ب (والنجم إذا هوى) وكانت أول سورة أعلنها رسول الله - ﷺ، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: (اللهم سلط عليه كلبك يأكله⁽¹⁾) .

ألقى الله عز وجل في قلب عتبة الرعب لدعوة النبي ﷺ وكان إذا سار ليلا ما يكاد ينزل بليل أبداً، فهجر النزول بالليل، فسار يومه وليلته، وهم أن لا ينزل حتى يُصبح، فلما كان قبيل الصبح، قال له أصحابه: هلكت الركاب، فما زالوا به حتى نزل، وعرش، وهو مذعور، فأناخ الإبل حوله مثل السرادق وجعل الجواليق دون الإبل مثل السرادق ثم أنام الرجال حوله دون الجواليق، فجاء الأسد ومعه ملك يقوده، فألقى الله عز وجل على الإبل السكينة، فسكنت، فجعل الأسد يتخلل الإبل، فدخل على عتبة وهو في وسطهم فأكله مكانه، وبقي عظامه وهم لا يشعرون⁽²⁾

4- الطيبون للطيبات والخبيثون للخبيثات :

عندما أنزل الله سبحانه وتعالى في أبي لهب وامرأته قرآناً يهجوهم يُتلى إلى قيام الساعة، كانت رقية بنت الرسول ﷺ قد تزوجت من عتبة بن أبي لهب، وتزوجت أختها أم كلثوم من عتبية بن أبي لهب، فلما نزلت سورة المسد: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد: 1-5] قال لهما أبو لهب وأمهما أم جميل بنت حرب بن أمية {حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} فارقا ابنتي محمد، ففارقاهما⁽³⁾، قال أبو لهب: رأسي من رأسيكما حرام إن لم تفارقا ابنتي محمد ففارقاهما⁽⁴⁾ وكانت رقية بنت النبي ﷺ تحت عتبة بن أبي لهب، وأختها أم كلثوم تحت عتبية أخيه، ولم يكونا دخلا بهما⁽⁵⁾ وذلك كرامة من الله تعالى لابنتي الرسول ﷺ، وهواناً لابني أبي لهب، وما كاد عثمان بن عفان ﷺ يسمع بخبر طلاق رقية حتى استطار⁽⁶⁾

(1) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 591/4 .

(2) انظر : المرجع السابق 916/9.

(3) انظر : الإستيعاب على حاشية الإصابة/ 292/4

(4) انظر : عقيدة أهل السنة في الصحابة/ناصر بن علي عائض 477/1

(5) جامع الأصول/أبو السعادات مبارك 108/12

(6) استطار: كاد يطير من شدة الفرح.

فرحاً، وبادر فخطبها من رسول الله ﷺ فزوجها الرسول الكريم ﷺ منه، وزقتها⁽¹⁾ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد إليه رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وقد كان عثمان من أبهى قريش طلعة، وكانت هي تضاهيه قسامة وصباحة⁽²⁾، فكان يقال لها حين زفت إليه.

أحسن زوجين رأهما إنسان * * * رقية، وزوجها عثمان⁽³⁾

وأكرم الله تعالى عثمان بالزواج من بنت رسول الله ﷺ، وقد دخل ذات يوم رسول الله ﷺ على ابنته وهي تغسل رأس عثمان⁽⁴⁾، فقال لها: (يا بنية أحسنني إلى أبي عبد الله، فإنه أشبه أصحابي بي خُلُقًا)⁽⁵⁾

ظنت أم جميل بنت حرب زوجها أبو لهب أنهما بتسريح رقية وأم كلثوم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا سيصبيان من البيت المحمدي مقتلا أو سيوهنانه، ولكن الله ﷻ اختار لرقية وأم كلثوم الخير، وباعت أم جميل وأبو لهب بغیظهما لم ينالا خيرا، وكفى الله البيت النبوي شرهما، وكان أمر الله قدرا مقدورا⁽⁶⁾.

5- أم لهب حمالة الحطب بنعت القرآن :

هجاها الله من فوق سبع سموات لشدة إيدائها للرسول ﷺ ومعها زوجها فيقول الله تعالى (وامراته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد) فقال أهل التفسير: إنها كانت تضع الشوك في طريق الرسول ﷺ، ولذا سميت (حمالة الحطب)، فقد كانت تأتي بأغصان الشجر تطرحها بالليل في طريق رسول الله، أو لأنها كانت تمشي بالنميمة⁽⁷⁾

ولم يكتف القرآن بذكر جرمها بل أتبعه بعقابها الذي سنتاله من الله فيقول الله تعالى (في جيدها حبل من مسد) فما هو المسد؟ على أحد الأقوال المسد هو الجمر، ولعل المراد تشبيه الشوك بالجمرة حال حدثها، فإن الجمرة هي النار المتوقدة أو أن الشجر لجمره حرارة شديدة ولعلها كانت تحمل الشوك مرة والجمرة مرة أخرى أو كانت تجمع بينهما⁽⁸⁾.

(1) زقتها: قدمتها إلى زوجها.

(2) تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان/علي محمد الصلابي 19/1 بتصرف .

(3) أنساب الأشراف/أحمد البلاذري ص 89 بتصرف.

(4) البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث/إبراهيم الحسني 304/2 بتصرف.

(5) رواه الطبراني في الكبير وقال الهيثمي رجاله ثقات، والمجمع رقم 1450، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة 807/13.

(6) البداية والنهاية/ابن كثير 210/7.

(7) الدر المنثور في التفسير بالمأثور/جلال الدين السيوطي 667/4 بتصرف.

(8) انظر: تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 914/4.

وعن ابن زيد : حبل من مسد هي حبال من شجر تنبت في اليمن لها مسد، وكانت تقتل؛ أوهي حبل من نار في رقيبتها مثل طوق طوله سبعون ذراعا في الآخرة . وقيل هو الحديد الذي يكون في البكرة، وقيل: المسد هو الليف⁽¹⁾ .

والعرب تسمي العنق جيد⁽²⁾ وقال مجاهد: في جيدها حبل من مسد مثل حديد البكرة، وقال غيره يعني عروة سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعا من فوقها نار ومن تحتها نار والله أعلم.⁽³⁾

فلما نزلت هذه الآية في أبي لهب قيل لامرأته : إن محمدا قد هجا زوجك، وهجاك، وهجا ولدك، فغضبت وقامت فأمرت وليدتها أن تحمل ما يكون في بطن الشاة من الفرث والدم والقذر، فانطلقت لتستدل على النبي ﷺ لتلقى ذلك عليه فتصغره، وتذله به، لما بلغها عنه، فأخبرت أنه في بيت عند الصفا، فلما انتهت إلى الباب سمع أبو بكر ﷺ كلامها، وكان النبي ﷺ داخل البيت فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله إن أم جميل قد جاءت، وما أظنها جاءت بخير. فقال النبي ﷺ : اللهم خذ ببصرها، فدخلت أم جميل البيت، فرأت أبا بكر ﷺ ولم تر النبي ﷺ، وكانا جميعا في مكان واحد فقالت يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقال لها: وما أردت منه يا أم جميل؟ قالت: إنه بلغني أنه هجاني، وهجا زوجي، وهجا أولادي، وإني جئت بهذا الفرث لألقيه على وجهه، ورأسه أدله بذلك. فقال لها: والله، ما هجاك، ولا هجا زوجك، ولا هجا ولدك.

قالت: أحق ما تقول يا أبا بكر. قال: نعم. فقالت: أما إنك لصادق، وأنت الصديق، وما أرى الناس إلا وقد كذبوا عليه. فانصرفت إلى منزلها⁽⁴⁾.

وقيل إنه بلغ امرأة أبي لهب أن النبي ﷺ يهجوك، قالت: علام يهجوني؟ هل رأيتموني كما قال محمد أحمل حطبا؟ فمكثت، ثم أتته، فقالت: إن ربك قلاك وودعك⁽⁵⁾، فأنزل الله: (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى).

(1) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 681/24

(2) انظر: المرجع السابق.

(3) انظر: بحر العلوم/للسمرقندي/632/3

(4) انظر: تفسير مقاتل / مقاتل بن سليمان 915 / 4

(5) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور/جلال الدين السيوطي 667/4

نتائج ومعلومات بحثية

من خلال اطلاع الباحثة على ما ورد في الفصل الأول، وعرضها لبعض المباحث، يمكن تلخيص ما استفادته في نقاط عدة:

1- ضوابط كلام المرأة مع الرجل الأجنبي

قوله تعالى: ﴿ فَأَبْلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَوقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات: 29] فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال، واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفَت المبتدأ ولم تقل: أنا عجوز بل قالت عجوز عقيم، فالمرأة المسلمة إذا خاطبت الرجال الأجانب ينبغي أن تتكلم معهم بحزم وخشونة، وأن تختصر وتقتصر على الكلام الذي تحتاج إليه لتغلق بذلك أبواب الشيطان وهذا ما كان من سارة زوج إبراهيم عليه السلام حين بُشرت بإسحاق.

2- سياسة اغتصاب الأعراس

اغتصاب الأعراس سلاح يستخدمه الطغاة، فوشى وسعى بخبر جمال سارة أحد بطانة السوء عند الملك الجبار في زمانه، وقد كان ذلك الطاغية لا يسمع برجل عنده امرأة جميلة إلا أخذها منه اغتصاباً، وهكذا يفعل الطغاة في كل زمان، ويسعى أذنابهم من بطانة السوء يتملقون ويتزلفون بأعراض الناس إلى أهل الكفر والطغيان والفسق والانحلال ليصلوا هم إلى ما يريدون من الطغاة

3- حكمة المباحدة بين الضرات

من حكمة الزوج المباحدة بين الزوجتين، وهو حلٌّ من حلول الغيرة لمواجهتها، والغيرة من شأن النساء، وأن غيرة المرأة لا تقدر في صلاحها إذا لم تتعدَّ حدود الله، وأن المرأة يغتفر لها من الغيرة ما لا يغتفر لغيرها لقول الله تعالى: ﴿ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا ﴾ [البقرة: 286] فالمرأة أحياناً تكون خارجة عن إرادتها. وما وقع من فضليات النساء من الغيرة إنما هو مما لم يسلم منه أحد، وهنَّ غير مؤاخذات عليه لأنه ليس في فعلهنَّ تعدُّ على شرع الله تعالوما حصل من غيرة سارة من هاجر هو من هذا الباب، فطلب الزوجة من زوجها أن لا ترى ضررتها أو أن لا تجاورها أمرٌ غير مستنكر، مع أن الذي ذكره أهل العلم أن إبراهيم عليه السلام هو الذي خرج بهاجر وابنه، لا أن سارة زوجة طلبت منه ذلك.

4- محل الكعبة منتشر الدين الخاتم

كانت قصة انتقال هاجر وابنها من الشام إلى الحجاز قدراً قدره الله للبشرية، فالحجاز صالحة لحمل الرسالة العالمية، فلا تصلح الشام لحمل الرسالة الباقية إلى الأبد، فكان

الإيحاء لإبراهيم عليه السلام في نقل إسماعيل وهو طفل مع أمه ووضعهما في مكة، حيث وادٍ قفر دون ماء ولا نبات، مكتفياً لهما بالدعاء، قال تعالى: ﴿ فَأَجْمَلْ أَعْدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: 37] وفي ذلك تدخل للإرادة الإلهية واضحة.

5- سياسة القرآن في التمهيد قبل عرض ما هو شواذ

القرآن يتلطف في إبلاغ الحق ويمهد له، وإن كان ثمة شيء فيه شديد الغرابة على واقع الناس ومفهومهم فلا يفاجأهم به، لذلك نجد القرآن قد ذكّر قصة سيدنا زكريا عليه السلام قبل ذكر قصة مريم والمسيح عليه السلام، فقصة زكريا وإنجاب الولد بعد انصرام عمر السببية للإنجاب، وبلوغه وزوجته السن الذي لا يولد فيه لمثلها من العادة، فذكر قصته مقدمة بين يدي قصة المسيح وولادته من غير أب، فإن النفوس لما أنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يولد لهما عادةً، سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب.

6- الدعاء والعمل الصالح علاج للعقم

استجاب الله سبحانه وتعالى لزكريا دعاءه في طلب الولد، فعلى كل من حُرِمَ الإنجاب، لا ينسى الالتجاء إلى الله بالدعاء، خذوها (وصفة) ربانية، ولن تتخلف عنكم الاستجابة بإذن الله، بالإضافة إلى المسارعة في الخيرات، فشفع لزكريا عليه السلام وزوجه في استجابة الدعاء للولد، ما سبق من هذه الأسرة من مسارعتهم في عمل القربات والطاعات، بشتى أنواعها، فقد تحدّث الطبيعة وسارت ضدها في هذه المسألة.

7- الزوجة الصالحة تترك الأهل وتتبع زوجها

لقد هاجرت سارة مع إبراهيم عليه السلام تاركة خلفها الأهل والوطن إلى مكان مجهول إيماناً بدين زوجها عليه السلام، وكذلك الأمر بالنسبة لامرأة موسى ترحل مع زوجها وتترك الوطن والأهل خلفها وهي تعلم أنه مطلوب لفرعون، وقد يُسجن أو يُقتل ولكنه دأب المرأة الصالحة تكون مع زوجها في كل الأحوال في الضراء والسراء وفي الأمن والسلام.

8- احترام الزوجة وعدم الغموض معها

في حوار موسى لزوجته (إني آنست ناراً)، أخبرها بأنه سيذهب عنها ليرى الخبر بل أكثر من ذلك فقد فصل في قوله، فقد قال لها إما أن يأتي بخبر من عند النار اعتقاداً منه أن أحداً أشعلها، فإذا لم يتحقق ذلك سيأتيهم بقبس، وهذا له ما له من تفهم وجهات النظر بين الأزواج، وضرورة إخبار المرأة بالكائن فلا أن تكون آخر من يعلم.

9- الإسلام يحض على الأسماء المحببة إلى الله :

في قصة سيدنا زكريا عليه السلام بشره بسلام اسمه يحيى، وأن هذا الاسم لم يتسمى به أحد من قبل، وكيف أن لهذا الاسم المعنى العظيم، ويحض الإسلام على اختيار أسماء الأنبياء وما يدل على العبادة لله فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : (تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة ⁽¹⁾).

10- وفاء وإخلاص الزوجة لزوجها إلى أبعد الحدود

إن وفاء امرأة أيوب عليه السلام وإخلاصها له، نموذج رائع يجب على الأزواج الاقتداء به، فبالرغم ما اعتادت عليه من عز وجاه وخدم وحشم وأنواع شتى من المال، لم يثنيها ما أصابها من بلى عن الوفاء، بل تفانت في ذلك الوفاء إلى أبعد الحدود حتى باعت شعرها عنوان جمالها للنساء اللواتي كن يغرن منها، وذلك من أجل إطعام زوجها.

11- إتيان الرجال مرض جنسي خطير

إتيان الرجال مرض جنسي قبيح ومنكر، يظهر مع الإسراف الجنسي والحرمان الجنسي على سواء، وقد كان أصحابه يتوارون به استخفاء، حتى جاء الأوربيون والأمريكيون، فأقروه، ثم شرعوه!!.. وكم من جماع شهوانى أقرته هذه الحضارة؟ ولكن العقاب الإلهي بالمرصاد، فيكفيهم مرض الإيدز الذي يصيبهم فيدمر مناعتهم، ليقول لهم إن النظام الإلهي في المناعة هبة من الله مشروط بقوانين الله وشرعه، كما أن تسمية أصحاب هذا الشذوذ باللوطيين نسبة إلى لوط عليه السلام أمر مرفوض، فكيف يتسمى هؤلاء القذرة على اسم نبي كريم، فقد سمى القرآن الكريم هذا الشذوذ بإتيان الرجال، فيجب تحريم نسبة هذا الشذوذ الجنسي وفاعليه إلى نبي كريم.

12- الولاء والبراء لله في كل مكان وزمان

عبرة وعظة عظيمة نتعلمها من موقف امرأة فرعون السيدة آسية بنت مزاحم، فهي امرأة أعظم ملوك الأرض يومئذ، تسكن في قصر فرعون، أمتع مكان تجد فيه أي امرأة ما تشتهي، لكنها استعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عنه فحسب، بل اعتبرته شراً، ودنساً، وبلاءً، تستعيز بالله منه، وفضلت العذاب الفظيع على أن ترتد عن إيمانها بالله، ورأت أنه لا كرامة لميثاق الزواج حين يتصدع ميثاق العقيدة ويندحر واصل الإيمان

(1) إسناده ضعيف لجهالة عقيل بن شبيب، فقد تفرد بالرواية عنه محمد ابن مهاجر، وهو الأنصاري، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وقال الذهبي في "الميزان": لا يعرف هو ولا الصحابي إلا بهذا الحديث، تفرد به محمد بن مهاجر عنه. مسند الإمام أحمد 277/31

إن وقوف هذه المرأة في وجه ذلك الجبار من الأهمية بمكان، ففي ذلك ما يدفع تثبيط الشيطان وحزبه لبعض دعاة الإسلام وهم يخافون أن يمسه الناس بشيء لم يكتبه الله عليهم. فلا بد أن نأخذ من قرآننا عبرة وعظة، وشحنة عمل، ومنهاج دنيا وآخرة حتى نقوم بما كلفنا الله به وشرفنا بالانتساب إليه وهي الدعوة إلى الله.

13- الظاهرة الفرعونية

من الإعجاز في القرآن عدم تسمية القرآن فرعون موسى باسمه " رمسيس الثاني " ولكنه سماه فرعون، لأنه مادام الحق موجوداً لا بد أن ينبري له الفراغنة وذلك في كل زمان ومكان، ومما يؤكد ذلك أن رسولنا الكريم سمى أبا جهل فرعون هذه الأمة.

14- جوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله

آدم هو أصل البشر، وأن الإنسان له قابلية للوقوع في الخطيئة، ومن خطيئة آدم نتعلم ضرورة رجوع المسلم إلى ربه، وأهمية التوبة والاستغفار في حياة المؤمن، وضرورة الاحتراز من الحسد والكبر وتقديم مرضاة الله سبحانه وتعالى على كل ما سواه.

15- عبدة الأصنام يقرون بأن الله هو غافر الذنب

في زمن يوسف عليه السلام كان أهل مصر مشركين يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال عزيز مصر لامرأته

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 29]

16- انتصار الفضيلة رغم تمكن الرذيلة

رغم كل الإغراءات من امرأة العزيز إلا أن يوسف عليه السلام تجلت أخلاقه بوضوح، فهو مؤمن، صاحب عقيدة، يستعيز بالله تعالى، ويسأله المعونة في أداء حق الله، وحق سيده، الذي أكرمه، وأحسن مثواه، فلا تجوز الخيانة، ولا تجوز المعاملة إلا بالتي هي أحسن، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

17- الدعوة الفردية لا تسقط عنا في كل الظروف

يقول تعالى: ﴿يَصَدِّجِي السِّجْنَءَ أَبَابٌ مَّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّحِيدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39] ما أروع أن نكون دعاة في كل زمان ومكان، فهذا هو نبي الله يوسف عليه السلام رغم ما هو فيه من ظلم في ظلام السجن سنين، لم يمنعه هذا من أن يدعو وهو سجين ويستغل المناسبات للدعوة إلى الله تعالى، لأن الدعوة إلى الله من أحسن الأعمال يقول

تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
[فصلت: 33]

18- شاكلة أبي لهب وأم جميل تتكرر ما دام الحق والباطل

أخطر أعمال أبي لهب وامرأته في محاربة النبي البوق الإعلامي الكاذب الذي كان يلاحق النبي في كل مكان لتكذيبه وفض الناس عنه، وشاكلتهم موجودة على الأرض ما دام صراع الحق والباطل فيها، فكم يعاني أهل الإسلام الحق من ورثة مهنة أبي لهب وامرأته اليوم، وهم يقبلون الحقائق فيجعلون الحق باطلاً ويدحضونه، ويجعلون الباطل حقاً ويروجون له في كل مكان، ليطمسوا الإسلام ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21]

الفصل الثاني

علاقة الآباء بالأبناء

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: علاقة الأب الصالح بالابن الصالح

المبحث الثاني: علاقة الأب الصالح بابنه السيء

المبحث الثالث: علاقة الابن الصالح بأبيه الطالح

المبحث الرابع: علاقة الأب الصالح بابنته

المبحث الخامس: علاقة الأم بولدها

الفصل الثاني

علاقة الآباء بالأبناء

"لا خلاف أبداً في أن الأولاد فُرَّةٌ عين الإنسان، ومصدر سعادته، وبهجة حياته، بهم تحلو الحياة، ويطيب العيش ويُستجلب الرزق، وتُعقد الآمال، وتطمئن النفوس، وإذا كان الأب يرى في أولاده العون والرغد، والتكاثر والامتداد وقوة الجانب، فإن الأم ترى فيهم أيضاً أمل الحياة، وسلوة النفس، وفرحة القلب، وبهجة العيش، وأمان المستقبل، وهذا كله منوطٌ بحسن تربية الأولاد، وسلامة تكوينهم، وإعدادهم للحياة؛ ليكونوا عناصر بنّاءة فعّالة، يعود خيرهم على والديهم، وعلى مجتمعهم، وعلى الناس أجمعين، وذلك كما يقول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: 46]

﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: 46]

وتعتبر علاقة الآباء بالأبناء من أخطر العلاقات الأسرية لأن تربية الأبناء تربيةً إسلاميةً صحيحةً، تأخذ بأيديهم نحو معارج الكمال والرُقِّيِّ نحو الجنة، وتزوّدهم بأسباب القوة والعزّة، وهي من أهم واجبات الأسرة، وقد بيّن القرآن الكريم في كثير من آياته أهمية هذا الدور للأسرة، بذكر جوانب من التربية؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74] وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: 40] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: 6]

ولقد عرض القرآن الكريم نماذج لعلاقات الأبوين مع أبنائهما، توجيهاً، وتقويماً، وتوثيقاً، فقد ورد فيه: نماذج بين الصلاح والطلاح والخطيئة والتوبة، يعرضها ربنا سبحانه وتعالى من سير السالفين لنتعظ ونعتبر نحن الأمة المحمدية لنرى كيف كان الصلاح بين الأب وابنه وكيف كان موقف الابن الصالح من الأب غير الصالح، وكيف كان شعور الأب الصالح نحو ابنه غير الصالح وذلك كله في معرض القرآن الكريم.

المبحث الأول

علاقة الأب الصالح بالابن الصالح

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: علاقة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بذريته من بعده

المطلب الثاني: علاقة إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام

المطلب الثالث: علاقة نبي الله يعقوب عليه السلام بيوسف عليه السلام

المطلب الرابع: علاقة لقمان الحكيم عليه السلام بابنه

المطلب الخامس: علاقة داوود بسليمان عليهما السلام

المطلب الأول

علاقة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بذريته من بعده

جعل الله ﷻ إبراهيم عليه السلام الأب الثالث للعالم، فإن أبانا الأول آدم عليه السلام والأب الثاني نوح عليه السلام، وأهل الأرض كلهم من ذريته، كما يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَقِينَ﴾ (٧٧) [الصافات: 77] وإبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء الذي اتخذته الله خليلاً⁽¹⁾، عليه وعلى نبينا أفضل صلاة وأعظم سلام، ولم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتبع ملة أحد الأنبياء غيره، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 123]، وأمر أمته بذلك فيقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: 78]

وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه رضي الله عنهم إذا أصبحوا أن يقولوا: (أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)⁽²⁾

والخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام له منزلة عظيمة عند معتقي الأديان الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، فاسمه يُذكر دائماً مقروناً بالإكرام والدعاء والإجلال؛ فهو من أولي العزم من الرسل، وهو خليل الرحمن، وأبو الأنبياء جميعاً، "فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم فمن ذريته وشيعته"⁽³⁾ وهذه مرتبة له عليه السلام لا يعطو عليها أحد؛ ويجتمع أهل الملل عليه، "فرسولُ الزبور ورسولُ التوراة ورسولُ الإنجيل ورسولُ القرآن، كلهم من أبناء إبراهيم عليه السلام"⁽⁴⁾ كما أن الله ﷻ قال في مقام الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120]

قال مجاهد: سمي إبراهيم أمة لانفراده بالإيمان في وقته مدة لوحده، وقد قال إبراهيم عليه السلام لسارة (ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك)⁽⁵⁾ والأمة: القانت المطيع الدائم على

(1) انظر: الصلاة على رسول الله/شحادة محمد صقر 47/1

(2) انظر: مسند أحمد/الإمام أحمد بن حنبل 77/24 حديث صحيح على شرط الشيخين.

(3) انظر: البداية والنهاية/ابن كثير 192/1.

(4) انظر: الجامع لأحكام القرآن/للقرطبي 302/13.

(5) صحيح البخاري / كتاب البيوع/باب شراء الملوك 80/3 ح. 2217

العبادة، والحنيف المائل إلى الخير والإصلاح، وكانت العرب تقول، لمن يختن ويحج البيت حنيفاً⁽¹⁾، وسمي إبراهيم أمة أيضاً لأنه اجتمع فيه من صفات الفضل وسمات الخير والأخلاق الحميدة ما اجتمع من أمة⁽²⁾، كما أن الله تعالى قال عنه أمة : لأنه القدوة المعلم للخير، والحنيف المقبل على الله المعرض عمّا سواه.

وتبرز هذه العلاقة بين إبراهيم الأب وأبنائه من الأمة المسلمة من خلال النقاط الآتية:

1- الخليل إبراهيم يطلب من الله الإمامة لذريته ويوصيهم بالإسلام

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 112]

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه جاعل إبراهيم عليه السلام إماماً للناس، وأن الظالم المشرك من ذريته لا ينال رتبة الإمامة، فلا ينال هذه الإمامة من أشرك به.⁽³⁾ فلذلك وصى إبراهيم عليه السلام بنيه أن لا يموتوا إلا على الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَؤُا إِنَّا

اللَّهُ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: 132]

ولم يكتف بذلك بل أوصى بنيه بأن يسيروا على هديه، وحاكاه حفيده يعقوب فأوصى هو الآخر بنيه كذلك أن يتبعوا هذه السنن، وبين لأبنائه أن الله اصطفى لهم دين التوحيد وأخذ عليهم العهد ألا يموتوا إلا وهم مسلمون ثابتون على هذا الدين.⁽⁴⁾

وكان خير بنيه سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم - يُجِلُّهُ وَيَعْظُمُهُ وَيَجْلِبُهُ وَيَحْتَرِمُهُ؛ فَعَنَّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : (يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ) . عليه السلام⁽⁵⁾

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : (إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حِقَاءَ عُرَاءَ عُرْلًا ثُمَّ قَرَأَ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) ، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام ⁽⁶⁾

(1) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ابن عطية/430/3.

(2) انظر : فتح البيان في مقاصد القرآن/أبو الطيب محمد صديق القانونجي 335/7 .

(3) انظر : دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ/شحاتة محمد صقر/126/1.

(4) انظر : تنزيه الانبياء عما نسب إليهم/أبو الحسن علي (ابن مخيمر) 144/1.

(5) صحيح مسلم/الإمام مسلم/باب من فضائل إبراهيم 1839/4.

(6) صحيح البخاري/كتاب أحاديث الأنبياء /باب واتخذ الله إبراهيم خليلاً 139/4ح3348

وكان رسول الله ﷺ أشبه الخلق (رَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ يَعْنِي نَفْسَهُ) (1).

ولكن ما هي الكلمات التي امتحن بها ربنا سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام؟، لقد اختلفوا في الكلمات التي ابتلي إبراهيم عليه السلام: هي ثلاثون سهما، وهي شرائع الإسلام، ولم يبتل أحد بهذا الدين كله فأقامه كله إلا إبراهيم عليه السلام فأتهمهن فكتب له البراء.

وقيل: ابتلاه بعشرة أشياء هي من الفطرة والطهارة، خمس في الرأس وخمس في الجسد فالتى في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس، والتي في الجسد: تقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء(2)

وقيل: هي مناسك الحج، وقيل: ابتلاه ربه بسبعة أشياء ابتلاه بالكواكب والقمر والشمس فأحسن في ذلك وعلم أن ربه دائم لا يزول، وابتلاه بالنار فصبر على ذلك، وابتلاه بذبح ابنه فصبر على ذلك، وبالختان فصبر على ذلك وبالهجرة فصبر عليها، وقيل هي قول إبراهيم وإسماعيل حين يرفعان البيت ربنا تقبل منا فرفعاه بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فأتهمهن وأداهن (3).

2- الخليل إبراهيم يدعو لبيته اجتناب الشيطان والأمن للبلد الحرام

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

[إبراهيم: 35] يدعو إبراهيم الخليل ربه أن يجعل البيت الحرام آمناً ليتمكن الناس أن تهوي إليه وتحججه لله، وكما سأل الله أن يجعل مكة بلداً آمناً، وطلب أن يجعل قلبه محلاً آمناً لا يكون فيه شيء إلا بالله(4) ودعا الله قائلاً: اجعلني يا رب وذريتي جانباً عن عبادة الأصنام، وأنقذني وإياهم من عبادة الأصنام والأوثان(5).

والمثير للسؤال لقد كان إبراهيم عليه السلام معصوماً عن عبادة الأصنام، فكيف يستقيم سؤاله لنفسه ولذريته وقد عبد كثير من بنيهِ الأصنام؟

نقول: أما في حق إبراهيم، فالدعاء لزيادة العصمة والتثبيت، وفيه دليل أن المؤمن لا ينبغي له أن يأمن على إيمانه، وينبغي أن يكون متضرعاً إلى الله ليثبتته على الإيمان، كما سأل

(1) صحيح مسلم/ باب الإسراء برسول الله 153/1.

(2) انظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب 1/ عبد الله ابن وهب القرشي 131/1.

(3) انظر: تفسير الثعلبي الكشف والبيان عن تفسير القرآن/ أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي 268/1.

(4) انظر: لطائف الإشارات تفسير القشيري/ عبد الكريم بن هوازن القشيري 255/2.

(5) انظر: الهداية في بلوغ النهاية/ أبو محمد مكي القيرواني 3823/5.

إبراهيم لنفسه الثبات على الإيمان. وقد كان أحد التابعين يقول : إن جميع سروري بهذا الإسلام، وأخاف أن يُنتزع مني، فما دام هذا الخوف معي رجوت أن لا تنتزعه ربي مني⁽¹⁾

وأما في حق البنين والذرية فإن الدعاء لِنَبِيِّهِ من الصلب، ولم يعبد أحد منهم الصنم، وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمنا من بنيه.⁽²⁾ قال مجاهد : (أجاب الله تعالى، دعوة إبراهيم في ولده، فلم يعبد ولده الأصنام⁽³⁾).

وكان نبينا ﷺ عَوَّدَ سبطيه الحسنَ والحسينَ بتعويد إبراهيم لإسماعيل وإسحاق عليهم جميعاً السلام، ففي صحيح البخاري عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : (كان النبي ﷺ يُعَوِّدُ الحسن والحسين ويقولُ : "إنَّ أبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّدُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ" (4))

في الحديث : أبَاكُم يريد إبراهيم عليه السلام وكلمات الله التامة الكاملة، النَّافِعَةُ، وَالشَّافِيَةُ، وَقِيلَ : الْمُبَارَكَةُ، وَقِيلَ : الْقَاضِيَةُ الَّتِي تَمْضِي وَتَسْتَمِرُّ وَلَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ وَلَا يَدْخُلُهَا نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ.⁽⁵⁾

3- الخليل إبراهيم يدعو لنفسه وذريته إقامة الصلاة لله

يقول الله تعالى علي لسان إبراهيم الخليل: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي

رَبَّنَا وَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ [إبراهيم: 40] يعلم إبراهيم عليه السلام أن الصلاة قرينة فيما بين العبد وبين ربه، تجمع جميع أفعال الخير، وفيها غاية منتهى الخضوع له، والطاعة من القيام بين يديه، والمناجاة فيه، والركوع له، والسجود على الأرض، وتعفير الوجه فيها، حتى لو أن أحدا ممن خلص دينه لله لو أعطي ما في الدنيا على أن يعفر وجهه في الأرض لأحد من الخلق ما فعل ولكن نفعلها لله ﷻ⁽⁶⁾ .

(1) انظر : بحر العلوم للسمرقندي/نصر بن محمد السمرقندي 245/2.

(2) انظر : تفسير القرآن/ منصور المروزي السمعاني/3/119.

(3) انظر : تفسير القرآن العزيز/ ابن أبي زمنين 2/372.

(4) صحيح البخاري/كتاب أحاديث الأنبياء/باب واتخذ الله إبراهيم خليلا 4/147.

(5) انظر : الصلاة على النبي/عبد المحسن بن حمد عبد المحسن 1/48.

(6) انظر : تأويلات أهل السنة/الماتريدي 1/537 .

ويدعو إبراهيم عليه السلام رب اجعلني مؤدياً ما ألزمتني من فرائضك، واجعل أيضاً من ذريتي مقيم الصلاة وتقبل عملي الذي أعمله لك، وعبادتي إياك⁽¹⁾، ويدعو أن يستجيب دعاءه في إقامة الصلاة لنفسه ولذريته⁽²⁾ وأن تكون ذريته ممن يُقيم الصلّاة بحدودها وأركانها، ويحافظ عليها⁽³⁾

وكان دعاؤه لله أن يجعل من ذريته مقيمي الصلاة، لأن الله أخبره في موضع آخر بقوله: "لا ينال عهدي الظالمين" بيد أنه لا ينبغي للعبد أن يتكل على دعاء أحد وإن كان رفيع الشأن، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله، فلا دعاء أتم من دعاء إبراهيم عليه السلام، ولا عناية أتم من عنايته بشأن أبيه، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له.⁽⁴⁾

وفي دعاء إبراهيم خاصةً ودعاء المسلمين عامةً رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: "إن الدعاء هو العبادة"⁽⁵⁾ ثم قرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: 60]

(1) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 3831/5

(2) انظر: تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 409/2

(3) انظر: تفسير القرآن/منصور المروزي السمعاني 121/3

(4) انظر: تفسير القشيري/عبد الكريم بن هوازن القشيري 258/2

(5) انظر: مسند الإمام أحمد/الإمام أحمد 361/14 قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

المطلب الثاني

علاقة إبراهيم الأب بإسماعيل الابن عليهما السلام

كان إبراهيم عليه السلام قد أسكن من زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام أرض الحجاز بعد أن وهبه إياه الله على الكبر، ثم تركهما في تلك الصحراء قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37] وعاد أدراجه إلى فلسطين حيث زوجته سارة، وقيل إنه كان قد أتى مكة عدة مرات ليتنقذ ذريته هناك⁽¹⁾ وتظهر علاقته عليه السلام بابنه إسماعيل عليه السلام بوضوح من خلال ما يلي :

1- إبراهيم عليه السلام حريصٌ على أهل ابنه إسماعيل عليه السلام

بعد أن ترك إبراهيم عليه السلام هاجر وابنها بمكة، نزل عندهما الجرهميون⁽²⁾، ثم شب إسماعيل عليه السلام وتزوج امرأة من جرهم، استأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر وابنها فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فقدم إبراهيم مكة وقد ماتت هاجر⁽³⁾.

جاء إبراهيم عليه السلام زائراً لإسماعيل عليه السلام، وكان إسماعيل عليه السلام في ماشيته يرعاها ويخرج متكباً قوسه فيرمي الصيد مع رعيته، وكان يرعى بأعلى مكة. فلما جاء إبراهيم عليه السلام بيت إسماعيل عليه السلام قال : السلام عليكم يا أهل البيت فسكتت فلم ترد عليه إلا أن تكون ردت عليه في نفسها، فقال : هل من منزل؟ قالت : لا، قال : كيف طعامكم ولبنكم وماشتيكم ؟ فقالت : أما الطعام فلا طعام، وأما الشاة فلا تحلب الشاة، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ، قال : فأين رب البيت ؟ قالت : في حاجته، قال: فإذا جاء فاقترئيه السلام وقولي غير عتبة بيتك⁽⁴⁾.

(1) انظر : حياة محمد صلى الله عليه وسلم /القادياني 64/1.

(2) نسبة إلى قبيلة جرهم اليمنية التي جاءت إلى مكة بعد انهيار سد مأرب، وقد ذكر الأخباريون أن إسماعيل نشأ بينها وتزوج منها، وأن أباه إبراهيم بعد أن قام ببناء الكعبة ورفع قواعدها، ترك ابنه بينهم، فصارت له صلة بهم، ثم تغلبت على جرهم خزاعة، فانتزعت منهم السدانة، واحتفظت بها إلى أن انتقلت إلى قريش.

انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / جواد علي/ 11/2

(3) انظر : تفسير البغوي/ البغوي 164/1.

(4) انظر : أخبار مكة/ للفاكهي 83/5.

فلما عاد إسماعيل عليه السلام قال: ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك فطلقها، ونظر إسماعيل بنت مضاض بن عمرو فأعجبته فخطبها من أبيها فتزوجها⁽¹⁾.

فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله، فانزل يرحمك الله، قال: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، فجاءت باللبن واللحم، وسألها عن عيشهم فقالت: نحن بخير وسعة فدعا لهما بالبركة، ولو جاءت يومئذ بخبز بر أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله براً أو شعيراً أو تمرًا.⁽²⁾

فقال لها: إذا جاء زوجك فأقريه مني السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم شيخ كبير أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً، وقال لي كذا وكذا، وقلت له كذا وكذا، وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه، فقال ذاك إبراهيم النبي أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.⁽³⁾

أمسك إسماعيل عليه السلام بزوجه الثانية، ورزق منها بالذرية، وبث الله منهما أمة العرب، ومن أمة العرب جاء محمد صلى الله عليه وسلم فلئن كان إسحاق هو أبو الإسرائيليين، فإن إسماعيل هو أبو العرب.⁽⁴⁾

2- تشریف من الله للأب وابنه الصالحين بعظيم الأعمال

لقد شرف الله سبحانه وتعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بعظيم الأعمال الصالحات فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِرِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]

قد بين القرآن الكريم أن الله تعالى جعل البيت الحرام مرجعاً للناس يقصدونه للعبادة، وأنه مكان أمن وأمان، لا يخاف قاصده، كما أشار الله إلى وصيته لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتطهير البيت من الدنس الحسي، كالقاذورات، والدنس المعنوي كالشرك وعبادة الأصنام، ليكون طاهراً للطائفين حوله، والمعتكفين فيه للعبادة، والراكعين الساجدين لله تعالى فيه.⁽⁵⁾

(1) انظر : العذب النмир من مجالس الشنقيطي / الشنقيطي 501/3.

(2) انظر : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل / العصامي 190/1

(3) انظر : تفسير البغوي / للبغوي 164/1

(4) انظر : دعوة الرسل عليهم السلام / أحمد غلوش 176/1

(5) انظر : منهج القرآن الكريم / الرحيلي 211/1.

وَفِي سُنَّةِ نَبِينَا فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ الْأَمْرُ بِتَطْهِيرِ بَيْوتِ اللَّهِ وَتَطْيِيبِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِيَانَتِهَا مِنَ الْأَذَى وَالنَّجَاسَاتِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: (إِنَّمَا بُنِيََتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيََتْ لَهُ⁽¹⁾).

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ

أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127]

بعدما طلب إبراهيم عليه السلام من ابنه إسماعيل عليه السلام أن يثبت عتبة بيته ويتمسك بزوجه ويكرمها، لأنه رأى منها ما سيعين زوجها على رسالته في الدعوة إلى الله، عاد عليه لزيارة ابنه مرة أخرى فوجد إسماعيل عليه السلام يبكي نبلا عند زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بولده من السلام، فقال: يا إسماعيل إن الله أمرني أن أبني هنا بيتا يكون معبداً للخلق إلى يوم القيامة فأجابه ابنه: أطع ربك عز وجل، قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه؟ فقال: إذن أفعل وأعينك على ذلك⁽²⁾

فجعلا يرفعان القواعد من البيت، إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يدعوان الله لهما ولذريتهما من بعدهما فلما تم بنيانه، وتم للخليل هذا الأثر الجليل أمره الله أن يدعو الناس ويؤذن فيهم بحج هذا البيت، فجعل يدعو الناس وهم يفتنون إلى هذا البيت من كل فج عميق؛ ليشهدوا منافع دنياهم وأخرهم، ويسعدوا ويزول عنهم شقاؤهم⁽³⁾

وقد اختلف أهل التأويل في القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت أهما أحدثا أم هي قواعد كانت له قبلهما؟ فقال قوم: هي قواعد البيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر من الله، ثم درس مكانه وتعفى أثره بعده، حتى بوأه الله إبراهيم عليه والسلام، فبناه. وقال آخرون: بل كان موضع البيت ربوه حمراء كهيئة القبة، وأن الله لما أراد خلق الأرض علا الماء زبدة حمراء أو بيضاء، وذلك في موضع البيت الحرام. ثم دحا الأرض من تحتها، فلم يزل كذلك حتى بوأه الله إبراهيم، فبناه على أساسه وقالوا: أساسه على أركان أربعة في الأرض السابعة⁽⁴⁾.

وكذلك اختلف الناس في أول من بنى الكعبة؟ فقيل: الملائكة قبل آدم⁽⁵⁾، وقيل آدم عليه السلام⁽⁶⁾. وروي عن ابن عباس وكعب الأحبار أن أول من بناه شيث عليه السلام، وغالب من يذكر هذا

(1) صحيح مسلم /باب النهي عن نشد الضالة في المسجد 397/1.

(2) انظر : تفسير ابن كثير / الإمام ابن كثير 430/1 .

(3) انظر : تيسير اللطيف المنان في تفسير القرآن /السعدي 206/1.

(4) انظر : تفسير الطبري/ للإمام الطبري 63/3.

(5) انظر : تفسير مختصر ابن كثير/ابن كثير 120/1.

(6) انظر : السراج المنير/الشرييني 93/1.

إِنَّمَا يَأْخُذُهُ مَنْ كَتَبَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَهِيَ مِمَّا لَا يُصَدَّقُ وَلَا يُكذَّبُ وَلَا يَعْتَمَدُ عَلَيْهَا بِمَجْرَدِهَا. وَأَمَّا إِذَا صَحَّ حَدِيثٌ فِي ذَلِكَ فَنَسْتَأْنِسُ بِكَلَامِهِمْ مَطْمَئِنِينَ.⁽¹⁾

3- الأب وابنه الصالحان يدعوان لأنفسهما وذريتهما بالإسلام :

كان إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام يرفعان قواعد البيت وهما يدعوان الله لهما ولذريتهما، فكان دعاؤهما كما أخبر المولى عز وجل : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 128]

يدعو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما قائلين : ربنا يا خالقنا وفقنا واجعلنا مخلصين لك، واجعل من ذريتنا جماعة مخلصين لك، وعلمنا طريقة عبادتنا لك في بيتك الحرام وما حوله، وتب علينا إن نسينا أو أخطأنا إنك أنت كثير القبول لتوبة عبادك، الغافر لهم بفضلك ورحمتك.⁽²⁾

وروي في الخبر أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لما فرغا من البناء، جثيا على الركب وتضرعا وسألا الله القبول، فقال جبريل لإبراهيم : قد أُجيب لك، فاسأل شيئا آخر، فقالا: ربنا واجعلنا مسلمين لك، مخلصين لك، واجعلنا مثبتين على الإسلام، مطيعين لك، وأمتنا على الإسلام.⁽³⁾

وأما المناسك التي يطلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يره إياها، واحدها منسك وهو الموضع الذي ينسك الله فيه، ويتقرب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح : إما بذبح ذبيحة له، وإما بصلاة أو طواف أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة، ولذلك قيل المشاعر⁽⁴⁾

وحين سأل إبراهيم عليه السلام (أَرِنَا مَنَاسِكَنَا) أتاه جبرائيل فأتى به البيت فقال: ارفع القواعد، وأتم البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة فقال : هذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منى⁽⁵⁾.

فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كَبَّرْ وارمه، فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كَبَّرْ وارمه، فكبر ورماه، فذهب الخبيث إبليس، وكان الخبيث أراد أن يُدْخِلَ فِي الْحَجِّ شَيْئاً فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَأَخَذَ بِيَدِ

(1) انظر : تفسير مختصر ابن كثير/ ابن كثير 120/1.

(2) تيسير اللطيف المنان في تفسير القرآن/ السعدي 206/1 بتصرف.

(3) تفسير السمرقندي بحر العلوم 1/ السمرقندي/93 بتصرف.

(4) انظر : تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 97/3.

(5) انظر : زاد المسير في علم التفسير / 112/1.

إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال: . هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك، قالها ثلاث مرات، قال: نعم. (1)

إن إبراهيم لما أُورِي أوامر المناسك عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم، ثم انطلق به جبرائيل حتى أتى به منى، فقال: هذا مناخ الناس، فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به إلى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فأتي جمعاً فقال: هذا المشعر، ثم أتى به عرفة فقال: . هذه عرفة، فقال له جبريل: أعرفت؟ انتهى. (2)

4- محمد ﷺ، دعوة الأب وابنه الصالحين عليهما السلام

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]

دعاء النبيين الكريمين إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام بأن يبعث الله من ذريتهم رسولا إشارة إلى محمد ﷺ ويقول منهم أي أن يكون الرسول من المسلمين؛ لأنه أخبر سبحانه وتعالى أن لا ينال عهده الظالمين، ومنهم أي من البشر من جنسهم؛ لأنه أقرب إلى المعرفة والصدق ممن كان من غير جنسهم، ولبسانهم، لا من غيرهم، ولا بغير لسانهم، وهذا الرسول يتلو عليهم آياتك، وقيل أن الآيات الدين أو التوحيد، أو القرآن أو ما أمرهم به، ونهاهم عنه، وقيل الحكمة (3)، كما ويعلمهم الكتاب والحكمة إشارة إلى القرآن وأسرار الشرع والإصابة في الأمور كلها، ويزكيهم ويطهر أرواحهم ويكمل عقولهم، ويهذب أخلاقهم، ويبين لهم ضروب الطاعات، إنك أنت العزيز الغالب القوي الذي لا يعجزه شيء (4)

عن رسول الله ﷺ قال: (إني عند الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأيت حين وضعتني وقد خرج منها نور أضاعت لها منه قصور الشام (5).)

(1) انظر : فتح القدير/ الشوكاني 1/167.

(2) انظر : إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل/سليمان بن سحمان 1/28.

(3) انظر : تفسير الماتريدي/ للماتريدي 1/571.

(4) انظر : تفسير الوجيز/ للواحدي 1/132.

(5) مسند أحمد 28 / 381، المستدرک علی الصحیح للحاکم 2/453، الحكم على الحديث: الحديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه في الصحيحين، التعليق من تلخيص الذهبي 3566.

والمقصود بدعوة إبراهيم أنه دعا أن يبعث في بني إسماعيل رسولاً منهم، فقد قال ابن عباس رضي الله عنه: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين⁽¹⁾، وقد استجاب الله تعالى دعاءهما فبعث في ذريتهما من أولاد إسماعيل إمام المسلمين وقائد الغر المحجلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم⁽²⁾.

5- إمتثال الأب وابنه عليهما السلام الاستسلام الكامل لله .

بعد أن أقام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد الكعبة تمكن حب إسماعيل من قلب أبيه إبراهيم عليه السلام، وأراد الله أن يمتحن إبراهيم لتقديم محبة ربه وخلته التي لا تقبل المشاركة والمزاحمة، فأمره في المنام أن يذبح إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحى من الله، فقال لإسماعيل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ۗ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٣٢﴾ ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٣٣﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ أُنَ بَنِي إِبرَاهِيمَ ۝١٣٤﴾ قَدْ صَدَّقَت الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ [الصافات: 102 - 103].

وفي هذه القصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام خضعا لله، وانقادا لأمره، ووطنا أنفسهما على هذا الأمر المزعج الذي لا تكاد النفوس تصبر على عشر معشاره، فعندها نزل الفرج من الرحمن الرحيم، وحين حصل توطين النفس على هذه المحنة والبلوى الشاقة المزعجة⁽³⁾ كانت المنحة من الله.

وقد حاول الشيطان الرجيم أن يمنع إبراهيم عليه السلام عن طاعة ربه، فأقبل الشيطان على إبراهيم يذكر له أن المنام الذي رأى خدعة من الشيطان ليذبح ابنه ثم يندم ولا ينفع عندها الندم، فصرفه إبراهيم ولعنه، فنكص إبليس على عقبيه خزيان محققاً أن لم ينل من إبراهيم ولا من زوجه ولا من ابنه من قبل ما أراد أن ينال منهم.

ثم إن إبراهيم أفضى إلى ابنه برؤيته وسأله رأيه في الأمر، قال يا أبت افعل ما تؤمر. ثم قال في رواية القصة الشعرية: يا أبتاه! إذا أردت ذبحي فاشدد وثاقي لئلا يصيبك شيء من دمي فينقص أجري. وإن الموت لشديد، ولا آمن أن اضطرب عنده إذا وجدت مسّه، فاشدذ شفرتك حتى تجهز عليّ. فإذا أنت أضجعتني لتذبطني فاكبيني على وجهي ولا تضجعني لجنبي،

(1) تفسير البغوي / البغوي 1 / 168 بتصرف.

(2) أيسر التفاسير للجزائري / الجزائري 1 / 114 بتصرف.

(3) تيسير اللطيف المنان في تفسير القرآن / السعدي 1 / 206 بتصرف.

فإني أخشى إن أنت نظرت إلى وجهي أن تدرك الرقة فتحول بينك وبين أمر ربك في. وإن رأيت أن تردّ قميصي إلى أمي فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني فافعل. قال إبراهيم: نعم العون يا بني أنت على أمر الله! ثم إنه همّ بالتنفيذ، فشد كتاف الغلام وثله للجبين ليقتله، فنودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وافتدى بكبش عظيم وجده إبراهيم على مقربة منه فذبحه وحرّقه⁽¹⁾

6- ادعاء اليهود أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام والرد عليهم

إن مؤرخي اليهود ليذهبون إلى أن الذبيح إنما كان إسحاق لا إسماعيل. ويثبتون ذلك في توراتهم، فقد جاء ذلك في توراتهم لينسبوا لأنفسهم شرفا ليس لهم، ودليل أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق من التوراة نفسها، حيث إن الذبيح وُصف فيها بأنه ابن إبراهيم الوحيد، وكان إسماعيل هو الابن الوحيد حيث أن إسحاق لم يكن مولوداً بعد.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "وهذا القول بأن إسحق هو الذبيح هو منلقى من أهل الكتاب (يعنى اليهود) مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه، بكره ولا يشك أحد من أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده." ⁽²⁾

وللتسليم بهذه الرواية يقتضي أن تكون قصة الذبح والفداء بفلسطين. وكذلك يكون الأمر إذا كان الذبيح إسحاق؛ فقد ظل إسحاق مع أمه سارة بفلسطين ولم يذهب إلى الحجاز. فأما الرواية التي تذهب إلى أن الذبح والفداء إنما كانا فوق منى فتجعل الذبيح إسماعيل. ولم يرد في القرآن ذكر لاسم الذبيح مما جعل المؤرخين المسلمين يختلفون فيه.⁽³⁾

فلذلك نجد عالما فقيها مفسراً كالإمام ابن جرير الطبري، يرجح القول بأن إسحق هو الذبيح.. وعالما جليلاً، كابن عياض، يذهب إلى هذا المذهب ويقول به، في كتابه : " الشفا في التعريف بحقوق المصطفى " وأن نرى رجلاً كالجاحظ يجعل هذه المقولة من المسلمات عنده.

وأكثر من هذا فإن هناك أحاديث كثيرة تنسب إلى أصحاب رسول الله كابن عباس، وابن مسعود وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، وفيها أن إسحق هو الذبيح. تضاف إلى صحابة رسول الله، لتوقع من النفوس موقع القبول والتسليم، وقد فضحها ابن كثير رحمته، وكشف عن المصدر الذي جاءت منه، فيقول ابن كثير: " وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن «كعب الأحبار» فإنه لما أسلم في الدولة العمريّة، جعل يحدث عمر رحمته، عن كتبه قديماً، وربما استمع له عمر، فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه، غثها وسمينها،

(1) حياة محمد صلى الله عليه وسلم / محمد هيكل 65/1.

(2) التفسير القرآني للقرآن / عبد الكريم الخطيب 1015/12.

(3) حياة محمد صلى الله عليه وسلم / محمد هيكل 65/1.

وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده⁽¹⁾، والذبيح هو إسماعيل عليه السلام في قول الجمهور.

كما أن الذبيح إسماعيل يترجح بجهات منها قول الله تبارك وتعالى، (ومن وراء إسحاق يعقوب) فولد قد بشر أبواه أنه سيكون منه ولد هو حفيد لهم كيف يؤمر بعد ذلك بذبحه، كما أن أمر الذبيح لا خلاف بين العلماء أنه كان بمنى عند مكة وما روي قط أن إسحاق دخل تلك البلاد، وإسماعيل بها نشأ وكان أبوه يزوره مراراً كثيرة يأتي من الشام ويرجع من يومه على البراق وهو مركب الأنبياء، وجهة أخرى قول الرجل للنبي ﷺ "يا ابن الذبيحين" وترك إنكار النبي ﷺ ذلك يؤيده⁽²⁾ وهو أبوه عبد الله لأنه فدي بالإبل من الذبح، والذبيح الثاني هو أبوه إسماعيل، وجهة أخرى وهي الآيات في سورة الصافات وذلك أنه لما فرغ من ذكر الذبيح وحاله، قال "وبشرناه بإسحاق" الصافات: 112 " ⁽³⁾.

كما أن الله سبحانه ذكر عن إسماعيل قوله: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: 54] وصدق الوعد، هو صفة كاشفة لما كان من إمضاء إسماعيل ما وعد به أباه في قوله: (يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) وقد وجده كما وعد، لم تختلج فيه خالجة تردّد، أو رجوع عن هذا الوعد، بل مضى به إلى غايته صابراً، مستسلماً لأمر الله، منقاداً ليد أبيه، حتى أضجعه مضجع الذبح، وبدأ يجرى السكين على رقبتة! وقد تكرر في القرآن وصف إسماعيل بالصبر، وجمعه مع الكرام الصابرين من رسل الله، فقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: 85] على حين لم يجر القرآن ذكراً خاصاً لإسحاق، وإنما كان دائماً في سياق الحديث عن ذرية أبيه من الأنبياء، فاختصاص إسماعيل بهذا الذكر المنفرد، ووصفه بتلك الصفة التي هي من ألزم الصفات لمن يدخل في هذا الامتحان، ويخرج منه سليماً معافى يقطع بأنه الذبيح⁽⁴⁾.

(1) انظر : التفسير القرآني للقرآن / عبد الكريم الخطيب 1015/12.

(2) انظر : النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم/القصاب 737/3.

(3) تفسير ابن عطية / عبد الحق بن مغالب/20/4.

(4) زاد المعاد/ لابن القيم 75/1.

المطلب الثالث

علاقة نبي الله يعقوب عليه السلام بابنه يوسف عليه السلام

يعقوب هو حفيد إبراهيم عليهما السلام، فقد كان من بشارة الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام حين بشره على الكبر بإسحاق ومن ورائه يعقوب عليهما السلام، يقول الله تعالى ﴿وَأَمْرًا تُهْتَمُّ فَصِيحَةٌ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71] وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام الذي نشأ وعاش في أرض الكنعانيين (أرض فلسطين)، وقد ولد له اثنا عشر ولدا من أربع نسوة وهم كالأتي: روبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يساكر، زبلون، وأمهم ليئة، يوسف عليه الصلاة والسلام، بنيامين وأمهما راحيل، دان، نفتالي وأمهما بلهة جارية راحيل، جاد، أشير - وأمهما زلفة جارية ليئة⁽¹⁾ وهؤلاء الأولاد الإثنا عشر هم أصل الأسباط الإسرائيليين.⁽²⁾

نبي الله يوسف عليه السلام الذي أُوتي شطر الحُسْن هو ابن نبي الله يعقوب عليه السلام من زوجته راحيل، فنبي الله يوسف هو النبي ابن النبي ابن النبي، وقال رسول الله ﷺ (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام)⁽³⁾. وقد كان لنبي الله يوسف عليه السلام أخ واحد شقيق من أمه راحيل يقال له: بنيامين، وكانت أمهما راحيل ماتت، وكان يعقوب عليه السلام يحب يوسف عليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حب الصغير وهي فطرة البشر وقد قيل لابنة الحسن: "أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق."⁽⁴⁾ وقد خص الله يوسف عليه السلام من الميزات ما زادت تعلق والده به وحبه له كما بين ذلك القرآن الكريم من خوفه عليه حين طلبه إخوته ليذهب معهم، ثم كيف ابيضت عيناه عليه من كثرة البكاء بعدما فقده

وسنستعرض هذه العلاقة من خلال النقاط التالية :

1- اصطفاء الابن الصالح بالنبوة كأبائه عليهم السلام :

يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4] كما يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْجِيكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ

(1) انظر : التوراة سفر التكوين الإصحاح 35/33.

(2) انظر : موجز تاريخ اليهود/محمود قدح 274/1.

(3) صحيح البخاري / كتاب أحاديث الأنبياء/باب لقد كان في يوسف 151/4ح3390

(4) تفسير ابن عطية/عبد الحق بن غالب 231/1.

تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتَرِّعُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ

رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ [يوسف: 6]

لقد رأى يوسف عليه السلام رؤيا قصصها على أبيه ورؤيا الأنبياء حق، والرؤيا بمعنى الرؤية، إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة، وسُميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها، والرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان وتأويلها عبارتها وتفسيرها وتعبير الرؤيا يميز بين أحاديث الملك الصادقة وبين أحاديث النفس والشيطان الكاذبة، وكان يوسف عليه السلام أعبّر الناس للرؤيا، وأصحهم⁽¹⁾.

ورؤيا يوسف عليه السلام أنه رأى الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له، وهذه الرؤيا التي رآها زينة للسماء، وفيها منافعها، وكذلك الأنبياء والعلماء والأصفياء زينة الأرض، وبهم يُهتدى في الظلمات كما يُهتدى بالأنوار السماوية، ولأن أباه وأمه أصل، وإخوته فرع عنهما، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورا وجرما من الفرع، فلذلك كانت الشمس أمه أو أبوه، والقمر الآخر منهما، والكواكب إخوته، ومن المناسب أن الساجد محترم لمن سجد له، والمسجود له معظم محترم، فدل ذلك على أن يوسف يصير معظماً محترماً لأبويه وإخوته، ولا يتم هذا إلا بمقدمات تقتضي الوصول إلى هذا من علوم وأعمال واجتباء من الله.⁽²⁾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (الشمس والقمر أبواه والكواكب إخوته الأحد عشر) .

وقال قتادة رضي الله عنه: (الشمس أبوه والقمر خالته، وذلك أن أمه راحيل كانت قد ماتت).⁽³⁾ حين قص رؤيته على أبيه قال له أبوه: لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، ويبغوا لك الغوائل ويحتالوا في إهلاكك، لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك إن الشيطان للإنسان عدو مبين.⁽⁴⁾

لما ذكر يوسف عليه السلام رؤياه لأبيه علم يعقوب عليه السلام صدق تعبيرها، ولذلك كان دائم التذکر ليوسف مدة غيبته الطويلة وكان يذكره دائماً حتى قال له إخوة يوسف من أبيهم: (تالله تفتنوا تذكر يوسف) فقال: (إني أعلم من الله ما لا تعلمون) فهو كان على ثقة من صدق رؤياه⁽⁵⁾ لما عرف عليه السلام من دلالة الرؤيا، أن يوسف يُبلغه الله مبلغاً من الحكمة، وبصطفية للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فعل بأبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم.

(1) تفسير الكشاف/ الزمخشري 444/2 بتصرف.

(2) انظر: تيسير اللطيف المنان في تفسير القرآن/ السعدي 272/1.

(3) انظر: توفيق الرحمن في دروس القرآن/ النجدي 470/2.

(4) إرشاد الساري شرح البخاري/ القسطلاني 128/10 بتصرف .

(5) لطائف الإشارات تفسير القشيري 2/ 167 بتصرف.

علم يعقوب عليه السلام ما ينتظر ابنه يوسف من النبوة فطمأنه أن الله سيجتبيه ويقربه، ويصنّفه بالنبوة. والله عليم بخلقه وبمن يستحق الاجتباء، حكيم في صنعه بهم، يفعل الأشياء على ما ينبغي، واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي تحصل له منه أنواع الكرامات بلا سعي للعبد، وذلك مختص بالأنبياء أو من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وطمأن يعقوب عليه السلام يوسف عليه السلام أن الله سيعلمه من تأويل أحاديث الناس فيما يروونه في منامهم. وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا وتأويل أحاديث الأنبياء والأمم السالفة والكتب المنزلة. كما أخبره أبوه عليه السلام أن الله سيتم نعمته عليه بالنبوة كما أتمها من قبله على أبويه إبراهيم وإسحاق بأن جعلهما نبيين وهو المراد من إتمام النعمة عليهما، فمنصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الأنبياء.

وقيل أن من فسر الاجتباء بالنبوة، لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة أيضاً بالنبوة، وإلا لزم التكرار بل يفسر إتمام النعمة هاهنا: بسعادات الدنيا والآخرة. أما سعادات الدنيا؛ فالإكثار من الولد، والخدم، والأتباع، والتوسع في المال والجاه، والجلال في قلوب الخلق، وحسن الثناء والحمد، وأما سعادات الآخرة، فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة.⁽¹⁾

قال ابن عباس رضي الله عنه: (كان بين رؤيا يوسف عليه السلام هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بأبويه وإخوته أربعون سنة) وهذا قول أكثر المفسرين، وقال الحسن البصري رحمه الله: (كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه⁽²⁾).

2- تحذير يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عليه السلام من إخوته :

﴿ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: 5]

حين قص يوسف الرؤيا على أبيه يعقوب عليه السلام خاف على يوسف من حقد إخوته عليه إن أخبرهم، وأن يجد الشيطان مدخلاً إليهم من هذا الباب فقال له عليه السلام لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا)، لأن هذه الرؤيا تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال له: لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها.⁽³⁾

(1) اللباب في علوم القرآن / 18/11.

(2) لباب التأويل في معاني التنزيل / الخازن 513/2.

(3) الكشاف/ للزمخشري 444/2.

وذلك يدل على جواز ترك إظهار النعمة، عند من يخشى غائلته حسداً وكيداً.

وقد قيل في الأثر : (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود⁽¹⁾)

ويعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب.

ورد يعقوب عليه السلام حسدهم إن وقع للشيطان وقال له : إن قصصتها عليهم كادوك: فإن الشيطان عدو مبين ظاهر العداوة، كما فعل بآدم وحواء، ولقوله لأقعدن لهم صراطك المستقيم فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر⁽²⁾.

ولهذا ثبت في السنة عن رسول الله ﷺ قال: (إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتقل عن يساره ثلاثاً، وليستعد بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره⁽³⁾) وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن قال رسول الله ﷺ: (الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت)⁽⁴⁾

ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، وهذا ما أراده يعقوب عليه السلام أن يغلق على الشيطان الأبواب للدخول إلى إخوة يوسف عليه السلام حسداً من عند أنفسهم، أن يكون يوسف الرئيس الشريف عليهم فالشيطان لا يفتر عن الإنسان ليلاً ولا نهاراً، ولا سرا ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته، بل كتمها عنهم.⁽⁵⁾

لقد أدرك يعقوب عليه السلام بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيمًا لابنه هذا الشأن في وادي الدين والصلاح والمعرفة بحكم جو النبوة الذي يعيش فيه، وما يعلمه من أن جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون. فتوقع يعقوب عليه السلام أن يكون يوسف عليه السلام هو الذي يُختار من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة في بيت إبراهيم.⁽⁶⁾

لم يفصح يعقوب عليه السلام عن الرؤيا، حتى انكشف الغيب المحجوب،، خشية أن يستشعر إخوة يوسف عليه السلام من أبيه ما وراءها لأخيهم الصغير غير الشقيق فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلئ نفوسهم بالحدق، فيدبروا له أمراً يسوؤه.

(1) انظر : أحكام القرآن/ للكنيا هراسي 229/4

(2) انظر : الكشاف/ للزمخشري 444/2

(3) انظر : صحيح مسلم : كتاب الرؤيا/ح5 - السنن الكبرى للنسائي 329/9

(4) انظر : مسند الإمام أحمد /حديث أبو رزين العقبلي/ 100/26، وافقه الذهبي، وقال الألباني صحيح

(5) انظر : تيسير اللطيف المنان في تفسير القرآن/ السعدي 394/1

(6) انظر : في ظلال القرآن/ سيد قطب 1971/4

3- حب يعقوب ليوسف والخوف من غفلة إخوته عنه :

هكذا هي طبيعة الآباء نحو الأبناء الصغار شديدي الحرص عليهم، تندفع إليهم عواطف الحب الجياشة ولا سيما إذا كان الصغير به ما يميزه عن باقي إخوته، وهذا تماماً ما حدث مع يعقوب عليه السلام فبعد ما قص عليه ابنه الصغير يوسف عليه السلام رؤيته عرف يعقوب النبي أن بركة النبوة سوف تنتقل من آل إبراهيم إلى يوسف عليه السلام، فهذا ما جعله يخاف عليه، أضف إلى ذلك حسنه فقد قال عليه السلام عن يوسف عليه السلام (أوتي عليه السلام شطر الحسن ⁽¹⁾) فكل الجمال الذي خلقه الله نصفٌ موزعٌ على الكون والنصف الآخر منحه الله ليوسف عليه السلام، كذلك أم يوسف راحيل كانت ميتة ⁽²⁾ بينما إخوة يوسف من أبيه أهمهم موجودة فهذا جعل يعقوب عليه السلام يحب يوسف وأخيه بنيامين وتندفع مشاعره نحوهم مما أوغر صدور إخوة يوسف حقداً على يوسف عليه السلام وأخيه.

وأجمعوا على أن يتخلصوا من يوسف فطلبوا من أبيه أن يرسله معهم كي يلعب ويرتع فقال عليه السلام كما أخبر القرآن في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف: 13] إنما خاف يعقوب عليه السلام من الذئب دون سائر السباع، لأنه كان رأى في المنام ذئباً شد على يوسف، فخرجت تلك الرؤيا في دعواهم. أو أنه قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنه أرادهم هم بالذئب، وخوفه كان من قتلهم له فكفى عنهم بالذئب مسايرة لهم ⁽³⁾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : سماهم ذئاباً ولكنه ما خافهم عليه فلو خافهم ما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب لأنه أغلب ما يخاف منه في الصحارى أو بسبب المنام الذي رأى فيه أن ذئباً يشد على يوسف ⁽⁴⁾.

أطمع إخوة يوسف يعقوب عليه السلام ليتمكنهم من يوسف بما فيه راحة نفسه في اللعب، فطابت نفس يعقوب عليه السلام لإرساله معهم وإن كان يشق عليه فراقه، ولكن المحب يؤثر راحة محبوبه على محبة نفسه ⁽⁵⁾ مع أنه قال لهم : إني يشق عليّ مفارقتك مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته ليوسف عليه السلام، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال

(1) صحيح مسلم/ باب الإسراء والمعراج/ 145/1.

(2) انظر : توفيق الرحمن في دروس القرآن/النجدي /2 /470 بتصرف .

(3) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية / مكي بن ابي طالب 3513/5 بتصرف.

(4) انظر : تفسير النكت والعيون / الماوردي 13/3 بتصرف.

(5) انظر : لطائف الإشارات / القشيري 172/2 بتصرف.

في الخلق والخلق وقال لأبنائه : أخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيتكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذره فيما فعلوه بيوسف عليه السلام بعد ذلك (1)

4- حزن الوالد الشديد على ولده استحكمة عقود

مرت السنون الطوال ويوسف عليه السلام بعيداً عن أبيه يعقوب عليه السلام لم ينسه فيها أبداً، وكان كثيراً ما يذكره فينكر إخوة يوسف عليه أن يذكره، إلى راودوا أباهم بعد عقود من السنين على بنيامين الأخ الشقيق ليوسف عليه السلام ليذهبوا به إلى مصر بغرض الميرة، تماماً كما أخبرهم يوسف عليه السلام بذلك بصفته القائم على خزائن مصر وهم لا يعرفونه ولكنه أراد أن يضم إليه أخاه.

كان يعقوب عليه السلام يتسلى ببنيامين مع حزنه الشديد على فقد يوسف عليه السلام ولكنه وافق لهم بعد امتناع ثم ميثاق منهم أن يرجعوه إليه، ثم كان ما كان من ضم يوسف عليه السلام لأخيه بحجة السرقة.

كان الوقع على يعقوب عليه السلام شديداً حيث فقد الآن يوسف عليه السلام وشقيقه بنيامين وقد أخبر القرآن عن موقف يعقوب عليه السلام عند تلقيه خبر فقد بنيامين، قال وتعالى:

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي
تَفْتَوُا نَذْكَرُ يَوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونُ حِرْصًا وَتَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي
وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 84-86]

أعرض يعقوب عليه السلام بوجهه عن أولاده وجعل يتفجع ويتأسف، وقال يا أسفى على يوسف، وقد خرج مخرج الندبة، والأسف هو أشد الحزن والتندم والحسرة (2) ثم في هذا المشهد وهو يتلقى خبر فقدان بنيامين، عندها ذكر يعقوب عليه السلام ولده يوسف عليه السلام فقال : يا حزني على يوسف، وابيضت عيناه من الحزن ومن كثرة البكاء وهو مغموم مكروب، يتردد الحزن في جوفه ولم يتكلم بسوء، وما تكلم إلا خيراً، وكان كاظم حزنه، ممسك عليه لا يظهره ولا يشكوه، وقيل : لم يبصر بعينه ست سنين وهو مكظوم مملوء من الحزن، لا يبته، مكبود، كميد، حتى بلغ به الجزع درجة، فكان لا يكلم أبناءه (3) . وقيل كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم النقي معه ثمانون عاماً لا تجف عينا يعقوب، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب عليه السلام.

(1) انظر : تفسير القرآن العظيم / ابن كثير 373/4.

(2) انظر : مجاز القرآن/ أبو عبيدة المصري 316/1.

(3) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 247/5.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : (لم يعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون عند المصيبة إلا أمة محمد، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه لم يسترجع⁽¹⁾): إنما قال يا أسفى على يوسف؟⁽²⁾)

استنكر إخوة يوسف على أبيهم أن يذكر يوسف، فأقسموا عليه في أسلوب تأنيب إنك لا تزال تذكر يوسف، لا تفتر من حبه، (حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا) والحرص: الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم⁽³⁾، وقيل الحرص الذي أذابه الحزن أو العشق⁽⁴⁾ وهو أيضاً البلاء لتألم القلب ومن الحرص يكون دون الموت، وإنما كان حزن يعقوب رضي الله عنه على دين يوسف لا على نفسه، لأنه علم أنه لو مات على دينه اجتمع معه في الآخرة الباقية، وإذا تغير دينه لم يجتمعا أبداً.

وقد حكى عن سفيان بن عيينة أنه قال: (إن يعقوب رضي الله عنه لما جاءه البشير قال له يعقوب: على أي دين تركت يوسف؟ فقال: على دين الإسلام. قال: الآن تمت النعمة.⁽⁵⁾)

ندم يعقوب رضي الله عنه على ما صدر منه أمام أبنائه فهذا لا يتفق مع الصبر الجميل، وكيف يشكو لغير الله سبحانه وتعالى، فقال رضي الله عنه لما رأى غلظة أبنائه وسوء لفظهم، كما يبين ذلك القرآن الكريم : (إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) يوسف 86 والبتُّ يكون لأشد الحزن وقد سمي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه، حتى يبثه، أي يشكوه ويصدره لغير الله⁽⁶⁾

وقال المفسرون : دخل على يعقوب جار له فقال له : يا يعقوب ما لي أراك قد انهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ وقيل : كبر حتى سقط حاجباه على عينيه، قال : هشمي وأفناني ما ابتلاني الله به من مصاب يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي، قال: فإني قد غفرتها لك وكان بعد ذلك إذا سأله أحد قال: (إنما أشكوا بتي وحزني إلى الله⁽⁷⁾)

(1) يسترجع من الاسترجاع : وهو قول إنا لله وإنا إليه راجعون.

(2) انظر :جامع البيان في تأويل القرآن/الطبري 53/13.

(3) انظر :جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 221/16.

(4) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 247/5..

(5) انظر : تفسير التستري/التستري 28/1.

(6) انظر : غريب القرآن/ابن قتيبة 190/1.

(7) انظر : تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 2186/7.

5- رغم بُعد السنين وبُعد المسير يعقوب عليه السلام يجد ريح ابنه يوسف عليه السلام

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُقِنْدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا بَنَا آسَتَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: 94-98]

يتحقق اليقين الذي عاش به يعقوب عليه السلام سنين طوال أن الله سيجمعه بيوسف عليه السلام، حتى أنكّر عليه أبناءه ذلك، فلما عادوا إلى أبيهم من عند يوسف عليه السلام في طريقهم إلى مكانه قبل الوصول وجد يعقوب ريح يوسف عليه السلام، وكان على مقربة من بيت المقدس، وقيل كان بالجزيرة والأول أصح لأن آثارهم وقبورهم حتى الآن هناك، وروي أن يعقوب وجد ريح يوسف وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أيام فقد هاجت الريح فحملت عرقه إلى أبيه، وقيل أنه كان بينهما ثمانون فرسخاً، وقد كان فارقه قبل ذلك سبعا وسبعين سنة. (1)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فخرج حافياً حاسراً يعدو، ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها، وقال يعقوب عليه السلام لمن حضره من أهله وقربائه وولد ولده: (إني لأجد ريح يوسف) فقد شم يعقوب عليه السلام ريح ابنه، فلو سألنا كيف وجد يعقوب ريحه وهو بمصر؟ ولم يجد ريحه من الجب وبعد خروجه منه، والمسافة هناك أقرب؟ نقول قد يكون الله عز وجل قد أخفى أمر يوسف عليه السلام على يعقوب عليه السلام في بداية الأمر لتقع البلية التي يتكامل بها الأجر، وأوجده ريحه من المكان النازح عند تقضيّ البلاء ومجيء الفرج، وأن هذا القميص كان في قسبة من فضة معلقاً في عنق يوسف، فلما نشره فاحت روائح الجنان في الدنيا فاتصلت بيعقوب، فعلم أن الرائحة من جهة ذلك القميص (2).

وقيل: إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل البشير فأذن لها، فلذلك يستروح كل محزون إلى ريح الصبا، ويجد المكروبون لها روحاً، وهي ريح لينة تأتي من ناحية المشرق (3)

عندما وصلت العير حاملة أبناء يوسف عليه السلام وأبناء البشير، قال لهم يعقوب عليه السلام إنه يشم رائحة يوسف، ولكنه أتبعها بكلام آخر فقال للحاضرين معه من أولاده وأحفاده (لولا تفقدون)

(1) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ابن عطية 278/3.

(2) انظر : مدارك التنزيل وحقايق التأويل/النسفي 133/2.

(3) انظر : زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي 470/2.

أي لولا أن تضعفوا رأيي، والتفنيدي هو تضعيف الرأي أثر الكبر، أو التضليل واللوم والتعجيز والهرم⁽¹⁾

فقال له الحاضرون : لقد ذهبت عن الصواب، قدماً بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقع للقاءه⁽²⁾ فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره.

ألقى البشير القميص على وجه أبيه، فارتد بصيراً بعدما كان عمي فعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن، فقال لهم يعقوب عندها (أقل لكم إنني أعلم من الله ما لا تعلمون) من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا.⁽³⁾

وروي أنه قال للبشير : كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة⁽⁴⁾.

6- وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لبنيهما عند الموت :

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 132-133]

الآية الكريمة تصور المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار وهو مشهد عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير لميت يحتضر. فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه؟ ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر مؤثر أخير، يسجل فيه كل التفاصيل؟ إنها العقيدة فهي التركة والقضية الكبرى، وهي الأمر الجلل، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعته.

والمأمل الآية الكريمة يجدها تبدأ بكلمة ووصى وهي الأمر والعهد، ولو سألنا علام

تعود الهاء من قوله تعالى " وَوَصَّي بِهَا ؟ " والتي هي وصية إبراهيم عليه السلام، فإن في ذلك قولان:

(1) انظر : الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 260/9.

(2) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل/البيضاوي 176/3.

(3) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن/البغوي 276/4.

(4) انظر : زاد المسير/جمال الدين الجوزي 286/4.

أحدهما : أتھا تعود على الملة، والثاني: أتھا تعود على الكلمة التي قالها إبراهيم ﷺ وهي (أَسَلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) قاله بعض أهل اللغة (1) وأيضاً في أغلب التفاسير أنها (أَسَلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أسلمت لرب العالمين، فهي "الإسلام" الذي أمر به نبيه ﷺ، وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله، وخضوع القلب والجوارح له، فقد عهد إليهم إبراهيم ﷺ بذلك وأمرهم به. (2)

وبإظهار مشاعر البنية الحريصة على نجات أبنائها يقول يا بني: " إنه الدين الذي اختاره الله لكم " فهذا الدين هو من اختيار الله فلا اختيار لكم بعده ولا اتجاه، وهي ملته التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، وهي الملة التي جاء بها محمد ﷺ. (3) فقد جاءكم يدعوكم إلى الإسلام، ومحمد ﷺ هو ثمرة الدعوة التي دعاها أبوكم إبراهيم ﷺ. (4)

وهو فضل من الله عليكم، لذا يتوجب عليكم الشكر على نعمة اختياره واصطفائه، والحرص على ما اختاره لكم من الدين، والاجتهاد في ألا تتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيكم: "فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون " وفيه إيجاز بليغ مراده التزموا الإسلام ولا تفارقوه حتى إذا أدرككم الموت صادفكم عليه. (5) وفي هذا النهي إيماء إلى أن من كان منحرفاً عن الجادة لا يبأس، بل عليه أن يبادر بالرجوع إلى الله ويعتصم بحبل الدين، خيفة أن يموت وهو على غير هدى، فالمرء مهدد في كل آن بالموت. (6)

ولنا في أبي الأنبياء، الخليل إبراهيم ﷺ الأسوة الحسنة، وهو الذي اصطفاه ربه في الدنيا إماماً، وشهد له في الآخرة بالصلاح، فحين قال له ربه " أسلم " لم يتكأ، ولم يرتب، ولم ينحرف، واستجاب فور تلقي الأمر فقال: (أَسَلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) فهذه هي ملة إبراهيم ﷺ الإسلام الخالص الصريح، ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها في عقبه، وجعلها وصيته في ذريته، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه.

وروي أنه لم يقبض الله نبياً قط حتى يُخَيَّر بين الموت والحياة، فلما خُيِّر يعقوب ﷺ قال: أنظرنني حتى أسأل ولدي، وأوصيهم، فجمع يعقوب ولده وهم الأسباط الإثنا عشر، وأحفاده فقال لهم: إنه قد حضرت وفاتي، وأنا أريد أن أسألكم وأوصيكم: فما تعبدون من بعدي؟ فأجابوه بما حكى الله تعالى عنهم، نعبد دينك ودين آبائك، فدعا لهم ثم قبضه الله سبحانه وتعالى. (7)

(1) انظر : إعراب القرآن / للأصفهاني 52/1.

(2) انظر : جامع البيان / ابن جرير الطبري 94/3.

(3) فتح القدير 1/ الشوكاني 168/ بتصرف.

(4) تفسير الظلال / سيد قطب 116/1 بتصرف.

(5) التفسير الوسيط / للواحي 216/1 بتصرف.

(6) تفسير المراغي 1/ أحمد المراغي 221/ بتصرف .

(7) الهداية إلى بلوغ النهاية / مكيب أبي طالب 458/1 بتصرف

وفي هذه الآية ردُّ على مزاعم اليهود والنصارى أن إبراهيم ويعقوب يهوداً أو نصارى، فيخاطبهم القرآن باستنكار هل حضرتهم موت يعقوب عليه السلام، وسمعتموه، فكيف تكفرون بغير علم ولا يقين وتدعوا على أنبياء الله الأباطيل؟ وتتلوهم إلى اليهودية والنصرانية؟. وإنما بعثهم الله بالحنيفية المسلمة، والتي وصّوا بها بنبيهم من بعدهم فما هي ذي وصية إبراهيم لأبيه ويعقوب للأسباط فانظروا أيها اليهود هل أنتم تتبعون آباءكم إبراهيم ويعقوب أم لا؟⁽¹⁾

(1) التفسير الواضح/الحجازي محمود 76/1.

المطلب الرابع علاقة لقمان الحكيم بابنه

يتناول هذا المطلب بيان الوصايا التي أوصى بها لقمان ابنه، وأهميتها في تربية الأبناء على أسس متينة كما حددها لقمان لابنه، ذلك الأب الصالح الرحيم الذي أتاه الله الحكمة فوصى ابنه في شفقة وعطف، حتى لا يقع في مهاوي الزيغ والضلال، وقد بينها لنا القرآن الكريم بأسلوبه ومعانيه المعجزة الخالدة، فكانت وصاياه أنموذجاً يتوافر فيه الإخلاص والصواب، فعلى الآباء أن يسلكوا مسلكه في تنشئة أبنائهم تنشئة إسلامية صحيحة وفق ما تعرضه الآيات الكريمة من كتاب الله ﷻ لوصايا لقمان فمن هو لقمان الحكيم وفي أي زمن عاش؟

لقمان الحكيم كان عبدا حبشياً لرجل من بنى إسرائيل، فأعتقه وأعطاه مالا، وكان في زمن داود النبي ﷺ واسم أبيه ثاران، ولم يكن نبياً، في قول أكثر الناس، وكان خياطاً. (1)
قال وهب بن منبه (2) : قرأت من حكمته نحواً من عشرة آلاف باب، لم يسمع الناس كلاماً أحسن منه، ثم نظرت فرأيت الناس قد أدخلوه في كلامهم، واستعانوا به في خطبهم ورسائلهم، ووصلوا به بلاغاتهم. (3)

كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً عظيم الشفتين والمنخرين، فقد جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب (4) يسأله فقال له سعيد: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال بن رباح، ومهجع مولى عمر، ولقمان الحكيم فقد كان أسوداً نوبياً ذا مشافر. (5)

(1) انظر : معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 195/4.

(2) وهب بن منبه الإيماوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله، مؤرخ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات. يعد في التابعين. أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن. وأمه من حمير. ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها، الأعلام/للزركلي 125/8.

(3) انظر : المعارف /الدينوري 55/1.

(4) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد: سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاء. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر ابن الخطاب وأفضيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة، الأعلام للزركلي/102/3.

(5) انظر : تفسير الكشاف الزمخشري 211/3.

وقيل: كان يحتطب كل يوم لمولاه حزمة حطب، وقال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض⁽¹⁾، وزعم وهب أن الله خيره بين النبوة والحكمة فاختر الحكمة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12] وذكر القرآن العظيم وعظه لابنه، وقيل: إن اسم ابنه أنعم، وقيل ماثان⁽²⁾، وقيل كان ابنه وامرأته كفارا فما زال بهما حتى أسلما، وزعموا أن لقمان كان ابن خالة أيوب عليه السلام.⁽³⁾

ولم يزل يعظ ابنه ماثان حتى قناع قلبه فمات، ومن وعظه لابنه: يا بني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء، وشاور في أمرك العلماء.⁽⁴⁾

متى كان لقمان الحكيم؟ وفي أي زمن؟

لقمان الحكيم ليس نبياً إنما هو حكيم كما ذكر القرآن الكريم، كان يقدم الحكمة والموعظة والدعوة إلى عبادة الله عز وجل فكان مقصداً للناس لما اشتهر به من الأخلاق والحكمة وحب الناس، ولمعرفة ترتيبه بين الأنبياء الأوائل سنورده كما أوردته كتب التاريخ.

كَانَ مِنْ بَعْدِ آدَمَ شِيثَ عليه السلام وَهُوَ وَصِيَّ آدَمَ ثُمَّ كَانَ إِدْرِيسَ عليه السلام، ثُمَّ نُوحٌ ثُمَّ هُودٌ ثُمَّ صَالِحٌ ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ كَانَ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ وَكَانَ مُوسَى بْنُ مِيثَا، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ثُمَّ يُوشَعَ بْنِ كَالْبِثْمَ حَزْقِيلَ ثُمَّ إِيَّاسَ ثُمَّ طَالُوتَ الْمَلِكِ، ثُمَّ دَاوُدَ عليه السلام ثُمَّ سُلَيْمَانَ ثُمَّ أَيُّوبَ ثُمَّ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ثُمَّ شَعِيَا، ثُمَّ أَمْصِيَا ثُمَّ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَأَرْمِيَا، وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ ⁽⁵⁾ والله أعلم. وقيل أن لقمان الحكيم كان على عهد داود النبي عليه السلام، وهو من النبوة، فقد وُلد بأيلة بالنبوة⁽⁶⁾

خير الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختر الحكمة على النبوة، فقد قيل: إنه أتاه جبريل وهو نائم فذّر عليه الحكمة فأصبح ينطق بها، وقيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إلي بالنبوة عزيمة لرجوت فيه الفوز منه، ولكنك

(1) انظر: معالم أصول التربية الإسلامية/ عبد الرحمن الأنصاري 431/1.

(2) انظر: البدء والتاريخ/ المقدسي 102/3.

(3) انظر: تفسير مقاتل / مقاتل بن سليمان 434/3.

(4) انظر: البدء والتاريخ/ المقدسي 102/3.

(5) تلقح فهوم الأثر/ ابن الجوزي 12/1 بتصرف.

(6) المختصر في أخبار البشر/ عماد الدين إسماعيل 96/1 بتصرف.

أرجو أن أقوم بها ولكن خيّرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إليّ، والحكمة التي أوتيتها لقمان تعني الفقه والإسلام ولم يكن نبياً ولم يوح إليه. (1).

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ شَكَرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**

﴿ **وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ [لقمان: 12] فقد أتى الله عز وجل لقمان الحكمة، وأعطاه العلم والفهم من غير نبوة فهذه نعمة لا بد أن يشكر الله عز وجل عليها، ومن يشكر الله تعالى في نعمه فيوحده، فيعمل الخير لنفسه، ومن يكفر النعم فلم يوحد ربه عز وجل فإن الله غني عن عبادة خلقه حميد (2)

وروي عنه أنه كان يفتي الناس ويعظهم قبل سيدنا داود عليه السلام، فلما جاء داود أمسك لقمان وقال: ألا أكتفي وقد كُفيت، ثم وجه نصائحه لمن يحب وهو ولده، وفرّق بين أن يتكلم الإنسان مع عامة الخلق، وبين أن يتكلم مع ولده، فالابن هو الإنسان الوحيد في الوجود الذي يودُّ أبوه أن يكون أفضل وأحسن حالاً، ويتمنى أن يُعوّض ما فاته في نفسه في ولده ويتدارك فيه ما فاته من خير (3). إن وصايا لقمان لابنه تتضمن تحديد معالم أصول التربية الإسلامية، مستخلصة هذه الوصايا من أبٍ صالحٍ حكيمٍ لابنه الذي يرجو له سعادة الدارين، حيث تعد وصاياهِ دستوراً كاملاً في أصول التربية الإسلامية، فقاتلها أب ومعلم صالح آتاه الله الحكمة، هذا بالإضافة إلى أنها نابعة عن قناعة وصدق، ومبنية على التجربة والمعرفة وهي تهدف أولاً وأخيراً أن يحقق الإنسان المسلم العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى وحده في حياته الفردية والاجتماعية ليفوز بالدارين.

وسنسلط الضوء على علاقة لقمان الحكيم بابنه من خلال النقاط التالية :

1- توحيد الله أول وصايا لقمان لابنه في آيات القرآن الكريم :

أوصى لقمان الحكيم ابنه بتوحيد الله وعدم الشرك به، فيقول الله تعالى : ﴿ **وَلِذَلِكَ**

﴿ **لُقْمَانَ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَأَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان: 13]

الوعظ هو التذكير بمعلومة عُلمت من قبل مخافة أن تُنسى، فالوعظ لا يكون بمعلومة جديدة، إنما يُنبه غفلتك إلى شيء موجود عندك، لكن غفلت عنه، فهناك فرّق بين عالم يُعلم، وواعظ يعظ، والوعظ للابن يعني أنه كان على علم أيضاً بالمسائل، وكان دور الوالد أن يعظه

(1) البداية والنهاية/ ابن كثير 153/2 بتصرف .

(2) تفسير مقاتل/ مقاتل بن سليمان 434/3 بتصرف.

(3) تفسير الخواطر / الشعراوي/ 11635/19 بتصرف .

وَيُذَكِّرُهُ، فنلحظ في أسلوب الآية أن الله تعالى لما أخبر عنه قال (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ..) ولما تكلم لقمان عن ابنه قال (يا بني) ولم يقل يا ابني، فصغره تصغير التلطف والترقيق، وليبوح له: إنك لا تزال في حاجة إلى نصائحي، وإياك أن تظن أنك كبرت وتزوجت فاستغنيت عني.⁽¹⁾

يقرر لقمان الحكيم بذلك منهج التوحيد في حياة الإنسان، وأنه هو الصواب والعدل، وأن الشرك ظلمٌ عظيم، ولا شك في أنه ينبني على حقيقة التوحيد صلاح عام في حياة الإنسان، كما أن الشرك فساد عام في حياته، والأسرة المسلمة هي المدرسة الأولى التي تقوم بتوجيه وتربية الأبناء تربية صالحة، فالأبوان هما المسؤولان في الدرجة الأولى عن انحراف أبنائهم خلقياً واجتماعياً وعقدياً، وقد قال الرسول ﷺ: (ما من مولود إلا يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)⁽²⁾ وفي هذا دلالة واضحة على أن المولود يولد على فطرة الإسلام، لكن تأثير الأبوين وأسلوب تربيتهما هما اللذان يوجهان عقيدة هذا الطفل نحو اليهودية أو النصرانية أو غيرها. ومن هنا كانت مهمة الأبوين في التربية من الأهمية بمكان فالطفل يحاكي أبويه في جميع سلوكهما ومعتقداتهما وأخلاقهما.⁽³⁾

فأول واجب يجب على الأبوين القيام به والاهتمام بأمره دون كلل، هو غرس عقيدة التوحيد في نفس الطفل وتوجيه عواطفه نحو حب الله ورسوله، وإخباره بأن الله يجب أن يكون أحب إليه من أمه وأبيه ونفسه، والإيمان بالله الذي لا إله غيره وبملائكته ورسله، وتوحيد الله في الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية لأن الإيمان بالله هو الموجه لسلوك الإنسان والدافع له إلى اتجاه الخير، والنصير له من حيث العناية والرعاية والتوفيق، كما أنه الذي يصرفه عن طريق الشر ويجعله متحلياً بالفضائل وحسن الخلق⁽⁴⁾

لما نزلت الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ

﴿[الأنعام: 82] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: (ليس كما تظنون، وإنما هو ما قال لقمان لابنه: لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم).⁽⁵⁾

(1) تفسير الخواطر / الشعراوي 11638/19 بتصرف .

(2) صحيح مسلم ، باب كل مولود يولد/2074/4.

(3) معالم أصول التربية الإسلامية / عبد الرحمن الأنصاري /1/440 بتصرف .

(4) أصول الفكر التربوي في الإسلام / أحمد خاتن ص 89 بتصرف .

(5) صحيح البخاري /كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/باب ما جاء في المتأولين 9/ 18

والشرك على ضربين: جلي وخفي، فالجلي عبادة الأصنام، والخفي حسيان شيء من الأنام. ويقال الشرك ظلم على القلب، والمعاصي ظلم على النفس، وظلم النفوس معرض للغفران، ولكن ظلم القلوب لا سبيل إليه للغفران. (1)

2- حقوق الوالدين في ثنانيا وصايا لقمان الحكيم لابنه

يقول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي سِنِينَ أَن أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 14-15]

" إلى آخر الآيتين كلام مستأنف من الله تعالى، وليس من كلام لقمان الحكيم، جاء معترضاً بين وصايا لقمان لابنه، ولهذا الاعتراض من البلاغة أحسن موقع، لأنّ الفائدة فيه توكيد ما تضمنته أولى وصايا لقمان، وهو النهي عن الشرك بالله، وتقرير أنّه ظلم عظيم، فإنه قيل: حقاً إنّ الشرك لمنهيه عنه، وإنّه لظلم عظيم مهما كانت أسبابه، ومهما كان الحامل عليه، فمع أننا وصّينا الإنسان بوالديه أن يبرهما، ويحسن إليهما، فقد نهيناه عن طاعتهما في الشرك، لو فرض أنهما طلباه منه بالاحاح وجهد. وكانت الوصية للإنسان بوالديه لأن أمه حملته في وهن يليه وهن، والوهن يكون إذا حملت المرأة توالى عليها الضعف والمشقة، فالحمل ضعف، والطلق ضعف والوضع ضعف، ثم بعد ذلك الرضاعة ضعف، حتى الفطام في عامين. (2)

وبعد هذا لا بد من الشكر لله وللوالدين بأمر من الله، ثم يذكر الله تعالى بأن المصير إليه والمرجع فاحذروا المخالفة، و قد قال سفيان بن عيينة (3) في هذه الآية: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين. (4)

وتفسير التوصية في قوله: (أن اشكر لي ولوالديك) وفي جعل الشكر لهما مقترنا بالشكر لله: دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، وأكبرها، وأشدّها وجوباً. (5)

(1) انظر : لطائف الإشارات تفسير القشيري 130/3.

(2) تفسير آيات الأحكام للسايس 620/1 بتصرف.

(3) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد: محدث الحرم المكي. من الموالي. ولد بالكوفة، وسكن مكة وتوفي بها. كان حافظاً ثقة، واسع العلم كبير القدر . الأعلام للزركلي 105/3.

(4) انظر : اللباب في علوم القرآن/سراج الدين الحنبلي 738/5.

(5) انظر : تفسير فتح القدير للشوكاني 274/4.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى أن الإشراف به لا يصح حتى إن طلبه الوالدان اللذان يوصي الله بهما، فهذا مما ليس لنا به علم، فلا طاعة لهما معه، ويبين المولى أن لهما حقوقاً حتى عندها وهي أن نصابهما في الدنيا معروف، و المعروف هو البر والصلة والعشرة الجميلة⁽¹⁾ محسناً إليهما، متبع سبيل النبي الكريم ومتبع سبيل من أناب من المؤمنين، ثم الأمر كله لله عز وجل⁽²⁾.

والآية (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) نزلت في سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه حيث قال: " كنت رجلاً براً بأبي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: "يا قاتل أمه". فقلت: لا تفعلني يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتدت جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي. فأكلت⁽³⁾"

3- لقمان الحكيم يحقق في ابنه الخشية من الله عز وجل

يوصل لقمان الحكيم وصيته لابنه، وليحقق في نفس ابنه الخشية من الله كانت هذه الجزئية من الوصية تعرض مدى قدرة الله عز وجل، وذلك في صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان حول علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف وقدرته سبحانه فيقول الله تعالى على قول لقمان الحكيم: ﴿يَبْنِيْ اِيَّاهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰٓاَتِ بِهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ حَيِيْرٌ﴾ [لقمان: 16]

ما أبلغ هذا التعبير المصور عن دقة علم الله وشموله، وعن قدرة الله سبحانه، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه، وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء، العميقة الإيقاع، فحبة من خردل، صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة لها تكن في صخرة صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها، أو كانت هذه الحبة في السماوات السبع ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابعة أو ذرة تائهة أو أن تكون في

(1) انظر: معالم التنزيل / البغوي 588/3.

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم / ابن كثير 336/6.

(3) أسد الغابة 2/ ابن الأثير 216.

الأرض ضائعة في تراها وحصاها لا تبين، إن الله يأت بها، فعلمه يلاحقها، وقدرته لا تغفلها، فإن الله لطيف خبير تعقيب يناسب المشهد الخفي اللطيف. (1)

إذا كان هذا علمه تعالى شأنه بحبة الخردل في مكانها، فكيف علمه بنا سكانتنا وحركاتنا، ففعل القلب يخشع وينيب، إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب. وتستقر من وراء ذلك الحقيقة التي يريد القرآن إقرارها في القلب، بهذا الأسلوب العجيب في حكاية قول لقمان لابنه وهو يعظه، وهو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها في الضمير، فبعد الإيمان بالله لا شريك له واليقين بالآخرة لا ريب فيها والثقة بعدالة الجزاء حتى أنه لا يفلت منه مثقال حبة من خردل.

فالحقيقة التي أرادها لقمان الحكيم أن تستقر في ابنه الحث على مراقبة الله، والعمل بطاعته، لسعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} أي: لطيف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار (2)

4- لقمان الحكيم يوصي ابنه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والصبر

وَبَعْدَ مَا أَمَرَ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ ابْنَهُ بِالتَّوْحِيدِ، الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي ضَمَنِ النَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ وَنَبِّهَهُ عَلَى كَمَالِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْرَتِهِ، أَمَرَهُ بِالصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الْعِبَادَاتِ تَكْمِيلًا لَهُ مِنْ حَيْثُ الْعَمَلُ بَعْدَ تَكْمِيلِهِ مِنْ حَيْثُ الْإِعْتِقَادُ (3) فيقول الله تعالى في معرض وصية لقمان لابنه: ﴿يَبْنَىٰ أَقِيمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءًا مَّعْرُوفًا وَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [لقمان: 17]

فأوصى لقمان ابنه بإيقام الصلاة، إقامتها بفروضها، وحدودها، وأركانها، وأوقاتها، وواجباتها، ولقد عني الإسلام بالصلاة لما فيها من الفضائل، ولما تشتمل عليه من الخير والنفع فشدد كل التشديد في طلبها وحذر كل التحذير من تركها أو تأخيرها عن أوقاتها فهي عمود الدين ومفتاح الجنة وخير الأعمال وأول ما يحاسب عليه المرء المؤمن يوم القيامة.

يذكر القرآن الكريم الصلاة في دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾ [إبراهيم: 40]، كما وينطق بها عيسى عليه السلام وهو في مهده ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. ويأمر بها خاتم أنبيائه عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: 45]

(1) انظر: في ظلال القرآن/سيد قطب 2788/5.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن /السعدي/1/648.

(3) انظر: ارشاد الساري / أبي السعود 72/7.

ويؤكد الإسلام عليها في الحضر والسفر والأمن والخوف والسلم والحرب ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٣٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴿٣٣٩﴾﴾ [البقرة: 238-239]

وينذر بالويل والهلاك من يصرف قلبه عنها أو يؤخرها عن وقتها فيضيعها (1)

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: 4-5].

وحيثما كلف موسى بالرسالة، كان أول ما أمر به هو الصلاة حيث قال الله له:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤٠﴾﴾ [طه: 14] وأمره الله وأخاه

هارون فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ مِمَّا يَبْغُونَ وَيُؤْتِكُمْ

قِسْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: 87] فنرى الرسل قد كلفوا بإقامة الصلاة

وبلغوا هذا التكليف.

إن الصلوات الواردة على ألسنة الرسل أعمال مكررة، في مواعيد ثابتة، وتحتاج إلى تدبر، وتذكر، وخشوع، كما يدل على ذلك لفظ إقامة (2)، كما أن كيفية هذه الصلاة من ناحية إحاطة للأمم بها تحتل رأيين :

- 1- أن يُطلع الله كل رسول على كيفية صلاة الأمم السابقة، وتفصيلها وهيئتها لتبقى معلومة
- 2- أن لا يطلع الله الرسل على التفاصيل، وإنما يعرفهم بها في إجمال، وقد ذُكرت الصلاة في سورة لقمان بيد أن هذه الكيفية للصلاة اختلفت هيئاتها من رسالة إلى رسالة، وإن اتحدت في حقيقتها وغرضها (3)

وفي معرض وصية لقمان الحكيم لابنه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو من أفضل الأعمال الصالحة، فيجب أن يبتغي به وجه الله، ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر يبتغي أن يكون عالماً بما يأمر به، عالماً بما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه " فالعلم قبل الأمر، والرفق مع الأمر، والحلم مع الأمر. فإن لم يكن عالماً لم يكن له أن يقفو ما ليس له به علم، وإن كان عالماً ولم

(1) انظر : العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع/ علي منصور 93/1.

(2) انظر : دعوة الرسل عليهم السلام/ أحمد غلوش 512/1.

(3) انظر: مفاتيح الغيب/ للرازي 863/6.

يكن رفيقاً كان كالطبيب الذي لا رفق فيه فيغلظ على المريض فلا يقبل منه، وكالمؤدب الغليظ الذي لا يقبل منه الولد (1).

ويكمل لقمان الحكيم موعظته لابنه بعدما أوصاه أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، حسب الاستطاعة، فيقول تعالى ﴿... وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝﴾ [لقمان: 17] فهذا يحتاج إلى الصبر وهو حبس النفس عن التسخط وعن الحجام، فلا تحجم ولا تتسخط، فلا بد من صبر، لأن الداعي إلى الله تعالى لا بد أن يناله الأذى، والصبر على أذى الناس من العزائم التي يوهبها الله لأهل دعوته (2)، وليعلم الداعي أنه ما أؤذي أذية في ذلك إلا كتب الله له فيها أجراً، وقربه إلى العاقبة الحميدة، لأن الله تعالى قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ ۚ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [هود: 49] (3).

ووصف لقمان الحكيم الصبر على الصلاة وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعزم الأمور وهي الأمور الواجبة التي أمر الله بها، وقيل حزمها وقيل حق الأمور (4) وقيل: هي من عزائم الله التي ندب إليها عباده، أو من ثابت الأمور التي لا تتسخط، وقيل عزم الأمور حيث ندب الله تعالى المظلوم أن يغفو عن الظالم، ويصبر على الظلم؛ لينال الثواب (5).

5- لقمان الحكيم يربي ابنه على مكارم الأخلاق

ويواصل لقمان الحكيم وصية الخير والدين لابنه في هذه الحياة الدنيا لتكون معبراً ناجحاً للأخرة فيقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ۝﴾ [لقمان: 18-19]

(1) انظر : غاية الاماني في الرد على النبهاني/ الألويسي 163/2.

(2) انظر : الهدى النبوي في تربية الأبناء / القحطاني 173/1.

(3) انظر : شرح العقيدة السفارينية / ابن عثيمين 705/1.

(4) انظر : الكشف والبيان / الثعلبي 314/7.

(5) انظر : تفسير السمعاني/ المروزي 83/5.

نهى لقمان الحكيم ابنه عن الكبر، وتصعير الخدّ، وأصل الصعر: داء يصيب البعير يلوّى منه عنقه. والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعا، ولا تولهم شق وجهك وصفحته، كما يفعل المتكبرون. (1) فيكون ذلك الفعل احتقاراً منه لهم، واستكباراً عليهم (2)،

وكان النهي عن الكبر لما له من نتائج سيئة على الفرد والمجتمع، فمن آثار الكبر في السلوك الظاهر الهزء والسخرية بالآخرين، واحتقار الناس وإزدرائهم، وحركات الغمز والهمز واللمز والتعبير والتتقيص، وقد يكون من آثاره أيضاً الغيبة وفضح العيوب وكشف نقائص الناس، ومن آثاره أيضاً التبختر والخيلاء والمرح في المشية، وتصعير الخد، والإعراض عن حديث المتحدث، والنظر بشذو إلى الناس، وجر الثوب من الخيلاء، والتطاول في الجسم، والتععر في الكلام والتشقق فيه، والإجابة بحركات الوجه أو اليدين أو غيرهما من الجسم كرفع الحاجبين وغمز العين وشد الحنك ومط الشفاة وإشارة اليد وإدارة الظهر والالتفات بالعنق و رفع الرأس أو خفضه، ومن آثاره أيضاً الترفع عن مجالسة ضعفاء القوم و فقرائهم ومساكينهم، والترفع عن محادثتهم ومؤاكلتهم ومشاربتهم، ومنه التعصب للرأي والعناد على الباطل رغم وضوح الحق؛ وهكذا إلى أمور كثيرة جداً. (3)

ثم يقول له ناهياً إياه: لا تمش لأجل المرح والأشر، فلا يكن غرضك في المشي البطالة لا لكفاية مهام دينية أو دنيوية، وقد نهاه أبوه عن التكبر أيضاً وأخبره أن الله لا يحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ أَي: كل متكبر مفتخر بما أعطى وهو لا يشكر الله. ونهاه عن الخيلاء (4) بحيث يتبادر منه الكبر والنخوة في بادى النظر، فيكون فخوراً بما عنده من الحسب والنسب والجاه والمال، بطراً بها، مباحاً بسببها. (5)

ثم يأمره بقوله: واقصد في مشيك، أي اعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين، لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثيب الشطار. (6) واخفض من صوتك وانقص منه واجعله قصداً، ولا ترفعه إذا تكلمت، فذلك أوقر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه، إن أقبح ما يُستنكر من الأصوات ويُستكره: لصوت الحمير، والجملة تعليل للأمر بالغض من الصوت على أبلغ وجه وأكده، حيث مثل حال الرافعين أصواتهم بحال الحمير في نهاقهم، وفي ذلك من المبالغة في الذم

(1) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل/النسفي 716/2.

(2) انظر: الهدى النبوي في تربية الأبناء/سعيد القحطاني 173/1.

(3) انظر: الحديث الموضوعي/مناه جامعة المدينة العالمية 365/1.

(4) انظر: الكشاف/الزمخشري 497/3.

(5) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية/النخجواني 133/2.

(6) انظر: الكشاف/الزمخشري 497/1.

والتَّهْجِينَ وَالتَّنْبِيْطَ عَنِ رَفْعِ الصَّوْتِ وَالتَّرْغِيبَ عَنْهُ مَا فِيهِ، وَلَقَدْ رَدَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَذَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَفَاخَرُونَ بِجَهَارَةِ الصَّوْتِ وَرَفْعِهِ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ يُؤْذِي السَّمْعَ؛ إِذْ يَقْرَعُ الصَّمَاخَ بِقُوَّةٍ، وَرَبْمَا يَخْرُقُ الْعِشَاءَ الَّذِي هُوَ دَاخِلُ الْأُذُنِ.⁽¹⁾

وقيل عن صوت الحمير : إنه شر الأصوات، وقيل إنه أشد الأصوات، وقيل لو كان رفع الصوت خيراً ما جعله الله للحمير.⁽²⁾

6- وصايا أخرى يوجهها لقمان الحكيم لابنه :

كانت الوصايا السابقة هي الوصايا التي أوردها القرآن الكريم للحكيم لقمان عليه السلام، وهناك الكثير من الوصايا التي كان يوصيها لقمان لابنه وتناقلتها العرب، فقيل إن من حكمته كان في كتاب من عشرة آلاف باب، لم يسمع الناس كلاماً أحسن منه، وقد أدخله العرب في كلامهم، واستعانوا به في خطبهم ورسائلهم، ووصلوا به بلاغاتهم.⁽³⁾

من وصايا لقمان لابنه والتي هي كلمات من ذهب :

- أي بني : إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثيرون، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحشوها الإيمان، وشرعها التوكل على الله، لعلك تنجو، ولا أراك ناجياً.
- يا بني: إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه فأخه، وإلا فاحذره.
- أي بني: الشكر لله، والثناء على الله تعالى، وإصابة الحق، وحب الخير للناس، وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له.
- يا بني: من كان له من نفسه واعظ، كان له من الله حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه، زاده الله بذلك عزاً، والذل في طاعة الله، أقرب من التعزز بالمعصية.
- يا بني: لا تكن حلواً فتبتلع، ولا مرأاً فتلفظ.⁽⁴⁾
- يا بني: إن الحكمة أجلسَت المساكين مجالس الملوك.

(1) انظر : التفسير الوسيط/ طنطاوي 94/8.

(2) انظر : الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية/ النخجواني 133/2 .

(3) انظر : المعارف / الدينوري 55/1.

(4) انظر : تفسير المراغي/ أحمد المراغي 79/21.

- يا بني: إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام وهو السلام، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق، حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فاجعل سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم.⁽¹⁾
 - يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء.⁽²⁾
 - يا بني : لئن كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب⁽³⁾
- وهكذا نقرأ كلمات من أروع الكلمات التي تتمثل فيها القيم، والأخلاق، والمبادئ الإسلامية التي نادى بها الرسل والأنبياء في رسالاتهم، وإن لم تكن كتاباً سماوياً ولكنها بوحى الحكمة السماوية.

(1) انظر : تفسير القرآن العظيم / ابن كثير 448/3.

(2) انظر: إحياء علوم الدين/ الغزالي 8/1.

(3) انظر : المعارف/ النخجواني 55/1.

المطلب الخامس

علاقة داوود بسليمان عليهما السلام

داوود عليه السلام كان راعياً من رعاة الغنم في بني إسرائيل، وكان ذا قوة في الرمي بالحجر، اشتهر داوود بين قومه، فأمر الله شاول ملك بني إسرائيل أن يختار داوود لمحاربة جالوت الكنعاني، وكان طالوت قد وعد أن من يقتل جالوت يعطيه نصف ملكه، ويزوجه ابنته، لذا اضطر أن يتنازل عن الملك لداوود، ويزوجه ابنته، فلما قتل داوود جالوت آتاه الله النبوءة وصيره ملكاً لبني إسرائيل، فهو النبي الذي تجلى فيه اصطفاء الله تعالى لمن لم يكن ذا عظمة وسيادة. (1)

فآتاه الله النبوة مع الملك، فأقام شريعة الله فيهم وأنزل الله عليه كتاب الزبور فيقول الله تعالى ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163] والزبور: اسم لمجموع أقوال داوود عليه السلام التي بعضها مما أوحاه الله إليه، وبعضها مما ألهمه من دعوات ومناجاة، وهو المعروف اليوم بكتاب المزامير من كتب العهد القديم، ولم يؤت أحد من أنبياء بني إسرائيل كتاباً بعد موسى عليه السلام. (2)

قال قتادة رضي الله عنه: " أُعْطِيَ داود قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام، وذكّر أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر". وكان رجّاع عما يكره الله عز وجل إلى ما يرضاه أواب، وهي صيغة مبالغة للتكثير من الأوبة، فهو رجّاع آيب عن الذنوب.

وقوله (داود ذا الأيد) [ص:17] أي: ذو القوة في طاعة الله (3) وكان داوود عليه السلام مطيعاً لله عز وجل، كثير الصلاة والصبر على طاعته ويروى أنه قام ليلة إلى الصباح فكأنه أُعْجِبَ بذلك فقيل لضفدع كلميه في أصل محرّبه، فقالت له: يا داوود، تَعْجَبُ لقيام ليلة! فهذا مقامي منذ عشرين سنة شكراً لله عز وجل (4)

وقد أخبر الله تعالى عن ملك داوود: ﴿وَسَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا

لِنَبَاتٍ﴾ [ص: 20] وذكر ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه عن قضية في بني إسرائيل أرادها الله تعالى وأضفت المهابة علي داوود عليه السلام: (أن رجلاً استعدى على رجل من عظمائهم فاجتمعوا عند داوود، فقال المُسْتَعْدَى: إن هذا غصبني بقراً لي، فسأل الرجل عن ذلك فجحدته، فسأل الآخر

(1) انظر: لتحرير والتنوير/ ابن عاشور 137/15.

(2) موجز التاريخ الإسلامي / أحمد العسيري 1/ 27/ بتصرف.

(3) تأويلات أهل السنة / الماتريدي 636/8 بتصرف.

(4) انظر: الهداية في بلوغ النهاية 10/ مكي بن أبي طالب/6214.

البيّنة فلم تكن له بيّنة، فقال لهما: فُوما حتى أنظر في أمركما فقاما، فأوحى الله ﷻ إلى داوود ﷻ في منامه أن يقتل الرجل الذي استُعدي عليه. فقال: هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت، فأوحى إليه مرة أخرى أن يقتله، وأوحى إليه ثالثة أن يقتله أو تأتبه العقوبة من الله عز وجل، فأرسل داود إلى الرجل أن الله قد أوحى إليّ أن أقتلك، فقال الرجل: تقتلني بغير بيّنة ولا تثبت! فقال له داود: نعم، والله لأنفذن أمر الله ﷻ فيك. فلما عرف الرجل أنه قاتله قال له: لا تعجل عليّ حتى أخبرك، إني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت ولَدَ هذا فقتلته فبذلك قُتلت، فأمر به داوود، فقتل. فاشتدت هيّبه في بني إسرائيل لذلك، وشد الله به ملكه. (1)

وولد لداوود أولاد أكثر ولكن سليمان ﷻ فقط الذي ورث الحكمة والنبوة عن أبيه، وتابع سليمان جهاد والده داوود عليهما السلام ووصل إلى دمشق، وأخضع اليمن وأذل حكامها من السبئيين، وتزوج ملكتهم بلقيس، وقد أبقاها على اليمن خاضعة له، بعد أن آمنت بالله مع أكثر قومها وكانوا من قبل يعبدون الكواكب والشمس، وبلقيس صاحبة سليمان ﷻ ابنة الملك هداد بن شراحبيل ملك اليمن (2)، الذي عندما حضرته الوفاة جعل الملك لها بعده.

وكانت بلقيس من أفضل الناس في زمانها، وأعقلهم وأحزمهم، فكان من أمرها وأمر سليمان ﷻ ما قصه الله ﷻ علينا في كتابه. ويقال إن سليمان تزوجها، فولدت له داوود بن سليمان، ومات في حياة أبيه. (3)

من أعمال سليمان ﷻ تجديد بناء المسجد الأقصى، واستمر ملكه عشرين عاماً يقيم شريعة الله في الأرض، وكان سليمان ﷻ أول من دخل الحمام، وأول من صنعت له النورة و أول من عمل له الصابون. (4)

وبعد موته خلفه ابنه رجبام، وضعف بنو إسرائيل من بعده وزاد فسادهم وقد ارتد أهل الشام بعد سليمان عن دين الله فاجتمعت حمير إلى رجبام ابن سليمان ﷻ قائلين: يا خليفة رسول الله إن أردت الشام وأهله، وهم أهل بأس وفتنة لا يعطون إلا عن قسر فاجعل سيفك دليلاً وعزمك خليلاً، وإن للكفر طرباً من القلوب لا يحول بينها وبينه إلا الخوف ولن تخيفهم إلا بعزم وصبر وإن الله المعين إلا أنهم هزموه وقتلوه. (5)

(1) انظر: تفسير روح المعاني / الالوسي 169/12.

(2) انظر: الروض الأنف/ أبو القاسم السهيلي 1/81.

(3) المعارف / النخجواني / 629 بتصرف.

(4) انظر: تلقيح فهم أهل الاثر / ابن الجوزي 1/338.

(5) التيجان في ملوك حمير / الحميري 1/179 بتصرف.

وسنسلط الضوء على النقاط التالية لتبين العلاقة بين داوود وابنه سليمان عليه السلام :

1- داوود و سليمان عليهما السلام يأكلان من عمل يديهما

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80] بيّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أهمية العمل، وأن مع السلطان والجاه والهيلمان والكنوز والأموال والثراء لا بد من العمل الشريف، وتشير الآية من جهة أخرى إلى أهمية الصناعة حيث علمها لنبيه داوود عليه السلام، ليتعلمها البشر من بعده، واللبوس عند العرب السلاح كله، درعاً كان أو سيفاً أو رمحاً، والمراد في الآية الدروع خاصة، وهو بمعنى الملبوس كالركوب والحبوب، قيل أول من صنع الدروع من الرّزْدِ ، وسردها واتخذها حلقاً داوود عليه السلام، وكانت من قبل صفائح، قالوا إن الله ألان الحديد لداوود عليه السلام بأن يعمل منه بغير نار كأنه طين، والدرع يجمع بين الخفة والحصانة⁽¹⁾، ولفظة لتحصنكم، قرئت بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه، لتحصنكم " وقرئت بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس وأولى داوود أو إلى الله سبحانه وتعالى " ليحصنكم " ومعنى بأسكم أي من حريكم مع أعدائكم، أو من وقع السلاح فيكم. (2)

وامتن الله بهذه الصنعة التي علمها داوود عليه السلام فانفع بها الناس، فقد قيل كانت الدروع من قبل داوود ذات حراشف من الحديد، فكانت تثقل على الكمأة إذا لبسوها فألهم الله داوود صنع دروع الحلق الدقيقة فهي أخف محملاً وأحسن وقاية.

وقيل إن جالوت الفلسطيني خرج لمبارزة داوود لابسا درعاً حرشفياً⁽³⁾ فكانت الدروع الحرشفية مستعملة في وقت شباب داوود فاستعمل العرب دروع السرد، وكانت الدروع التبعية مشهورة عند العرب فلعل تُبَعِ اقتبسها من بني إسرائيل بعد داوود، أو لعل الدروع التبعية كانت من ذات الحراشف وكان لسليمان عليه السلام هذه الصنعة تعلمها من والده، فعندما مات سليمان بن داوود عليهما السلام ملك بعده مرحب عمّه، فسار إليه ملك مصر، فقاتله، وأصاب الأترسة الذهب التي عملها سليمان عليه السلام، وذهب بها⁽⁴⁾

(1) معاني القرآن واعرابه/ للزجاج 400/3.

(2) انظر : فتح البيان في مقاصد القرآن 357/8.

(3) العهد القديم سفر صمويل الأول الإصحاح السابع عشر.

(4) انظر : مصر والمغرب 49/1 بتصرف.

وأمر الله تعالى داوود عليه السلام بالكسب الحلال حيث قال له (أن اعمل سابغات وقدر في السرد) والسابغات هي الدروع، وأخبر النبي ﷺ (ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده)⁽¹⁾.

فداوود عليه السلام كان يأكل من كسبه في عمل الدروع رغم غناه، وكذلك جاء في الأثر أن سليمان عليه السلام كان يأكل من عمل الخوص⁽²⁾.

وهكذا عمل داوود الأب بالحدادة، بل لم يكن يأكل عليه السلام إلا من عمل يده كما أخبر المصطفى ﷺ، وكذلك الأمر لابنه سليمان عليه السلام رغم ما أوتياه من فضل عظيم.

2- علم من الله لداوود وابنه سليمان عليهما السلام وتفضيل على العباد

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَآ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: 15] الآية الكريمة تبين نعمة العلم لفضلها ويفردها الله في الآية عن باقي النعم العظام التي أعطاها داوود وسليمان عليهما السلام لعظمة نعمة العلم، ففي هذا تنبيه على أن العلم أفضل الكمالات وأعظمها، وذلك لأن الله تعالى قدم ذكره هاهنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطيور والرياح والجن. وإذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الأشياء فما ظنك بغيرها⁽³⁾، والمقصود بالعلم : كلام الطير والدواب، وعلم القضاء. وغير ذلك مما خصهما الله بعلمه، وتشير الآية الكريمة حمد النبيين الكريمين على ما خصهما الله سبحانه وتعالى به من العلم، وتفضيلهما دون سائر خلقه من بني آدم على كثير من عباده المؤمنين به في زمانهما⁽⁴⁾ والتفضيل على كثير من الأنبياء، حيث لم يعط أحدا من الأنبياء عليهم السلام ما أعطاهما.⁽⁵⁾

ومن صور العلم الذي أعطاه الله داوود عليه السلام ثلاث، سُخرت له الجبال تسير معه، وأُلبِن له الحديد، وعُلم منطق الطير، وأما سليمان عليه السلام، منطق الطير، وسُخرت له الجن وكان ذلك مما ورثه عن أبيه ولم تُسخر له الجبال، ولم يُلبن له الحديد.

(1) صحيح البخاري / كتاب البيوع / باب كسب الرجل وعمله بيده 57/3، ح 2072

(2) انظر : تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم من الحثالة / السبتي 134/1

(3) انظر : تفسير مفاتيح الغيب / الرازي 163/22

(4) انظر : جامع البيان / الطبري / 437/19 بتصرف

(5) انظر : تفسير بحر العلوم / السمرقندي 575/2

كتب عمر بن عبد العزيز⁽¹⁾: أن الله عز وجل، لم ينعم على عبد نعمة، فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه، كما كان حمد داوود عليه السلام وابنه سليمان عليه السلام، وأي نعمة أفضل مما أوتيَ داود وسليمان.⁽²⁾

ولقد أتى الله داوود وسليمان ابنه علماً من لدنه شريفاً يتعلق بذاته تعالى، ويوصفه بصفات الجلال والكمال، وتنزيهه عن كل نقص وما هو في حقه من المحال، علماً هو أشرف العلوم والمعارف، علماً جامعاً لخيري الدنيا والآخرة، ولقد آتاهما الله علماً فعملما به حتى امتلأ قلباهما يقيناً وعزماً أكيداً على فعل الطاعات، وهجر المحرمات، والشكر لله حتى قالوا: الحمد لله وحده، الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين، بهذه العلوم والمعارف المصحوبة بالعمل القلبي والبدني واللساني، وفي هذا رفع لمرتبة العلم والعلماء. إذ قد أوتيا من الملك ما لم يوت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم⁽³⁾

كما أن الحكم والعلم والفهم نعمة مشتركة بين الأب وابنه عليهما السلام وذلك في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 79]

قال مقاتل⁽⁴⁾: كان سليمان أعظم ملكا، وأقضى من داوود، وكان داود أشد تعبداً من سليمان عليهما السلام.⁽⁵⁾

أما تعبد داوود عيه السلام فقد أُعطيَ عليه السلام قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام، ودُكرَ أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر. وكان رجّاع عما يكره الله عز وجل إلى ما يرضاه أواب وهي صيغة مبالغة للتكثير من الأوبة، فهو رجّاع آيب عن الذنوب. وكان داوود عليه السلام مطيعاً لله عز وجل كثير الصلاة والصبر على طاعته⁽⁶⁾ كما أنه كان يسبح الله عز وجل فيقول تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 79].

(1) عُمر بن عبد العزیز ; ولد سنة 61 هـ وتوفي سنة 101 هـ ، هو بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم. وهو من ملوك الدولة مروانية الأموية بالشام. ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد ، الأعلام للزركلي 50/5 .

(2) انظر : تفسير ابن أبي حاتم محققاً 2854/9.

(3) انظر : التفسير الواضح / الحجازي 787/2.

(4) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، ولد سنة 150 هـ وتوفي سنة 767م أبو الحسن: من أعلام المفسرين. أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدث بها. وتوفي بالبصرة. كان متروك الحديث. من كتبه التفسير الكبير، الأعلام للزركلي 281/7.

(5) انظر : بحر العلوم / السمرقندي 575/2.

(6) انظر : جامع البيان / الطبري 167/21.

وفي هذا التسخير للجبال والطير مع كونه معجزة عظيمة، إلا أنها كرامة وعناية من الله ﷻ بداوود عليه السلام، إذ آنسه الله بتلك الأصوات في وحدته في الجبال وبعده عن أهله وبلده. وخاتمة الآية (وكنا فاعلين) تفيد أهمية الإخبار عما أوتيّه داوود عليه السلام، والمعنى وكنا قادرين على هذا الفعل، ولإزالة استبعاد تسبيح الجبال والطير معه، وفي اجتلاب فعل الكون إشارة إلى أن ذلك شأن ثابت لله من قبل، أي وكنا قادرين على ذلك. (1)

والسؤال كيف سبحت الجبال في قوله تعالى : (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ) أتراها تسبح بجوف وفم ولسان وشفيتين؟! والجواب الذي لا بد منه في جميع هذه الاستفهامات "لا"، ولكن الله القادر على كل شيء هو الذي أنطق تلك الجمادات، فجعلها تتكلم حقيقة دون آلات معهودة للتكلم، فلا حاجة في هذه المعجزة "لمخارج الحروف" فسبحان الله الذي خضع له كل شيء. (2)

ومن صور ما أوتي الأب وابنه عليهما السلام من العلم، علم القضاء والذي امتاز به سليمان عن أبيه بمنة من الله عز وجل نفهمه من قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 79]

فهناك صور من القضاء المشتركة التي قضى فيها داوود وسليمان عليهما السلام وامتاز فيها سليمان عليه السلام عن أبيه، ومع ذلك لم يجد داوود عليه السلام كبيراً أو استعلاءً من أن ينزل على حكم ابنه سليمان إحقاقاً للحق وعدلاً في القضاء.

ومن هذه الصور : أن راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم، فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم، فصار صاحب الكرم من الغد إلى داوود عليه السلام، فقضى بالأغنام لصاحب الكرم لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمر الأغنام تفاوت، فمروا بسليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة فقال: ما قضى المَلِكُ في أمركم؟ فقصوا عليه القصة فقال سليمان: غير هذا أرفق بالفريقين، فعادوا إلى داود فأخبروه بذلك. فدعى داوود سليمان عليهما السلام وقال له: بحق النبوة والأبوة إلا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين، فقال سليمان: تُسلم الأغنام إلى صاحب الكرم حتى يرتفق برسلها ونسلها وصوفها ومنافعها، ويعمل الراعي في إصلاح الكرم إلى أن يعود كهيبته، ثم يرد الأغنام إلى صاحبها فقال داوود عليه السلام : القضاء ما قضيت. وحكم بذلك وكان الحكم بما قضى به سليمان، ولم يعنف الله داود في حكمه وهذا يدل على أن لكل مجتهد نصيب (3).

(1) التحرير والتنوير 17/ ابن عاشور /120 بتصرف.

(2) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية/ محمد جامي /1/ 276 بتصرف.

(3) تفسير الكشف والبيان/ الثعلبي /6/ 285 بتصرف .

ولا يخفى ما في قصة سليمان وداود عليهما السلام في المرأتين اللتين خرجتا إلى البر ومعهما ابنان لهما، فأكل الذئب ابن الكبيرة، فجاءتا إلى داود عليه السلام. تحتكمان إليه، فحكم بالابن للكبيرة، لعله ظن عليه السلام أنها أقرب إلى الصدق، أو قال: هذه صغيرة يمكن أن تلد فيما بعد، وهذه كبيرة قد تتوقف عن الولادة وهي أحق بالشفقة، ثم خرجتا من عنده وصادفهما سليمان عليه السلام وسألها فقالتا: كذا وكذا، فقال: لا، الحكم أن آتي بالسكين فأشقه نصفين فتأخذ الكبيرة نصفه، والصغيرة نصفه، فقالت الكبيرة: لا مانع، وأما الصغيرة فقالت له: يا رسول الله لا تشقه هو لها، فالفراسة تقضي أنه للصغيرة، والدليل الحنان والشفقة فحكم به للصغيرة⁽¹⁾.

ومن هذه القصة يتبين أهمية الفراسة والذكاء لإحقاق العدل في القضاء.

وسؤالهم متفرقين في قصة سليمان وداود في المرأة التي شهد عليها أربعة، أنها زنت بكلبها فرجمها داود عليه السلام فجاء سليمان عليه السلام بالصبيان، وجعل منهم شهوداً، وفرقهم وسألهم متفرقين عن لون الكلب الذي زنت به، فأخبر كل واحد منهم بلون غير اللون الذي أخبر به الآخر، فأرسل داود للشهود، وفرقهم وسألهم متفرقين عن لون الكلب الذي زنت به، فاختلّفوا في لونه؛ فتبين افتراءهم وبهتانهم على المرأة وأمر بهم داود عليه السلام فقتلوا⁽²⁾.

أما بالنسبة لقضاء داود في الخصمين وكانا من الملائكة ليمتحننا داود عليه السلام يقول المولى عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِفَةِ لَيُسَيِّئُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 20-24]

قد ذكر المفسرون هنا في أسباب نزول هذه الآيات قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات لا تليق بنسب الله داود عليه السلام، ولم يثبت فيها عن المعصوم محمد عليه السلام حديث يجب اتباعه؛ فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه الآيات، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً⁽³⁾.

(1) الشيخ الممتع على زاد المستنقع / المقدسي 237/15.

(2) البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / الشنقيطي 379/5.

(3) انظر : مختصر تفسير ابن كثير 1/200.

ففي تفسير أبي السعود عن أصل هذه القصة التي بسببها الآيات : أن داوودَ عليه السلام رأى امرأة رجلٍ يقال له أورياً، فمال قلبه إليها فسأله أن يطلقها، فاستحي أن يردّه ففعل فتزوَّجها، وهي أم سليمان عليه السلام وكان ذلك جائزاً في شريعته معتاداً فيما بين أمته غير مخلّ بالمرءة، حيثُ كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزلَ له عن امرأته فيتزوَّجها إذا أعجبتَه، وقد كان الأنصارُ في صدر الإسلام يُواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكيرٍ خلا، أما داوود عليه السلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نُبّه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحادُ أمته، ويسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزلَ عنها فيتزوَّجها مع كثرة نسائه، فقد كان لداوود عليه السلام مائة امرأة.⁽¹⁾ بل كان يجبُ عليه أن يغالبَ هواه ويقهر نفسه ويصبرَ على ما أمثن به.

وقيل لم يكن أورياً تزوّجها بل كان خطبها ثم خطبها داوودُ عليه السلام فأثره عليه السلام أهلها فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام أن خطب على خطبة أخيه المسلم هذا وأما ما يُذكر مما لا يليق بعصمة الأنبياء فهي من الإسرائيليات⁽²⁾.

ويقول الله تعالى في تلكم القصة مهما كانت وعلمها يبقى عند الله: (فاستغفر ربه وخر راکعاً وأناب) أي رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه، قال المفسرون: سجد داوود أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجداً إلى تمام أربعين لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه عز وجل ويسأله التوبة ثم أنزل الله له التوبة والمغفرة، وقد اختلف المفسرون في ذنب داوود الذي استغفر له وتاب عنه على أقوال.⁽³⁾

وقد أخبر المولى عز وجل عن حسن أوبته وتوبته إلى الله ويكائه المستمر حتى قال الله تعالى لِمَ تبكى يا داوود، وقد غفرت لك وأرضيت خصمك وقبلت توبتك؟ فقال: إلهي، الوقت الذي كان بي رده إلى فقال: هيهات يا داوود، ذاك ود قد مضى والله أعلم⁽⁴⁾

ومع كل هذا العلم والنعم إلا أن الأب الصالح وابنه الصالح لم يفتأ أبداً عن حمد الله على نعمه، فنرجو من الذين أنعم الله عليهم بالنعم مهما بلغت أن تكون ألسنتهم دائماً تحمد الله، وليحرص الآباء على الحمد أمام الأبناء ليتيقنوا الأبناء عنهم.

(1) انظر : تفسير القرآن العظيم/ابن كثير 182/1.

(2) انظر : إرشاد العقل السليم/أبو السعود 222/1.

(3) انظر : فتح البيان في مقاصد القرآن/31/12.

(4) انظر : لطائف الإشارات/القشيري 321/1.

3- ميراث داوود لابنه سليمان عليهما السلام لهو الفضل المبين

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَطِقَ

الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿ [النمل: 16]

قال النبي ﷺ: (إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة⁽¹⁾) فالأنبياء عليهم السلام لا يورثون دراهم ولا دنانير" لم يحدث ولن يحدث في تاريخ البشرية أن يورث أب ابنه ميراثاً مثلما ورث داوود عليه السلام ابنه سليمان عليه السلام، فالورث والإرث والتراث والميراث ما ورث.

وقيل الورث والميراث في المال، والإرث في الحسب⁽²⁾ ولنتعرف على حجم هذا الميراث الضخم لسليمان عليه السلام من أبيه، والذي يدعى الفضل المبين لابد لنا أن نعرض هذا الميراث بالتفصيل.

بداية الرواة من حملة الأخبار وجميع التواريخ القديمة كلها وكواف بني إسرائيل ينقلون بلا خلاف نقلاً يوجب العلم أن داوود عليه السلام كان له بنون غير سليمان عليه السلام فصح أنه ورث النبوة وبرهان ذلك أنهم كلهم مجمعون على أنه عليه السلام وليّ مكان أبيه عليهما السلام وليس له إلا اثنتي عشرة سنة ولدواود أربعة وعشرون ابناً كبيراً وصغاراً⁽³⁾ ورواية أخرى أنه كان لداوود تسعة عشر ولداً، فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه.⁽⁴⁾

ومن الفضل المبين على داوود عليه السلام تسبيح الجبال معه كان يتلو الزبور الذي أنزله الله عليه، وإصغاء الطير أثناء تلاوته إليه، فالجبال تردد صدى صوته القوي العظيم، فيشترك في تمجيد الله في آن واحد الإنسان والحيوان والجماد، وتبرز من خلال تمجيد الله وتوحيده وحدة الأكوان، ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿ [الإسراء 44]، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى وهو ينادي

الجبال لتسبح الله مع نبيه داوود: ﴿...يَنْجِبَالٍ أَوْيٍ مَعَهُ وَالطَّيْرِ فِي .. ﴿ [سبأ: 10] ويؤكد ذلك

أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿ [ص: 18]

(1) مسند الإمام أحمد/أحمد ابن حنبل 411/9 إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(2) انظر: المحكم والمحيط الأعظم/ عبد الحكيم هنداي 210/10.

(3) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل/ القرطبي 76./4

(4) انظر: تفسير القرآن العزيز /لابن أبي زمين 296/3.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ في الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال: (لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود)⁽¹⁾ فأجابه أبو موسى قائلًا: (لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً) أي : لجعلته لك أنواعاً حسناً.⁽²⁾

فهذا الفضل المبين من تأييد وتسخير، ونفوذ روحي لا يقف عند حد، إذ يتجاوز دائرة الإنسان، ويمتد إلى الجماد والحيوان.

وعن ابن عباس ؓ : (أن أول من اتخذ الخيل وركبها إسماعيل ؑ). وقالوا: كان داود ؑ يحبها حباً شديداً، وجمع ألف فرس؛ فأورثها سليمان ؑ، فقال سليمان ؑ: (ما أورثني داود ما لا أحب إلي من هذه الخيل! وضمها).⁽³⁾

وورث سليمان داود ؑ في العلم والحكم لا في المال لأن الأنبياء لا تورث فيه. وكان ميراث سليمان من أبيه ميراث لم يرثه أحد من العالمين، فلقد أتى الله سبحانه وتعالى داود وابنه سليمان عليهما السلام علم القضاء، والعلم بكلام الطير والدواب، وأعطى الله سليمان ما أعطي داود من الملك، فقال الله تعالى عن نعم داود ؑ: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا

لِخَطَابٍ ﴾ [ص: 20] فورث النبوة والحكم، والملك وفصل الخطاب عن أبيه ؑ.

4- سليمان ؑ أديب مع أبيه في طلبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده وليس من قبله

رغم ما ورثه سليمان عن داود عليهما السلام إلا أنه سأل الله عز وجل أن يخصه بعبء لا يصل إليه أحد⁽⁴⁾، فيقول الله تعالى على لسانه ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: 35] يعني: أعطني ملكاً لا يكون لأحد من البشر من بعدي مثله⁽⁵⁾، والمتأمل في الكلمات يلاحظ مدى تأدب الابن مع أبيه داود ؑ، فلم يقل ملكاً لا ينبغي لأحد من العالمين تأدباً مع أبيه، وعدم تعالي على ملك أبيه، والذي أصبح في حوزته وقد تقبل الله سبحانه وتعالى دعاءه منه، ووهبه ملكاً لم يهبه لأحد قبله ولا بعده من العالمين، لأنه ؑ عند ربه نعم العبد إنه أواب، كما يقول الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ ﴾

(1) صحيح البخاري/ باب حسن الصوت 195/6 .

(2) انظر : أيسر التفاسير/ للجزائري 887/2.

(3) انظر : تشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب 802/1.

(4) انظر : آكام المرجان في أحكام الجان / الشبلي 32/1.

(5) انظر : تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين / علي الصلابي 150/1.

نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ [ص: 3] قد زيد لسليمان عليه السلام عن أبيه تسخير الريح وتسخير الشياطين. (1) وأعطاه الله تعالى نعمًا وهبات خاصة به لم يُعطاها أحدًا بعده، فقد قال رسول الله ﷺ: (إن عفريتًا من الجن جعل يفتك عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة، وإن الله أمكنني منه فذعته، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون، ثم تذكرت قول أخي سليمان: " رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي " فرده الله خاسئاً (2)).

وفي رواية أنه خنقه حتى وجد بردَ لسانه على يده، ثم قال ﷺ لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس". (3)

كذلك استجاب الله له الدعاء، فبعد انتهاء سليمان عليه السلام من بناء بيت المقدس سأل الله عز وجل ثلاث خصال: حكماً يوافق حكمه، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، ولا يأتي أحد هذا البيت "المسجد الأقصى" لا ينتهين الصلاة فيه إلا تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه (4) فقال النبي ﷺ: أما الثنتان فقد أُعطيتهما، وأما الثالثة فأرجو أن يكون قد أُعطاها (5).

ومن علمه بلغة الطير كما أخبر الله في كتابه العزيز ﴿ وَقَالَ يَتَّيِّهَا النَّاسُ عُلمَنَا مَنْطِقَ

الطَّيْرِ ﴾ [النمل: 16] فمن علمه عليه السلام بلغة الطير أنه كان جالساً في أصحابه إذ مر بهم طير يصوت، فقال لجلسائه: أتدرون ماذا يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: ليت الخلق لم يُخلقوا، فإذا خُلقوا علموا لماذا خُلقوا؟؟ ثم صاح عنده ديك فقال: هل تدرون ماذا يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول اذكروا الله يا غافلون. (6)

ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم: قال يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء، وصاح طيطوى فقال يقول: كل حى ميت، وكل جديد بال، وصاح خطاف فقال يقول: قدموا خيراً تجدوه، وصاحت رخمة، فقال تقول: سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمرى، فأخبر أنه

(1) انظر: تفسير البغوي/ البغوي 492/3.

(2) صحيح مسلم ج1 باب جواز لعن الشيطان في الصلاة ص 384.

(3) صحيح ابن حبان 115/6 قال الألباني عنه حسن صحيح .

(4) مسند الإمام أحمد 220/11 إسناده صحيح، رجاله ثقات هم رجال الشيخين ثم لم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرطهما، ولا علة له.

(5) انظر: تاريخ بيت المقدس/ الجوزي 40/1.

(6) انظر: تفسير بحر العلوم /السمرقندي 575/2.

يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدأ يقول: كل شيء هالك إلا الله، والقطة تقول: من سكت سلم، والبيغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت، والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس، وصاح طاووس، فقال يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين.⁽¹⁾

كما ويقول سليمان تحدثاً بنعمة الله (وَأوتينا من كل شيء) هذا يفيد كثرة نعم الله عليهما إن هذا لهو الفضل المبين، وفيه تقرير للحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى.⁽²⁾

ومن مظاهر الملك الذي طلبه سليمان ﷺ موكب سلطانه نه الذي أخبر عنه الله

سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَحِشْرَ لَسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: 17] أي جمعت له جيوشه وعساكره وأحضرت له في مسيرة كبيرة فيها طوائف الجن والإنس والطير، يتقدمهم سليمان في أبهة وعظمة كبيرة ويمنعون عن التقدم بين يديه، قال ابن عباس: جعل كل صنف من يرُدُّ أولاهها على أخرها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك.⁽³⁾

وفي هذا الموكب العظيم المزدحم بالإنس والجن والطير والوحوش وحين وصلوا إلى الشام فإذا بنملة تحذر النمل من هذا الموكب الجيَّاش كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وَحِشْرَ لَسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ

صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿ [النمل: 17-19]

حذرت النملة النمل لما رأت سليمان وجنده متجهين إلى الوادي، ففرت عنهم مخافة التحطيم، فصاحت صيحة نبهت بها ما بحضرتها من النمل فتبعتها، فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ولذلك أجروا مجراهم، مع أنه لا يمتنع أن خلق الله تعالى فيها العقل والنطق.⁽⁴⁾

أمام هذه النعمة العظيمة والهبة الخارقة له من الله، ما كان لسليمان ﷺ إلا أن يتبسم على ما سمعه ويشكر ربه على هذه النعمة العظيمة، ثم يظهر بره بوالديه وهو منغمس بهذا

(1) انظر : تفسير الخواطر / الشعراوي 3/354.

(2) انظر :التفسير الواضح/ الحجازي 2/787.

(3) انظر :صفوة التفاسير/ الصابوني 2/371.

(4) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل/ البيضاوي 4/157.

النعيم الذي لم يماثله نعيم، ويتذكر والديه، أمه وأبيه داوود عليه السلام فيشكر عنه نعمته عليه والتي آلت إليه، ثم يتذلل لله أن يرحمه ويدخله الجنة مع عباده الصالحين.

ومما آتاه إياه الله ولم يؤته أحد من العالمين، الريح التي كانت تجري بأمره كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَسَلِمْنَ الرَّيْحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء: 81] قيل: إن سليمان عليه السلام كان يغدوا من دمشق فيقبل باصطخر وبينهما مسيرة شهر، ثم يروح من اصطخر ويبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر، ومنها أنه كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند، ويتغدى بسمرقند ويتعشى بالري. (1)

(إنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) يعني الزيادة الظاهرة على ما أعطي غيرنا، وروي أن سليمان أُعطيَ مشارق الأرض ومغاربها فملك ذلك أربعين سنة، فملك جميع الدنيا من الجن والإنس والشياطين والطيور، والدواب والسباع وأُعطيَ مع هذا منطق الطير ومنطق كل شيء، والريح تجري بأمره، وفي زمنه عليه السلام صنعت الصنائع العجيبة. (2)

فنعم الأب والابن داوود وسليمان عليهما السلام حق لهما أن تكون سجدة {ص} لذكرهما والإقتداء بهما فقد روى البخاري عن العوام رضي الله عنه قال: سألت مجاهداً عن سجدة {ص}، فقال سألت ابن عباس رضي الله عنه عن سجدة {ص}، فقال: أو تقرأ {ومن ذريته داوود وسليمان} إلى قوله (أولئك هدى الله فيبهداهم اقتده) وكان داوود عليه السلام ممن أمر نبيكم عليه الصلاة والسلام بالإقتداء بهم (3)، فاجعلنا ربنا ممن يقتدي بالصالحين آباء وأبناء.

(1) التدوين من أخبار قزوين 58/1

(2) تفسير الخازن 430/3

(3) أيسر التفاسير للجزائري 88/2

المبحث الثاني

علاقة الأب الصالح بابنه السيء

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علاقة نوح عليه السلام بابنه

المطلب الثاني: علاقة الوالدين الصالحين بصاحب المقولة القرآنية " أف لكما "

المطلب الأول

علاقة نوح عليه السلام بابنه

نوح عليه السلام هو نوح بن لمك بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام، وقيل هو نوح بن ملكان بن مثوب بن إدريس عليه السلام، وُلد نوح عليه السلام بعد وفاة آدم بثمانمائة وست وعشرين سنة، أي حوالي عشرة قرون، فلما بلغ قال له أبوه: قد علمت أنه لم يبق في هذا الموضع غيرنا فلا تستوحش ولا تتبع الأمة الخاطئة، فما زال على حاله حتى بعثه الله تعالى بعد أن تكامل له خمسون سنة، وقيل: ثلاثمائة وخمسون، وقيل: كان ابن أربعمائة وثمانين سنة، فُبعث وليس في الزمان من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وكان قومه يعبدون الأوثان، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، فما كان منهم إلا أن يضرّبونه حتى يغشى عليه. (1)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولم يكن أحد في زمن نوح عليه السلام ينهى عن منكر، فبعث الله نوحاً إلى قومه وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة، ودعاهم مائة وعشرون سنة، وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة، والله أعلم. (2)

قد اختلف العلماء في ديانة القوم الذين أرسل إليهم نوح، فمنهم من قال إنهم كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله تعالى من ركوب الفواحش، والكفر، وشرب الخمر، والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله. ومنهم من قال: إنهم كانوا أهل طاعة، فاتبعوا مذهب الصابئة فأرسل الله إليهم نوحاً (3) وأما كتاب الله فينطق بأنهم أهل أوثان، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا نَدْرُنَّ ءِلهَتَكَ وَلَا

نَدْرُنَّ وَذَا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: 23]

قَالَ مَقَاتِل: بَيْنَ نُوْحٍ عليه السلام وَبَيْنَ آدَمَ عليه السلام أَلْفَ سَنَةٍ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ إِدْرِيسَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِائَةٌ سَنَةً، وَهُوَ أَوَّلُ نَبِيِّ بَعْدَ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (4). وروي عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على ملة الحق، وأن الكفر إنما حدث في القرن الذي فيه نوح وأنه أول نبي بُعث إلى الكفار. (5)

(1) انظر: تاريخ الطبري/ابن جرير الطبري 179/1.

(2) انظر: ذيل مرآة الزمان/قطب الدين التيني 236/1.

(3) انظر: الكامل في التاريخ/أبي الحسن علي الجزري 62/1.

(4) انظر: عمدة القارئ في شرح البخاري/العيني 217/15.

(5) انظر: المسالك والممالك للبكري/أبي عبيد عبد الله الأندلسي 75/1.

وهذا يرد قول من زعم من أهل التاريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار والله أعلم.⁽¹⁾

كانت بداية عبادة الأصنام أنه كان من قوم نوح رجال صالحون، وبعد موتهم قال أتباعهم بوحى من الشيطان لو صورناهم كان أشوق لنا إلى عبادة الله، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون، أخبرهم إبليس أنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم، فأشهر أصنامهم (ود وسواع ويغوث ونسرا) يؤكد ذلك القرآن بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ الْهَتَكَ وَلَا نَذَرْنَا وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23] قال ابن عباس: كان هؤلاء قوما صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الأمد عبدهم⁽²⁾ فدعاهم نوح إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأوثان، وبذل كل الأسباب لإقناعهم، فلم يجد منهم إلا الصد والكفران، ولم يؤمن معه إلا القليل؛ بالرغم من أنه لبث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم قبل الطوفان⁽³⁾

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 59].

قد كان قوم نوح عليهم السلام كما جاء في أخبار التاريخ يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لي ولقومي فإنهم لا يعلمون! حتى إذا تمادوا في معصيتهم وعظمت منهم الخطيئة، وتناول عليه وعليهم الشأن اشتد عليه البلاء، وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي كان قبله حتى إن كان الآخر ليقول: قد كان هذا مع آبائنا، وأجدادنا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً، وكان يُضرب ويُلف، ويُلقى في بيته، يرون أنه قد مات، فإذا أفاق اغتسل وخرج إليهم يدعوهم إلى الله، فلما طال ذلك عليه، ورأى الأولاد شراً من الآباء قال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن تك لك فيهم حاجة فاهدهم، وإن يك غير ذلك فصيرني إلى أن تحكم فيهم.⁽⁴⁾ ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: 27] وولد لنوح عليه السلام ثلاثة أبناء : سام وحام ويافث، فولد لكل واحد من الثلاثة ثلاثة، فسام أبو العرب وفارس والروم، ويافث أبو الصقالبة والترك وبأجوج ومأجوج، وحام

(1) انظر : قصص الأنبياء/أبي الفداء إسماعيل الدمشقي 74/1

(2) انظر : السيرة النبوية/ابن كثير 68/1

(3) انظر : موجز التاريخ الإسلامي/أحمد معمور العسيري 15/1

(4) انظر : الكامل في التاريخ/ابن الأثير 63/1

أبو السودان والبربر والقيط.⁽¹⁾ ولما كثر أولاد نوح اقتسموا الأرض، فنزل بنو سام سرّة الأرض، فجعل فيهم النبوة والكتاب والجمال، ونزل بنو حام مجرى الجنوب والديور، ونزل بنو يافث مجرى الشمال والصباء، فاشتد بردهم.⁽²⁾ وهذه هي أصل التوزيعة العالمية إلى اليوم للبشر والمنتشرة على الأرض.

وقد أورد صاحب البداية والنهاية رواية وصية نوح عليه السلام التي يوصي بها ابنه عند موته وهي: "إني آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضع في كفة وإله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله وأن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمّة فضمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإن بها صلوات كل شيء وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك والكبر" ⁽³⁾

وجاء في الأثر " أن نوحاً عليه السلام قال لابنه سام : "يا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الشرك بالله؛ فإنه من يأت الله مشركاً فلا حجة له، ويا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الكبر؛ فإن الكبرياء رداء الله عز وجل، فمن ينازع الله رداءه يغضب عليه ويا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من القنط؛ فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا ضال"⁽⁴⁾.

وقبل أن نبدأ في عرض علاقته بابنه وتقانيه في هدايته لابد أن نتحدث عن مقامه الرفيع العالي عند ربه وعند الأنبياء فهو أبو البشرية الثاني وما من نبي إلا من ذريته.

مقام أبي البشرية الثاني نوح عليه السلام وذريته من بعده :

نوح عليه السلام أبو البشرية الثاني بعد آدم عليه السلام، جعل الله سبحانه وتعالى ذريته ممن ركبوا معه في السفينة هم الباقيين قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: 79] فهم الذين بقوا في الأرض بعد هلاك قومه، وذلك أن الناس كلهم من ذرية نوح بعد الغرق، وأن جميع الأنبياء والرسل هم من ذرية نوح عليه السلام.

يعتبر نبي الله نوح عليه السلام نموذجاً عالياً في الصبر على دعوة الكفار، فقد كانوا يسخرون منه ويشتمونه، ويصفونه بالكذب والجنون والسفه، ويؤذونه ويضربونه حتى يشرف على الموت، ومع ذلك كان يدعو الله تعالى لهم قائلاً: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" فلهذا جعل

(1) انظر : فتوح مصر والمغرب/ عبد الرحمن المصري 28/1

(2) انظر : التنصرة/ ابن الجوزي 77/1.

(3) انظر : البداية والنهاية / ابن كثير 13/1.

(4) انظر : الزهد/ احمد ابن حنبل 46/1.

الله له مقاماً عالياً، فجميع الخلق من ذرية سام وحام ويافت⁽¹⁾، ولما بعث الله نوحاً عليه السلام، دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحديته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم كما أوردنا من ذريته، كما أخبر ذلك المولى عز وجل في كتابه العزيز: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا **النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ الْغَدِيدَ** ..﴾ [الحديد: 26] أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته، فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء هو من ذرية نوح، وكل نبي من بعد إبراهيم هو من ذرية إبراهيم ومن ذرية نوح عليه السلام ضمناً، وهذا هو معنى الآية الكريمة السابقة . ولنوح عليه السلام مقام عال عند الله عز وجل لورعه، فكان عليه السلام كثير البكاء والتضرع إلى الله وسمي نوحاً لذلك وقيل أن اسمه عبد الغفار ونوح صفة له من النوح فعُرف بها ⁽²⁾ والله أعلم.

وقد وصفه ربنا سبحانه وتعالى بأنه عبدٌ شكورٌ، حيث قال في كتابه العزيز :

﴿ **إِنَّكُمْ كَانْتُمْ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ [الإسراء: 3] فكان نوحٌ عليه السلام إذا أكل قال: " الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله؛ فسماه الله عبداً شكوراً " ⁽³⁾

قال تعالى في معرض آياته في كتابه العزيز عن نوح عليه السلام يخبر أنه نادى ربه بعد

دعوة قومه مئات السنين صابراً على آذاهم فقال: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۗ ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ۗ ﴿٦﴾** [نوح: 5-6]. ثم عندما استنفذ جميع الوسائل في الدعوة وتتابعت أجيالهم ترث

الكفر، أبناءهم عن آبائهم، طلب من ربه ﴿ **رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۗ ﴿٢٦﴾** نوح: ٢٦ انتقاماً منهم لإصرارهم على الإشراك بالله، فكان موقفه كما أخبر المولى عز وجل: ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ ۗ**

أَنِّي مَعْلُوبٌ فَاَنْصِرْ ۗ ﴿١٠﴾ [القمر: 10] ولمقامه عند الله عز وجل كانت نعم الإجابة من ربنا سبحانه

وتعالى كما ذكر القرآن في معرض آياته البيّنات: ﴿ **وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُوْنَ ﴿٧٥﴾**

وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا بَاقِيْنَ ﴿٧٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾

سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: 75-80] تتضمن لفظة فنعم

المجيبون، نجاته هو وأهله من الكرب العظيم، كرب الطوفان الذي لم ينجُ منه إلا من أراد له الله

(1) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي القبرواني 6116/9.

(2) انظر : شرح الشفا/علي القاري 303/2.

(3) انظر : الزهد/ أحمد ابن حنبل 45/1.

النجاة، وتتضمن قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عُمَاراً لهذه الأرض وخلفاء، وأن يبقى ذكره في الأجيال الآتية إلى آخر الزمان، وإعلان مدوي في قرآن يُتلى إلى أن يشاء الله له أن يُتلى، سلام الله على نوح جزاءً إحسانه، وأي جزاء بعد سلام الله والذكر الباقي مدى الحياة! (1) فأَيُّ مقام عال رفيع لك يا نوح فعليك منا السلام.

ولما قصت قصة نوح عليه السلام على نبينا ﷺ قيل له: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49] والمعنى: اصبر كما صبر نوح فإن الظفر والتمكين لمن اتقى، وسيحصل لك كما حصل لنوح عليه السلام والمؤمنين (2)، فضرب الله به نموذجاً للصبر والتحمل في سبيل دعوة الحق لسيد البشرية جمعاء، محمد بن عبد الله، عليه الصلاة وأفضل السلام.

وبالرغم من هذا المقام الرفيع عند الله، وبالذعوة لم يؤمن ابن نوح وكان من المغرقين الكافرين لأن الهداية العامة بيد الله سبحانه وتعالى وليس تقصيراً منه ﷺ في دعوته. وسنسلط الضوء على هذه العلاقة بين الأب الصالح وابنه الكافر من خلال هذه النقاط التالية :

1- نوح عليه السلام يدعو ابنه حتى الرمق الأخير :

لا شك أن أمر الهداية ليس بيد البشر، فهي بيد الله وحده عز وجل هو الذي يقدرها للبشر، ولكن لا بد لنا أن نعمل بالعزيمة والجد غير المنقطع في الدعوة على أمل الهدى إلى أن ينفذ أمر الله وإرادته، ولنا في نوح عليه السلام الأسوة الحسنة والنموذج الطيب في ذلك، فقد أخبره المولى عز وجل قبل الطوفان أنه لن يؤمن معك إلا من آمن فيقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: 36] ومع هذا دعا ابنه حتى النفس الأخير قبل هلاك الكافرين وتطهير الأرض من دنس الكفر والرجس، وقيل: إن اسم ابنه كنعان. وقيل: إن اسمه " يام". (3)

فأخبرنا المولى عز وجل في مشهد تفصيلي عند بدء أحداث الطوفان: ﴿وَهُوَ يَجْرِي

بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ

الْكَافِرِينَ﴾ [هود: 42] تتجلى هنا عاطفة الأب في اللحظات الأخيرة قبل الحسم الرباني وإنزال

(1) انظر : في ظلال القرآن/ سيد قطب 5/2991.

(2) انظر : التبصرة/ ابن الجوزي 7/1.

(3) انظر : تفسير السمعاني/ أبو المظفر المروزي السمعاني 2/431.

العقاب العادل على الكافرين، مع هذا المظهر الغير مألوف لأمواج كالجبال في صحراء ليس فيها بحار ولا أنهار، يراه يتحرك بين الماء فيقول له بلغة الأب الحاني: يا بني بكل ما يحمله هذا اللفظ من معاني الحب واحساسه بصغره، وابتذال النجاة والتوسل إليه في إتباع الحق، لينجو ويكون مع الفائزين، وكان ابنه قد اعتزل عنه في مكان نحا نفسه عنه وعن المؤمنين وانصرف عن دينه⁽¹⁾، فصاح عليه يا بُنَيَّ بشدة شفقتة عليه ورحمته به، اَرْكَبْ مَعَنَا لَتَجُو مِنَ الْغُرُقِ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ الْمَغْرُقِينَ⁽²⁾.

حين رأى نوح عليه السلام ولده في جهة من خارج السفينة، لم ير امرأته فيئس من سلامتها وظن أنها هي المستثناة وحدها وأنها هي التي سبق عليها القول من الله تعالى بختم الكفر والعذاب وحدها كما كانت أوامر الله له كما تفيد الآية الكريمة: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: 40] عندها طمع نوح عليه السلام في إيمان ولده الذي كان عهد منه الإيمان قبل ذلك، وكان ولده يُظهر له الإيمان ويبيطن الكفر، والأنبياء عليهم السلام، إنما عنوا بالظواهر والله يتولى السرائر، فلما لم ير امرأته يئس من سلامتها ولما رأى ولده بمقربة من السفينة حيث يسمع النداء طمع في سلامته وحسن الظن أنه مؤمن، فقال يا بني اركب معنا في السفينة ولا تبق في الأرض فتهلك مع الكفرة في قوله له (ولا تكن مع الكافرين) دليل على أنه كان يعتقد إيمانه⁽³⁾.

ثم حين رد عليه ابنه بجواب الكفر والجهل فقال تعالى: ﴿ سَتَأْوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي

مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ

الْمَغْرُقِينَ ﴾ [هود: 43] أجاب الابن الكافر بإجابة الجهل، فحاول الأب الحاني والنبي الهادي إفهامه هول الموقف، ومدى قدرة الله عز وجل، فقال له عليه السلام يا بني لا عاصم ولا منجى اليوم لأحد من أمر الله المبرم وحكمه المحكم إلا من رجع الحق إياه وأنجاه، فلا منجى في الوجود غيره⁽⁴⁾، والملاحظ في الآية الكريمة أنه عليه السلام لم يقل عن الناجي من الغرق إلا من ركب السفينة، بل قال "إلا من رحم"، فمن رحمه الله سلم من الطوفان والغرق بإيمانه، فاحتمل القول جواز سلامة المؤمن في السفينة وغيرها إن أراد الله ذلك⁽⁵⁾.

(1) انظر : تفسير الكشاف/جار الله الزمخشري 396/2.

(2) انظر : الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية/نعمة الله النخجواني 354/1.

(3) انظر : تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة أغبياء/أبو الحسن الأموي (ابن خمير) 78/1.

(4) انظر : الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية/نعمة الله النخجواني 354/1.

(5) انظر : تنزيه الانبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء/أبو الحسن الأموي (ابن خمير) 80/1.

وقد ذكر المولى عز وجل في قرآنه العزيز دعاء نوح عليه السلام لوالديه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴾ [نوح: 28] فدعائه لوالديه يبين معرفته بما لهما من حقوق عنده، وفي المقابل لا بد أنه يعرف عليه السلام ما عليه من واجبات اتجاه أولاده، وخاصة في هدايتهم إلى طريق الحق، فلذلك كانت دعوته لابنه لآخر لحظات قبل الطوفان.

2- عناد الابن وإصراره على عدم اتباع أبيه عليه السلام :

استنفذ نوح عليه السلام وسائل الدعوة مع قومه قروناً عديدة، ومن باب المسؤولية المباشرة عن ابنه، لا بد أنه دعاه عليه السلام أكثر مما دعا قومه، إلا أن إرادة الله عز وجل لم تشأ بهدايته، فحين بدأ نزول العقاب، ودعاه أبوه عليه السلام الدعوة الأخيرة ما كان جوابه إلا الإعراض والعناد كما أخبر عن موقفه هذا، القرآن الكريم فيقول الله تعالى: ﴿ قَالَ سَوَاءٌ إِلَيَّ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ [هود: 43] فكيف يصح أن أباه قال له بصريح اللفظ أن عدم ركوبه في السفينة يجعله مع الكافرين ويرفض الركوب ويأبى وفي ذلك أيضاً عقوق لأبيه، بل كيف يظن أن الجبال تعصمه من الغرق وليس السفينة فإن في ذلك تسفيه حلم أبيه، ودليل على إثبات كفره إذ لو صدق أباه في أن النجاة في السفينة والهلاك في غيرها لم يقل ذلك.

وقيل إن قوله (سَوَاءٌ إِلَيَّ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ) حسن به الظن، بأنه كان يعتقد أن ما أخبر به أبوه من هلاك الكفرة صحيح، وأن المؤمن يسلم بإيمانه فظن هو أنه يسلم في السفينة وغيرها فقال له أبوه (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) وحينئذ قد حال بين نوح وابنه كنعان المَوْجُ العظيم الهائل، فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ وصار ابنه من زمرة الغرقى الهالكين.⁽¹⁾

أثناء الحوار الذي يحاول فيه نوح عليه السلام هداية ابنه، وما يزال نوح عليه السلام يظن إيمان ابنه كما يتمني، فظن عليه السلام أنه كاد أن يدخل معه السفينة ولكن حال بينهما الموح، كما أخبر المولى في قوله (وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ) فلم يدر ما صنع الله به، وبقي يظن إيمانه وهذا ما جعله يسأل الله سبحانه وتعالى عن ابنه الذي غرق .

(1) انظر : الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية/نعمة الله النخجواني 354/1.

فماذا يبدو من فرق بين هذا الغلام الذي قتله العبد الصالح في قصة موسى والخضر، وبين ابن نوح الذي أغرقه الله؟ إنه القدر الذي أجرى حكمه على هذين الابنين، ولم ينكشف أمر القدر لنوح إلا بعد أن أنبأه الله في قوله تعالى: (1) **﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾**

3- علاقة التبني عند الله بالإيمان وليس بالأنساب :

يراجع الأب الحنون في أمر ابنه، وأنه منه وأن الله وعده بنجاة أهله وأن ابنه من أهله كما بين ذلك القرآن الكريم، فيقول الله تعالى: **﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾** (2) **﴿قَالَ يَنْتَهِ عَنْهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾** [هود: 45-46]

يقول نوح عليه السلام لربه عز وجل: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)، من أهله في النسب ، وفيما ظنه من إيمانه، ويعرف أن وعد الله حق وقد وعده سلامة أهله.

ثم بأدب يُرجع الحكم لله فيقول لربه (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) أي أنت أعلم العالمين بحاله ومعنقه ، وأنت أفهر القاهرين الذي لا راد لأمرك ولا معقب لحكمك.

أراد نوح عليه السلام من سؤاله ربه أن يعلم عاقبة أمر ولده، فكانت الإجابة على السؤال **﴿قَالَ يَنْتَهِ عَنْهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾** ليس من أهلك في الدين لا في النسب ثم يبين له الله عز وجل الوشيجة الحقيقية في وجوب التبني فيقول عز من قائل: (فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) فلقد سماه باسم صفته الغالبة عليه وهذا دليل أنه كان معتاد على فعل الطوالح.

وبذلك أعلمه الله تعالى بحاله وماله، ثم أدبه تعالى ووعظه وعلمه فقال له: **﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾**، نهاه ربه أن يسأله تحصيل علم ما لم يكلف بعلمه ، إذ لا يجب على المكلف أن يسأل عن علم ما لم يكلف العلم به. (2)

ونجد عذراً لأبينا نوح عليه السلام لأن سؤاله كان بمقتضى اللفظ الظاهر من قوله تعالى "وَأَهْلِكَ" فاعتقد أن المقصود الأهل في النسب، وأخذه فيها بالتأويل الظاهر يحقق العذر له

(1) انظر : التفسير القرآني للقرآن/عبد الكريم الخطيب 663/8.

(2) انظر : تنزيه الانبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء/أبو الحسن الأموي (ابن خمير) 80/1.

فعوتب بهذا التأويل، وأخذ عليه، ثم أشفق هو على نفسه ﷺ من إقدامه على ربه لسؤاله ما لم يؤذن له في السؤال فيه، وكان نوح ﷺ فيما حكاه بعض المفسرين أنه لا يعلم بكفر ابنه (1).

وبذلك يتبين أن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بأفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم، إنها وشيجة الدين والإيمان، ليست وشيجة الدم والنسب وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة، لأن هذه الوشائج جميعها قد توجد، ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد كما انقطعت بين نوح ﷺ وابنه، فكان ﷺ يحسب أنه من أهله، ولكن هذا الحسبان خاطئ، أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهله، ولو كان هو ابنه من صلبه (2) وهذا لا يمنع أن ينسب إليه ولكن في الأهلية ليس من أهله فقد كان ابن نوح كافر ومع ذلك يقول تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ [هود: 42]، وأيضاً في أبي إبراهيم ﷺ لم يمنع كفره من إظهار نسبه يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَاِزْرَأْتَنِي خِدْأً أَصْنَأْمَا ءَالِهَةٍ إِنِّي أَرِنُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: 74]، فنسب ابن نوح إلى أبيه نوح وابنه كافر، ونسب إبراهيم إلى أبيه وأبوه كافر (3) إنما الأهلية بوشيجة الدين والإيمان.

وقد اختلف في هل كان الابن المغرق ابن نوح ﷺ م من صلبه أم لا؟

فروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وجماعة أنهم قالوا: كان ابنه من صلبه. (4) وأما الحسن ومجاهد فإنهما قالوا: كان ابن امرأته، ولم يكن ابنه، واستدلا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، قالوا: كان يظن أنه ابنه ولم يكن ابنه، والأول هو الأصح. (5)

وقرأ علي رضي الله عنه: "ابنها"، والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: ابنه، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن.

(1) انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد/محمد بن يوسف الصالحي الشامي 480/11.

(2) انظر: أركان الإيمان/علي بن نايف الشحود 116/1.

(3) انظر: تفسير الشافعي/أبو عبد الله محمد بن إدريس 972/2.

(4) انظر: سبل الهدى والرشاد لسيرة خير العباد 497/10.

(5) انظر: "تفسير السمعاني أبو المظفر المروزي السمعاني 431/2.

قال قتادة: سألت الحسن عن ذلك فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه إن ابني من أهلي، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل بقوله من أهلي ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمه وجهان، أحدهما: أن يكون ربيبا له، كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ، وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام⁽¹⁾ أما الوجه الثاني فمرفوض لأنه لا يكون لنبي أن تخونه زوجته بالفراش، وإنما الخيانة التي ذكرها القرآن خيانة الدين والعقيدة.

وقد اختار الطبري تأويل ذلك ومال إليه، والتأويل إنه ليس من أهلك الذين وعدتكم أن أنجيهم، لأنه كان لدينك مخالفاً، وبني كافراً، وقد كان ابنه، لأن الله تعالى قد أخبر نبيه محمداً ﷺ أنه ابنه في قرآنه فقال: "وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ"، وليس في قوله: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ دلالة على أنه ليس بابنه. إذ كان قوله: لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ محتملاً: «إنه ليس من أهل دينك»، ثم يحذف «الدين» فيقال: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، كما قيل: "وَسئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا" فالمراد أسأل أهل القرية التي كنا فيها⁽²⁾ فحذف الإضافة من منهج القرآن، وهذا هو المقنع والأولى قوله.

وهناك من أول قوله المولى عز وجل في كتابه العزيز: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 46] أن نوح وصفه الله بذلك لأنه اعتقد أن الله لم يفي وعده الذي وعده به.. وهذا تأويل بشع، وليس في الألفاظ ما يقتضي أن نوحا اعتقد هذا والعياذ بالله، وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أراد الاستفسار عن ابنه لظنه به الإيمان ودفعته الشفقة للسؤال ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في العرقى.⁽³⁾

وقيل: لما عاتب الله عز وجل نوحاً في ابنه فأنزل عليه ﴿...إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 46] بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء⁽⁴⁾ والله أعلم.

(1) تفسير الكشاف/1/جار الله الزمخشري 396/2.

(2) انظر: تفسير الطبري/الإمام الطبري 52/7.

(3) انظر: التفسير الوجيز/لابن عطية 178/3 .

(4) الزهد لابن حنبل/أحمد ابن حنبل 45/1.

المطلب الثاني

علاقة الوالدين الصالحين بصاحب المقولة القرآنية " أف لكما "

لقد عرض القرآن الكريم نماذج عديدة من علاقات الآباء بالأبناء، ما بين صلاح تام أو صلاح وصلاح، وبالرغم من الأثر الطبيعي للآباء على أبنائهم لقول النبي ﷺ (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تَنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ)⁽¹⁾

فإن تأثير الأبوين الصالحين على أبنائهما منوطة بإرادة الله عز وجل، وتبقى الهداية بيد الله يمن بها على من يشاء من عباده لقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: 56] فيها هو نبي الله نوح عليه السلام بذل قصارى جهده في دعوة ابنه ومع ذلك لم يهتد، ونجد مثل هذا النموذج في هذه الحياة الدنيا موجوداً، لذلك ضرب ربنا سبحانه وتعالى مثلاً لهذه العلاقة في كتابه الحكيم، وفي معرض تصوير العلاقة بين الأبويين الصالحين وابنه الكافر في دعوتها له يقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِي لَكُمْ أَنْ تُعَدِّنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف: 17]

وسنبين هذه العلاقة من خلال النقاط التالية :

1- من هو العاق لوالديه، صاحب مقولة " أف لكما " في القرآن :

لم تتفق الروايات على صاحب هذه المقولة الذي عنته الآية أو نزلت بسببه، فهناك من قال: إن الآية نزلت في عبد الرحمن ابن أبي بكر ابن أبي قحافة قبل إسلامه، وهناك من يقول أنه لفظ عام وليس خاص بأحد، وأجمع أهل التأويل على أن الله ﷻ قصد بقوله: (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِي لَكُمْ) الوالدان : أبا بكر الصديق ﷺ وامرأته أم رومان، وعبد الرحمن ابنهما هو الابن العاق⁽²⁾ وأبو بكر وأهل بيته أهل بيت إسلام: كان هو مسلماً، وامرأته مسلمة، وأبواه مسلمان، وبناته مسلمات، وليس في العشرة الذين قال لهم النبي ﷺ إنهم في الجنة، ولا في قريش قاطبة رجل مؤمن الأبوين غير أبي بكر الصديق، ولا في قريش خاصة والمهاجرين عامة صاحب ابن صاحب ابن صاحب غير عبد الله قتيل الطائف، ابن أبي بكر الصديق، ابن أبي

(1) صحيح البخاري/ كتاب الصلاة/ باب إذا أسلم الصبي فمات 94/2.

(2) انظر : تفسير القرآن العزيز/ ابن أبي زمنين 227/4

قحافة، الذي أسلم يوم فتح مكة، والقائل فيه رسول الله ﷺ لأبي بكر: (فهلا تركت الشيخ في منزله فأتيناه وله صحبة⁽¹⁾).

أنكرت أم المؤمنين عائشة ؓ أن تكون الآية نزلت في أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر، وقالت (ما نزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي⁽²⁾)

احتج القائلون إنها نزلت في عبد الرحمن على صحة قولهم : بأنه لما كتب معاوية إلى مروان يبايع الناس ليزيد، قال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟⁽³⁾ لقد استخلف أبو بكر عمر، والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: أأنت الذي قال لوالديه أف لكما؟ فقال عبد الرحمن ؓ: أأنت ابن اللعين الذين لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال وسمعتها عائشة ؓ فقالت: يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن ؓ كذا وكذا؟ كذبت ما فيه نزلت ولكن نزلت في فلان ابن فلان، ثم انتحب مروان ثم نزل عن المنبر، حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف⁽⁴⁾.

وقيل : في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى، ويقول: أحيوا لي عبد الله بن جدعان، وعامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما تقولون، وأنكرت عائشة ؓ أن يكون هذا في عبد الرحمن بن أبي بكر، والصحيح أنها نزلت في كافر عاق لوالديه، قاله الحسن وقتادة⁽⁵⁾.

والوارد في ذلك ثلاثة أقاويل:

أحدها: القول الذي أوردناه أنها في عبد الرحمن ابن أبي بكر وأمه أم رومان، وكانا يدعوانه إلى الإسلام ويدعانه بالبعث فيرد عليهما بما حكاه الله عنه، وكان هذا منه قبل إسلامه، قال السدي : فلقد رأيت عبد الرحمن بن أبي بكر بالمدينة، وما بالمدينة أعبدُ منه، ولقد استجاب الله فيه دعوة أبي بكر ﷺ، ولما أسلم وحسن إسلامه، نزلت توبته في الآية

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 132]

(1) انظر : العثمانية/عمر بن بحر الشهير بالجاحظ 113/1

(2) مستدرک الحاكم/الحاكم النيسابوري 481/4، من طريق محمد بن زياد عن عائشة، وتعقبه الذهبي فقال: محمد لم يسمع من عائشة .

(3) انظر : فتح الغيب/فخر الدين الرازي 22/28

(4) انظر : تفسير ابن كثير/أبو الفداء إسماعيل الدمشقي 260/1

(5) انظر : تفسير البغوي/محيي الشنة أبو محمد البغوي الشافعي 196/4

الثاني: أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر، وكان يدعو أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله تعالى، قاله مجاهد والسدي وابن عباس مثل هذا القول.

الثالث: أنها نزلت في جماعة من الكفار قالوا ذلك لآبائهم ولذلك قال: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ**

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ [الأحقاف: 18] العرب قد تذكر الواحد وتريد به الجمع⁽¹⁾

ولو تتبعنا الآيات قبل هذه الآية لوجدناها تتكلم عن بر الوالين فقال ﷺ: ﴿ **ووصينا**

الإنسن بوالديه إحسنًا حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصله، ثلثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صليحاً ترضه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾ (15) ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** ﴾ (16) [الأحقاف: 15-16]

لما وصف الله تعالى نموذجاً للولد البار بوالديه في الآيات المتقدمة، وصف في نموذج يقابله الولد العاق لوالديه في الآية التي تليها، فيقول تعالى: (والذي قال لوالديه أف لكما) إنه ليس المراد منه شخص معين، بل المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحق فأباه وأنكره، وهذا القول هو الصحيح عندنا، ويدل عليه دلائل منها.

أن الله تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني بقوله: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ**

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ [الأحقاف: 18]

ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه، وكان من سادات المسلمين، فبطل حمل الآية عليه، وقد قال السدي⁽²⁾ عنه كما أوردت آنفاً: "ما رأيت أعبد منه"، وكان عبد لرحمن بن أبي بكر من خيار المسلمين، وكان له في الجهاد عناء عظيم⁽³⁾.

(1) تفسير الماوردي النكت والعيون/علي بن محمد الماوردي 280/5

(2) إسماعيل بن عبد الرحمن السدي : تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة. قال فيه ابن تعري بردي: (صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس وتوفي سنة 227هـ)

الأعلام / للزركلي 317/1

(3) انظر : مفاتيح الغيب/فخر الدين الرازي 22/28.

وكذلك قاله الطبري وقال أن الآية تعني : الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث⁽¹⁾ وكذلك رأي السيوطي حيث قال : "والصحيح أنها على الإطلاق فيمن كان على هذه الصفة من الكفر والعقوق لوالديه، ويبدل على أنها نزلت على العموم قوله: (أولئك الذين حَقَّ عليهم القَوْلُ في أممٍ)، بصيغة الجمع، ولو أراد واحداً بعينه لقال ذلك الذي حَقَّ عليه القول " (2).

كما أن الله تعالى يقول : {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِي} وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، وَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ، فَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ فِي غَيْرِهِ، وَهُوَ الْعَاقُ بِوَالِدَيْهِ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ. (3).

2- الوالدان يدعوان ابنهما للحق ويعدانه بالنشور :

من أساليب الدعوة إلى الله الترغيب والترهيب، ومن الترهيب : التذكير بالموت والقبر والبعث والنشور والحشر والصراط والعرض والميزان والعذاب والسعير، وهذا ما فعله الوالدان الصالحان في مسئوليتهم اتجاه ابنهما في دعوته وهدايته، فإذا لم يختر الهدى واختار الكفر والعقوق، أقام عليه الحجة أمام الله يوم القيامة.

وفي هذه الآية الكريمة تصوير لموقف الوالدين باستغاثتهما الله واستصراخهما ولدتهما أن يؤمن بالله .

وهما يقولان له: (**وَيْلَكَ ءَايْمَنَ إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا**) والاستغاثة هي طلب الغوث والإغاثة، والتخليص من الكربة والشدة، فوجد الواقع في بلية يقول : أغثني أي فرج عني .

كما أن الغياث : ما أغاثك الله به⁽⁴⁾ ، حيث لا يغاث إلا بالله، فقد قال ﷺ حين آتاه أناس من أصحابه يستغيثون به من منافق يؤذيهم : (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله)⁽⁵⁾

وكذلك هذان الأبوان يدعوان الله في استغاثتهما : اللهم اهده، اللهم اقبل بقلبه على الهدى ، اللهم اغفر له.⁽⁶⁾ يقول ابن تيمية رحمه الله في الاستغاثة : "استغاثة الصحابة

(1) انظر : تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 118/22.

(2) انظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن/جلال الدين السيوطي 416/3.

(3) انظر : تفسير السمعاني/منصور بن محمد السمعاني 165/5.

(4) لسان العرب لابن منظور 174/2 مادة غوث، القاموس المحيط للفيروز آبادي 177/1 مادة غوث.

(5) أخرجه الطبراني في الكبير مجمع الزوائد 159/1 من حديث عبادة بن الصامت وقال ابن كثير في تفسيره هذا الحديث غريب جداً.

(6) انظر : تفسير الماوردي النكت والعيون/علي بن محمد الماوردي 280/5.

بالنبي ﷺ في القحط؛ إنما استغاثوا به ليدعو لهم كما يستغيث الناس به يوم القيامة ليشفع لهم، والاستغاثة بالمخلوق ليدعو للعبد أو ليعينه بما يقدر عليه ليس بممنوع منها.

ويقول أيضاً: من أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب ويستغيث به عند المصائب يقول: يا سيدي فلان، كأنه يطلب منه إزالة ضرره، أو جلب نفعه " كما يقرر رحمه الله هذه الحقيقة، وهي أن الاستغاثة بالمخلوق إذا لم تتوافر شروطها فهي شرك⁽¹⁾

فلما اشتد إصراره على الشرك قال له: "ويلك" من أجل أن يؤمن ويصدق بالبعث، وهو دعاء عليه بالثبور، والمراد به الحث، والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ثم قال له: إن وعد الله بالبعث حق.⁽²⁾

3- الابن العاق بوالديه ينكر البعث ويكفر بالله

وفي موقفٍ شديد الإنفعال من الوالدين لعله يؤمن، ما كان من ابنهما إلا العقوق والكفر والإنكار للبعث، فقال لهما (**أَفِي لَكُمْ أْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي**) يقابل هذا الابن العاق هداية والديه له وخوفهما عليه بالعقوق فيتأفف فيقول أف لكما، وهذا اللفظ قد نهى القرآن الكريم عنه كناية عن عقوق الوالدين، وذلك في معرض وصيته بالوالدين في قوله تعالى: **﴿ وَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفِي وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾** [الإسراء: 23] فما هو الأف الذي أولى له القرآن اهتمام وذكره مرتين في مشاهد الآباء مع الأبناء ؟

قيل: إن الأف وسخ الأذن، والتف وسخ الأنف، وقيل: الأف وسخ الأظفار والتف الذي يكون في أصول الأظفار، وقيل إن الأف العليل الأنف والتف الإبعاد.

وقد استخدمها العرب في أشعارهم بمعناها الذي يدل على التحقير فقال الشاعر:

ما يذكر الدهر إلا قلت أف له إذا لقيته لولا قال لي لاقى⁽³⁾

فأما ال {أف} فهي كلمة تستخدم وتبرم ويقصد بها إظهار السخط وقبيح الرد، وقوله تعالى: {أف لكما} تبرم واستقذار⁽⁴⁾ من العاق لوالديه.

(1) انظر : مجموع فتاوي ابن تيمية 82/27.

(2) انظر : مفاتيح الغيب/فخر الدين الرازي 22/28.

(3) انظر : تفسير النكت والعيون/الماوردي 280/5.

(4) انظر : تفسير السمعاني/منصور بن محمد السمعاني 165/5.

ثم يتبع لفظة الاستقذار هذه بإنكاره للبعث والنشور فيقول لوالديه : أتعدانني أن أخرج من قبري حياً من بعد فنائي وبلائي فيه وأن أبعث بعد الموت⁽¹⁾، فأين من قبلي لم أر منهم أحداً وقد بعث، فأين فلان، وأين فلان وفلان؟ فكان رد القرآن عليه: "أولئك الذين حق عليهم القول" المراد هؤلاء الذين نكرتهم من المشركين الذين ماتوا قبلك، وهم الذين حق عليهم القول⁽²⁾ في العذاب. ثم أنهى كلامه ما هذا الذي تدعواني إليه، إلا كذب الأولين وباطلهم.⁽³⁾

(1) انظر : تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 118/22.

(2) انظر : معترك الأقران في تفسير القرآن/جلال الدين السيوطي 416/3.

(3) انظر : تفسير البغوي/محيي السنة أبو محمد البغوي الشافعي 196/4.

المبحث الثالث علاقة الابن الصالح بأبيه الطالح

وفيه مطلب واحد بعنوان:

علاقة إبراهيم عليه السلام بأبيه آزر

المطلب الأول

علاقة إبراهيم عليه السلام بأبيه آزر

سبحان الذي بيده هداية البشر، سبحان الذي يجعل من بذرة الشر ثمار خير للحضر والمدر، سبحان الذي يجعل من الأشواك ورداً يعشقه البصر، وسبحان من اتخذ من عباده مصطفىين أختيار زكى أنفسهم وأرواحهم وأسماعهم وجعلهم مشكاة نور للبشر، ففي ظل الكفر والشرك وانعدام الموحدين وتغيير منهج النبيين، بُعث خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في بيئة الرجس والوثنيين، بل كانت البيئة الحاضنة له في صغره هي مركزية صناعة الأصنام، إذ كان أبوه آزر يعمل في صناعتها وبيعها، فكانت دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه تواجه الصعوبة المطلقة، لأمر كثيرة أهمها: أن الابن هو الذي يدعو أباه، فمن المألوف والطبيعي أن الآباء يغيرون في الأبناء وليس العكس، فكان هنا تبادل للأدوار، كما أن الأصنام التي يسفها إبراهيم هي دين الآباء والأجداد التي ورثوها ويحافظون عليها، أضف إلى ذلك الناحية الاقتصادية حيث تعتبر صناعة الأصنام مهنة وحرفة آزر أب إبراهيم، الذي هو أعلم القوم بصناعة الأصنام، وكان الناس يشترونها منه، فلم يكن الأمر بالنسبة لإبراهيم عليه السلام سهلاً. (1)

فإبراهيم عليه السلام كان منذ قرون طويلة، في جميع الرسالات السماوية، رمزاً لمكافحة الوثنية، ومجابهة الشرك، وإعلان التوحيد ونشره بين الناس، حتى إنه ليعتبر بحق (إمام الموحدين)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ۖ﴾ [النحل: 120]

وسنعرض هذه العلاقة بين خليل الرحمن وأبيه من خلال النقاط التالية:

1- إبراهيم عليه السلام يحاور أباه بالحسنى:

يقول الله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۗ﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۗ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۗ﴾ (٤٢) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۗ﴾ (٤٣) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۗ﴾ [مريم: 41-45] كما يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ مَوَاقِفِي ۗ﴾ (٧٤) قَالَ تَعَالَى ۗ﴾ (٧٤) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۗ﴾ [الزخرف: 26]

(1) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين/د حمود الرحيلي 198/1 بتصرف

لقد اختلف المفسرون في اسم والد إبراهيم عليه السلام بالرغم من أن القرآن ذكر أن اسمه آزر فما الداعي لهذا الاختلاف والقرآن الكريم يقول أن اسمه آزر، ولماذا يذهب المفسرون في هذا الأب مذاهب شتى، فمن قائل: إن اسمه "تارح" ومن قائل: إن آزر اسم جدّه، أو عمّه، وذهب بعضهم أن آزر" اسم صنم، ثم يقول الزجاج: ليس بين النسّابين اختلاف أن اسم أبي إبراهيم "تارح".

والذي دعا المفسرين إلى تلك المقولات، هو ما جاء في التوراة من نسبة إبراهيم إلى أبيه الذي تسميه التوراة "تارحا" وقد اعتمد المفسرون هذه النسبة وأخذوا بها، وتأولوا لها ما جاء في القرآن، ولم تحدثهم أنفسهم بأن يتأولوا هذه النسبة التي جاءت في التوراة كما تأولوها في القرآن، ولم تحدثهم أنفسهم بأن في التوراة تحريفاً وتبديلاً تناول كل شيء، حتى العقيدة.

والذي ينبغي أن يكون عليه الأمر أن القرآن هو الذي يهيمن على ما سبقه من كتب، ولا تهيمن عليه، ويقضي عليها، ولا تقضي عليه. وقد جاء القرآن الكريم في الحديث عن إبراهيم منسوباً إلى أبيه، باسم هذا الأب، وهو «آزر» فإنه أبو إبراهيم بلا شك، وإن اسمه «آزر» بلا ريب، هكذا قال القرآن، وهكذا يجب أن نقول (1).

يستهل ربنا سبحانه وتعالى قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه بثناءٍ علي إبراهيم عليه السلام، فيقول عز من قائل: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 41] فهو من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده، وقد أوحى إليه وجعله نبياً (2)، ولم يقل عنه صادقاً بل استخدم صيغة المبالغة: لفرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله ومصداق الله بآياته ومعجزاته حريٌّ أن يكون عنده صديقاً (3).

لقد ملك إبراهيم عليه السلام من رجاحة العقل، وقوة الحجة وحكمة الأسلوب في دعوة قومه وأبيه إلى عقيدة التوحيد ما لم يملكه أحد، كما عرض القرآن أسلوب الحوار بين إبراهيم وأبيه وقومه.

فقد دعاهم إلى الإيمان، واستنكر عليهم عبادة الأصنام، وقد قدموا له حجة واهية في سبب عبادتهم لها، وهي أنهم يقلّدون آباءهم وأجدادهم في ذلك (4) وها هو الحوار نفسه في هذا

المشهد حيث يقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي

(1) انظر: التفسير القرآني للقرآن/عبد الكريم الخطيب 221/4.

(2) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية/أبو محمد مكي المالكي 4541/7.

(3) انظر: تفسير الكشاف/جارالله الزمخشري 18/3.

(4) انظر: وظيفة السورة الفنية في القرآن/عبد السلام أحمد الراغب 273/1 بتصرف

عَنكَ شَيْئًا ﴿ [مریم: 42] يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يقصد الأصنام، فهي لا تسمعك إذا دعوت، ولا تبصرك إذا أجبته، ولا إن نزل بك نفع أو ضرر تنفعلك أو تدفع عنك شيئاً، وبدأ يورد له بحوار مهذب ما منه الله عليه من العلم، فقال له : لقد جاءني يا أبتني من الله الوحي، فاقبل مني قولي وما أدعوك إليه (1).

وفي استمرار الحوار بنفس الطريقة الراقية في الأدب الخالص مع أبيه وبتمني الهداية لأبيه قائلاً : دعني يا أبتني أبصرك وأرشدك الطريق المستوي الذي لا تضل فيه إن لزمته، وأخذ يحذره من الشيطان بأدب ويقول له : إن الشيطان هو الذي يغري بعبادة الأصنام من دون الله، فالذي يعبدها يا أبتني كأنما يعبد الشيطان والشيطان عاص للرحمن ، وإياك يا أبتاه أن يغضب الله عليك الله فيعاقبك، فالطاعة له نعمة، وأن تكون من أولياء الشيطان فذلك هو النعمة، نقمة تقود إلى عذاب أشد وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب (2).

وقيل إن خوف إبراهيم على أبيه في قوله تَعَالَى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ﴾ هو شعور بالخوف ناتج عن علمه أنه سيمسكه من الله عَذَابٌ إِنْ بَقِيَ عَلَى الْكُفْرِ وتولي الشيطان (3)

2- موقف الأب الكافر من دعوة ابنه إبراهيم ﷺ

﴿ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا ﴾ [مریم: 46]

رغم أن إبراهيم ﷺ دعى أباه بأسلوب الداعية المخلص في التوجيه والتعليم، الذي يحذر في لطف ويُنذِر في لين، ويعرف للأبوة منزلتها ومكانتها، فيعطيها حقها من اللين والاحترام، رغم ذلك لم يُقابل الأب هذه الدعوة بالحنان والشفقة، بل انقلبت إلى نار تتأجج وجحيم يتوقد، تمثل ذلك في قوله لابنه إبراهيم ﷺ كما يقول الله تعالى (قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)

المتأمل في كلمات الأب الكافر لابنه يستشعر فظاظة الكفر وغلظة العناد، فلقد ناداه باسمه، ولم يقابل لفظه يا أبت التي كررها ابنه ، يابني التي تحمل الحنو، وفي تقديم الخبر على المبتدأ في قوله أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ دليل أن الآلهة وعبادتها أهم عنده من ابنه، مع ما يحمله لفظه من استنكار لنظرة إبراهيم ﷺ للآلهة.

ثم يهدده بالرجم بلفظة لأرجمَنَّكَ، أي لأرمينك بلساني شتماً وذماً، أو لأقلنك كما يقتل الزاني بالرجم، أو لأطردنك رمياً بالحجارة (4) ثم يطلب منه أن يبتعد عنه ويجنبه طويلاً أو حيناً

(1) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/أمكي القيسي القيرواني 4545/7 بتصرف

(2) انظر : مفهوم الولاء والبراء في القرآن والسنة/علي بن نايف شحوذ 255/1

(3) انظر : تفسير السمعاني/أبو المظفر منصو الشافعي 295/2

(4) انظر : تفسير الكشاف/ جار الله الزمخشري 21/3.

وقال ابن عباس رضي الله عنه : اعتزلي سالما لا تصيبك مني معرفة⁽¹⁾

3- استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه مع رجاء إيمانه

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾

[مریم: 47] لم يقابل إبراهيم عليه السلام تلك الشدة التي صدرت عن أبيه بمثلها، كما يفعل الأبناء الجهلة، ولكنه قابل الشدة باللين والإحسان، فقال لوالده: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ هذا ما قاله إبراهيم عليه السلام لأبيه بعد أن توعده أبوه بالهجران والرجم، وامتنع من الإيمان بما جاء به من الهدى والنجاة له، فرد إبراهيم عليه السلام بلفظة فيها الأمان منه لأبيه أن لا يعاوده فيما يكره، وذلك قوله ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، وأسأله لك أن يستر عليك ذنوبك، فإنه بي لطيفاً حفيماً، يجيب دعائي إذا دعوته، ثم قرر أن يبتعد عنهم فقال : سوف أجتنبكم وما تعبدون من أوثانكم وأصنامكم. وأدعو ربي بإخلاص العبادة له عسى أن لا أشقى بدعائه.⁽²⁾

وهذا الاستغفار من إبراهيم عليه السلام إنما كان طمعاً منه في إيمان أبيه، ولكنه حينما ظهر له إصراره على الشرك، وعداوته المتأصلة لدين الله تعالى، تبرأ منه وقطع صلته به، ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة: 114]

وروي أنه خرج عنهم إلى ناحية الشام بإذن الله له، فكانت بعد المحنة المنحة من الله فوهب الله له إسماعيل وإسحاق ويعقوب، آنسوا وحشته لما فارق قومه، وجعلهم الله أنبياء وبسط لهم من الرزق في الدنيا بالثناء الحسن، والذكر الجميل من الناس إلى قيام الساعة.⁽³⁾

يقول تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: 41]

من المفسرين من استدل من هذه الآية أن والدي إبراهيم عليه السلام كانا مسلمين، وإنما كان آزر عمّاً له، وكان اسم أب إبراهيم تارخ، ولأجل دفع توهم آزر قال والدي، يعني من ولداني حقيقة ولم يقل أبوي فإن الأب يطلق على العم مجازاً، وعلى تقدير كون آزر أباً له كما قيل فقد ذكر الله عذره في سورة التوبة "وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ" وأما عن موعده وعدّها إياه فالواعد هو إبراهيم لا آزر، أي: ما قال واغفر لأبي إلا عن قوله لأستغفرن لك،

(1) انظر : تفسير البغوي/محيي السنة أبو محمد البغوي 234/5.

(2) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين/د حمود ألرحيلي 198/1بتصرف.

(3) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/أبو محمد مكي القيرواني 4545/7.

وتشهد له قراءة حماد الرواية: وعدّها أباه. والله أعلم. المراد بالدعاء العبادة، لأنه منها ومن وسائلها. (1) ومنه قوله ﷺ (الدعاء هو العبادة) (2)

وقوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَأَعْرِضْ لِأَبْنَيْكَ إِنَّكَ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾ (81) [الشعراء:

86] يعنى قبل أن يتبين له أمره ﴿.. فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ اللَّهُ..﴾ [التوبة: 114] (3)

ويقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطع رجاءه في ألا يستجيب الله دعاءه، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام دعا لأبويه فلم يستجب له، ثم إنه لم يترك الدعاء، وسأل حينما لم يجب فيه. فلا غضاضة على العبد ولا تناله مذلة إن لم يجبه مولاه في شيء فإن الدعاء عبادة لا بد للعبد من فعلها، والإجابة من الحق فضل، وله أن يفعل وله ألا يفعل (4).

(1) انظر : تفسير الكشاف/جارا لله الزمخشري 21/3 .

(2) مسند أحمد/ الإمام أحمد ابن حنبل 380/30، إسناده صحيح على شرط مسلم، قال الترمذي : حديث حسن صحيح.

(3) انظر التفسير المظهري/محمد ثناء الله 279/5.

(4) انظر لطائف الإشارات/عبد الكريم بن هوزن القشيري 258/2.

المبحث الرابع علاقة الأب الصالح بابنته

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علاقة لوط عليه السلام بابنتيه

المطلب الثاني: علاقة الرجل الصالح صهر موسى عليه السلام بابنتيه.

المطلب الأول

علاقة لوط عليه السلام بابنتيه

أورد القرآن الكريم خبر لوط عليه السلام مع قومه المجرمين، وكيف انتقم الله منهم شر انتقام جزاءً وفاقاً على فسقهم وكفرهم وإتيانهم الرذائل ما سبقهم إليها أحد من العالمين، فأرسل الله إليهم ملائكته الكرام ليسومونهم سوء العذاب، وكانوا على هيئة أضياف بشر حسان الوجوه⁽¹⁾، نزلوا على سيدنا لوط عليه السلام، وقد ضاق بهم ذراعاً خشية أن يعلم قومه بوجودهم عنده فيأتوهم ليفعلوا بهم ما يمارسونه من شذوذ جنسي من إتيان الرجال، فلما علم قومه بخبر الأضياف جاءوا إليه يهرعون يريدون إتيانهم، فكان مقال سيدنا لوط لهم وهو في موقف عصيب يخبر الله تعالى به: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: 78] وقال لهم

عليه السلام في سورة الحجر كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: 71]

نرى في تصوير المشهد القرآني لموقف لوط عليه السلام في الآيتين الكريمتين يقول "هؤلاء بناتي" لعله يدفع القوم المجرمين عن الأضياف، فماذا وراء قوله عليه السلام "هؤلاء بناتي" وكيف اعتبرها المغرضين أنها دعوة صريحة لقومه للزنا ببناته عليه السلام؟ فحاشى لأنبياء الله عليهم السلام ذلك وسيتم عرض ذلك ومعرفة مدى العلاقة الشرعية التي تربط الرجل الصالح لوط ببناته من خلال النقاط الآتية:

1- طبيعة القوم الذي عاش بينهم لوط عليه السلام وابنتيه :

من اعتصم بربه وسار على هداه وقاوم الفسق والفجور المحيط به فقد نجا وهذا ما كان من لوط وابنتيه فقد عاشوا بينهم ولكنهم لم يتأثروا بهم، فقد عاش قوم لوط عليه السلام حول بحيرة لوط، أو ما يعرف حالياً بالبحر الميت من أرض فلسطين، وكانت مدينة سدوم أم تلك المحلة ولها أرض ومعتلات وقرى مضافة إليها. ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية، وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه⁽²⁾ فقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النساء وهو من أشد ما فعلوه قبحاً، وهم يجهلون تحريم ذلك وعقوبته⁽³⁾

(1) انظر : الموسوعة العقدية-الدرر السنوية3/324.

(2) انظر : الدر المنثور في التفسير بالمأثور/19/224.

(3) انظر : حسن الأسوة / أبو الطيب الحسيني 1 / 172.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

[النمل: 55]

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم العقاب الشديد⁽¹⁾.

2- لوط عليه السلام وبناته المؤمنات، وسط جحافل الباطل والرذيلة :

حين جاءت رسل ربنا لإهلاك قوم لوط مروا على الخليل إبراهيم عليه السلام، وأخبروه أنهم سيُنزلوا العقاب على قوم لوط فأخذ عليه السلام يجادل في آل لوط أنهم مؤمنون وذلك من قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: 74] فقال إبراهيم عليه السلام:

لما قالوا له : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [العنكبوت:

31] قال لهم : أتهلكون قرية فيها مائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها خمسون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: أربعون؟ قالوا: لا فما زال ينقص حتى قال: فواحد؟ قالوا: لا. فقال حينئذ: إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا، فما كان فيهم سوى لوط وابنتيه. فعند ذلك قالت الرسل لإبراهيم: يا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هَذَا يَعْزُونَ الْجِدَالَ. إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ بِعَذَابِهِمْ. وقيل: قد جاء عذاب ربك، فليس بمردود، لأنَّ الله تعالى قد قضى به⁽²⁾.

وقد كان ذلك الجدل عنهم من الخليل إبراهيم عليه السلام، حليماً ورحمةً ورقةً، وسعة رجاءٍ في

عظيم رحمة الله، لا محبة لما هم عليه من الخبائث، ولذلك مدحه الله على ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ

إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبِّئٌ ﴾ [هود: 75]⁽³⁾.

من رحمة الله سبحانه وتعالى بالعباد أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فأرسل سيدنا لوط عليه السلام إلى قومه ليهديهم إلى صراط مستقيم وينذرهم لقاء ربهم وعقابه، ولكنهم لم يستمعوا لنصيحته واستمروا على كفرهم وعنادهم وما يمارسونه من الرذيلة بل أخبر الله تعالى عن ردهم للوط عليه السلام فيقول الله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ آلَ لُوطٍ مِّن

(1) انظر : قصص الأنبياء/ابن كثير 254/1.

(2) انظر : زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي 288/2.

(3) انظر : لعواصم والقواسم في الذود عن سنة ابي القاسم 146/8.

قَرَيْتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٨٢﴾ [الأعراف: 82] وهنا تظهر خطورة مجتمع الرذيلة على الأسرة الوحيدة المؤمنة بينهم، فقد قلبوا الموازين فأصبح الشاذ هو المرحب به بينهم، بينما الطاهر هو المرفوض المطرود، الذي لا بد لإخراجه بعيداً عنهم، فقالوا: إن لوطاً ومن تبعه أناس ينتزهون عما نفعله نحن من إثيان الرجال في الأدبار فأخرجوهم من قريتنا⁽¹⁾ فنزل عليهم غضب الله وعقابه.

أصدر الحكم من صاحب الحكم الله سبحانه وتعالى، على قوم لوط المجرمين، فنزلت الملائكة الأبرار إلى ديار قوم لوط، لتنفيذ أمر الله وحكمه في القوم المجرمين، وكانوا على هيئة بشر حسان قصدوا لوطاً عليه السلام، وطلبوا منه إضافتهم، حاول سيدنا لوط عليه السلام أن يثنيهم عن النزول إلى قريته بكل طريقة، خوفاً عليهم من قومه المجرمين، المجردين من أي معانٍ للمروءة والإنسانية وكرم الأخلاق مع أحد أضياف كانوا أو غير ذلك.

3- أضياف أسرة لوط عليه السلام وقوم الرذيلة

نزلت الأضياف الحسان على أسرة لوط عليه السلام، بالرغم من محاولة لوط عليه السلام أن يثنيهم عن قريته فلا يأتوها، وخاصة وهو يراهم حسان، فعرف أن قومه سيفعلون بهم المنكر، حاول معهم ولكن دون جدوى، فقد أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، فقالوا له: إنا متضيفوك الليلة. فانطلق به، فلما مشى، قال: أما بلغكم أمرهم -أي أمر قريته-؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية⁽²⁾ فلم يكن يعرفهم أنهم رسل رب العالمين.

وقيل لما أتى الملائكة قرية لوط عليه السلام، كانت بنت لوط عليه السلام تستقي من الماء لأهلها، فقالوا لها: يا جارية هل من منزل؟ قالت: نعم، مكانكم حتى آتيكم، فرقت عليهم من قومها، فأنت أباها مسرعة فقالت: يا أبتاه: أدرك فتيناً على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم هي أحسن منهم، لنألا يأخذهم قومك فيفضحهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، وقالوا له: خل عنا نحن نضيف الرجال فجاء بهم لوط إلى بيته، ولم يعلم أحد بهم إلا أهل بيت لوط، وكانت امرأته عجوز سوء مع القوم المجرمين، فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت قط أحسن منهم ولا أطيب رائحة، ولا أنظف ثياباً منهم.⁽³⁾

(1) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 549/12

(2) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي ابن أبي طالب 3440/5

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 2660/6.

حين عرف القوم خبر الأضياف عند لوط عليه السلام أتوه يهرعون إليه ويهرولون، وكانت لفظة يهرعون تبين الموقف اللعين لهؤلاء القوم ومدى استبشارهم واستعجالهم على فعل الفاحشة بهم، فراودوه عن ضيفه، وحاولوا فتح بابه. ⁽¹⁾ وبدأ لوط عليه السلام يحاورهم لعلهم يتركوا ضيوفه.

ويُظهر هذا الحوار مدى غطرستهم وكفرهم والشهوانية الشاذة التي تملكتمهم كما تملك البهائم، بل من البهائم من أرقى مستوى منهم، فعندها قال لوط حزينا: (هذا يوم عصيب، شديد شره، عظيم بلاؤه، فظيع فاش شره عليه). ⁽²⁾

ويقول الله سبحانه وتعالى على لسان لوط عليه السلام وهو يحاور قومه في ذلك الموقف

العصيب: ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿١٨﴾ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ

الْعَالَمِينَ ﴿[الحجر: 68-70] قال لوط لقومه: إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفي، وحق على الرجل إكرام ضيفه، فلا تفضحون أيها القوم في ضيفي، وأكرموني في تركم التعرض لهم بالمكروه، وخافوا الله فيّ وفي أنفسكم أن يحل بكم عقابه، ولا تذلونني ولا تهينوني فيهم، بالتعرض لهم بالمكروه. ⁽³⁾ فما كان ردهم عليه إلا تذكيرهم إياه أنهم نهوه عن تضييف أحداً من الرجال ⁽⁴⁾.

حين كان الحوار بين لوط عليه السلام وقومه، ذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم، حتى قيل غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا أثر وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضِيفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿[القمر: 37] أي دافعهم لوط، وحاورهم، فأبوا عليه، فضربهم جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، وأذهب بصرهم ⁽⁵⁾.

علم لوط أن هذه المجادلة معهم خاسرة منذ البداية، ولكنه حاول وحاول في حزن وأسى على ما فيه قومه من منكر وسوء، وهو فرداً وحيداً ليس معه إلا ابنتيه، أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسور الجدار ⁽⁶⁾، فعندها تمنى لو أن له عشيرة تدفع عن أضيافه اليوم، وذلك قول القرآن الكريم عن أمنيته

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 67/3.

(2) انظر: تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 292/2.

(3) انظر: تأويلات أهل السنة/الماتريدي 162/6.

(4) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 117/17.

(5) انظر: عالم املائكة الأبرار/عمر بن سليمان العتبي 71/1.

(6) الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 182/5.

﴿ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: 80] تمنى قوة في نفسه أو في عشيرة تعينه على قتالهم؛ وفيه دلالة أن من رأى آخر على فاحشة فله أن يقاتله. (1)

فبعث الله جبريل عليه السلام إلى المؤتفكة التي كان لوط عليه السلام فيها، فاحتلمها بجناحه، ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا لسمعوا نباح كلابها وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها فجعل عاليها سافلها (2)، ثم أتبعها الله بالحجارة، وهو قول الله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ ﴾ [الحجر: 74]، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات، وكن خمس قريات، "صنعة" و"صعوة" و"عثرة"، و"دوما" و"سدوم". وسدوم القرية العظمية، أهلكها ربنا بمن فيهن من الأمم وكانوا قريباً من أربعمئة ألف، وما معهم من الدواب والحيوانات، وما لتلك المدائن من الأراضي والعمارات؛ على طرف جناحه، حتى بلغ بهن عنان السماء، ثم قلبها، وقد نجى الله لوطاً ومن معه من أهله، إلا امرأته كانت فيمن هلك. (3)

4- حقيقة قول لوط عليه السلام " هولاء بناتي " :

حقيقة القول في: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود: 78] أي هن أحل لكم تزويجاً من إتيان الفاحشة. (4) فهذا ما شرعه الله لكم، ولبني آدم. والسؤال من تحديداً المقصود بلفظة بناتي ؟.

قال بعض المفسرين : أراد بنات قومه؛ لأن الرسل هم كالأبَاء لأولاد قومهم ينسبون إليهم؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأحزاب: 6] فعلى ذلك يُحمل قول لوط: (هولاء بناتي) أراد بنات قومه فنسبهن إلى نفسه؛ فالنبي كالأب لقوم رجالاً ونساءً، ونسبتهم إليه للشفقة، فهو أشفق بهم من الأب والأم، كما أن نسبه لحق التربية وتعليم الدين كالأب لهم؛ فهو أولى بهم من أنفسهم لذلك. وقد صحت الرواية أنه كان له بنتان، وهما: زنتا، وزعورا، وإطلاق لفظ البنات على البنيتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة، فالقائلون بهذا القول، فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما دعا القوم إلى الزنا بالنسوان بل المراد أنه دعاهم إلى التزوج بهن (5)

(1) تأويلات أهل السنة/الماتريدي 162/6

(2) اصول الإيمان ووصف العذاب/محمد عبد الوهاب 1 ص 92

(3) تفسير الطبري/ابن جرير الطبري 443/1

(4) تفسير التستري/أبو محمد سهل التستري 80/1

(5) تفسير الرازي مفتح الغيب/أبو عبد الله محمد الرازي 379/18

وهذا هو الرأي الصحيح المختار الذي يصح في حق نبي الله لوط عليه السلام، ولكن سنعرض الأقوال الأخرى في تفسير قول نبي الله لوط (هُؤُلَاءِ بَنَاتِي) عليه السلام لما له من الارتباط الأكيد بعلاقة لوط بابنتيه .

فمن المفسرين من ذهب إلى أن المقصود في القول : (قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي) فدى بهن أضيافه كرمًا وحمية، والمعنى هؤلاء بناتي فتزوجهن، وكانوا يطلبونهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارئ أو مبالغة في تناهي خبث ما يرومونه حتى إن ذلك أهون منه، أو إظهاراً لشدة امتعاضه من ذلك كي يرقوا له⁽¹⁾ ولكن بناته فقط اثنتان، والقوم كثر فهذا غير صحيح.

وقال قائلون: قال لوط عليه السلام هذا : ليريهم قبح الفعل الذي كانوا يقصدون بأضيافه؛ لأن الزنا كان عندهم محرماً فعرض عليهم بناته؛ ليعرفوا قبح ذلك الفعل؛ حيث احتمل فعله في بناته ولم يحتمل في أضيافه؛ ليمتنعوا عن ذلك. أو يحتمل أن يكون قال ذلك وإن كان كلاهما لا يحلان، لكن أحدهما أيسر وأهون، ويجوز الجمع بين شرين؛ فيقال: هذا أظهر لكم وأحل من هذا، وهذا أيسر من هذا وأهون، وإن كان كلاهما شر، فالزنا وإن كان حراماً فذلك مما يحل بالنكاح، وأدبار الرجال لا تحل بحال.⁽²⁾

وهذا كلام مردود غير صحيح فكيف يجوز لنبي أن يعرض بناته للزنا، مهما وصلت درجة احترام الضيف وإكرامه لا تصل إلى حد أن يفدي نبي مشرع بعرض بناته، فإن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر مستبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء؟

كما أنه قال: (هُؤُلَاءِ بَنَاتِي) هن أظهر لكم، فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل.

كما أن في هذا تشريع لهم بفاحشة الزنا من نبي يعرفون نبوته، وإن لم يتبعوه، فهل سيزيدهم نبيهم سوءاً على سؤئهم.

كما أن هذا الكلام تسويق لكلام التوراة المحرفة التي تتهم أنبياء الله بفاحشة الزنا، فمن أقوال التوراة المحرفة التي اتهمت لوطاً بأنه عرض بناته ليزني بهن أهل سدوم؛ فقالت: "هو ذا

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل/ناصر الدين البيضاوي 42/3

(2) تأويلات أهل السنة/محمد بن محمد الماتريدي 162/6

لي ابنتان لم تعرفا رجلاً؛ أخرجهما إليكم، فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم، أما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي"⁽¹⁾

بل ذكرت هذه النصوص المحرفة في حق هذا النبي الكريم ما هو أشنع من ذلك عن لوط عليه السلام وابنتيه، فقالت: "وصعد لوط من صوغر، وسكن الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه؛ فقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا كعادة كل الأرض؛ هلم نسقي أبانا خمراً ونضع معه فنحيي من أبينا نسلاً؛ فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر، واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً؛ فادخلي فاضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً؛ فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً قامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها؛ فحبلت ابنتا لوطا من أبيهما؛ فولدت البكر ابناً ودعت اسمه مؤاب، وهو أبو المؤابيين إلى اليوم، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بني عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم".⁽²⁾ وهذا افتراء وبهتان لا يليق أن يصنعه العوام فكيف بالخاصة الذين اصطفاهم الله لهداية البشر⁽³⁾

وفي التوراة في نصوصها ما يناقض بعضه بعضاً ويكشف زيف وباطل بعض، ومن ذلك ما ذكرته من مدح لوط على لسان إبراهيم عليه السلام وشهادته له بالبر وذلك أن الله تعالى لما أعلم إبراهيم بأنه يريد أن يهلك سدوم وعمورا مسكن قوم لوط قال: يا رب أتهلك الأبرار مع الفجار، يعني بالأبرار لوطا وابنتيه فسامهم إبراهيم عليه السلام أبراراً، وشهد له بذلك بين يدي الله تعالى، فكيف يصح أن يكون ابنتا لوط من الأبرار، ويوقعان أنفسهما في أن يزنى بها أبوهما نبي الله، ثم لم يعصمه الله تعالى من مثل هذه الرذيلة، ثم إن الله شهد عنه هذه الفضيحة التي يتحدث بها على مدى الدهر مع أنه لم يسمع قط من المشرعين من أجاز نكاح البنات وهل هذ نقله ونسبه إلى الله إلا جرأة ووقاحة على الله⁽⁴⁾

وفي نص القرآن الحكيم ما يرد على مثل هذا التطاول التوراتي على نبي الله لوط عليه السلام وابنتيه في أنهما زناة، يرتكبون الزنا وأي زنا إنه زنا المحارم، ألم يشهد لهم المجرمون من قوم لوط عليه السلام بأنهم يتطهرون بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا

(1) العهد الجديد سفر التكوين إصحاح 19 الفقرة 8

(2) العهد الجديد سفر التكوين/الإصحاح 19/الفقرة 30: 38

(3) الأديان والمذاهب/مناهج جامعة المدينة العالمية 1/182

(4) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد/أبو عبد الله محمد القرطبي 1/201

أَخْرَجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٣٥﴾ [الأعراف: 82]، فقد قال بعضهم لبعض ذلك، أخرجوا آل لوط وابنتيه، ومن كان على دينه ولذلك جمع في أخرجوهم لأنهم يتطهرون من أعمال السوء. (1) وأغلب المفسرين على أن المراد أنهم يتطهرون من أدبار النساء والرجال، وهو على سبيل الاستهزاء بهم (2)

وكفى لبیت نبینا الکریم لوط ﷺ أن الله سبحانه وتعالى نعت بيتهم بالإيمان في القرآن الكريم فيقول المولى تبارك وتعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات : 35-36] فنعتهم الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بالإيمان والإسلام دون قرية لوط، وقد دل تسميتهم بالمؤمنين، والمسلمين على أن الإسلام والإيمان واحد (3)

وهناك من يقول إن معنى : {بَنَاتِي} نساء الأمة، أو لصلبه لجوازه في شريعته وكان ذلك في صدر الإسلام ثم نسخ والله أعلم (4).

وقيل: ما كان مع لوط مؤمن واحد، وعرض عليهم أن ينكحوا بناته رجاء أن يكون له منهم عضد يعينه (ويدفع عنه) يريد النكاح فأبوا عليه. (5) وهذا مستبعد فليس يكون مثل هذا التفكير البعيد في مثل هذا الموقف العاجل العصب.

(1) انظر : تفسير عبد الرازق/أبو بكر عبد الرازق الصنعاني 480/1.

(2) انظر: تفسير مجاهد/أبو الحجاج القرشي المخزومي 339/1.

(3) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان الماتريدي 131/4.

(4) انظر: تفسير العز ابن عبد السلام/أبو محمد عز الدين عبد السلام 97/2.

(5) انظر : الهداية في بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 2439/4.

المطلب الثاني

علاقة الرجل الصالح صهر موسى عليه السلام بابنتيه

لقد قدم لنا القرآن نموذجاً طيباً لعلاقة البنت بأبيها من خلال التربية الحسنة الصالحة والتي تظهر ثمار هذه التربية واضحة وذلك في قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح، فكان صلاح وتقوى في جميع شئون الحياة، حيث اتضحت لنا هذه التربية الصالحة، في شخصية البنت القوية الحية الصادقة التي تحسن التصرف، وتجيد قراءة المواقف والأشخاص وتصيب في الحكم عليهم، كل هذا لو لم يكن نابعاً من تربية أسرية صحيحة على منهج الله ورضاه، ووفق التشريع النبوية السابقة، لما كان هذا النموذج الطيب المحتذى به في علاقة الأب ببنته، وعلينا أولاً أن نتعرف إلى الرجل الصالح ختن موسى عليه السلام.

مدى صحة أن صهر موسى هو شعيب عليهما السلام :

عن الحسن⁽¹⁾ قال: يقولون شعيب ويقولون ليس بشعيب، ولكنه كان سيد أهل الماء يومئذ في مدين. وعن ابن عباس قال: اسم ختن موسى: يثرى.⁽²⁾ وقال أحد علماء الأنساب كما ورد في البداية والنهاية: إن اسم ختن موسى عليه السلام هو يثرون بالعبرانية، وشعيب بالعربية بن عيفاء بن لوثن بن مدين بن إبراهيم.⁽³⁾

وذكر في كتاب "قصص الأنبياء" عن محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن زياد بن سمعان عن بعض من قرأ الكتب أن أهل التوراة يزعمون أن شعيباً اسمه في التوراة ميكائيل بن جزى وبالسريانية يثرن بن جزى بن يشجر. وبالعربية: شعيب بن جزى بن يشجر بن يعقوب. وقال بعضهم: كان ختن موسى شعيب وقال بعضهم: ابن أخي شعيب، أما شعيب فإنه لم يكن في زمن موسى والله أعلم.⁽⁴⁾

قيل: إن شعيب عليه السلام من ولد مدين بن إبراهيم، وقيل: لم يكن شعيب من ولد إبراهيم، وإنما هو ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى الشام، ولكنه ابن بنت لوط، فجدة شعيب

(1) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، ولد سنة 3هـ وتوفي سنة 50هـ فس المدينة المنورة، هو أبو محمد: خامس الخلفاء الراشدين وآخرهم، وثاني الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، ولد في المدينة المنورة، وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أكبر أولادها وأولهم. كان عاقلاً حليماً محباً للخير، فصيحاً من أحسن الناس منطقاً وبديهة. الأعلام للزركلي 199/2.

(2) انظر: تفسير يحيى بن سلام/يحيى بن سلام بت أبي ثعلبة 588/2.

(3) انظر: البداية والنهاية/الحافظ ابن كثير 335/1.

(4) انظر: تفسير الماتريدي تأويلات أهل السنة/محمد بن محمد الماتريدي 158/8.

ابنة لوط، وكان ضرير البصر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِتْنًا ضَعِيفًا هُودٍ ۖ ۞ ﴾ [هود: 91]، أي ضرير البصر⁽¹⁾.

وقيل : كان هذا الرجل اسمه نيرون ابن أخي شعيب، وشعيب كان توفي قبل ذلك. وقال عامة المفسرين: إن هذا كان شعيباً⁽²⁾

أُرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: أهل مدين، وأصحاب الأيكة. وكانت مدين دار شعيب والأيكة خلف مدين، وكان اسمه القديم بيرون، وقيل كما سبق يثرون. وفي تاريخ الطبري: يزونوفي نسخة أخرى بيروز، وفي أخرى: يترون.⁽³⁾

ويرجح بعض الباحثين أن عصر شعيب إنما كان قبل عصر موسى، معتمدين في ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيباً في القرآن الكريم كما في سورة الأعراف ويونس وهود والحج والعنكبوت بعد نوح وهود وصالح ولوط، وقبل موسى، وإذا ما عدنا إلى عصر الخليل عليه السلام "1765-1940 ق. م" وتذكرنا أن لوطاً وقومه إنما كانوا معاصرين لأبي الأنبياء، لأمكننا القول إن شعيباً وقومه إنما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وخاصة وأن التوراة تذكر أن مدين إنما كان من ولد الخليل من زوجه قطوره الكنعانية.

على أننا نستطيع من ناحية أخرى أن نقول -حسباً عن غير يقين- أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إذا ما كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن يثرون كاهن مدين وصهر موسى، إنما هو شعيب نبي مدين العربي، وذلك لأن رحلة الخروج من مصر، تحت قيادة موسى وكذا لقائه مع صهره إنما كانت في هذا القرن الثالث ق. م⁽⁴⁾.

قال العلماء: "بعث الله تعالى شعيب إلى مدين، وهو ابن عشرين سنة، وكانوا أهل بخس في المكاييل والموازين، فدعاهم إلى التوحيد ونهاهم عن التطفيف، فكان يقال له: خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه، فلما طال تماديهم بعث الله عليهم حراً شديداً⁽⁵⁾"

والخلاصة : يدل ما سبق على أن الأسماء ألفاظ تختلف باختلاف اللغات، ومع اتفاق المسميات لا يضر اختلاف الأسماء. فتبين بما ذكرناه أن هذا نزاع لفظي لا يقدر في حقائق المعاني، والاختلاف بين مفسري القرآن وأهل الكتاب في اسم صالح مدين لا يبني عليه تكذيب

(1) انظر : الكامل في التاريخ/عز الدين ابن الأثير 138/1.

(2) انظر : تفسير السمرقندي بحر العلوم/أبو الليث نصر السمرقندي 604/2.

(3) انظر : الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية/سليمان نجم الدين 335/1.

(4) انظر : دراسات في تايخ العرب القديم/محمد بيومي مهران 170/1.

(5) انظر : تاريخ الملوك والأمم/جمال الدين أبو الفرج الجوزي/334/1.

القرآن الكريم بأي حال، لأن القصة وردت في القرآن دون ذكر اسم أبي البننتين، ولا فائدة في ذكر الأسماء إذا تحقق الغرض من القصة.

وسنبين علاقة هذا الرجل الصالح بيناته من خلال النقاط الآتية :

1- البنت الصالحة تقوم مقام الولد عن أبيها الشيخ الكبير

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ القصص:

[24-23]

الآيات تتحدث عن كليم الله موسى عليه السلام حين خرج من مصر هارباً من فرعون إلى أرض مدين، حيث قوم شعيب عليه السلام، وهي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط، بينها وبين تبوك ست مراحل، وهي أكبر من تبوك في ذلك الوقت وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم الرجل الصالح. وسميت مدين نسبةً إلى قبيلة من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وشعيب عليه السلام نبيهم. (1)

ذُكرت قصة عتوهم في القرآن الكريم، كانوا يخيفون المارة ويعبدون الأيكة- شجرة من الأيكة- أهلكتهم الله بأنواع من العذاب وقد كانت قصتهم في القرآن قصة التجارة المحتكرة، والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتريص بكل منهج من مناهج الطرق، وهكذا كانت رسالة شعيب عليه السلام، رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع في البيئة التي تعرضت لها بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم.

وقد كان أهل مدين قومًا عربيًا سمو المديانيين، وقد كانت مدين هذه إنما تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء، ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المديانيين إنما كانت تقع إلى الشرق من العبرانيين، ويبدو أنهم قد توغلو في المناطق الجنوبية لفلسطين، متخذين منها مواطن جديدة، عاشوا فيها أمداً طويلاً (2)

فلما وصل إليها موسى هارباً من فرعون نزل إلى ماء مدين، فشاهد رعاة يسقون الأغنام، ولكنه لفت انتباهه وجود امرأتين من دونهما والباقي رجال، كما كانتا لا تسقيان غنهما مثل باقي الرعاة، بل كانتا تمنعان غنهما من الشرب، فأدرك أن هناك شيء غير طبيعي في

(1) مرصد الاطلاع 1246/3، البداية والنهاية/الحافظ ابن كثير 184/1 بتصرف

(2) انظر : تفسير ابن أبي حاتم/عبد الرحمن الرازي 2961/9

المشهد، واستشعر ضرورة تدخله ليستفسر عن الحالة التي أثارت فضوله في أن يسأل عنها ويقدم المساعدة إذا لزم الأمر، فتقدم إلى المرأتين يسأل عن الأمر، بأدب واختصار فقال: ما خطبكما؟؟ أي لماذا تذودان الغنم عن الماء؟.

قال الراغب الأصفهاني في معنى تذودان: " أي تطردانه، وهي من ذاد الإبل أو الغنم يذودها نودا: أي منعها أو ساقها، أو دفعها، أو طردها أو كفها(1)".

ومعنى الآية: أن المرأتين تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس. وهو أولى ما قيل في معناها(2)

وقد أخبرت التوراة أن البنات كن سبع وليس اثنتين، فمن الجائز أن السبع حضرن لكن الذي تولى ذود الغنم منهن اثنتان، والأخريات يملأن الحياض، أو ينظرن في مصلحة أخرى للغنم، فوقع الخطاب في القرآن على الذائنتين دون البواقي، وكلامهم هذا من غير دليل والأولى عدم الوثوق بالتوراة المحرفة في هذا وفي غيره، لأن ذلك مما حُرِف في التوراة فحُرِف من اثنتين إلى سبع، فأهل الكتاب اشتهر عنهم ذلك، وتناقض ما بأيديهم من الكتب، لدليل صحيح على ذلك، فنحن مع ما أخبرنا به القرآن أنهما اثنتان(3).

لاحظ موسى عليه السلام هذه الجماعة من الناس التي تسقي أنعامها وأغنامها أن عددها أربعون رجلا، وقيل عشرة رجال، بينما المرأتان تطردان غنمهما وتكفانه حابسة له لكيلا تختلط بغيرها حتى تنتهي مواشي الناس وأغنامهم من السقي ثم تسقيان بفضل الماء، ومما فضل من أغنام الناس، فهذا ما دفعه عليه السلام للسؤال، فقال لهما موسى: ما شأنكما ترعيان الغنم مع الرجال؟ وما بالكما لا تسقيان مع الناس؟

فقالتا: لا نسقي حتى تصدر الرعاء عن الماء، ونسقي بفضلهم، لأننا لا نقدر أن نسقي، وأن نزاحم الرجال، وإذا صدروا سقينا من فضل مواشيتهم. وذكروا له أن أبوهما شيخ كبير لا يقدر على الخروج، وليس له عون يعينه غيرنا. وحين فرغ الرعاة من السقي، وضعوا صخرة على البئر.

فانتهى موسى إلى البئر وقد أطبقت عليها الصخرة، فاقتلعا ثم سقى لهما حتى أروتا أغنامهما(4).

(1) انظر: لسان العرب/الراغب الأصفهاني 167/3.

(2) انظر: تفسير القرطبي/أبو عبد الله محمد القرطبي 268/13.

(3) انظر: تفسير مجاهد/أبو الحجاج مجاهد المخزومي 526/1.

(4) انظر: تفسير السمرقندي بحر العلوم/أبو الليث نصر السمرقندي 604/2.

وكان لا يطيق رفعها عن البئر إلا عشرة رجال، فرفع موسى الحجر وحده، فلم يستق إلا دلوً واحداً حتى رويت الغنم، ثم انطلق إلى الظل (1)

2- قوة شخصية البنت الصالحة ودقة تقييمها للموقف

اعتادت المرأتان على أن تنتظر حتى يصدر الرعاء، ثم بعدها تسقي غنمهما، وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على عدم الرحمة بالضعاف والنساء منهم في المحيط الملتف بهم. خاصة إذا لم يوجد العنصر الذكري المعتمد عليه في هذه الأعمال الصعبة، أو باعتبار أن والد المرأتين شيخ كبير كفيف البصر، فمع عدم التكافل الاجتماعي الواضح، كان لظهور موسى عليه السلام بأخلاق لم تعهدها بنات الرجل الصالح الأثر الكبير في وصفه أنه قوي أمين مع طلب إحداها من أبيها أن يستأجره، فيقول المولى عليه السلام: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٦٦﴾﴾ [القصص: 26]

لقد كان كليم الله موسى عليه السلام، رجلاً شجاعاً قوياً، صاحب نجدة، لا يتأخر عن مساعدة الآخرين، وهاهو يُعين المرأتين ويسقي لهما، بدون مقابل مع حاجته، وقد رأت المرأتان ذلك فحكيا لأبيهما، الذي أرسل ابنته تدعوه للقائه، فرأت من عفته وأمانته ما جعلها تطلب من والدها استئجار الرجل القوي الأمين (2).

وهذا يدل على قوة شخصيتها وقدرتها على الحكم على الأمور ووزنها، بل تبدو الثقة واضحة بين الأب وبناته، وكذلك أسلوب الحوار والمناقشة والصراحة والعمل للمصلحة العامة والتعاون، ولا عجب في ذلك فالأب صالح وأحسن تربية بناته وفي المقابل كانت البنات على قدر الثقة الممنوحة لهن من الأب الشيخ الكبير الكفيف.

في قولها: {لقوي} أنه كان على تلك البئر التي سقى منها صخرة لا يرفعها إلا أربعون رجلاً، فرفعها موسى وحده، وذلك أنه سألهما: هل هاهنا بئر غير هذه؟ فقالتا: نعم، ولكن عليها صخرة لا يرفعها إلا أربعون رجلاً. ونعتها له بالأمين: فالأمانة التي رأت منه أنها حين جاءته تدعوه قال لها: كوني وراثي، وكره أن يستدبرها (3)

(1) انظر: تفسر مجاهد/أبو الحجاج مجاهد المخزومي 526/1.

(2) انظر: صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم/حاتم مزرعة 194/1.

(3) انظر: تفسير يحيى ابن سلام/يحيى ابن سلام ابن أبي ثعلبة 588/2.

وقد سألتها أبوها الشيخ : أما القوة فقد رأيتها حين اقتلع الصخرة، فهل رأيت أمانته، ما يدريك عنها؟ قالت : مشيت قدامه فلم يحب أن يخونني في نفسي، فأمرني أن أمشي خلفه. (1)

3- تربية صالحة، صلاح في السلوك واستقامة في الكلام :

قال تعالى: ﴿ فَجَاءَهُمَا وَتَمَشَى عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ ائْتِكِ أَبِي يَدْعُوكِ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: 25]

عندما سقى موسى ﷺ للمرأتين جلس إلى الظل، ودعا ربه قائلاً كما أخبر المولى في كتابه العزيز: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: 24] فإن هذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه (2) فقد كان موسى ﷺ قد فاض قلبه إيماناً بالله، وعظمت ثقته به وتوكلاً عليه، حين قصد الله وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل بعدما خرج هارباً من مصر بعد قتله القبطي، كما أخبر بحاله الله عز وجل حين يقول: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصص: 22] فلما اشتدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذه في مدين، توجه إلى ربه وسأله من فضله، وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره، أو يعرض لمن سقى لهما من المرأتين بطلب الأجر (3)

لما رجعت المرأتان إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما قفلت قال لهما : ما أعجلكما قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحماً، فسقى لنا ثم تولى إلى الظل فقال : (رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) (4) فقال أبوهما: ينبغي أن يكون هذا جائعاً، وقال لإحدهما: اذهبي فادعيه إلي، ويقال : إن التي نادته لأبيها هي الكبرى واسمها صفوريا (5)

(1) انظر : تفسير الطبري/محمد ابن جرير الطبري 564/19.

(2) انظر : التحفة المدرية شرح العقيدة التدمرية/فالح بن مهدي الدوسري 136/2 .

(3) انظر : فتاوى ورسائل/سماعة الشيخ عبد الرزاق عفيفي 202/1.

(4) انظر : روح البيان/إسماعيل حقي الخلوئي 396/6

(5) انظر : تفسير السمرقندي بحر العلوم/أبو الليث نصر السمرقندي 604.

فلما أنته أعظمته وغطت وجهها، ثم: ﴿قَالَتْ إِنَّكُ أَبِي يَدْعُوكُ لِيجزِيكُ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا..﴾ [القصص: 25]. قالت المرأة لموسى ﷺ مباشرة: إن أبي يدعوك ليكافئك عما سقيته لنا، ولولا أنه كان ﷺ بين الجبال خائفا مستوحشا جائعا ما أجابها، ولكنه انطلق معها وهي أمامه، فالزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته او كشفته عن ساقبها، وجعل موسى ﷺ يعرض مرة، ويغض مرة، فلما عيل صيره ناداها: يا أمة الله كوني خلفي، وأريني السميت أي الطريق بقولك، فتأخرت وكانت تقول عن يمينك وشمالك وقدامك، حتى أتيا دار شعيب فبادرت المرأة إلى أبيها وأخبرته فأذن له في الدخول، وشعيب يومئذ شيخ كبير وقد كف بصره، فسلم موسى فرد عليه السلام، وعانقه ثم أجلسه بين يديه وقدم إليه طعاما فامتتع منه وقال أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيته، وأنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، فهو من بيت النبوة من أولاد يعقوب. (1)

فقال شعيب: لا يا شاب ولكن هذه عادتي وعادة آبائي، إقراء الضيف وإطعام الطعام، فتناول هذا، وإن من فعل معروفا فأهدي إليه شيء لم يُحرم أخذه، فجلس موسى ﷺ فأكل (2). وأخبره بقصة القتل والهرب، فطمأنه الرجل الصالح، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكُ أَبِي يَدْعُوكُ لِيجزِيكُ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 25] يعني: أنك خرجت من ولاية فرعون، ولا سلطان له في أرضنا (3).

فإن سأل سائل: كيف جاز لشعيب إرسال ابنته لطلب أجنبي قلت لأنه لم يكن له من الرجال من يقوم بأمره، ولأنه ثبت عنده صلاح موسى وعفته بقرينة الحال وبنور الوحي، وقد جاءت المرأة وحالها تمشي على استحياء، وذلك لتتمام إيمانها وشرف عنصرها وكريم نسبها، أنته على استحياء وفي الحديث (الحياء من الايمان) (4) أي شعبة منه.

قال أعرابي: " لا يزال الوجه كريما ما غلب حياؤه، ولا يزال الغصن نضيرا ما بقي لحاؤه " ومعنى على استحياء: واضحة ثوبها على وجهها ليست بخراجة ولا ولاجة (5).

(1) انظر: روح البيان/إسماعيل حقي الخلوتي/396/6.

(2) انظر: سير السلف الصالحين/إسماعيل بن محمدا لأصبهاني/800/1.

(3) انظر: تفسير السمرقندي بحر العلوم/أبو الليث نصر السمرقندي/406/2.

(4) صحيح البخاري/باب الحياء من الإيمان/14/1.

(5) انظر: تفسر مجاهد/أبو الحجاج مجاهد المخزومي/526/1.

ورود انها : مستترة بكم درعها وقيل : كانت مقنعة، ولم تك متبرجة. وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، ويقال: أقل من ذلك.⁽¹⁾

4- اختيار الأب الصالح لابنته الزوج الصالح :

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القصص: 27]

عَظَّمَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ شَأْنَ الزَّوْجِ، وَجَعَلَهُ نِعْمَةً مِنَ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ، وَآيَةٌ مِنْ آيَاتِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْخَلْقِ، وَأَوَّلُ خَطَوَاتِ هَذَا الزَّوْجِ وَأَخْطَرُهَا، اخْتِيَارُ الطَّرْفِ الْآخَرِ، وَالَّذِي يَكُونُ شَرِيكَ الْحَيَاةِ، وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْاِخْتِيَارُ بَعْنَايَةٍ، وَأَنْ يَكُونَ الْمُخْتَارُ مِنْ ذَوِي الْاِسْتِقَامَةِ، مَتَمْتَعًا بِالْاِخْلَاقِ الطَّيِّبَةِ، كَيْ تَدُومَ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ الْاَسَاسِيَّةُ فِي الْمَجْتَمَعِ، فَحِينَ رَأَى الشَّيْخُ الصَّالِحُ فِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الْكِفَاةَ وَالْاَمَانَةَ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ عَرَضَ عَلَيْهِ تَزْوِيجَهُ مِنْ ابْنَتِهِ بِلا تَرَدُّدٍ وَخَاصَّةً حِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ مِنْهُ الْقِصَصَ. وَالنَّاسُ جَرَتِ عَادَاتُهُمْ أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ غَرِيبٌ، فَظَهَرَتْ مِنْهُ النَّجَابَةُ وَالْخَيْرُ وَالْخِصَالُ الْحَمِيدَةُ وَالْاَفْعَالُ النَّافِعَةُ، تَمَسَّكُوا بِهِ وَحَسَنُوا لَهُ الْمَقَامَ عِنْدَهُمْ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَسْكَنَ وَالسَّكَنَ لِیُرْتَبَطَ بِذَلِكَ بِهِمْ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ وَيَنْتَفِعَ بِهِمْ.

وقد كان الشيخ الكبير أحق الناس بمثل هذا لكبره، وكون بناته ضعافا عن القيام بأمر الغنم والبقر، وليس لديه أولاد ذكور، وقد كان الرعاة يستضعفونهن، فعرض عليه الزواج من إحدى ابنتيه⁽²⁾، وكان الأب حاذقاً، فعلم إعجاب ابنته بموسى عليه السلام، وعلم صدق موسى فيما قص عليه، فبادر وهو الأب الناصح بطلب تزويجه بابنته، كسباً للرجل الأمين، في مثل أخلاق موسى عليه السلام، الذي يثق في رعايته وحفاظه على ابنته⁽³⁾

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء موسى عليه السلام، وهياً له بيئة صالحة يحيا فيها حياة طيبة، كان عرض الأب زواج ابنته بمهر يقدمه الزوج، يحفظ للزوجة حقها وكرامتها ويقره وليها، فلهذا قال لموسى عليه السلام ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ [القصص: 27] فعرض الزواج، على أن يرعى له الغنم ثماني حجج، وإن

(1) انظر : تفسير السمرقندي بحر العلوم/أبو الليث نصر السمرقندي/2/604.

(2) انظر : تفسير مجاهد/أبو الحجاج مجاهد المخزومي/1/526.

(3) انظر : صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم/حاتم مزروعة/1/194.

أتمَّ عشر سنوات كان ذلك مكرمة منه، فالتزم موسى بذلك، ولم يمنعه ما كان فيه سابقاً من رغد العيش، وحياة الملوك أن يكون أجيراً، يأكل ويتزوج من كسب يده⁽¹⁾ وأشهد ربه على ذلك:

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ نَقُورٌ وَكَيْلٌ ﴾

[القصص: 28] لقد أشهد موسى ﷺ الله في جميع ما يجري بينه وبين الرجل الصالح من المعاملة، وقال له : لا ظلم علي ولا مجاوزة على أي الاختيارين قضيت، والله وكيل على مقالتي ومفالتك، والوكيل: هو الشهيد أو الحافظ، كأنه يقول: والله على ما نقول شهيد.⁽²⁾ وقد ثبت أنه ﷺ أتم أبعد الأجلين فذكر أن جبريل جاء رسول الله ﷺ فقال: " إن سئلت: أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: أبرهما وأوفاهما، وإن سئلت: أي المرأتين تزوج؟ فقل: أصغرهما ".⁽³⁾

(1) انظر : مذكرة التوحيد/عبد الرزاق عفيفي/82/1.

(2) انظر : تفسير الماتريدي تأويلات أهل السنة محمد بن محمد الماتريدي 158/8.

(3) انظر : تفسير ابن كثير/أبو الفداء إسماعيل الدمشقي/232/6.

المبحث الخامس

علاقة الأم بولدها

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: علاقة هاجر بولدها إسماعيل عليه السلام

المطلب الثاني: علاقة أم موسى بموسى عليه السلام

المطلب الثالث: علاقة امرأة عمران بمريم عليها السلام

المطلب الرابع: علاقة مريم بابنها عيسى عليه السلام

المطلب الأول

علاقة هاجر بولدها إسماعيل عليه السلام

هاجر المصرية القبطية هي زوج خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وأم ولده إسماعيل عليه السلام الذي جعل الله منه أشرف نطفة على الأرض، ألا وهي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كانت هاجر أمةً لسارة زوج إبراهيم عليه السلام وأم ولده إسحاق كما سبق ذكره (1)، وكان قد أخدمها إياها فرعون مصر، سنان بن عمليق، قيل إنه أول الفراعنة (2)، وهو الذي نزل به البلاء لما مد يده إلى سارة زوج إبراهيم عليه السلام يريد لها لنفسه، ولكن الله حماها فلم يستطع أن ينل منها، وكان يؤخذ أخذاً شديداً كلما مد يده إليها، فتركها وأخدمها هاجر فعادت سارة إلى إبراهيم عليه السلام قائلةً له : أبشر فقد كف الله يد الفاجر الكافر عني واخدمني هاجر (3)

وستنتضح العلاقة بين هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام من خلال هذه العناوين :

1- حكمة الله في اختيار الرحم الأول لأشرف الخلق :

قدّر الله عز وجل أن تنتقل البذرة المصطفاة لخروج محمد صلى الله عليه وسلم، من إبراهيم إلى امرأة أخرى غير زوجته سارة، وأن تكون السيدة هاجر هي الوعاء الأول الذي يحمل هذه البذرة، وتذكر التوراة بما لا يتنافى مع عقيدتنا وأخبار كتابنا، أن سارة امرأة إبراهيم لم تكن تلد له، وكانت هاجر أمةً مصرية لها تخدمها، فقالت سارة لإبراهيم إن الرب قد حرمني الولد، فادخل على أمتي وابن بها لعلني أرزق بولد منها، فسمع إبراهيم قول سارة وأطاعها، فأنطلقت سارة امرأة إبراهيم بهاجر أمتها فأدخلتها على إبراهيم زوجها فدخل إبراهيم على هاجر فحبلت بإسماعيل عليه السلام.

وفي الأثر: أن إبراهيم عليه السلام استو هب هاجر من سارة فوهبتها له، وشرطت عليه أن لا يسرها فالتزم ذلك (4) وهاجر أم إسماعيل عليه السلام من قرية تسمى أم العرب، ومن الاتفاق الغريب أن إسماعيل أبو العرب، وأم هاجر من أم العرب، كما كانت امرأة وضيئة ذات هيئة جميلة (5)

وقد كان لهذا النسب والرحم شأناً ورعايةً أولاهها نبينا صلى الله عليه وسلم اهتماماً بالتواصي بالأقباط المصريين وبأهل مصر فقد قال صلى الله عليه وسلم : (إذا افتتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً) (6)

(1) في الفصل الأول / المبحث الأول / المطلب الثاني ص 42.

(2) مرآة الجنان وعبرة اليقظان/أبو عفيف الدين الياضي 177/3 بتصرف.

(3) تفسير عبد الرزاق/أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني 2 /401 بتصرف.

(4) التفسير الوسيط /للواحد ج 7 ص 568 بتصرف.

(5) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي/عبد الملك بن حسين المكي 187/1 بتصرف.

(6) مسند الإمام أحمد/أبو عبد الله أحمد الشيباني 410/35، إسناده صحيح على شرط مسلم.

قيل : " إن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما ملك مصر أخبرهم بوصية النبي صلى الله عليه وسلم بهم، فقال: هذا نسب لا يحفظ حقه إلا نبي، لأنه نسب بعيد وذكروا له أن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا، ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم في بعضها دولة، فقتلوا الملك وسبوا، ومن بعدها تسيرت إلى أبيكم إبراهيم عليه السلام".⁽¹⁾

وفي شرح الحديث قال الإمام النووي: " الذمة هي الحرمة والحق، وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر، فلكون مارية أم إبراهيم زوج محمد صلى الله عليه وسلم منهم" ⁽²⁾

وتتجلى حكمة ربنا سبحانه وتعالى في أن يكون محمداً صلى الله عليه وسلم، من فرع يختلف عن أنبياء بني إسرائيل الكثر وإن كان الأصل واحداً، وهو إبراهيم عليه السلام، كما تتجلى حكمته سبحانه وتعالى في أن تكون الديار الحجازية، المكان الذي يحتضن هذه البذرة إلى أن ترى النور وتخرج بعد مئات السنين لهداية البشر، حيث أرض الحرم.

2- هاجر يقع عليها الأذى بسبب إنجابها إسماعيل عليه السلام :

ظنت السيدة سارة زوج سيدنا إبراهيم أن مهمة جاريتها السيدة هاجر هي إنجاب نسل مع بقائها جارية، تسخرها لخدمتها كيفما تشاء، ورغم أن سارة ذات منزلة رفيعة، تظل امرأة فطر الله فيها الشعور بالغيرة من ضررتها، ففعلت بها ما دفعها إليه غيرتها، فقد غضبت ذات يوم على هاجر فأقسمت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأمرها الخليل أن تنقب أذنيها، وأن تخفضها فتبرّ قسما. والسيدة هاجر أول امرأة ثقبت أذنيها، وأول من خفض ⁽³⁾ من النساء، فصارت سنة في النساء ⁽⁴⁾

وكانت هاجر أول من طولت ذيلها. ⁽⁵⁾ حتى لا تعرف سارة آثارها فتلحق بها وتؤذيها، فالسيدة هاجر هي أول من أحدثت جرّ الذبول، لأنها لما فرت من سارة، أرخت من ذيلها ليعفى أثرها. ⁽⁶⁾

(1) تاريخ ابن خلدون/عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي/2/88 بتصرف.

(2) شرح مسلم/الإمام النووي 97/16 بتصرف.

(3) خفض الصبية خفاضاً: خنتها، والشريعة لا توجب هذا.

(4) الروض الأنف السلمي/أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي/1/46 بتصرف.

(5) قصص الأنبياء/أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير/1/202 بتصرف.

(6) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق، أحمد بن محمد الثعلبي/5/322 بتصرف.

والرواية التوراتية تقول أن هاجر اضطهدتها سارة سيدتها، مما دفع هاجر للهروب منها، فلقبها ملاك الرب على عين ماء في البرية في طريق جرار فقال لها: يا هاجر أمة سارة أين تريدين؟ فقالت: أنا هاربة من سارة سيدتي، فأخبرها ملاك الرب عن قول الرب: أنا أكثر زرعك ومنميه، حتى لا يحصوا من كثرتهم، وستلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد عرف ذلك وخضوعك، ويكون ابنك هذا وحشيا من الناس يده على كل ويد كل به، وسيحل على جميع حدود إخوته، فدعت اسم الرب الذي كلمها ملاكه، فقالت: أنت الله ذو الوحي والرؤيا⁽¹⁾

وأنجبت السيدة هاجر ابناً لإبراهيم عليه السلام، وكان هذا الابن قرّة عينها وبهجة قلبها، لكن سارة لم ترحمها فأدلتها، وخضعت هي لها، وازدادت السيدة سارة إذلالاً لها وتعنتاً. فاستجارت بزوجها إبراهيم عليه السلام لكنه تركها لسيدتها سارة بقوله لها: "هو ذا جاريتك" فاشتدت بها إيلاً وإيذاء، ولم تصبر على بقاء هاجر معها، فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه، اشتدت غيرتها وخافت أن تستحوذ وابنها على قلب إبراهيم فلا يبقى مكانا لها، أو لأنها لا تريد أن ترى إسماعيل، فلم تعد تطيق البقاء معها فطلبت من إبراهيم عليه السلام إبعاد هاجر⁽²⁾

وقيل: عندما ولدت سارة إسحاق عليه السلام، وكبر اقتتل هو وإسماعيل، فغضبت سارة على أم إسماعيل، وغارت عليها، فأخرجتها، ثم إنها دعته فأدخلتها، ثم غضبت أيضاً فأخرجتها، ثم أدخلتها، وحلفت لتقطعن منها بضعة، فقالت: أقطع أنفها، أقطع أذنها، فيشينها ذلك، ثم قالت: لا بل أخفضها، فقطعت ذلك منها⁽³⁾.

ورواية أخرى أن إبراهيم عليه السلام قد سابق بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، فسبق إسماعيل إسحاق، فأخذه إبراهيم وقبله ووضع على ركبته فقالت له سارة: تجلس إسماعيل على ركبتيك دون ولدي إسحاق، ولي عليك أن لا تسوءني ولا تغايرني.

وقيل: إن إسماعيل وإسحاق اقتتلا ذات يوم كما يفعل الصبيان، فغضبت سارة على هاجر وقالت لهاجر: لا تساكنيني بعد يومك هذا ثم أمرت إبراهيم أن يحولها ويغريها⁽⁴⁾

وأشك في صدق القصتين لأن بين إسماعيل وإسحاق أربعة عشر عاماً، وإسماعيل أكبر منه وحين خرجت هاجر بابنها كان رضيعاً، ولم يكن إسحاق مولود بعد والله أعلم.

(1) العهد الجديد/ال سفر الأول في الإصحاح 16 و 21.

(2) التفسير الوسيط/للواحد ج 7 ص 568 بتصرف.

(3) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام/محمد بن أحمد أبو الطيب الفاسي 21/2 بتصرف.

(4) انظر: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس/حسين بن محمد الديار بكر 93/1.

فلحكمة يعلمها الله وحده، أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام أن يبعد هاجر وابنها عن سارة، ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورأفته بآل البيت ⁽¹⁾، كما أن خروج هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام إلى أرض الحجاز بقدر الله، فقد أراد سبحانه تأسيس الحال وتمهيد المقام، وخط الموضع للبيت الحرام والبلد الحرام، تمهيداً لمولد خاتم النبيين وأشرف الأنام محمد صلى الله عليه وسلم فيها، وانتشار الإسلام منها إلى المعمورة.

3- خوف الأم على رضيعها ويقينٌ أكيدٌ بالله عز وجل :

بقدر الله عز وجل وإرادته، ذهب إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وولده إسماعيل إلى مكة وابنها فوضعها هناك ⁽²⁾ وكان موضع البيت ربوة حمراء فعمد إبراهيم عليه السلام إلى الحجر فأنزلها فيه، وأمرها أن تتخذ فيه عريشاً ثم انصرف عنها.

وقال بعض من أهل العلم : إن الله عز وجل لما بوأ لإبراهيم مكان البيت ومعالم الحرم، فخرج وخرج معه جبرائيل، يقال: كان لا يمر بقرية إلا قال: بهذه أمرت يا جبرئيل: فيقول جبرئيل: امضه، حتى قدم به مكة، وبها أناس يقال لهم العماليق، خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء، فقال إبراهيم لجبرئيل: اها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم ⁽³⁾

فعمد بهما إلى موضع الحجر، فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً، ثم دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلاً : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: 37] ثم انصرف فاتبعته هاجر فقالت: إلى من تكلنا؟ فجعل لا يرد عليها شيئاً فقالت: آله أمرك بهذا؟ قال : نعم، قالت: إذا لا يضيعنا. ثم انصرف راجعاً إلى الشام ⁽⁴⁾ وتركهما عند البيت، فرجعت عنه وكان معها ماء في شن ⁽⁵⁾

كانت هاجر تأكل من التمر القليل الذي تركها لها، وتشرب من قربة الماء معها، فلما فرغ الماء نشف اللبن، وجعل الولد يتخبط من العطش، و يبكي وصار يعلو صوته وينخفض ويضرب بعقبه، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه وقالت: يموت وأنا غائبة عنه أهون علي، وعسى الله أن يجعل في ممشاي خيراً، فنظرت أي الجبال أدنى إلى الأرض، فصعدت الصفا

(1) تفسير البغوي/محيي السنة، أبو محمد الحسين البغوي 215/4 بتصريف.

(2) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام/محمد أبو الطيب الفاسي 21/2 بتصريف.

(3) الضياء الشارق في رد شبهات المانق المارق سليمان بن سحمان بن مصلح الخثعمي 571/1 بتصريف.

(4) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور/زينب بنت علي بن حسين العاملي 34/1 بتصريف.

(5) انظر : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي/عبد الملك بن حسين المكي 187/1 بتصريف

والشن : وعاء من جلد يوضع فيه الماء

فتسمعت: هل تسمع صوتاً، أو ترى أنيساً؟ فلم تسمع شيئاً فانحدرت، فلما أتت على الوادي سعت وما تريد السعي كالإنسان المجهود الذي يسعى وما يريد السعي، فنظرت أي الجبال أدنى إلى الأرض، فصعدت المروة، فتسمعت: هل تسمع صوتاً أو ترى أنيساً؟ فسمعت صوتاً، فقالت كالإنسان الذي يكذب سمعه: صه! حتى استيقنت، فقالت: قد أسمعتني صوتك فأغثني، فقد هلكت وهلك من معي⁽¹⁾.

لعلها ترى أحداً، فلما بلغت سبعة أطواف وسمعت صوتاً في الهواء، فقالت: أغث إن كان معك غياث، فتبدي جبريل بين يديها حتى وصل إلى موضع زمزم، فهمز بعقبه ففار الماء، فلما رأته دهشت، وخافت عليه يذهب فجعلت تحوطه، وتقول: زم زم، فانحصر الماء. قال ﷺ: "يرحم الله أم إسماعيل، لو تركته، كان عينا معينا"⁽²⁾ فقال لها جبريل: لا تخافي الظمأ على أهل هذه البلدة فإنها عين لشرب ضيفان الله تعالى، وقال لها: أما إن أب هذا الغلام سيجيء فيبنيان لله تعالى بيتاً هذا موضعه⁽³⁾

ثم إن جرهم رأوا طيوراً تحوم، فقالوا: لا طيور إلا على الماء. فقصدوا الموضع، فوجدوها مع ابنها، وعندها عين ماء، فقالوا لها: أتشركينا في مائك، ونشركك في ألباننا؟ ففعلت. وفي حديث البخاري: «قالوا لها: أتحبين أن نسكن معك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء"⁽⁴⁾. فرحلوا إليها، وسكنوا معها، ثم زوجوا ولدها منهم⁽⁵⁾.

وقالوا عن ماء زمزم: لا بأس بنقل مائها بل هو مندوب «لأن المصطفى كان ينقله من مكة إلى المدينة ويهديه لأصحابه وكان يستهديه من أهل مكة». وذكر عن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه كان يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق شغفا بها وقلة صبر عنها⁽⁶⁾. وعن سعيد بن جبیر رضي الله عنه أنه حدث عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أول من سعى بين الصفا والمروة لأم إسماعيل⁽⁷⁾.

4- ورفعنا لك ذكرك، فبعد المحنة توهب المنحة لهاجر وابنها :

رحم الله أم إسماعيل كم كانت في موقف صعب، وهي في صحراء مقفرة، بين خوفها على ابنها الذي كان يشرف على الهلاك يتلوي ويتلطب، وبين وحشة المكان المقفر، وهي تسمع

(1) تاريخ الطبري/محمد ابن جرير الطبري/1/254 بتصرف

(2) صحيح البخاري/كتاب التوحيد / باب من رأى أن صاحب الحوض/3/112.

(3) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور/زينب بنت علي بن حسين العاملي/1/34 بتصرف

(4) مختصر صحيح الإمام البخاري/أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين/باب النسلان في الشيء/2/415.

(5) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد/أبو العباس أحمد بن محمد الصوفي/3/66 بتصرف.

(6) تحفة الحبيب على شرح الخطيب/سليمان بن محمد بن عمر الجبيري/1/75 بتصرف.

(7) الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق سليمان بن سحمان بن مصلح الخثعمي/1/571 بتصرف.

أصوات سباع الوادي من كل جهة، فنقبَل مسرعة إلى رضيعها لتؤنسه خائفةً عليه، وهي وحدها في فلاة لا ماء فيها ولا نبات ولا أنيس ولا جليس؟! في مكان غير مسكون، ومع وجود رضيعها يزداد الموقف حرجاً، فلو كانت وحدها لكانت المسئولية أخف والمشاعر مختلفة؛ لأن عاطفة الأمومة تتحرك فيها فيزيد الحال تأزماً وسوءاً، ومع ذلك هي على يقين أن الله لن يضيعها، فلم تياس بل تحركت لتأخذ بالأسباب، فنظرت إلى الصفا وهو أقرب مكان مرتفع فصعدت عليه لتستطلع ما وراءه لعلها تجد مغيثاً، أو ترى ماءً، أو ترى رائقاً أو غادياً يسعفها بماء فلم تجد ولم تر شيئاً، فنظرت إلى الجهة الأخرى، وأقرب مكان مرتفع إليها هو المروة، فنزلت من الصفا وصعدت على المروة، لتستطلع ما وراء المروة كاستطلاعها إلى ما وراء الصفا، ولكن كان من طبيعة الأرض وجغرافية المكان أن إسماعيل كان في مكان منخفض، وأخفض مكان في مكة هو مكان الكعبة، ولما كانت هي في المرتفع على الصفا كانت قريبة وتراه، فإذا انصبت قدمها في بطن الوادي صار مستوى نظرها دون مكان إسماعيل فلم تراه، فانشغلت عليه فأسرعت حتى أتت إلى شاطئ الوادي من الجهة الأخرى فتراه رأتته فتستقر، فمشت مشياً عادياً، فنظرت وراء المروة فلم تجد شيئاً، فرجعت من المروة إلى الصفا، وعادت من الصفا إلى المروة، وتركها الله تفعل ذلك سبع مرات، ونحن الآن إذا سعينا بين الصفا والمروة لا بد من سبعة أشواط، بل نفعل تماماً مثلما فعلت هاجر، فإذا انصبت أقدامنا في بطن الوادي نسرع مع أن السبب قد ذهب وسبب الإسراع في السعي قد انتهى ولكن بقي التشريع⁽¹⁾

فجعل الله من أخذها بالأسباب وتحركها الحثيث للبحث عن مغيث، شرعةً ينتهجها المسلمون في فريضة من أحب الفرائض إلى قلوبهم، ألا وهي فريضة الحج. وحين رأى ابن عباس قوما يطوفون بين الصفا والمروة فقال: هذا ما أورتكم أمكم أم إسماعيل انطلقت حين عطش ابنها وجاع، فوجدت الصفا أقرب جبل إلى الأرض فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنتظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً فهبطت من الوادي، ورفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة وقامت لعلها تنتظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات.⁽²⁾

وهي أشواط الحاج السبعة التي يسعى بها بين الصفا والمروة، تكريماً للموقف اليقيني بالله عز وجل للسيدة هاجر وإنما جعل جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يفعلون تماماً مثلما فعلت هاجر أم إسماعيل عليها السلام تأسياً بها.

(1) شرح بلوغ المرام/عطية سالم ج3 ص174 بتصرف.

(2) الكشف والبيان عن تفسير القرآن/أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي 28/2 بتصرف.

المطلب الثاني

علاقة أم موسى بموسى عليه السلام

من الطبيعي والمعتاد عند استشعارنا بخطر الهلاك، أن يدفعنا هذا الخطر إلى تأمين الحياة بالشكل الذي يحفظ لنا ذهاب الخطر، ولكن غير المعتاد ولا الطبيعي أن يحيط بنا الهلاك، فنصنع لأنفسنا موتاً آخرأً بشكل جديد، وقد يصبح الأمر أكثر تعقيداً في الاستيعاب إذا كانت الأم هي التي تفعل بوليدها هذا المستنكر. فهذا تماماً ما حدث مع أم موسى عليه السلام التي فعلت هذا بابنها موسى عليه السلام بوحى من الله.

وستتعرف على علاقة هذه الأم بابنها من خلال النقاط التالية:

1- رؤيا فرعون الطاغية تحرق أكباد أمهات بني إسرائيل على أولادهم :

يقول الله في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدْرِكُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: 4]

توارثت الفراعنة ملك مصر بعد وفاة يوسف عليه السلام، فخضعت بنو إسرائيل لحكم الفراعنة حتى كان فرعون موسى الوليد بن مصعب، وقد كان أعتاهم على الله، وأعظمهم قولاً وأطولهم عمراً، فلما كثر بني إسرائيل وتناسلوا بمصر وطال عليهم الأمد، بعدوا عن دين إبراهيم الخليل الذي دعاهم إليه يوسف عليه السلام، وأحدثوا الأحداث العظيمة في الدين وآتوا القبط على أمورهم وطابقوهم على آثارهم، إلا بقايا منهم ظلوا متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام، فسلط الله عليهم فرعون فاستعبدهم واستذلهم وسامهم سوء العذاب : من نقل الطين، وتشبيد الأبنية، وسلخ الأساطين من الجبال، ونقب البيوت في الصخور.

وقد استشرى الظلم على بني إسرائيل واستحك بهم، حين رأى فرعون في المنام رؤيا، وهي أن الله واهب لعبد من عبيدك غلاما يسلبك ملكك، فأمر حتى فرق بين الرجال والنساء، وأن يذبح كل مولود ذكر، وتحدثت كتب التاريخ عن رؤية أخرى وكانت قبل ولادة موسى عليه السلام ، إذ إن فرعون رأى في منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأخرت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة، فسألهم عن رؤياه، فقالوا: يخرج من هذا البلد، يعنون بيت المقدس، الذي جاء منه بنو إسرائيل، رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر أن لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح ويترك الجوّاري⁽¹⁾

(1) البدء والتاريخ/المطهر بن طاهر المقدسي 83/3 بتصرف.

وقيل في رواية أخرى : إنه لما تقارب زمان موسى أتى منجمو فرعون إليه فقالوا: اعلم أنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك، ويبدل دينك. فأمر بقتل كل مولود في بني إسرائيل.⁽¹⁾

وقيل: بل تذاكر فرعون وجلساؤه معاً، ما وعد الله عز وجل إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوك، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل لينتظرون ذلك، وقد كانوا يظنونهم يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا وعد الله إبراهيم، فقال فرعون: كيف ترون؟ فأجمعوا على أن يبعث رجالاً يقتلون كل مولود في بني إسرائيل، وقال للقبط: انظروا ممالئكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلون ذلك، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، فذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَ هُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4]، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح وكان يأمر بتعذيب الحبالى حتى يضعن، فكان يشق القصب ويوقف المرأة عليه فيقطع أقدامهن، وكانت المرأة تضع فتنقي بولدها القصب، وقذف الله الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رعوس القبط على فرعون وكلموه، وقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت فيوشك أن يقع العمل على غلماننا، تذبح الصغار وتفني الكبار، فلو أنك كتبت تبقي من أولادهم، فأمرهم أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فلما كان في تلك السنة التي تركوا فيها ولد هارون، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها، وهي السنة المقبلة.⁽²⁾ فعندها كان انفطار قلب الأم على وليدها الذي سيذبح أمام عينها.

2- موسى الرضيع من حضن الأم إلى حضن الموج ويقين بوعد الله:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذْخِفِيهِ فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَافِي وَلَا تحزني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7] عندما وضعت أم موسى وليدها موسى عليه السلام، خافت من فرعون عليه أن يذبحه فحزنت من شأنه، فأراها الله ما أمرها به في منامها، أن تلقيه في اليم، وفعلاً جعلته في تابوت صغير، ومهدت له فيه، ثم عمدت إلى النيل فقذفته في اليم⁽³⁾

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية/أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني 4637/7 بتصرف.

(2) المختصر في أخبار البشر/أبو الفداء عماد الدين إسماعيل 17/1 بتصرف.

(3) الهداية إلى بلوغ النهاية أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني 4637/7 بتصرف.

وقد أوحى الله تعالى لأم موسى، وهي طريقة لإيصال ما يريد الله عز وجل لمن يريد من عباده فيقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: 51].

فقد بيّن لنا كيف جهة كلامه مع عباده، فكلامٌ من كلامه مع جبريل إلى الرسول ﷺ، ومنه وحياً بلا رسول كما كان مع أم موسى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ وَأَوْحَيْنَا..﴾ [القصص: 7] فقد أوحى الله سبحانه وتعالى بلا رسول، ومنه الوحي إلى الرسل في النوم، ومنه كلامه لموسى ﷺ بلا كيفية، فليس لنا أن نُكَيِّفَ ما لم يُكَيِّفِ اللهُ تعالى، ولا نَحُدَّ ما لم يَحُدِّ اللهُ، فَمَنْ حَدَّدَ ما لم يحد اللهُ، فقد اجترأ على تأويل علم الغيب بلا حُجَّةٍ. (1)

وقيل إن في الوحي إلى أم موسى ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه إلهام من الله قد قذفه في قلبها وليس بوحي نبوة، والثاني: أنه كان رؤيا منام، والثالث: أنه وحى من الله إليها مع الملائكة كوحيه إلى النبيين، فكان هذا الوحي {فَإِذَا خَفَتِ عَلَيْهِ} يعني القتل الذي أمر به فرعون في بني إسرائيل {فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ} واليم: هو النيل. (2)

ليس سهلاً على أم أن تفعل مثلما فعلت أم موسى ﷺ، ولكنه اليقين بالله وبوعد الله عز وجل، ولولا هذا اليقين وهذه الثقة لما نقلت أم موسى ابنها من ذبح فرعون إلى هلاك الغرق، ولكن الوحي الذي أتاها من الله مع اليقين العظيم بقدرة الله جعلها بعد أن ترضعه تلقية في اليم.

فقد دعت نجاراً فجعل له تابوتاً، وجعل مفتاح التابوت من داخله وجعلته فيه وألقته في اليم، فلما توارى عنها التابوت، أتاها إبليس، فقالت في نفسها: ما الذي صنعت بنفسي! لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه بيدي إلى حيطان البحر ودوابه، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجار عند قصر فرعون (3)

تعتبر الآية التي ذُكرت فيها أم موسى من روائع أنواع إعجاز القرآن العظيم، والذكر الحكيم، فقد سمع الأصمعي كلام جارية فأعجبه فصاحتها، فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتِ

(1) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم/ابن الوزير، محمد بن إبراهيم القاسم 402/4 بتصرف.

(2) تفسير الماوردي النكت والعيون/أبو الحسن علي بن محمد البغدادي 235/4 بتصرف.

(3) المختصر في أخبار البشر أبو الفداء عماد الدين إسماعيل 17/1 بتصرف.

عَلَيْهِ فَكَالِقَبِ فِي أَيْمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

[القصص: 7]، فُجِّعَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أُمْرَيْنِ، وَنَهَبَيْنِ، وَخَبَرَيْنِ، وَبِشَارَتَيْنِ، فَإِنَّ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (1)

3- موسى بعيداً عن أمه، وفي قصر عدوه فرعون

يقول الله تعالى ﴿فَالنَّقْطَةُءِءَالِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَنَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ [القصص: 8-9]

يقع محذور فرعون بما لا يتصوره عقل، ولكنها قدرة الله وحكمته أن في بيت فرعون ينمو من على يده زوال ملك فرعون، ويبيده هلاكه، قدر الله وحده الذي جعل فرعون يسمح لموسى أن يكبر أمامه وتحت كنفه ويرعايته في قصره، رغم حذره وما اتخذ من احتياطات مسبقة تحسباً لوقوع الرؤيا التي أزعجته، إنها إرادة الله وحدها، فهو صاحب الملك والمتصرف في ملكه كيف يشاء، القادر على كل شيء قدير.

اعتاد فرعون أن يجلس في حديقة قصره على شفير النيل كل غداة، فبينما هو جالس إذ مر النيل بالتابوت فقذف به، وأسية بنت مزاحم امرأته جالسة إلى جنبه، فقال: إن هذا لشيء عجيب في البحر، فأتوني به، فخرج إليه أعوانه حتى جاءوا به ففتح التابوت، فإذا فيه صبي في مهده، فألقى الله ﷻ عليه محبته فعطف عليه نفسه (2).

حين أخذ أتباع فرعون التابوت بعناية وحرص وفرح كما تؤخذ الغنيمة، لم يكونوا ليعلموا أن من في التابوت، سيكون لهم عدواً، مخاصماً في الحق، ومصدر حزن دائم لهم، ثم يكون سبباً في غرقهم، عقاباً لهم على كفرهم بربهم وعصيانهم لرسولهم، وجددهم بأن الله شديد العقاب (3) سُمِّيَ مُوسَى بِذَلِكَ نَسْبَةً إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالشَّجَرِ، فَالْمَاءُ بِلُغَةِ الْقِبْطِ (مُو) وَالشَّجَرُ (سَا) وَمِنْ هُنَا كَانَ اسْمُهُ الْعَبْرِيُّ مُوسَى (4).

(1) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار/أبو العون محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي/180/1

والإعلام بما في دين النصارى من الفساد/أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي/331/1 بتصريف.

(2) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني/4637/7.

(3) التفسير الوسيط للقرآن الكريم/مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر/1741/7 بتصريف.

(4) البدء والتاريخ/المطهر بن طاهر المقدسي/83/3 بتصريف

وقيل إن جوارى آسية زوج فرعون هن للواتي أخذن التابوت وهن يغتسلن في النهر⁽¹⁾. وفي رواية أخرى : أن بنت فرعون كانت برصاء، فجاءت إلى النيل، فإذا التابوت في النيل تخفقه الأمواج، فأخذته بنت فرعون، فلما فتحته، فإذا هي بصبي، فلما نظرت في وجهه برأت من البرص، فجاءت به إلى أمها، فقالت: إن هذا الصبي مبارك لما نظرت إليه برئت، فقال فرعون: هذا من صبيان بني إسرائيل، هلم حتى أقتله، فقالت له زوجته: (قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ) فقال فرعون: يكون لك، وأما أنا فلا حاجة لي فيه⁽²⁾ فلو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت به، لهداه الله به كما هدى به امرأته،⁽³⁾ وكان فرعون لا يولد له إلا البنات فتركه⁽⁴⁾.

وقيل : "والذي يُحلف به، لو أقرَّ فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن الله حرمه ذلك".⁽⁵⁾ وفي الآية الكريمة نلاحظ (قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ) فقد قدمت امرأة فرعون نفسها عليه في قولها لما تعلمه من حب فرعون لها، وإيثار مصلحتها على مصلحته. وحين قالت (لَأَنْقُتُلُوهُ) خطاب الجمع إما موجه منها إلى فرعون على طريقة التعظيم، إرادة استمالة قلبه بتعظيمه، أو أنه موجه إلى المأمورين بقتل الصبيان.

وقد بهر امرأة فرعون حسن موسى عليه السلام، فقد جعل الله فيه عليه السلام ملاحظة، فكان لا يراه أحد إلا أحبه واستحلاه ومال قلبه إليه، وهو قوله تعالى: ﴿...وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي...﴾ [طه:39] وقد رأت امرأة فرعون فيه من مخايل الشرف، ما يليق بالملوك، ولم يكن لها من فرعون ولد فقالت : لا تقتلوه وذروه حيًّا لعله ينفعنا نفعاً جزيلاً نتوقعه منه، أو نتخذه ولداً وننتبناه حيث لا ولد لنا. وهم لا يدرون ما يُخبئه لهم القدر، من هلاك فرعون وجنوده وإنقاذ بني إسرائيل من عبوديتهم على يديه⁽⁶⁾

رغم أن موسى تربي في قصر فرعون إلا أن الله سبحانه وتعالى حفظه على صفاء روحه وسلامة فطرته، مع أنه كان في أوساط الظلم، والطغيان إلا أنه لم يتأثر ببيئة استشرى فيها الفساد، وطبعت بطابع الجبروت، والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الملوك، ومن يتقلب في النعمة، ورغد العيش حين تُهمل تربيته، من جهل واستهتار، أو رخاوة وخلاعة ومجون،

(1) انظر : المختصر في أخبار البشر/أبو الفداء عماد الدين إسماعيل 17/1

(2) انظر : الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي 2541/13

(3) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/محمد بن جرير أبو جعفر الطبري 307/18

(4) تفسير مجاهد/أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي 522/1 بتصرف

(5) انظر : السنن الكبرى/أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي 172/10

(6) التفسير الوسيط للقرآن الكريم/مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية. بالأزهر 1741/7

بل صانه الله من كل ما يشينه، وآتاه العلم النافع، والحكمة البالغة، وسداد الرأي، كما حفظ عليه من قبل في بدنه⁽¹⁾ فكيف لا يكون مثل هذا حظه وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْقٍ﴾ [طه: 39]

4- موسى قرأ عين أمه يعود إليها " إن وعد الله حق " :

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَدَرِيًّا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: 10-13]

كان لابد لأم موسى أن تتقصى أخبار وليدها بعد أن ألقته في اليم، فقالت لأخته تتبعي خبره، وقد أجاد القرآن بشكل مقطوع النظر، وفي غاية البلاغة في وصف قلب الأم في تلك الحالة، فلا عجب من ذلك فهو الخلاق العظيم، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِبَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19] ولا غرابة فهو الصانع ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]، فأصبح قلب أم موسى خاليًا من كل شيء إلا من شأن موسى، وخاليا من التعقل وحسن التصرف فأمر وليدها يشغل بالها، فقد ألقته في البحر بنفسها، ولا تدرى أين ذهب الماء به حتى أنها كادت لتعلن أمره للناس لشدة وجدها وحزنها على فراقه، لولا أن الله ثبتها وصبرها وجعلها راسخة الإيمان بصدق وعده لها برد وليدها إليها⁽²⁾

وقد روي أن موسى ﷺ لما خرج من التابوت بكى طالباً اللبن فطلب له المرضع من النساء، فلم يقبل ثدي أي امرأة أبداً، فشق ذلك على فرعون، واغتم له، وقلق، وجعل يبعث إلى كل مرضعة، وموسى ﷺ لا يقبل، جاءت أخت موسى ﷺ، فقالت: هل أدلكم على من يرضعه؟ فقيل لها: هاتها، فجاءت بأم موسى، فقبل ثديها، فطابت نفس فرعون ومضت أم موسى به معها، أمانة عليه مما كانت تخافه، وذلك وعد الله لها، وقوله لها: ﴿إِنَّا رَأَوُوهَ الْيَتِيمَ وَأَوْحَيْنَا..﴾ [القصص: 7] وقوله لموسى ﷺ: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ [طه: 40] أي رددناك إلى أمك بعد

(1) مذكرة التوحيد/ عبد الرزاق عفيفي 77/1 بتصرف.

(2) التفسير الوسيط للقرآن الكريم/ مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر 1741/7 بتصرف.

أن كنت في أيدي آل فرعون كي تقر عينها بسلامتك من القتل والغرق، ولا تحزن عليك من الخوف من قتل فرعون (1) فهو الآن في رعاية فرعون.

قال ابن عباس: "انطلقت أخته إلى أمه فأخبرتها فجاءت فلما وضعت في حجرها نزا إلى ثديها فمصّه حتى امتلأ جنباه رياً وانطلق بالبشرى إلى امرأة فرعون قد وجدنا لابنك ظئراً" (2)، فأقبل فرعون وقال لأم موسى حين ارتضع منها: كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك؟ فقالت: لأنني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أكاد أوتى بصبي إلا ارتضع مني. وكان فرعون يعطي أم موسى في كل يوم ديناراً (3).

منع الله موسى أن يرضع ثدي امرأة قط، فقد قال ابن عباس: "لا يؤتى له بمرضع فيقبلها" وهذا معنى قوله تعالى: "وحزّنا عليه المراضع" تحريم منع لا تحريم شرع، مما جعل هامان يشك في أمر أخت موسى بعد قولها لهم: **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ** [القصص:12] فقد استنكروا حالها وتفرّسوا أنها قرابته، فقال هامان: "خذوها حتى نخبرنا بقصة هذا الغلام فأخذت، فألهمها الله تعالى عند ذلك حتى قالت: إنما ذكرت النصيحة لفرعون في قولها: **(وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ)** أي لفرعون لا لغيره نخلص له العمل، فتخلصت منهم. فقال هامان: "دعوها فقد صدقت" (4)

وقيل لما تفرّسوا أنه قرابته قالت: إنما قلتُ هذا رغبة في سرور أُمي للملك. قالوا: ولأمك ابن؟ قالت: نعم، هارون، وكان هارون ولد في سنة قبلها لا يقتل فيها.

قالوا: صدقت فائتينا بها، فانطلقت إلى أمه فأخبرتها بحال ابنها، وجاءت بها إليهم، فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصّه حتى امتلأ جنباه رياً.

و بذلك ردّ موسى ﷺ إلى أمه، تحقق وعد الله لها، وقد كانت عالمة بذلك، ولكن ليس المخبر كالمعائن فتحققت عودة موسى إلى حضنها، ان تجري ولا أحد يعلم بوعد الله، بل أكثر من ذلك، إن له شرف عظيم وهو شرف الاصطفاء للرسالة، فلا بد أن تجري أقدار الله بما قدر لها. فكان من لطف الله بموسى أن جعل إلقاء موسى في البحر وهوة هلاك بحد ذاته سبباً لنجاته، وسخر فرعون لتربيته وهو يقتل الخلق من بني إسرائيل لأجله، وهو في بيته وتحت كنفه،

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني 4637/7 بتصرف.

(2) ظئراً: أي مرضعة ترضعه.

(3) تفسير الماوردي النكت والعيون أبو الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي 240/4 بتصرف.

(4) بحر العلوم/أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي 601/2 بتصرف.

بل أكثر من ذلك فقد أصبح لأمه أجره على رضاعته، كما أنه لم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر⁽¹⁾.

ولطفاً من الله لأمه فكانت غيبته عنها ثلاثة أيام فقط، وصار موسى وأمه كأنهم من أهل بيت فرعون في الأمان من القتل وغيره. وكان موسى على فراش فرعون وسريه متغذياً بما يتغذى به الملك⁽²⁾. وقد أحسنوا إلى أم موسى وأعطوها عطاءً جزيلاً وهم لا يعرفون أنها أمه الحقيقية، ثم طلبت أم موسى أن تأخذ معها موسى لترضعه في بيتها فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والإحسان الجزيل.

ولما تحرك الغلام حملته أمه إلى آسية، فأخذته ترقصه وتلعب به وناولته فرعون، فلما أخذته إليه أخذ الغلام بلحيته فنتفها، قال فرعون: عليّ بالذباحين يذبحونه، هو هذا! قالت آسية: إنما هو صبي لا يعقل وإنما فعل هذا من جهل، ولقد علمت أنه ليس في مصر امرأة أكثر حلياً مني، أنا أضع له حلياً من ياقوت وجمرفان أخذ الياقوتة فهو يعقل فاذبحه وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها ووضعت له طستاً من جمر فجاء جبريل فوضع يده على جمرة فأخذها فطرحها موسى في فمه، فأحرقت لسانه، وأعجزته في النطق وهو قوله: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: 27-28] فدرأت عن موسى القتل، وكبر موسى، وكان يركب مركب فرعون ويلبس ما يلبس، ويدعى موسى فرعون⁽³⁾.

وهكذا رجعت أم موسى بولدها إلى بيتها راضية مرضية، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عز وجاه ورزق واسع، ولهذا جاء في الأثر: "مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعه الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها"⁽⁴⁾ ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، فسبحان من بيده الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهو الذي جعل لموسى الحياة والنجاة، وعاش في عطف الأمهات وعز الملوك في بيت من يخشى عليه منه، فاجتمع له إلى السلامة الحياة السعيدة، وجعل لمن اتقاه عند كل هم فرجا، ومع كل ضيق مخرجاً.

(1) انظر: اللباب في علوم الكتاب/أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي 224/15.

(2) الهداية إلى بلوغ النهاية أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني 4637/7 بتصرف.

(3) المختصر في أخبار البشر/أبو الفداء عماد الدين إسماعيل 17/1.

(4) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم/مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر 1745/7.

المطلب الثالث

علاقة امرأة عمران بمريم عليها السلام

بيّن القرآن الكريم في قصة امرأة عمران، علاقة أسرية فريدة بين امرأة عمران وما في بطنها ،فقد بينت هذه العلاقة كيف نكون نحن وأبناؤنا لله، لا نبخل بما وهبنا الله لرضا الواهب، لتكون حياتنا ومماتنا وما أعطانا الله عز وجل من أبناء وأموال الله عز وجل، لعلنا ننال رضاه ونفوز بالدارين، وما ذلك إلا دعاءً ندعوه كما دعاه من قبل خليل الرحمن، أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي نقرن اسمه باسم نبينا في كل صلاة، عليهما من ربي أفضل صلاة وأجل تسليم، يقول الله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: 162] وقد قامت العلاقة بين امرأة عمران وابنتها على هذه القاعدة الربانية من دعاء إبراهيم عليه السلام، والتي تتضح من خلال النقاط التالية :

1- امرأة عمران تلح بصدق على الله بقبول ما في بطنها محرراً :

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: 35] امرأة عمران ممن أشار القرآن إليهم أن الله سبحانه وتعالى اصطفاهم، كما اصطفى من قبلهم آدم ونوحاً وآل إبراهيم على العالمين، فيقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: 33] فامرأة عمران هي السيدة حنة بنت فاقوز وهي أم مريم، وقد كانت كبيرة في السن عند ولادتها مريم ⁽¹⁾ وهي جدة عيسى عليه السلام، وليس حنة باسم عربي، كما لا يعرف في العربية أن حنة اسم امرأة.

وعمران أبو مريم ليس بعمران أبو موسى عليه السلام، فبينهما ألف وثلاثمائة سنة، إنما هو عمران ابن ماتان وهو من ولد داوود النبي من سبط يهود بن يعقوب عليه السلام أجمعين، وعمران وزكريا عليه السلام تزوجا أختين، فكانت أم مريم عند عمران، وأم يحيى عند زكريا، وكان قد مات عمران وأم مريم حامل بها، ولم تتجب حنة في حياة عمران فقد أمسك عنها الولد حتى يبست ومضى بها العمر ⁽²⁾.

(1) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم محمد أحمد محمد ملاوي 204/1 بتصرف.

(2) الهداية إلى بلوغ النهاية/أبو محمد مكي بن أبي طالب المالكي 993/2 بتصرف.

قال محمد بن إسحاق: "كانت امرأة عمران لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتته الولد فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه، فلما تحققت من الحمل نذرت أن يكون ما في بطنها محرراً، أي خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس⁽¹⁾ "تقبل الله دعاءها فهم أهل بيت لهم عند الله مكان واصطفاء، فقد كان بنو ماتان أهل عمران، هم رؤوس بني إسرائيل وأخبارهم وملوكهم"⁽²⁾

ولما أخبر عز وجل أنه اصطفى آل عمران واختارهم على سائر العالمين، كان أقل ما في صفوته واختياره أن جعلت امرأة عمران ما في بطنها محرراً، إذ قالت وهي حبلى، لئن نجاني الله عز وجل ووضعت ما في بطني، لأجعله محرراً، فجعلت ما في بطنها لله خالصاً، لم تطلب منه الاستئناس به، ولا ما يطمع الناس به من أولادهم، رغم الحاجة إليه مع موت الوالد "عمران" وهذا من الصفوة التي ذكرها الله عز وجل⁽³⁾

ومحرراً مصدرها التحرير وهو طلب الحرية، والحرية رفع اليد عن الشيء من كل وجه، وفي الإتيان بصيغة التكرير والتكرير إشعار بمضي العزيمة في قطع الولاية عنه بالكلية، لتسليم ولايته لله سبحانه وتعالى⁽⁴⁾ ومن هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد⁽⁵⁾

والمحرر هو الذي لا يعمل للدنيا ولا يتزوج، ويعمل للأخرة، ويلزم المحراب⁽⁶⁾ فيعبد الله عز وجل فيه، ولم يكن يحزر في ذلك الزمان إلا الغلمان.

قال عمران لامرأته: أرأيت إن كان الذي في بطنك أنثى؟ والأنثى عورة، كيف تصنعين؟ فاهتمت لذلك⁽⁷⁾ وقالت عندها كما يُخبر القرآن: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35] وكان نذر الذكور جائزاً في شريعتهم، وكان على أولادهم أن يطيعوهم.⁽⁸⁾

(1) مختصر تفسير ابن كثير/محمد علي الصابوني/278/1 بتصرف.

(2) الكشف والبيان عن تفسير القرآن/أبو إسحاق أحمد بن محمد بن محمد بن الثعلبي/53/1 بتصرف.

(3) تفسير الماتريدي تأويلات أهل السنة/محمد بن محمد أبو منصور الماتريدي/356/2 بتصرف.

(4) تراث الحرالي المراكشي في التفسير/الحرالي أبو الحسن علي بن أحمد الأندلسي/577/1 بتصرف.

(5) أنوار التنزيل وأسرار التأويل/ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي/13/2 بتصرف.

(6) المحراب: أي الغرفة التي بنيت لها في بيت المقدس وتكون أشرف مواضعه، وسمي به لأنه محل محاربة الشيطان/المرجع السابق.

(7) تفسير مقاتل بن سليمان/أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن البلخي/271/1 بتصرف.

(8) الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي/أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي/66/4 بتصرف.

2- حقيقة قول امرأة عمران " وليس الذكر كالأنثى " :

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ

الذَكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ آل عمران: [36]
 كما أسلفنا كانت امرأة عمران، أم مريم نذرت حملها أن يكون خادماً لبيت المقدس، الذي هو أحد المساجد الثلاثة في الأرض، وثاني المسجدين حينها بعد الكعبة، أرادته محرراً خادماً للبيت وخالصاً لا يخالطه شيء من أمور الدنيا، وكانوا إنما يحررون الذكور لا الإناث، وكان المحرر إذا حرر جُعِلَ في الكنيسة لا يبرحها، يقوم عليها ويكنسها، وكانت المرأة لا تستطيع أن تفعل ذلك لما يصيبها من الأذى⁽¹⁾ لهذا كانت ترجو أن يكون ذكراً، لأن الذكر هو الذي يستطيع القيام بهذه المهمة العظيمة.

فحين وضعتها أنثى قالت قولتها : (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ)، وهو من الوضع، وهو إلقاء الشيء المستقل والأنثى هي أدنى زوجي الحيوان المتناكح⁽²⁾، وقد يكون هذا هو السبب الذي يجعل من حمل الإناث ثقل دونا عن الذكور، وهذا ما نسمعه من الأمهات والله أعلم.

تخبر امرأة عمران ربها بما وضعت، فماذا تقصد امرأة عمران من هذا الإخبار؟ وهي تعرف أن الله يعلم بما وضعت؟ والجواب أن الخبر تارة يُقصدُ به إفادة المخاطب بالحكم إذا كان غير عارف به، وتارة يقصد به إفادة لازم من لوازمه المفصلة له في علم المعاني، وهنا أرادت امرأة عمران لازم الخبر، ولازمه هنا التحزن والتحسر على خيبتها وانعكاس أملها لأنها وضعتها أنثى⁽³⁾ أو تكون قائلته من باب الدعاء، لا من باب الإخبار، وقد تريد أن تظهر خوفها من أن لا يكون ما وضعته كفافاً لنذرها.

وقد جاءت الآية المستعرضة " وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ، لبيان أن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه أمر هذه المولودة التي وضعتها، وهي لا تُخبر ربها ﷻ وإنما تدعوه خوف أن لا يتقبل نذرها، مبينة أن الذكر أفضل من الأنثى في القيام بالمهمات التي أرادت امرأة عمران لسدانة البيت، فالذكر يستطيع ما لا يستطيعه الأنثى، لما جعل الله في خلقه الذكر من الامتياز عن خلقه الأنثى، وهذا من حيث الجنس، لا من حيث الأفراد، قد يكون في أفراد الإناث من هو خير من كثير من الذكور، أما من حيث الجنس فالذكور أفضل من الإناث،

(1) الدر المنثور/جلال الدين السيوطي 19/2. بتصرف.

(2) تراث الحرالي المراكشي في التفسير/الحرالي أبو الحسن علي بن أحمد الأندلسي 577/1 بتصرف.

(3) غاية الأمان في الرد على النبهاني/أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله الألويسي 449/1 بتصرف.

لأنهم يستطيعون من الأعمال ما لا تستطيعه الإناث، ولأن عقولهم أوفى من عقول الإناث، بلا شك⁽¹⁾ وإن كنت لا أتفق مع المؤلف الفاضل صالح الفوران بمسألة العقل الأوفى للذكور عن الإناث، فليس هذا على عمومه .

ثم قالت **(وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ لَت حنة)** ومعنى مريم : العابدة وخادم الرب بلغتهم وقد كان المقصود من هذا : لإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنى اسمها، فهي وإن لم تكن تصلح لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنعها أن تكون من العابدات⁽²⁾

وفي ذلك إشعارٌ بأن من جاء بشيء أو قربه الله، فحقه أن يجعل له اسماً، وورد أن السقط إذا لم يسم يطالب من حقه أن يسميه فيقول يارب، أضعوني، فكان من تمام أن وضعت أم عمران مولودتها تسميتها⁽³⁾، وكان اسمها عند الله عز وجل مريم، وفي تسمية أم مريم ابنتها دليلٌ على أن تسمية الأولاد إلى الأمهات في الإناث دون الآباء، وفيه دليل أيضاً على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا⁽⁴⁾، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: (ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم)⁽⁵⁾.

ثم التجأت إلى الله تعالى، حيث أعادتها به وذريتها من الشيطان الرجيم فقالت :

(وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، إشارة إلى عيسى عليه السلام، فاستجاب الله لها فلم يقربها ولا ذريتها شيطان، ولأن الله سبحانه وتعالى تقبل مريم أن تكون عابدة لله وليس لها من أمر الدنيا، فمن كان في حمى الملك لا يتطرق إليه طريدة، كالشيطان الرجيم الملعون، فمنعها الله منه، كما أن أم مريم لم تستعد مريم فقط إنما استعادت أيضاً ذريتها، فقالت: **{وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}** وفي ذلك إشعار بما أُوتيت أم مريم من علم من الله، بأن ابنتها ذات ذرية، فكأنها نطقت عن غيب أمر الله، سبحانه وتعالى، مما لا يعلمه إلا الله، وهو معلمه لمن يشاء⁽⁶⁾

ونجد تشابهاً بين عيسى عليه السلام الذي أعاده الله وأمه من الشيطان، وبين محمد ﷺ الذي شق صدره ونبذ منه حظ الشيطان، ففيه اتصال واصل بينهما وإن بُعدت المدة الزمنية بين

(1) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد/صالح بن فوزان الفوزان/1/632 بتصرف.

(2) فتح البيان في مقاصد القرآن/أبو الطيب محمد صديق 2/223 بتصرف.

(3) تراث الحرالي المراكشي في التفسير/الحراري أبو الحسن علي بن أحمد الأندلسي/1/577 بتصرف.

(4) مختصر تفسير ابن كثير/محمد علي الصابوني/1/278 بتصرف.

(5) صحيح مسلم/باب رحمة الرسول ﷺ بالصبيان ح 83837 بتصرف.

(6) تراث الحرالي المراكشي في التفسير/الحراري أبو الحسن علي بن أحمد الأندلسي/1/671 بتصرف.

الرسولين الكريمين، وقد يكون هذا ما يُفسر قوله ﷺ : (أنا أولى الناسِ بابنِ مريمَ، والأَنْبياءُ أولادُ عَالَتِ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ) (1) كما قال رسول الله ﷺ: (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه) (2) وهذا يدل على تقبل الله عز وجل دعاء امرأت عمران في مريم " واني أعيدها بك وذريتها من الشيطان "

ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان معناه إضلال الممسوس وإغواؤه، فإن ذلك ظن فاسد، فكم تعرض الشيطان للأَنْبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك عصمهم الله مما يرومه الشيطان، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: 42] فمع كل واحد من بني آدم قد وُكِّلَ به قرينه من الشياطين، فمريم وابنها وإن عصما من نخسه فلم يعصما من ملازمته لهما ومقارنته والله أعلم (3).

3- كرامة من الله للأُم واصطفاء لابنتها دون نساء العالمين :

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 37] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَطَهَّرَكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

لقد تقبل الله من امرأة عمران نذرها، فتقبل وليدتها منها وهي مريم أم المسيح ﷺ، فنشأت مريم في العبادة والطاعة، فقد اختصم بنو إسرائيل في مريم أبيهم يكفلها، لأنها ابنة عالمهم وحبرهم وشيخهم عمران، فتنافسوا فيها، اليهود في زمن الرسول ﷺ، فتعجبوا من علمه به، والله أخبره به بما يحقق الإعجاز الغيبي بأخبار الأمم السالفة فهذه هي المعجزة لو كانوا يهتدون، فكيف علمت ونشير إلى أن هذا الخصام لم يكن يعلمه أيها الرسول الكريم بما كان؟ وأنت آخر الرسل، وأنت أمي لا تقرأ ولا تكتب؟ فهذه من أعظم معجزات الرسول ﷺ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه بهذه الأخبار، ما علمها (4)

(1) صحيح البخاري/ كتاب أحاديث الأنبياء /باب قوله " وانكر في الكتاب مريم ح 3462، 167/4.

(2) صحيح مسلم/باب فضائل عيسى عليه السلام ح 2365، 1837/4.

(3) الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي/أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي/66/4 بتصرف.

(4) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد/صالح بن فوزان الفوزان/1/63 بتصرف .

خافت حنة امرأة عمران ألا تقبل الأنثى محررة، فلفتها في خرق ووضعتها في بيت المقدس عند المحراب حيث يدرس القراء⁽¹⁾ وهم الأحبار من ولد هارون فتخاصموا، وتساهم القوم عليها لأنها بنت إمامهم وسيدهم عمران، أيهم يأخذها؟ فقال زكريا وهو رئيس الأحبار : أنا أخذها، أنا أحقكم بها، لأن أختها عندي إشارة إلى أم يحيى، فقالوا : وإن كان في القوم من هو أقرب إليها منك؟ فلو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها، ولكنها محررة، ولكن هلم نتساهم عليها ومن خرج سهمه فهو أحق بها.

فاقتنعوا ثلاث مرات بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها الوحي أيهم يكفلها؟ فخرجت القرعة لزكريا عليه السلام ثلاثاً، وهذا معنى قوله تعالى (**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**) فرباها زكريا عليه السلام تربيةً حسنةً في عبادةٍ وطاعةٍ لربها، فبنى لها زكريا محراباً في بيت المقدس وجعل بابها وسطه، لا يصعد إليه أحد إلا بسلم واستأجر لها ظئراً ترضعها حتى كبرت، فكان يغلق عليها الباب ومعه المفتاح لا يأمن عليها أحداً، يأتيها بطعامها ومصالحها، وإذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون مع أختها أم يحيى، فإذا طهرت ردها إلى محراب بيت المقدس⁽²⁾

وكان إذا دخل زكريا عليه السلام عليها المكان الذي تصلي فيه وجد عندها رزقا وهو قوله تعالى : ﴿...وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ..﴾ كان يجد عندها في الشتاء فاكهة الصيف، وفي الصيف فاكهة الشتاء، فقد كان يرى زكريا عليه السلام عندها العنب في الشتاء الشديد البرد، كان يأتيها به جبريل عليه السلام من السماء كان هذا من ربه إكراماً لها، وهي تصلي في المكان. وتعجب زكريا عليه السلام فالمكان لا يتصل بها فيه أحد من الخلق، فيقول لها : يا مريم أنى لك هذا في غير حينه ؟ فتقول: هذا الرزق هو من عند الله "إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" وهذه الآية، يحتمل أن تكون من كلامهما، أو أن يكون من كلام الله تعالى⁽³⁾

كان رزق مريم ينزل عليها من الجنة، فطمع عند ذلك زكريا في الولد فقال: إن الذي يأتي مريم بهذه الفاكهة لقادرٌ على أن يهبني على الكبر ولياً⁽⁴⁾ فدعى ربه قائلاً: ﴿ **هَٰذَاكَ دَعَا**

زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران]

(1) تفسير مقاتل بن سليمان/أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن البلخي/1/271 بتصرف .

(2) تفسير الطبري جامع البيان/ابن جرير الطبري/6/353 بتصرف.

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل/ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي/2/13 بتصرف.

(4) معالم التنزيل في تفسير القرآن/محيي السنة ألو محمد الحسين بن مسعود البغوي/1/433 بتصرف

ودليل قوله تعالى : (تَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ) أن الله أخذ نذر أم مريم مأخذ الرضا والاستحسان من ربيها، ومن تمام قبول الله عز وجل لمريم أن أكمل الله سبحانه وتعالى مريم لما كمل له الرجال، لتمام قبوله سبحانه وتعالى لنذر أمها، كما قال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)⁽¹⁾

وهكذا كانت نشأة مريم عليها السلام أنشأها ربها برعايته ومحبته وحصننها، وكانت كالنبات ينبتة رب العالمين فينمو يوماً بعد يوم حتى يستوي على سوقه، فالله سبحانه وتعالى تولى رعايتها من المهد، وغذاها بغذاء من الروح، فبعدت عن كل شر، وغذاها ونماها جسمياً، فجعل لها رزقاً مستمراً يأتيها من السماء من حيث لا تحتسب، ولا يحتسب كافلها، أما التنشئة الروحية التهذيبية فقد نشأت في بيت العبادة، وإن كان الكافل لها نبياً من الأنبياء الكرام كانت في كنفه وتحت رعايته⁽²⁾

(1) صحيح البخاري/كتاب بدء الخلق / باب قوله تعالى وضرب الله مثلاً" ح 158/4/3412.

(2) تراث الحرالي المراكشي في التفسير/الحرالي أبو الحسن علي بن أحمد الأندلسي/1/577 بتصرف

المطلب الرابع

علاقة مريم بابنها عيسى عليه السلام

العلاقة بين الصديقة مريم وابنها عيسى عليه السلام، علاقة خاصة خارجة عن الإطار العام للقانون البشري للإنجاب، والذي وضعه الله عز وجل على الأرض، وجعل به حفظ النوع البشري، والذي لا بد فيه من العنصرين الذكري والأنثوي، رجل وامرأة ليتم التكاثر، ولكن الخاص الذي لم يحدث في الماضي، ولن يتكرر في المستقبل، وهو الحمل بعيسى عليه السلام، أمّ تحمل من غير أب، في معجزة من الله تعالى لبني إسرائيل لم يصدقوها وكفروا بها، وصدقناها نحن المسلمون وأما بها، بل أكثر من ذلك فقد اتهم اليهود عيسى عليه السلام، رسول الله، أنه ابن زنا طاعنين بأمه التي اصطفاها الله وكرّمها على نساء العالمين، فمن المفارقات الغريبة العجيبة أننا برأنا من الزنا التي أنجبت وهي مريم عليها السلام، بينما اتهم المنافقون بالزنا التي لم تتجب وهي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وسنتعرض هذه العلاقة بين السيدة مريم وابنها المسيح عليه السلام من خلال ما يلي :

1- اصطفاء مريم لتحمل بعيسى دون رجل وإنما من روح الله

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَتْهَا نَجَاتٌ مِنْ دُونِهِمْ حَمَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم]

في هذه الآيات يخبر الله عز وجل محمداً عليه الصلاة وأفضل السلام، عن قصة مريم عليها السلام بعد أن أخبر عن نشأتها في أول الآيات من سورة مريم، وأنها نذرة أمها حنة امرأة عمران، وأن الله عز وجل تقبلها قبولاً حسناً وجعلها في رعاية نبي كريم هو زكريا عليه السلام، فجعلها في محراب لا تتصل مع أحد، يصلها رزق من ربها سبحانه وتعالى، فكان هذا إخبار عن حياة مريم عليها السلام العابدة، الزاهدة، الطاهرة، المطهرة قبل الإخبار عما بعده من الحدث الغريب الخطير الخارج عن فطرة البشر، وهو أن تحمل المرأة دون رجل. فمن كرامات الأولياء التي في القرآن ما في قصة مريم وولادتها لعيسى عليه السلام؛ فإن ولادتها لعيسى بلا أب خارق للعادات⁽¹⁾

(1) انظر : شرح العقيدة الطحاوية/عبد الرحمن بن ناصر بن براك البراك/1/395.

شرفٌ كبيرٌ ومنةٌ من الله أن يصطفي مريم عليها السلام دون نساء العالمين، وتتهيأ منذ تكوينها في رحم أمها لتكون أماً لرسولٍ كريمٍ من غير أب، وجعلهما الله عز وجل آيةً للناس، إنه الاصطفاء للأمر المفرد في تاريخ البشرية. وهو بلا جدال أمرٌ عظيمٌ ولقد لابس مولد عيسى عليه السلام شبهاتٍ لم يتورع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أن هذا المولد لا مثال له في عالم الناس فيزعموا أن وراءه سرا لا يشرف قبحهم الله!! وهنا تظهر عظمة الدين الإسلامي، ويتبين مصدره عن يقين. فهذا هو ذا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الإسلام الذي يلقى من أهل الكتاب - ومنهم النصارى - ما يلقى من التكذيب والعتق والجدل والشبهات. فالقرآن يحدث عن ربه بحقيقة مريم وتفضيلها على نساء العالمين بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد! أي صدق؟ وآية عظمة؟ وآية دلالة على مصدر هذا الدين، وصدق صاحبه الأمين!⁽¹⁾

كانت مريم إذا حاضت تعتزل المحراب وتلتحق بأختها امرأة زكريا عليه السلام⁽²⁾، وفي يوم أرادت أن تغتسل من حيضتها، فذهبت في جهة الشرق بعيداً عن الناس، وجعلت لها من ناحيتهم سترًا يسترها عنهم وهذا المقصود بكلمة شرقياً، وقيل " شرقياً " أي قبل المشرق الشاسع أو بمكان يلي المشرق، لأن ما يلي المشرق عندهم كان خيراً مما يلي المغرب، وقد اتخذت النصارى لذلك المشرق قبلةً⁽³⁾.

فَعِنْدَهَا تَمَثَّلُ لَهَا جِبْرِيلُ عليه السلام على هيئة بشر، وهي جالسةٌ وكان في أحسن صورة، شابٌ وضيء الوجه، جعد الشعر وعليه تاجٌ مكلل بالدر والياقوت، وجبريلُ عليه السلام من نور، فالملائكة أجسامٌ نورانية تتشكل بأمر الله تعالى كيف شاءت، وقد ظهر جبريلُ عليه السلام لمريم مستوي الخفة؛ فلا هو بالكسيح، ولا أعمى؛ بل حسن الوجه، مستوي الجسم⁽⁴⁾

جبريل عليه السلام أحد الملائكة الكرام العظام الموكل بالوحي، ينزل به على الأنبياء، وربما

وَكُلِّ بِغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ: ﴿فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا

(1) انظر : في ظلال القرآن/سيد قطب إبراهيم حسن الشاربي 1/395.

(2) انظر : تفسير الطبري جامع البيان/ابن جرير الطبري/6/353 بتصرف

(3) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/أحمد بن محمد الثعلبي 6/209

(4) انظر : أوضح التفاسير/محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب 1/365

رُوحَنَا فَمَثَلٌ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ [مريم] لكن العمل الموكل إليه في الأصل هو نزول الوحي على الأنبياء. (1)

يقول الشعراوي في معنى سويًّا : قد انسجمت أعضاؤه وتناسقت على أجمل ما يكون البشر، فلا يعيبه كبر جبهته أو أنفه أو فمه، كما نرى في بعض الناس وقد جاء جبريل عليه السلام إلى مريم في صورة بشرية لتأنس به، ولا تفرح إن هي رآته على صورته الملائكية، فيقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام] فلا يمكن أن يلتقي الملك بالبشر إلا بهذا التقارب (2)

فلما رأت مريم جبريل عليه السلام يصعد نحوها نادته (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)، ومن العادة ألا يُتعوذ بالله من التقي، وإنما يُتعوذ بالله من الفاجر والفاسق؟ فللمفسرين تأويل في ذلك : اتجه الحسن إلى القول : (إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) مفصول عن قوله: (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ)، فيكون على الابتداء، كأنها قالت : (إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) لا ينالني منك سوء ولا يمسنني شر، أو كأنه دخل عليها على صورة بشر عرفته بالتقى والصلاح، فيكون المعنى : قد كنت عرفتك بالتقى والصلاح فكيف دخلت عليّ بلا إذن ولا أمر؟ (3).

ومما لا شك فيه أن مريم خافت من جبريل عليه السلام لما رآته، وخشيت أن يكون يريد لها على نفسها ففرغت، فتعوذت بالرحمن واستجارت به منه وقالت له، إن كنت ذا تقوى وخوف من الله، فإنك حتماً ستنتقي محارمه، فأخبرها أنه رسولٌ من ربها ليهب لها غلاماً زكياً طاهراً صالحاً (4).

تعجبت مريم لما سمعت ذلك، واستشعرت ما طرأ عليها، واستقهمت عن طريقه، فإن الولد إما أن يكون من نكاح أو سفاح وليس فيها واحدٌ منهما، فهي لم يمسه بشر بنكاح ولم تكن بغياً (5) فقال لها هذا أمر ربك، وهو عليه يسير، وهو محتوم لا يُرد ولا يُبدل، وهو يسيرٌ على الله. وسيجعله رحمةً من الله لمن تبعه وآمن به، وكان هذا الأمرُ أمراً محكوماً به، مفروغاً عنه، سابقاً في علم الله تعالى (6)

(1) انظر : شرح العقيدة السفارينية - الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية/محمد بن صالح بن محمد العثيمين 1/206.

(2) انظر : تفسير الشعراوي الخواطر محمد متولي الشعراوي 9054/15.

(3) انظر : تفسير الماتريدي تأويلات أهل السنة/محمد بن محمد أبو منصور الماتريدي 226/7.

(4) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/أبو محمد مكي بن أبي طالب المالكي 4712/7.

(5) بغيا : هي المجاهرة بالزنا ، القحبة ، الفاجرة/ المزهري في علوم اللغة وأنواعها/السيوطي 244/1.

(6) انظر : زاد المسير في علم التفسير/أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي 124/3.

نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها، أو في كم قميصها، وقيل في فيها تعددت الروايات والله أعلم بالطريقة، ولكنها حملت بعيسى عليه السلام في الحال، وأخذ يتحرك في بطنها، وفي القصة عن مريم أنها قالت: كنت إذا خلوتُ جعل عيسى يحدثني، وأنا أحدثه وهو في بطني، وإذا تكلمتُ مع النَّاسِ، أخذ يُسبِحُ وأسمعُ تسيبحه⁽¹⁾.

وقيل: لما رأى يوسف النجار⁽²⁾ مظاهر الحمل على مريم وقد كان لا يشك في طهرها وصلاحها سألها قائلاً: هل ينبت زرع بغير بذر؟ قالت مريم: نعم. قال: فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها؟ قالت: نعم. قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم؛ ألم تعلم بأن الله تبارك وتعالى أنبت الزرع يوم خلقه ابتداء من غير بذر؟ والبذر يومئذٍ إنما صار من الزرع الذي أنبته الله من غير بذر أولم تعلم أن الله تعالى بقدرته أنبت الشجر بغير غيث، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياةً للشجر؛ بعد ما خلق كل واحد منهما وحده؟ أم تظن أنه لن يقدر الله على أن ينبت الشجر حتى استعان عليه بالماء؛ ولولا ذلك لم يقدر على إنباته؟ أو لم تعلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وزوجه من غير أنثى ولا ذكر؟

قال يوسف: بلى، ووقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله تبارك وتعالى⁽³⁾

2- مخاض نفسي صعب ولكن معية الله مع مريم

قال تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ، مَكَانًا قَصِيًّا ۗ ﴿٢٣﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۗ ﴿٢٤﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۗ ﴿٢٥﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ الْجِذْعَ النَّخْلَةَ سُدَّتْ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۗ ﴿٢٦﴾ فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۗ ﴿٢٧﴾ ﴾

[مريم]

أعان الله مريم عليها السلام على ذلك الموقف العصيب من جميع النواحي، فالمخاض وآلامه الجسدية، ليس بالأمر السهل الهين "فسبحان الله الذي يخرج به روحاً من روح" ومع ذلك في حالة مريم عليها السلام هناك ما هو أصعب من ذلك، إنها الآلام النفسية التي ابتدأت بينها وبين نفسها أولاً وهي تواجه الحصانة والتربية والأخلاق، فكيف تحمل في رحمها جنيناً من

(1) انظر: تفسير القرآن/أبو المظفر، منصور بن محمد السمعاني/3/284

(2) يوسف النجار: من بني إسرائيل كان محرراً يقوم على سدانة الكنيسة، وكانت مريم عليها السلام أيضاً في الكنيسة، وقد اتهموه فيها

(3) انظر: أوضح التفاسير/محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب/1/365

غير أب ومَن سيصدق مقالها، والآن ومع المخاض والوليد، لن يبق الأمر بينها وبين نفسها، فستواجه المجتمع بالفضيحة وهي المحررة، فموقفها شديد الهول بهذه النفسية، أضف إلى ذلك أنها وحدها في هذا المخاض الصعب، فعندها تمنى لو أنها ماتت ولم تتعرض لمثل هذا الموقف وما يحمله من فتنةٍ وخوضٍ بسمعتها وشرفها وهي بنت عمران.

جاءها المخاض في شدة البرد والشتاء، فألجأها المخاض وآلامه إلى جذع النخلة وكانت هذه النخلة يابسة غير مثمرة في الصحراء ولم يكن لها سعف، وكانت عبارة عن جذع يابس قد جيء به ليبنى به بيتٌ يقال له : بيت لحم⁽¹⁾.

تتمنى مريم لو ماتت قبل هذا الموقف، فلم يذكرها أحد بخير أو بشر⁽²⁾ وقد اختلفت أقوال العلماء في مقصود (وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا) فابن عباس رضي الله عنه : أن النسي المنسي هو الشيء المتروك، و قتادة هو الشيء الذي لا يذكر ولا يعرف، وقيل : الحيضة الملقاة أو خرققتها وقيل : السقط، أو الشيء الحقيق وأخيراً قال عطاء : يعني يا ليتني لم أخلق⁽³⁾ وإنما تتمنى لو لم تكن.

وهنا ظهرت آية الله تعالى، ووُلِدَ عيسى عليه الصلاة والسلام للوجود؛ ليكون شاهداً على قدرة الله تعالى، هادياً إلى دينه، مبشراً بخاتم رسله، وتحصل معجزة أخرى فالوليد عيسى من تحت مريم يناديها (أَلَا تَحْزَنِي) ففزعت مريم وأجابته : وكيف لا أحزن وأنت معي؟ وأنا لا ذات زوج فأقول : إنك من زوجي، ولا مملوكة فأقول : إنك من سيدي، فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام ، وقيل المنادي ليس عيسى عليه السلام إنما جبريل عليه السلام⁽⁴⁾.

ونادها: (أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) ، هناك من انفرد بقوله : السري عيسى عليه السلام فقد كان عبداً سريراً أي رقيقاً، بينما سائر المفسرين: أن السري، هو النهر الصغير، وتحتك أي أن الله تعالى جعل النهر تحت أمرها إن أمرته أن يجري جرى، وإن أمرته بالإمساك أمسك⁽⁵⁾ والله أعلم.

(1) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/أبو إسحاق، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي 212/6.

(2) انظر : في ظلال القرآن/الشهيد سيد قطب 2807/4.

(3) انظر : تفسير القرآن/أبو المظفر، منصور بن محمد السمعاني 287/3.

(4) انظر : أوضح التفاسير/محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب 366/1،

(5) انظر : مفاتيح الغيب التفسير الكبير/أبو عبد الله الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري 528/21،

3- اتهام مريم بالزنا ووليدها عليه السلام ببيرتها :

قال تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم: 27-33] الموقف الآن أصعب المواقف على مريم عليها السلام، وهو موقف مواجهة القوم بهذا الحدث الجلل، وهي تحمل ابنها دون أب شرعي يعرفه القوم، وهي الشريفة بنت العائلة المصطفاة من آل عمران، ولكن لا بد من هذه المواجهة وإعلان تلك القضية كما أرادها الله سبحانه وتعالى.

ويمكننا أن نتصور ذلك اللقاء ابتداءً بأهل بيتها الأقربين، وهم يرون مريم الطاهرة المحررة الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة، تأتيهم بوليد، من المؤكد علامات الدهشة والاستغراب والاستحغار تملو وجوههم، وتتبع القرآن الكريم ليرسم لنا ما حدث : (قالوا: يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغيا) إن أسنتهم لتتطلق بالتقريع والتأنيب: (لقد جئت شيئا فريا) فظيحا مستنكرا. ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير: (يا أخت هارون) النبي الذي تولى الهيكل هو وذريته من بعده والذي تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل. فيا للمفارقة بين تلك النسبة التي تنتسبينها وذلك الفعل الذي تقرفينه!⁽¹⁾

الآن اتهام لها بالتعريض بالزنا، لأنهم قالوا لها " لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا " والولد من الزنا كالشيء المفترى، ويؤكد ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِنَبَئِهِمْ... ﴾ [الممتحنة: 12] فالمقصود بالافتراء الولد من الزنا ثم لصقه بالزوج، وهذا ما كانت تخشاه مريم عليها السلام أن يتهمها قوما بالزنا.

نشير إلى أنه حدث لبس عند كثير من الناس عن هارون الذي نادى القوم مريم به حين قالوا ﴿ يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا ﴾ [مريم: 28] اللبس في من يكون هارون المذكور ؟ حيث إن مريم هي ابنة عمران، فظنوها أخت نبي الله موسى بن عمران وأخت هارون أخموسى عليهما السلام، والحقيقة أن هذه المسألة جاءت مصادفة اتفقت فيها الأسماء؛ لذلك لما

(1) انظر :أوضح التفسير/محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب 369/1.

ذهب بعض الصحابة إلى اليمن قال لهم أهلها: إنكم تقولون: إن مريم هي أخت موسى وهارون، مع أن بين مريم وعمران أبي موسى أحد عشر جيلاً! والجواب في ذلك أن الناس كانوا يتفعلون بذكر الأسماء، خاصة أسماء الأنبياء والصالحين، فيسمون على أسمائهم مثل عمران وهارون (1)

وهناك من المفسرين من كان له رؤيا أخرى، فقتادة وغيره: على أن هارون المذكور، رجلاً صالحاً من أتقياء بني إسرائيل وليس بهارون أخ موسى، وذكر لنا أن هارون هذا تبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يُسمى هارون من بني إسرائيل، وعلى قول الكلبي: كان هارون أخ مريم من أبيها ليس من أمها وكان أمثل رجل في بني إسرائيل، ورواية عكسها تماماً تقول: إن هارون كان من أفسق بني إسرائيل وأظهرهم فساداً فشبهوها بفعلتها به، وعلى هذا يكون هارون هاهنا بمعنى الشبه، لا بمعنى النسبة، والعرب تسمي شبه الشيء أخته وأخاه، قال سبحانه: ﴿وَمَا نُزِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَدَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:48] أي شبهها. (2)

ومن وجهة نظري أنه ليس هارون النبي ﷺ لسبب أقوى، فلو كانت مريم عليها السلام أخت هارون النبي، لكان من باب أولى أن ينادوها يا أخت موسى وليس يا أخت هارون في معرض التهكم فيكون الاستهزاء أقبح وأذع، ثم من الأدلة القاطعة أن موسى وهارون عليهما السلام ماتا في التيه قبل فتح بيت المقدس حيث كان فيه الجبارون .

ثم يذكروا لها سيرة أبيها عمران وأمها حنة العطرة المشرفة بين الناس زيادةً في التقريع قائلين لها: ما كان أبوك سيء ولا أمك ولا أنت كما عهدناك، فمن أين لك هذا؟! وفي هذا تعريض من الكلام ليس بتصريح، فهم قالوا ذلك على التعجب وليس على تصريح الفرية والقذف لها (3)

ثم يبدو أن الاجتماع المصغر للأهل اتسع لينضم إليه اليهود والأخبار، وبدأت كأنها مناظرة إذا صح القول، ومع هذا التقريع غرضهم أن يسمعوها منها تعليقاً على ما أتت به، ولكن الله تعالى كان قد علمها ماذا تفعل؟ فإذا بها تشير إليه إشارةً وتعلن أمامهم أنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام فلن تكلم إنسياً، والأخبار بالصوم لم يكن داخلًا تحت الخبر، وإنما أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها فقولها (فلن أكلم اليوم إنسياً) به حصل الإخبار بأنها لن تكلم أحد، ولم يكن ما أخبرت به داخلًا تحت الخبر وإلا كان قولها هذا مخالفاً لنذرها (4)

(1) انظر: تفسير الشعراوي، الخواطر/محمد متولي الشعراوي 9049/19.

(2) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، 216/6.

(3) انظر: تفسير الماتريدي تأويلات أهل السنة/محمد بن محمد أبو منصور الماتريدي 233/7.

(4) انظر: مباحث العقيدة في سورة الزمر/ناصر بن علي عايش حسن الشيخ 61/1.

غضب القوم عندما رفضت الكلام وأعلنت الصيام نذراً، والأكثر من ذلك أنها وكلت أمر الكلام إليهم لوليدها، وقالوا مع ما فعلت أتسخرين بنا؟ كيف نكلم هذا الصبي الذي هو في المهد وفي حجرك يرضع؟ يقول السدي: فلما سمع عيسى كلامهم هذا، ترك الرضاع وأقبل عليهم. وقيل: لما أشارت إليه ترك الثدي واتكأ على يساره، وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه⁽¹⁾

وعلى قول وهب: أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى: انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فكانت المعجزة في نطق عيسى في المهد قائلاً: إني عبد الله، مقراً على نفسه بالعبودية لله تعالى منذ اللحظة الأولى، وبذلك يكون أول ما نطق به عيسى ﷺ هو تكذيب النصارى وإلزام الحجة عليهم بما كفروا به بعد ذلك، حيث جعلوه الإله أو ابن الإله

﴿...تَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل) فأول ما نطق قال كما يخبر الله تعالى

﴿...إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم] ومما يُنقل عن ذلك المشهد: أن مريم لما أتت قومها بعيسى أخذوا لها الحجارة ليرموها، فلما تكلم عيسى تركوها، وقيل إن عيسى بعدها لم يتكلم حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان، ويكمل عيسى ﷺ المناظرة بينه وبين الأحرار وجمع من بني إسرائيل، ويكمل التعريف عن هويته العبودية وميزاته الدينية وصفاته الدنيوية، فهو عبد الله الذي آتاه الكتاب والنبوة، وجعله نبياً معلماً للخير أين ما كان، وبارك عليه وعلى من اتبع دينه في كل مكان، ويكمل كلامه بوصايا ربه من أمر بالصلاة والزكاة ما دام حياً، ثم يعلن براءة أمه على الملأ، ويعلن أنه رؤوفٌ عطوفٌ بها بقوله: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم] وقد جعلني ربي أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيب الملهوف، وغير جاهلاً بأحكام الله، غير متكبر على عبادته⁽²⁾

والذين حصلت لهم معجزة الكلام في المهد خمسة تكلموا قبل أوان الكلام هم: شاهد يوسف، وولد ماشطة بنت فرعون، وعيسى ﷺ، وصاحب جريح، وولد المرأة التي أحرقت في الأخدود⁽³⁾ والله أعلم.

قال الأكثرون: أوتي الإنجيل وهو صغير طفل، وكان يعقل عقل الرجال، وعن الحسن أنه قال: ألهم عيسى ﷺ التوراة وهو في بطن أمه⁽⁴⁾.

كان ﷺ متميزاً منذ صغره بشكل يلحظه غيره، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى تعهده ومن عليه بشيء من علمه فقيل: حين أسلمته أمه إلى المعلم، كان المعلم يقول له: بسم،

(1) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن/محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي 232/3.

(2) انظر: تفسير التستري/أبومحمد سهل بن عبد الله التستري 99/1.

(3) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، 216/6.

(4) لباب التأويل في معاني التنزيل/علاء الدين علي بن محمد بالخازن 187/3

فَيَقُولُ : اللهُ، يَقُولُ لَهُ الرَّحْمَنُ فَيَقُولُ : الرَّحِيمُ، فَجَعَلَ كُلَّمَا ذَكَرَ اسْمًا ذَكَرَ هُوَ الَّذِي يَلِيهِ، فَقَالَ الْمَعْلَمُ: هَذَا أَعْلَمُ مِنِّي، ثُمَّ جَعَلَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَخْبِرُ الصَّبِيَّانَ بِمَا خَبَأَتْ أُمَّهَاتُهُمْ فِي الْبُيُوتِ، فَجَعَلَ الصَّبِيَّانَ يَرْجِعُونَ إِلَى بُيُوتِهِمْ وَيَأْخُذُونَهَا، فَضَجَّتِ الْأُمَّهَاتُ مِنْ ذَلِكَ (1)

جميع ما تكلم عيسى عليه السلام هام وهام جداً ولكنه جعل توحيد الله وإعلان عبوديته له هو الأهم على الإطلاق حيث بدأ به، بينما أنهى ببراءة والدته وإزالة التهمة عنها.

لأن في الأول ضمناً يتحقق به الثاني، فهل لرسول أن يكون مولود بالزنا، إن النبوة مرتبة عظيمة يتم لها اصطفاء أشرف البشر، فإذا بدأ بإزالة التهمة عن أمه لا يتحقق به إزالة التهمة عن الله سبحانه وتعالى، فكان الاشتغال بذلك أولاً والله أعلم.

وهناك صلة وثيقة بين البر والعقوق بالوالدين وبين الجبروت والشقاوة حيث أُرِدَفَ المولى عز وجل قوله على لسان عيسى " وبراً بوالدتي " بقوله تعالى " ولم يجعلني جباراً شقياً " فالبار بوالديه لا بد أن يكون مطيعاً لله، خاضعاً متواضعاً له، فيكون ليناً في القلب، صغيراً في النفس، أما العاق فلا نجده إلا جباراً شقياً، والشقي هو الذي يذنب ولا يتوب. (2)

ثم يُنْهِي عَلَيْهِ السَّلَامُ كلامه في هذه المحاورَة برده السلام على نفسه في ثلاث مسائل تعد أعلام حياة كما يقول المفسر الشعراوي رحمه الله، وهي مراكز تحوّل وانتقال للإنسان من حياة إلى حياة ألا وهي : الميلاد، والموت، والبعث. (3) ولكونه من روح الله سلم على نفسه نائباً عن الله، بينما سلم الله على يحيى بنفسه حيث خصه الله بالسلام يوم مولده ويوم موته ويوم بعثه؛ وقيل سلام عيسى أرجح لأن الله تعالى أقام عيسى عليه السلام مقام نفسه (4)

وقد بين المفسرون لماذا خص هذه الأيام الثلاثة من السلام، فيوم ولدت أي السلامة عند الولادة من طعن الشيطان، ويوم أموت أي عند الموت من الشرك، ويوم أبعث حيا أي من أهوال يوم القيامة (5) وهناك من كان له رأياً آخر فالسلام يوم الميلاد يعني في الخلق الأول من غير أب، ويوم الموت من ضغطة القبر، ويوم البعث بالحجة على من قال أني رب (6).

(1) تفسير القرآن/أبو المظفر، منصور بن محمد السمعاني 290/3

(2) لباب التأويل في معاني التنزيل/علاء الدين علي بن محمد بالخازن 187/3 بتصرف

(3) تفسير الشعراوي، الخواطر/محمد متولي الشعراوي 9049/19 بتصرف

(4) البحر المحيط في التفسير/أبو حيان محمد بن يوسف بن علي 260/7 بتصرف

(5) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل/علاء الدين علي بن محمد بالخازن 187/3 بتصرف .

(6) انظر : تفسير مقاتل بن سليمان/أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي 579/4 بتصرف.

أما الطبري ففسر : السلام عليّ يوم ولدت ، الأمانة من الله عليّ من الشيطان وجنده أن ينالوا مني ما ينالون ممن يولد عند الولادة من الطعن فيه، ويوم أموت من هول المطلاع، ويوم أبعث حياً يوم القيامة أن ينالني الفرع الذي ينال الناس بمعابنتهم أهوال ذلك اليوم⁽¹⁾

(1) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن / 192/18.

نتائج ومعلومات بحثية

1- كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته

الأبناء أمانة في أعناق الآباء وخاصة المؤمنون منهم، يُسألون عنها أمام الله تعالى فيقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحریم] فوجب على الآباء أن يوضحوا لأبنائهم معالم التربية الصحيحة، وبيّنوا لهم الصالح من الضار، والحق من الباطل، فإن غفلوا أو قصرُوا في أداء ذلك نشأ أبنائهم نشأة لا تحمد عقباه ولا يرجى خيرها وكان الإثم على الآباء أولاً.

2- الأم مدرسة إذا أعدتها أعدت شعباً طيب الأعراق

هناك تأثير كبير للزوجة على زوجها وبيته ورسالته في هذه الحياة، فمن الطبيعي أن الزوجة الصالحة الإيجابية من أسس نجاح الرجل في حياته وفي حياة أسرته، وقد حرص إبراهيم عليه السلام أن تكون زوج ابنة إسماعيل عليه السلام راضية بما قسمه الله عز وجل لبيتها من رزق، وأن تكون كريمة النفس والأخلاق، لتعين زوجها على رسالته.

3- لا تغتر بصالح العمل وارجو من ربك التقبل

إذا عمل المسلم خيراً، عليه أن يدعو الله بالقبول، فينبغي أن يكون خوف الإنسان على قبول عمل الخير بعد الفراغ منه، أشد من شغله بالعمل نفسه، فها هو خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام لما فرغا من البناء، قالوا ربنا تقبل منا، أي تقبل عملنا إنك أنت السميع العليم، أي السميع لدعائنا، العليم بنياتنا، فرغم أنهما صفوة العباد عليهما السلام، و عملهما أشرف العمل وهو بناء البيت الحرام، ومع ذلك يسألان الله تقبل العمل

فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة]

4- منهج الأنبياء واحد تحدده قاعدة : أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره

دعوة إسماعيل عليه السلام لم يتحدث القرآن الكريم فيها، ولكن من المؤكد أنه سار على منهج والده إبراهيم عليه السلام في دعوته إلى الله تعالى، في تقرير عقيدة التوحيد وعبادة رب الأرباب دون شريك، وأداء الصلاة والزكاة وغيرها من العبادات.

5- استعينوا على قضاء حوائجكم بالكرمان

تحثنا الآيات في قصة يوسف عليه السلام إلى وجوب تكتم الإنسان في بعض شؤونه، وبخاصة فيما يثير الحسد والحقد منها، وإلى ما قد يقع بين الإخوة من أبناء الضرائر من كراهية وحقد مما فيه عبرة وموعظة، وفي ذلك معالجة روحية لأمر يكثر وقوعه ويثير في النفس هموماً أو هواجس، ومع ذلك إذا جاء القضاء لا ينفع الحذر فيما كتبه القدر.

6- تربية الأبناء على الإسلام والاستسلام

حثت مواظ لقمان الحكيم على الاهتمام بتربية الآباء لأبنائهم على التوحيد وطاعة الله ومكارم الأخلاق، فالنشء مستقبل الأمة الواعد إن أحسنت إعداده. فلذلك نجد القرآن عني بهذه الفئة من المجتمع، وخصّها بمزيد من العناية والرعاية، كي تنشأ مستقيمة، واعية بدينها ودنياها. ويظهر هذا المعنى جلياً واضحاً في قصة لقمان وتوجيهاته السامية النفيسة، ابتداءً بالقاعدة الأساسية من قواعد العقيدة الإسلامية الصحيحة بأن الله تعالى صاحب السلطان والقدرة ومالك الأمر كله، فعندما تترسخ هذه العقيدة في النفس، ستنشأ الطمأنينة فيها وتتسم هذه النفس بالرضا والتسليم، فما الأمراض النفسية المعاصرة من قلق واضطراب وغيرها إلا نتيجة عدم رضا النفس وإيمانها بقضاء الله وقدره.

7- صلاتك عبادة فاجعلها لك مصدر سعادة

إن الصلاة التي يريدتها الإسلام والتي أوصى بها لقمان الحكيم ابنه، هي التي تشتمل على الفضائل التي سبقت الوصية بها، ليست مجرد أقوال يلوكها اللسان، وحركات تؤديها الجوارح بلا تدبر من عقل ولا خشوع من قلب، أو تلك التي ينقرها صاحبها نقر الديك، وإنما الصلاة التي يريدتها الإسلام هي التي تأخذ حقها من التأمل والخشية واستحضار عظمة المعبود جل جلاله لأن القصد الأول من الصلاة هو تذكير الإنسان بربه تعالى (وأقم الصلاة لِذِكْرِي) فالصلاة المنقنة لها فضلها وثوابها، وتقوي صلته بربه فيسعد في الدنيا والآخرة.

8- الجن مخلوق مكلف ومحدود العلم

أقرت قصة داوود وابنه سليمان عليهما السلام حقيقة عن الجن، فقد ساد طويلاً الظن أن الجن يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب، إلى حين ظهور الإسلام فقد تصدى كتاب الله في سياق الحديث عن سليمان عليه السلام إبطال هذا الاعتقاد الفاسد، مبيناً أن الجن ليسوا إلا عبارة عن كائنات خفية، خاضعة لأمر الله، ومستولة عما كلفت به أمام الله، فليس لهم أمر ولا نهي، ولا سطوة ولا تأثير وعلمهم علم قاصر ومحدود، وأنهم لا يعلمون من الغيب شيئاً، على خلاف ما يعتقد الأغرار البسطاء.

9- من سنن الفطرة

إن إبراهيم عليه السلام أول من جز شأريه وأول من قص أظفاره وأول من استحد وأول من اختتن وأول من رأى الشيب وهو عليه السلام أول من ضاف الضئيف، أما أول من دخل الحمام وصنعت له النورة وعُملت له الصابون سُلَيْمَانَ عليه السلام.

10- قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

العلم أفضل النعم وأعظمها عند الله عز وجل في الأرض بين الناس، فقد قدم ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز العلم علي جميع النعم التي أنعم بها على داوود وابنه سليمان عليهما السلام، فقد قدمه على نعمة تسخير الجبال والطير والريح والجن، وإذا كان العلم مقدما على أمثال تلك النهعم العظيما فما ظنك بغيرها.

11- الورع والزهد والفراسة من صفات القضاة

لابد لمن يعمل بالقضاء أن يكون الأفضل علماً وورعاً على الإطلاق من بين المرشحين لذلك، بالإضافة إلى التزود الدائم بتقوى الله وتحري العدل والاجتهاد في إقامته وأن يملك الذكاء والفراسة كما ملكها سليمان عليه السلام؛ لأن الذكاء والفراسة مهمان في مسألة القضاء؛ فالناس فيهم المحق وفيهم المبطل، وفيهم من يعجز عن التعبير، وفيهم من هو فصيح بليغ، فيضيع الحق إذا لم يكن عند القاضي علمٌ بأحوال الناس، وعنده فراسةٌ وذكاء.

12- أقوال تمجها النفوس للمغضوب عليهم

لقد اتهمت الإسرائيليات أنبياء الله بالسكر والزنا وشرب الخمر، وجعلتهم دعاءً للرديلة والشر والشذوذ وهذا يخالف حقائق التاريخ ونصوص القرآن قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

[النساء: 165]

13- حسن صوتك عند قراءتك القرآن

قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه (لقد أوتيت زمماراً من مزامير آل داوود) (1) فيه دليل على الإعجاب بحسن الصوت، فالقلوب تخشع بالصوت الحسن كما تخضع للوجه الحسن، فما تتأثر به القلوب من الأصوات الحسنة لها أعظم في الأجر.

(1) صحيح البخاري/كتاب فضائل القرآن/باب حسن الصوت ح 5048 ، 196/6

14- الحقائق العلمية الصائبة تجد تأييدها في القرآن

يقول بعض علماء الجيولوجيا : إننا وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء في قمم الجبال، وهذا يستدعي وجود طوفان علهذه الجبال، هذا الطوفان قد عم الكرة الأرضية، وبميل فريق إلى أن الطوفان لم يكن عاماً بل كان على الجهة التي كان يسكنها نوح وقومه وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان والله أعلم.

15- صبر الدعاة ورباطة جأشهم أسوة بالنبيين

مكوث نوح مدة طويلة يدعو قومه دون كلل أو ملل أو إحباط أو يأس مستمراً في الدعوة، وملحاً في طلب الإيمان، وهو من ضرورات الدعوة إلى الله تعالى، فهذه كانت الدعوة قديماً فكيف هي دعوتنا الآن ؟

16- الأهلية بالإيمان وليس بغيره

أغرق الله تعالى ابن نوح وزوجته بسبب عدم إيمانهما، وليعلم كل إنسان بعدهما أن الإيمان هو طريق النجاة، وأنه صانع القرابة الحقيقية، فالزوجة الكافرة، والابن الكافر، ليسا من أهل الزوج المؤمن، والأب المؤمن؛ لأن الكفر يفرق بينهما، أما الإيمان فإنه العروة الوثقى بين المؤمنين، وهو الصلة القوية الدائمة بينهم.

17- قوة الحق هي التي تدوم

قد تتوافر القوة لمن لا يحكمون بشريعة الله في مجتمعهم، ولكنها قوة إلى حين، حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله، وتتحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس يأخذ شرعيته من الله فيقوى ، إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل والنظام ووفرة الإنتاج، وهذه الأشياء وحدها لا تدوم.

18- الوشيجة والرابطة هي رابطة الدين

إن الجاهليات المعاصرة والتي تدعي الإسلام تجعل الرابطة بين الناس رابطة الدم والنسب أو رابطة الأرض والوطن، أو رابطة القوم والعشيرة، أو رابطة اللون واللغة، أو رابطة الجنس والعنصر، أو رابطة الحرفة والطبقة، أو هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك. أو المصير المشترك.. وكلها تصورات جاهلية على تفرقتها أو تجمعها ، تخالف مخالفة أصيلة عميقة أصل التصور الإسلامي في ذلك ! و هذا الأصل يقره المنهج الرباني القويم في أن الرابطة هي رابطة الدين القويم بقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

19- يتضح المعنى وتبرز الصورة جلياً بالتضاد

منهج القرآن يحمل في طياته الموازنة أو المقارنة بين الأضداد لظهور الفوارق، وتحمل الإنسان على تبين الاتجاه الأفضل، وترك التوجه الأدنى أو الأسوأ. وهذا ما نجده في بر الوالدين، فإذا كان البار بوالديه يتبواً عند الله المنزلة العالية، ويرضى عنه، ويدخله جنته، فإن العاق لوالديه، في غضب الله وسخطه، ويتعرض لعذاب النار، وتتحقق خسارته وكلتا الموقفين يعرضهما القرآن متتاليين لهذا الغرض، تماماً كما هو الحال في منهج التتالي في منهج الترهيب من النار والترغيب بالجنة .

20- البر بالوالدين في جميع الأحوال

أدب الأبناء مع الآباء، والتعبد لله بطاعتهم وبرهم، والنصح لهم وقد برز هذا السلوك الأديب في القرآن، في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه في سورة مريم حين يدعو إلى الله، متلطفاً به، صابراً على جفائه، بمثل هذا اللطف والأدب يكون خطاب الولد لوالده، ولو كان أعلم وأرفع مكانةً منه.

21- الإسلام والإيمان

من خلال قصة لوط عليه السلام، دل تسمية الملائكة لآل لوط عليهم السلام بالمؤمنين تارةً في آية والمسلمين في آية أخرى، على أن الإسلام والإيمان واحد بينهما جهة اتحاد، بينما الإسلام من جهة أعم والإيمان أخص، فكل مؤمن مسلم وليس العكس صحيح.

22- حسن الاختيار وفق المنهج الإسلامي

إن تفشي ظاهرة الزواج الفاشل في مجتمعات المسلمين، ترجع إلى سوء اختيار الزوج أو الزوجة، مما يترتب عليه مشاكل بين الزوجين، بل بين العائلتين، وما يصحبه من خلافات، وعداوات، وانفصال، وطلاق، وتفكك أسري، وضياع للأولاد وتقطيع أرحام .

فلذلك لا بد أن نرجع إلى الضوابط الشرعية في اختيار الأزواج فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه فإن لم تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)، وفي المقابل وضع ضوابط شرعية لاختيار المرأة فقال صلى الله عليه وسلم : (تنكح المرأة لأربع مالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك).

23- وصية الأخيار بأهل مصر :

استوصى النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر خيراً، حيث قال صلى الله عليه وسلم : (إذا افتتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً)، فهي هو النبي صلى الله عليه وسلم يعتبر للنسب والرحم البعيد، لأهل مصر لأن

أم إسماعيل منهم، فما أحوجنا اليوم في ظل الهيمنة المادية أن نعتبر للأنساب والأرحام عملاً بالقرآن وأسوةً بمن أنزل عليه القرآن .

24- لا تستصغرن جهداً مخلصاً، فإخلاصك يجعله عظيم.

إن الحق قد ينتصر بجهد الضعفاء قبل جهد الأقوياء، فلا يحقرن الإنسان أيّ جهد يقوم به، فإن أخت موسى، وأمه، وآسية، كانوا ضعفاء امام جبروت فرعون ، ومع ذلك قاموا بأدوار عظام في نصره الحق.

25- الأبناء نعمة فلا تجعلوهم عليكم في الآخرة نقمة

إن امرأة عمران جعلت ما في بطنها خالصاً لله رغم أنها كانت لم ترزق من قبل، وكانت تشتهي الولد، ومع ذلك لم تطلبه للاستئناس به، ولا لما يطمع الناس به من أولادهم، من الاستئناس والاستتصار والاستعانة بأمر المعاش بهم. فلماذا لا يحرص الآباء على أن يكون أبناءهم في رضا من الله على الأقل .

26- اختر الاسم وتمعن في معناه

من المستحب أن نسمي أبناءنا أسماء تحمل معنى إسلامي، أو تحمل معنى يعمل به، فكل من اسمه نصيب، فهي امرأت عمران تسمي ابنتها مريم، أي العابدة بما يتناغم مع نذرها الذي نذرت له لربها في أن تجعل ما في بطنها محرراً .

27- الرطب والعسل طيبٌ إلهي

من أقوال أطباء العرب " ما للنفساء عندي دواء إلا الرطب، ولا للمريض إلا العسل " هذا لما للطعامين من قيمة غذائية ووقائية وعلاجية عظيمة ، و هذا القول يتناسب مع زمانه وبيئته التي لم يكثر فيها الأمراض مثل اليوم ، ومع ذلك ورغم التقدم في صناعة الأدوية للعلاج إلا أنه ما يزال للرطب والعسل قيمة علاجية كبيرة للشفاء من بعض الأمراض .

الفصل الثالث

علاقة الأخوة بعضهم ببعض

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: علاقة الصلاح بين الإخوة

المبحث الثاني: علاقة الإخوة بين صلاحٍ وصلاح

المبحث الثالث: العلاقات الأخوية بين الخطيئة

والتوبة

الفصل الثالث

علاقة الأخوة بعضهم ببعض

تدخل مشيئة الله سبحانه وتعالى في قسمة الهبة من الأبناء للآباء، فيهب من يشاء ذكوراً ويهب من يشاء إناثاً، ومنهم من يهبهم ذكراً وإناثاً، وذلك حسب القاعدة الربانية القرآنية في الآية الكريمة في قوله تعالى :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثَاءً وَإِنثَاءً لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۚ أَوْ بُرُوجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى]

وهبة الله من الأبناء في الأسرة هم الإخوة، تربطهم ببعضهم البعض علاقات يفرضها عليهم المحضن الاجتماعي الأول والأخطر تأثيراً ألا وهو الأسرة، مع قاسم مشترك من الأم والأب أو واحدٍ منهم، وأفراد الأسرة هؤلاء هم نواة المجتمع، فلا يتصور مجتمع بشري قائم دون حياة مشتركة بين أفرادها على صعيد الأسرة الصغيرة والتي هي نواة المجتمع المحيط، وهذه الحياة المشتركة تخضع لمنظومة من القوانين الشرعية أو العرفية الأصيلة الكريمة التي تضمن للإخوة العيش المطمئن بسلامٍ مكفولٍ بالحب والتعاون والعدل، لينتقد المسير.

ولكننا قد نجد من الإخوة من أبناء الرحم الواحد والأب الواحد أعداء رغم ما بينهم من قواسم مشتركة، كما نجد الإخوة من يكمل بعضهم بعضاً في انسجام واضح من الحب والمودة والتعاون، وهناك ما بين هذا وذاك، حيث تنتوع هذه العلاقات الأسرية الأخوية تبعاً لعوامل عديدة، أهمها البعد عن الدين، أو الأخطاء التربوية في المحضن الأول في الأسرة، كميل أحد الأبوين أو كليهما إلى أحد الأبناء دون الآخر، أو الثناء المستمر من الأبوين على أحد الإخوة وفي المقابل السخط الدائم على آخر، مما يؤدي إلى نفس العلاقات بين الإخوة وتوليد الضغينة والكره بينهما، وغيرها من العوامل التي تؤثر في العلاقات الأخوية بالشكل السلبي.

وفي القرآن الكريم نماذج عدة للإخوان ما بين الصلاح والصلاح أو الخطيئة يتبعها التوبة سأورد لها بإذنه تعالى في هذا الفصل.

المبحث الأول

علاقة الصلاح بين الإخوة

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : علاقة يوسف عليه السلام بأخيه بنيامين

المطلب الثاني: علاقة موسى عليه السلام بأخيه هارون عليه السلام

المطلب الثالث: علاقة أخت موسى بأخيها موسى عليه السلام

المطلب الأول

علاقة يوسف عليه السلام بأخيه بنيامين

نبي الله يوسف عليه السلام هو ابن نبي الله يعقوب عليه السلام حفيد نبي الله إبراهيم عليه السلام من ولده إسحاق عليه السلام الذي كان بشارة من الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام حين بشره على الكبر بإسحاق ومن ورائه يعقوب عليهما السلام في الآية: ﴿وَأَمْرًا أَنَّهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71] ولقد وُلد ليعقوب عليه السلام - الذي نشأ وعاش في أرض الكنعانيين (أرض فلسطين) - اثنا عشر ولداً من أربع نسوة وهم كالاتي: روبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يساكر، زلون، وأمهم ليئة، يوسف عليه السلام، بنيامين وأمهما راحيل، دان، نفتالي وأمهما بلهة جارية راحيل، جاد، أشير وأمهما زلفة جارية ليئة⁽¹⁾ وهؤلاء الأولاد الإثنا عشر هم أصل الأسباط الإسرائيليين بعد ذلك⁽²⁾.

وستتضح هذه العلاقة بين يوسف عليه السلام وشقيقه بنيامين من خلال النقاط التالية :

1- قرب الإخوة الأشقاء من بعضهم أكثر من باقي الإخوة

نبي الله يوسف عليه السلام اصطفاه الله سبحانه وتعالى بالنبوة، وميزه على أبناء يعقوب عليه السلام، وقد أُوتِيَ عليه السلام شطر الحُسْن وهو ابن نبي الله يعقوب عليه السلام من زوجه راحيل، فنبي الله يوسف هو النبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي، وقال رسول الله ﷺ عنه : (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام)⁽³⁾.

وقد كان لنبي الله يوسف عليه السلام أخ واحد شقيق من أمه راحيل يقال له: بنيامين، وفي

القرآن الكريم ما يدل على ذلك، على لسان إخوته من أبيه، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْيُوسُفُ

وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكُمْ وَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ كَيْفَ تُصَوِّرُونَ ۗ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٠﴾ [يوسف]

وكان أبيهما يعقوب عليه السلام يحب أمهما راحيل حباً شديداً، وقد ماتت راحيل وابناها يوسف وبنيامين صغيران، فزاد حب وعطف يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حب الآباء للصغار من أبناءهم حتى يكبرون، وهي فطرة طبيعية في البشر، فقد قيل لابنة الحسن: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: (الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم، والمريض

(1) التوراة سفر التكوين الإصحاح 35/33.

(2) انظر : موجز تاريخ اليهود/ محمود قده 1/ 274.

(3) صحيح البخاري/ كتاب فضائل الأنبياء / باب لقد كان في يوسف/4/151.

حتى يفيق⁽¹⁾ فحنان الوالدين يُشَدُّ من الأبناء كبيرهم إلى صغيرهم ومن صحيحهم إلى مريضهم ومن حاضرهم إلى غائبهم حتى يتعدوا هذه المرحلة.

وقد خص الله يوسف عليه السلام من الميزات ما زاد تعلق والده به وحبه له، فجماله البارع الأخاذ وحسنه الذي لم يؤتاه أحد من العالمين حيث أُوتِيَ يوسف عليه السلام شطر الحُسْن، كما أن يعقوب كان يستشعر اصطفاء الله لابنه يوسف عليه السلام بالنبوة، لأنه نبي يأتيه من علم الله ما يشاءه الله، فيقول الله تعالى عن علم يعقوب عليه السلام : ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**

﴿٦٨﴾ [يوسف] كما أن الرؤيا التي رآها يوسف وقصها على أبيه وهو صغير، أكدت ليعقوب اصطفاء الله ﷻ ليوسف بالنبوة دون إخوته.

ومن الآية الكريمة يتبين من اللفظ " ﴿ **لِيُؤَسِّفُوا وَأَخُوهُ** ﴾ " كيف أن الشقيقين يوسف عليه السلام وأخيه بنيامين كانا قريبين من بعضهم البعض ومن أبيهم، وهذا ما لاحظته إخوة يوسف من ميل أبيهم للشقيقين، وكان ذلك مدعاةً لحقدهم وكيدهم لأخيهم، فأخوة يوسف لم يدركوا أو يستوعبوا الأسباب التي جعلت أبيهم يميل إلى أخويهم يوسف وبنيامين عنهم فيعذروه، بل سول لهم الشيطان التخلص من أخيهم يوسف عليه السلام.

2- شوق واشتياق من نبي الله يوسف لشقيقه بنيامين:

نزع الشيطان بين يوسف عليه السلام وإخوته، وفرق بينه وبين شقيقه بنيامين وأبيه، في أحداث قصة مريرة عجيبة ذكرها القرآن في آياته في سورة يوسف، وقعت هذه القصة بين أطراف مختلفة في أزمان متباعدة، فمن رؤيا صادقة ليوسف عليه السلام، إلى مؤامرة من إخوته من أبيه، فالقاء في البئر، ثم نجاة يتبعها بيع، ثم إيواء إلى مراودة يتبعها هم، ثم عصمة من الفحشاء إلى سجن، فيه دعوة إلى التوحيد، مع رفق وحسن سياسة وتأويل للرؤيا أصدق تأويل، يتبع ذلك خروجه عليه السلام من السجن بريئاً من التهمة، وتوليته شئون الدولة، فمكّن الله ﷻ له بعد صبره على ما أصابه، وجاء إخوته واجتمعوا به يطلبوا الميرة لهم ولأهلهم، فعرفهم يوسف عليه السلام وهم له منكرون، حين رآهم اشتد شوقه وحنينه لأخيه الذي لم يكن معهم، ودار بينه وبينهم حديث هيا له الحديث أن يطلب منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم كما أخبر القرآن الكريم عن ذلك فيقول الله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِمَّنْ أَيْمَنُتُ فِي الْأَنْبَاءِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**

﴿٦٩﴾ **فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي** ﴿٦٩﴾ **قَالُوا سُرُودُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ** وَقَالَ

(1) انظر : المحرر الوجيز في تفسير القرآن الكريم/ابن عطية 231/1.

لِفَيْئِنِهِ أَجَعَلُوا بِيضَعَنَّهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

[يوسف]

كان يوسف عليه السلام في مصر، حيث من الله عليه فجعله على خزائن الأرض لحكمة أرادها سبحانه وتعالى ليجمع شمل النبيين، وكان أبوه يعقوب عليه السلام وإخوته أهل بادية وإبل وشاة في فلسطين أو ما يُعرف وقتها بالشام، فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال: يا بني بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا واذهبوا إليه لتشتروا منه الطعام، فأرسلهم فقدموا مصر، فدخلوا على يوسف، فعرفهم، يوسف عليه السلام.⁽¹⁾ وهم له منكرون له، وذلك لحكمة الله وهو قول الله تعالى: (فعرّفهم وهم له منكرون) أي: لا يعرفونه؛ والمنكر: هو الذي لا يعرف في الشرع ولا في العقل.⁽²⁾

وقد تكون حكمة ربنا سبحانه وتعالى من أن يعرفهم يوسف عليه السلام ولا يعرفونه، حتى يعرفه أبيهم يعقوب عليه السلام قبلهم في تكرمة من الله ليعقوب عليه السلام، رغم أنهم هم الذين يقفون أمام يوسف عليه السلام يرونه ويراهم، وليس يعقوب عليه السلام وبين يوسف مئات الكيلو مترات، كما أنهم هم المبصرون وليس يعقوب عليه السلام مع ذلك يعقوب الذي يعرفه ويشم ريحه.

هناك أسباب عدة ذكرها المفسرون جعلت إخوة يوسف عليه السلام له منكرين منها: بعد العهد به وتغيير سنه، أو لأنه كان مثلثاً، أو لأنه كان حين دخلوا عليه على هيئة عظيمة من الملك⁽³⁾. ومن ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: كان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه. وقال عطاء⁽⁴⁾: إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وعلى رأسه تاج الملك. وقيل: لأنه كان بزّي ملوك مصر عليه ثياب من حرير وفي عنقه طوق من ذهب.

تتشوق النفس البشرية لتعرف ما حصل تماماً بين يوسف عليه السلام وبين إخوته الذين ألقوا به بالبئر ويظنون موته وبينه وهو في هذا التمكين، وهم أمامه ينكرونه ويقدمون له التبجيل، فتروي الروايات: أنه حين نظر إليهم يوسف عليه السلام وكلموه بالعبرانية، قال لهم أخبروني من أنتم وما أمركم فإني أنكرت شأنكم؟ فقالوا: "نحن قومٌ من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار من عندكم"⁽⁵⁾ فقال لهم يوسف عليه السلام: "إنكم جئتم عيوناً لملككم؛ ولعلكم جئتم تتظرون عورة بلادى،

(1) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن تفسير البغوي/محيي السنة البغوي 500/2.

(2) انظر: تأويلات أهل السنة/الماتريدي 257/3.

(3) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل/أبو القاسم بن محمد 392/1.

(4) عطاء بن دينار الهذلي، مولاهم، المصري: من رجال الحديث. له كتاب في "التفسير" يرويه عن سعيد

بن جبير. توفي بمصر/ تهذيب التهذيب/ ابن حجر العسقلاني 198/7.

(5) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن/محيي السنة البغوي 500/2.

فأمر بحبسهم، فقالوا: لا والله ما نحن بجواسيس، إنما نحن إخوة بنو أب واحد، وأبونا شيخ صديق يقال له: يعقوب نبي من أنبياء الله، فنحن بنو يعقوب النبي، وكنا اثني عشر رجلاً؛ فهلك منا رجل في الغنم، ووجدنا على قميصه دمًا؛ فأتينا أبانا فقلنا له، ثم سألهم يريد أن يعرف أخباراً زيادةً عن أخيه، فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة، قال: وأين الآخر؟ ويريد بسؤاله ﷺ شقيقه بنيامين فقالوا: قد تركناه عند أبينا؛ وهو أخانا من أم الذي هلك؛ فأبونا يتسلى به⁽¹⁾

وأخذوا يتجادبون أطراف الحديث بينهم، فعرف يوسف ﷺ من حديثهم ماذا قالوا لأبيه حين ألقوه في البئر قبل أربعين سنة، ثم قالوا له إن الذي أكله الذئب كان أحبنا إلى أبينا.

فقال لهم يوسف ﷺ: فمن يعلم أن الذي تقولون حق وصدق؟ قالوا: أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد من أهلها، فقال لهم يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك، قالوا: فإن أبانا يحزن على فراقه وسنراود عنه أباه، قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم الذي من أبيكم، فاقترعوا حينها على من يدعوه عنده من بينهم فأصابته القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف، فخلفوه عنده⁽²⁾ والله أعلم.

أمر يوسف ﷺ بتجهيزهم بجهازهم، ومعنى الجهاز⁽³⁾ المتاع، والمقصود بالجهاز في الآية الكريمة: حمل البعير بعدته وهو ما يحتاج إليه المسافر من زاد وغيره، من الطعام الذي باعه يوسف ﷺ لهم بناءً على ما طلبوا⁽⁴⁾

ثم شوقه وحنينه واشتياقه ﷺ لأخيه هو الذي دفعه ليجاذب مع إخوته أطراف الحديث إلى أن قال لهم: (ائتوني بأخ لكم من أبيكم) ويقصد بنيامين، ألا ترون أنني أوفي الكيل، أي: أتمه ولا أبخس الناس شيئاً، فأهل ذلك المكان كانوا ينقصون ويخسرون الكيل في الضيق، فقال لهم: أزيدكم حمل بعير لأجل أخيك، وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم، وأنا خير المنزلين، وفي ذلك يصف نفسه ﷺ بأنه خير المضيفين وقد كان أحسن ضيافتهم.

(1) انظر: كشاف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري 485/2

(2) انظر: تأويلات أهل السنة/الماتريدي 257/3.

(3) الجهاز: الشائع في عرفنا أن هذا اللفظ يُطلق على مستلزمات العروس حين تزف إلى زوجها، فنقول جهاز العروس وهو متاعها الذي يلزمها في الحياة الزوجية والبيت الأسري الجديد.

(4) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل/أبو القاسم، بن محمد 392/1.

ولأنه خشيَّ أن لا يأخذوا كلامه مأخذ الجد ولا يكلموا أباهم في بنيامين بإقناع يحقق إحضاره إليه فلذلك، نجده استطرده محذراً : فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي، أي: ليس لكم عندي طعام أكيهه لكم ولا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك، وهو جزم على النهي⁽¹⁾.

فما كان من إخوته بعد موقفه هذا كصاحب سلطان إلا أن قالوا : "سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون" بمعنى : أننا سنخادع أبانا عنه، وسنجهتد ونحتال عليه حتى ننتزعه من يده، وإنا لقادرون على ذلك لا يعيبنا فنفسل، وإنا لفاعلون ذلك لانفرط فيه ولا نتوانى⁽²⁾.

شعر يوسف عليه السلام أنهم متحمسون لإحضار شقيقه بنيامين إليه في المرة القادمة، فعمل على تشجيعهم على ذلك، فأمر فتياه أن يعيدوا إليهم بضاعتهم التي جاءوا بها من بلادهم فلسطين ليبدلوها ببضاعة أخرى من مصر، وقد كانت بضاعتهم النعال والأدم.

وقد ذكر المفسرون سبب موقفه هذا إلى عدة أسباب منها : إمعانه عليه السلام بالحفاوة بهم وطمأننتهم فيكون ذلك مدعاةً لعودتهم، أو تخوف عليه السلام من أن لا يكون عند أبيه يعقوب عليه السلام المتاع ما يرجعون به ليمتاروا في المرة القادمة وهو حريص على رجوعهم ، أو أنه عليه السلام لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنا، أو أنه عليه السلام علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة، ولا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها⁽³⁾

3- لقاء الشقيقين يوسف عليه السلام وبنيامين بعد سنين

كما أسلفنا بذل يوسف عليه السلام ما يستطيع ليرجع إليه إخوته ومعهم شقيقه بنيامين في المرة القادمة، ثم يصور القرآن الكريم مشهد عودة الإخوة بعد لقائهم يوسف عليه السلام في مصر، وهم له منكرون وعودتهم إلى أبيهم يعقوب عليه السلام، فقد بين المشهد مرادتهم بأباهم عن بنيامين ليصطحبوه معهم إلى مصر في المرة القادمة، ليمتاروا ويزدادوا كيل بعير كما حدث عنهم القرآن، في مرادة ليست سهلة أبداً بعدما راودوه من قبل سنين على شقيقه يوسف عليه السلام وعادوا دونه وادّعوا أن الذئب قد أكله، من بعد تعهدهم لأبيهم برعايته، فلم يكن طلبهم بنيامين من أبيهم هذه المرة بالأمر اليسير، ولولا قدر الله ومشيتته في لقاء الشقيقين في مصر ما سمح يعقوب عليه السلام لبنيامين أن يصحبوا معهم بنيامين إلى هناك، حيث يوسف عليه السلام الذي مازلوا له منكرون وفي هذا المشهد يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ كُنْتَلِ وَإِنَّا

(1) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن/محيي السنة، البغوي 2/500.

(2) انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري جار الله 2/485.

(3) انظر : الكشاف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 5/236.

لَهُ لِحْفِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ
 أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا بِنَا مَا بَنَىٰ هَٰذِهِ
 بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرًا أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزَادًا كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ
 مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَئِنِّي بِهِ ءَالَا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
 ﴿١٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَتَدْخُلُوهُنَّ مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ
 الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا
 كَانُوا يُعْتَبِرُ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ
 وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ
 فَلَا تَبْتَسِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴿يوسف﴾

توضح الآيات المرادة التي مارسها إخوة يوسف عليه السلام على أبيهم والتي سنفصلها في
 مبحث آتٍ وهو الإخوة ما بين التوبة والخطيئة في هذا الفصل، ولكن هنا سأركز على لقاء
 الأشقاء يوسف وبنيامين بعد سنين، في ما صوره القرآن الكريم في آخر الآيات السابقة فيقول
 تعالى (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَسِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
 قدر الله تعالى أن يلتم شمل الإخوة الأشقاء، يوسف عليه السلام وأخيه بنيامين، فلما دخل عليه أخيه
 ضمه إليه، وقال له، لا تحزن ولا تستكن⁽¹⁾، ولم يقل يوسف عليه السلام ذلك لأخيه على مسمع من
 إخوته، بل في خلوة وحدهما، فروي أنهم حين دخلوا عليه قالوا له: " هذا أخونا قد جنناك به"،
 فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين
 منهم على مائدة، فبقى بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه، فقال
 يوسف: بقي أخوك وحيداً، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله، قال: أنتم عشرة فلينزل كل
 اثنين منكم بيتا، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح،
 وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن
 أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى
 يوسف وقام إليه وعانقه وقال له إني أنا أخوك يوسف فلا تبتس ولا تحزن بما كنت تلقى منهم

(1) انظر : معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 119/3.

من الحسد والأذى فقد أمّنتهم. بما كانوا يعملون بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك⁽¹⁾

ثم قال له: أنا لن أفارقك وقال له: قد علمت اغتنام والدي علي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى مالم تفعل. قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك. قال: فإني أدس صاعذي في رحلك، ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته، ليتيهاً لي رذك بعد تسريحك معهم، فقال له: افعل⁽²⁾

فكان التدبير ليوسف عليه السلام فنجده يدبر بتدبير الله له، كيف يأخذ أخاه، فلا يرجع معهم إلى البادية في فلسطين تمهيداً منه للتمسك بأبيه يعقوب عليه السلام، فتظهر لنا الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة، الضابطة الصابرة لتي بينها القرآن في المشهد التالي:

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغِثَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالِ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَبَتِ ابْنِ الْكَافِرِ كَيْفَ تَأْخُذُ أَهْلَكَ بِمَا عَمِلُوا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾ [يوسف]

هذا كان تدبير يوسف عليه السلام برعاية من الله، من أجل أن يأوي إليه أخاه ويجمع الشمل للجميع من جديد في مصر، فجعل السقاية في رحل أخيه وهي الصواع، والصواع هو إناء يشرب فيه الملك ويأكل فيه الطعام، وكان من فضة، وقيل من ذهب، وعن قصد جعله يوسف عليه السلام في رحل أخيه ليحتال على إمساكه معه، إذ كان شرع يعقوب أن من سرق استعبده المسروق

(1) انظر: الكشاف عن حقائق غموض التنزيل/الزمخشري 2/489.

(2) انظر: توفيق الرحمن في دروس القرآن/فيصل النجدي 2/493.

له⁽¹⁾، وقد كمال عليه السلام لكل واحدٍ من إخوته، ومن جملتهم أخوه بنيامين وجعل الصواع في رَحْلِ أَخِيهِ، فلما انطلقوا ذاهبين، {أَذْنٌ مُؤَدَّنٌ أَيْئُهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} ولعل هذا المؤذن، لم يعلم بحقيقة الحال، إنما فعل ما يُؤمر، فأقبل إخوة يوسف عليهم لإبعاد التهمة عنهم، فإن السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عن سرق منه، لتسلم له سرقة، أما هؤلاء فقد جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رُموا بها، فقالوا لهم : (مَاذَا تَفْقُدُونَ) ولم يقولوا: "ما الذي سرقنا" لجزمهم بأنهم براء من السرقة. فأجابهم المؤذن : إن المسروق صواع الملك وقد أعلن عن مكافأة لمن يحضره ، فعندها أجابوا رداً على هذا الإتهام، مقسمين بالله أنهم لم يأتوا ليفسدوا في الأرض وأن العزيز يعلم ذلك عنهم جيداً.

وقد يكون مصدر علمه هذا الذي يتحدثون عنه معرفته أنهم أبناء يعقوب النبي عليه السلام،

وهذه الفعلة لا تصدر عنهم، ونجد في الآية الكريمة (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) إنهم بدأوا بنفي جميع أنواع الفساد عنهم بما تحمل من أنواع المعاصي، ثم قالوا (وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، كما في قولهم قد علمتم، أن العزيز وحاشيته، عرفوا عنهم ما دلهم على عفتهم وورعهم فقد كانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم لئلا تتال زروع الناس، فكيف لهم أن يفسدوا في الأرض ؟ وهذا الأمر لا يصدر عنهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من قولهم مثلاً: " تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق⁽²⁾ .

ولو سألنا لماذا كانت التهمة لأخوة يوسف بأنهم سارقون دون غيرها من التهم الأخرى، والجواب لأن في ذلك المصلحة من إمساك أخيه، فالأمر مدبر له ومرسوم من قبل⁽³⁾.

قالوا لهم ليحبكوا القصة : ألم نكرم ضيافتكم، ونوفكم كيلكم، ونحسن منزلتكم، ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم، وأدخلناكم علينا في بيوتنا ومنزلنا؟ فقالوا : بلى، وما ذاك؟ قال: سقاية الملك فقداها، ولا نتهم عليها غيركم⁽⁴⁾ فكان النفي المتيقن بالدليل كما أسلفنا.

فكان رد حاشية العزيز : ما جزاء من نجد الصواع في رحله ؟ فما كان من إخوة يوسف إلا أن أقرروا بالعقاب العادل الذي يستحقه من كان الصواع في رحله، وذلك ليقينهم من

(1) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل/أبو القاسم بن محمد 1/ 392.

(2) انظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/السعدي 1/402.

(3) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل/أبو القاسم، بن محمد 1/392.

(4) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 16/174.

أنهم ليسوا سارقين، والجزاء العادل للسارق أن يُستعبد، ويؤخذ في السرقة في شرع آل يعقوب وليس في حكم الفراعنة، وقد كان هذا الحكم حتى أول الإسلام، ثم نُسخ بقطع الأيدي.

شرع العزيز بتفتيش رجال إخوة يوسف قبل وعاء أخيه، تمكيناً للحيلة ورفعاً للتهمة، ثمَّ استخرجها من وعاء أخيه ليصح ليوسف عليه السلام بذلك إمساك أخيه معه⁽¹⁾

وهذا التدبير والكد ألهمه الله ليوسف عليه السلام ووصّنه له وحكم يوسف عليه السلام بشرعة آل يعقوب عليه السلام، وليس بشرعة الفراعنة، فما كان ليوسف عليه السلام ليأخذ أخاه في دينهم وتبعاً لشرعهم أو عادتهم وإن كان من حاشية حكمهم، لأنه إنما كان جزاء السارق عند الفراعنة أن يحكم بضعفهما أخذ من الغرم، ولا يسترق⁽²⁾، ولكن يوسف عليه السلام حكم في هذه القضية بحكم آل يعقوب أبيه وأجداده، وهذا رفعة وتمكين ليوسف من الله تعالى **(نَزَفُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ)** ، وبذلك التقى الشقيقان والتم شملهم من جديد بمشيئة الله تعالى.

(1) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/ مكي بن أبي طالب 3605/5.

(2) انظر : الكشف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري 2/491.

المطلب الثاني

علاقة موسى بأخيه هارون عليهما السلام

لقد قدّم القرآن العظيم نموذجاً رائعاً من نماذج الأخوة المنسجمة على ما يحبه الله ويرضاه إلى أبعد الحدود، إنهما الأخوان النبيان اللذان كانت نبوة أحدهما بسبب شفاعته الآخر له، إنه الرسول الكريم كليم الله موسى عليه السلام الذي طلب النبوة لأخيه شقيقه هارون عليه السلام. وسيتم بيان علاقة الصلاح بين الأخوين النبيين والتي هي أعلى درجات الصلاح بين الإخوة على الإطلاق، لأنها درجة النبوة المصطفاة من رب العالمين للأخوين الشقيقين موسى وهارون عليهما السلام.

وسنسلط الضوء على العلاقة بينهما من خلال النقاط التالية :

1- شفاعته موسى عليه السلام لأخيه هارون ليكون معه نبياً :

من أعظم شفاعات الدنيا، شفاعته موسى لأخيه هارون عليهما السلام، فحين كلمه الله وكلفه بالرسالة رأى موسى عليه السلام أن ما أنيط به من أمر الدعوة ليس بالأمر السهل، فطلب من ربه أن يشاركه أخوه في هذا الشرف الكبير والأمانة الثقيلة في هذه الدعوة إلى الله تعالى، وخاصة أنها بدأت بدعوة فرعون للعين الذي ادعى أنه الإله الأوحد، ثم دعوة بني إسرائيل وتعليمهم الشرائع، وبنو إسرائيل قوم كانوا وما يزالوا من أسوأ الأقوام، وخاصة في رفض الحق والتحايل عليه، لأنهم ماديون، مجادلون، قتلة الأنبياء والرسل وهذا هو سبب كثرة الأنبياء والمرسلين فيهم، بغرض تعريفهم طريق الحق المستقيم.

وموسى عليه السلام نبي من الأنبياء الذين أرسلوا لبني إسرائيل ونزلت عليه التوراة، فتشفع لأخيه هارون أن يكون معه نبياً، يبين ذلك قوله سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام:

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ (٣٠) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٣١) ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢) ﴿كَيْ نَسْبَحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٤) [طه]، وفي سورة القصص : ﴿وَإِخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٢٤) [القصص]

فقد طلب موسى عليه السلام من ربه أن يجعل معه معيناً في الدعوة، فعرض أن يكون من أهله، طلب أخيه هارون عليه السلام، وقد أراده موسى عليه السلام وزيراً له، والوزير هو الذي يُلجأ إليه في الأمور وهو مشتق من الوَزْر، وهو الملجأ. وقيل للجبل وَزْرٌ. (1)

(1) انظر : تأويلات أهل السنة/الماتريدي/26/8.

وقيل: " الوزير " الذي يتقلد خزائن الملك وأمتعته. وهو مشتقاً من الوزار، وهي الأمتعة، ومن قوله: ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه: 87] أي: أنية الفضة والذهب. وقيل: " الوزير: الذي يتحمل أنقال الملك، وقيل: الوزير هو المعين⁽¹⁾.
ومن ذلك نستنتج أن موسى ﷺ: أراد وزيراً يساعده في أمره، ومعيناً يلجأ إليه ويعتمد عليه ويتحمل معه الأعباء.

كما بين موسى ﷺ الغرض من طلبه لهارون وزيراً له بتفصيل ووضوح وبيان للمهمة، فيقول ﷺ كما أخبر المولى ﷺ على لسانه ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [٣١] ﴿هَرُونَ أَخِي﴾ [٣٠] ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي﴾ [٣١] ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [٣٢] [طه: 29-32] فبينت الآيات الغاية من طلبه لأخيه معه في الدعوة، ولقد عبر القرآن على لسان موسى ﷺ ببلاغة رائعة عن مهمة الوزير وتحديدها مثلما يرى ويعاين فقال ﷺ: "اشدد به أزرِي" أي: ظهري، والظهير: أي المعين والوزير والمساعد⁽²⁾ فالؤمنون بعضهم سند لبعض، كما طلب موسهارون عليهما السلام سنداً له، يشد عضده، ويقوي همته، ويعينه على نوائب الحياة، في القول والعمل، فهو يريد شريكاً في أمره كله، يقاسمه بؤسه ونعيمه ويتبادل معه الرأي، ويتحمل معه أعباء الدعوة إلى الله، على بصيرة وهدى من الله، ويتحمل معه الصبر والابتلاء في إبلاغ الدعوة إلى الطغاة والمنحرفين، فمجابة الطغاة تحتاج إلى معين وناصر، والمعين والناصر بعد الله، هو الأخ المؤمن الصادق، الذي يقدم نفسه، وماله وجميع ما يملك في نصرته دين الله ونصرة أخيه في العقيدة بلا ملل أو منة⁽³⁾ ولا بد لنا أن نحسن الاختيار في من نختارهم معنا في دعوة الله، أسوة بكليم الله موسى ﷺ الذي أحسن اختيار أخيه لذلك.

ويكمل كليم الله ﷺ عن سبب شفاعته لأخيه نبي، فقال تعالى: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ [٣٣] ﴿وَنَذُكَّرَكَ كَثِيرًا﴾ [٣٤] [طه] يبين موسى ﷺ أسباباً أخرى لطلبه هارون ﷺ معيناً له في الرسالة فقال حتى نسبحك ربي كثيراً في الصلاة ونذكرك كثيراً باللسان وفي هذا بين أن طلبه مشاركة أخيه له بحق ربه لا بحظ نفسه⁽⁴⁾.

(1) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 463/2.

(2) انظر : تذكرة المؤتسي شرح المقدسي/عبد الرزاق البدر 39/1 .

(3) انظر : الموالاتة والمعاداة في الشريعة الإسلامية/محماس الجلود 267/1

(4) تفسير مقاتل بن سليمان/مقاتل بن سليمان 9/3 بتصرف .

وأنهى موسى ﷺ مثنياً على ربه معترفاً بقدرته وإطلاعه عليه فقال ﷺ كما أخبر المولى ﷺ: "إنك كنت بنا بصيراً" إنك يا رب بصيرٌ بنا، مطلعٌ علينا ترانا وتسمعنا وتعلم صدق نوايانا وأعمالنا، لا يخفى عليك من أفعالنا شيء (1) وقيل المقصد: إنك بضعفنا وعجزنا فيما حملتنا وقلدتنا من أمر الدعوة إليك بصيراً، عالماً، والله أعلم. (2)

كما بين موسى سبباً آخر بينته سورة القصص، يجعله يطلب أخيه هارون نبياً معه، يقول الله تعالى على لسان موسى ﷺ ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَا مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص] فيقول ﷺ أن هارون ﷺ أفصح منه لساناً، فيكون أقدر على البيان والتعبير في الدعوة، والفصاحة ميزان الدعوة الذي يُعتبر به في أغلب الأحوال، رغم التفاوت بينهما عليهما السلام في صحّة الفهم، وصفاء الذهن، واعتدال المزاج، وسلامة الدّوق، ورجحان العقل، واستعمال الإنصاف، فهذه الأشياء هي مبادئ المعارف، ومباني الفضائل، ولأجلها يكون أيُّ رجلٍ غنيٍّ من غير مال، وعزيرٌ من غير عشيرة، ومهيّبٌ من غير سلطان، إلى غير ذلك من الصّفات الحميدة والنعوت الجميلة، ومن هنا حصل التّفاوت الزائد، حتّى عُد ألفٌ بواحد (3).

وكل ذلك وأكثر يتسم به موسى ﷺ، ولكن ثقل لسانه جعله يدرك أن في شخصية أخيه في هذا الجانب ما يفيد دعوة الله معه، فقد كان هارون ﷺ أكبر من موسى ﷺ بأربع سنين وكان أفصح منه لساناً، كما كان هارون ﷺ أجمل وأوسم، وأبيض اللون، وكان موسى ﷺ آدم أفنى أجعد (4) وإن كان الشكل لا يُعتد به في الدعوة شيئاً.

فالذي أثر على موسى ﷺ ثقل لسانه وصعوبة نطقه فقط، بسبب الجمر الذي طرحه في فيه وهو رضيع حين كان في قصر فرعون، وذلك عندما أراد فرعون قتله حين أخذ موسى بلحيته وهو يحمله، وقال: أتوني بالذباحين، فقالت له زوجته آسية: قد علمت أنه ليس في أهل مصر من يملك حلياً مثلي، فأنا أضع له حلياً من الياقوت، وأضع له جمرًا، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فهو صبي لا يعقل (5)، فأخرجت له ياقوتها ووضعت له طستا من جمر،

(1) جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 301/18 بتصرف .

(2) تأويلات أهل السنة/الماتريدي 279/7 بتصرف .

(3) الرّوض الباسم في الذب عن سنّة أبي القاسم/محمد بن المرتضى 80/1 بتصرف .

(4) مختصر تفسير البغوي/عبد الله بن الزيد 580/4

(5) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 300/18.

فجاء جبرائيل عليه السلام، فطرح في يده جمرة، فطرحها موسى في فيه، فأحرقت لسانه، فسبب له ثقل في النطق ولذلك يقول الله تعالى على لسانه ⁽¹⁾: ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ [طه: 27]

2- استجابة الله سؤال موسى في نبوة أخيه هارون وتكليفهما بالرسالة

استجاب الله تعالى سريعاً ما سأله موسى عليه السلام، وتقبل شفاعته لأخيه بنبوته فيقول الله عز وجل: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه: 36] ويقول أيضاً: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْدِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴾ [القصص: 35] كما قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمِنَا أَخَاهُ هٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: 53]

تبين الآيات الكريمة السابقة سرعة تقبل الله سبحانه وتعالى لطلب موسى عليه السلام، لأنه توسل بسرعة استجابته لأمر الله عز وجل بالذهاب إلى فرعون، فقال: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ وجدير بمثل هذا الدعاء المتضمن للدعاء الصادق الصحيح أن يجاب، ولصاحبه أن لا يخيب. ⁽²⁾

ولكن من الضروري العلم أن حظ هارون عليه السلام من الرسالة دون حظ موسى عليه السلام، كأن تقول فلان شريك لغيره في دار أو أرض أو بضاعة، ولو لم يكن له منها إلا معشار العشر، هذا في الحسيات، ومثله في المعنويات؛ تقول: الأبوان شريكان في طاعة ابنيهما لهما، وإن كان حق الأم في الطاعة أقوى، وتقول: أبنائي شركاء في محبتي، وأنت تحب بعضهم أشد من بعض. ⁽³⁾

فموسى عليه السلام هو المناجي ربه دون هارون، هو المعطى الألواح دون هارون؛ وهو الذي أنس ناراً دون هارون، وهو الذي نودي بالبركة دون هارون، وأكبر دليل أن حظ موسى عليه السلام في الرسالة أكبر من حظ هارون عليه السلام، أن موسى عليه السلام استخلف هارون عليه السلام في قومه وذهب إلى ميقات ربه دون هارون ⁽⁴⁾ فالرسالة مُنَاطة أولاً وأخيراً بموسى عليه السلام.

ولقد كان موسى واعياً أن ما يطلبه في هذا المشهد الخالد من خير يعينه على تبليغ رسالته لا بد وأن يناله، لأنه يطلب من الله أكرم الأكرمين، وكان حرياً أن يجاب إلى طلبه وزيادة.

(1) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 4/4630.

(2) انظر: التوسل في كتاب الله عز وجل/طلال سوس 1/29.

(3) انظر: رسالة الشرك ومظاهره/مبارك بن الجزائري 1/103.

(4) انظر: تأويلات أهل السنة/الماتريدي 3/5.

وقد تعهد الله له بالنصر النهائي⁽¹⁾ إذ قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ

وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ مَا بَيْنَنَا أُنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ [القصص]

و في تفسير هذه الآية: أي نجعل لكما حجة، فلا يصلون إليكما، لأنكما تمنعان بآياتنا، ويجوز أن تكون الآيات المانعة المساعدة على نصر الله العصا واليد وما أشبههما⁽²⁾.

فقد أخبر المولى ﷺ أنه رحمة منه سبحانه وتعالى لموسى ﷺ وهب له أخاه هارون

نبياً، وذلك حين دعا موسى فقال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٣٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾ [طه] فأجاب الله دعاءه وأرسل هارون، ولذلك سماه هبة له⁽³⁾ ولكن الشريعة كما قلنا لموسى ﷺ وأخيه هارون تابع له فيها، تماماً كما أن الوزير تابع لسلطانه، ثم في نهاية الآية يطمئنهما الله ﷻ بأن النصر لهما في النهاية على أعدائه⁽⁴⁾.

3- موسى ﷺ في ميقات ربه وهارون خليفته في بني إسرائيل:

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِهَا عَشْرَ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ

لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف]

أصبح هارون ﷺ نبياً وشريكاً في الدعوة مع موسى ﷺ، وقد ذهباً معاً لدعوة فرعون كما أمرهما الله سبحانه وتعالى، ثم نصرهما الله على فرعون وهامان وجنودهما بعد أن أغرقهم الله جميعاً في عرض البحر، وأنجى الله بني إسرائيل من فرعون وكفره واستبداده وظلمه لهم، وكان موسى قد وعد بني إسرائيل إن نصرهما الله على فرعون أن يأتي لهم بكتاب من الله ﷻ فيه ما يأتون وما يذرون⁽⁵⁾.

فلما قطع موسى ﷺ بهم البحر، وأغرق الله آل فرعون قالت بنو إسرائيل لموسى: يا موسى، ائتنا بكتاب من ربنا كما وعدتنا، وزعمت أنك تأتينا به إلى شهر⁽⁶⁾، فاختر موسى من قومه سبعين رجلاً لينطلقوا معه وهم النقباء، فلما تجهزوا قال الله: يا موسى، أخبر قومك أنك لن تأتيتهم أربعين ليلة، وذلك حين تمت بعشر.

(1) انظر: النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام/أحمد عبد الوهاب/46/1.

(2) انظر: معاني القرآن/أبو جعفر النحاس/180/5.

(3) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن/البغوي/273/5.

(4) انظر: تفسير المراغي/المراغي/16/19.

(5) انظر: تفسير القرطبي/القرطبي/274/7.

(6) انظر: تفسير القرآن العزيز/ابن أبي زمنين/140/2.

قال موسى ﷺ لأخيه هارون ﷺ حين خرج إلى الجبل لميقات ربه موصياً إياه على بني إسرائيل: (اخلفني في قومي بخير، وأرفق بهم ولا تتبع يا هارون سبيل المفسدين منهم، وأصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله، ولا تتبع سبيل المفسدين منهم، ولا تسلك طريق العاصين، ولا تكن مرناً للظالمين⁽¹⁾).

فلما خرج موسى بالسبعين أمرهم أن ينتظروه في أسفل الجبل، وصعد موسى الجبل، فكلمه الله أربعين يوماً وأربعين ليلة، وكتب له في الألواح، وكانت الأيام من ذي القعدة وأتمها بعشر من ذي الحجة، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وكان موسى ومن معه قد قطعوا البحر في عشر من المحرم يوم عاشوراء ثم أعطي التوراة يوم النحر بينهما أحد عشر شهراً⁽²⁾.

أمر الله ﷻ موسى ﷺ قبل الميقات صوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما تمت ثلاثون ليلة أنكر خلوف فمه، فتسوك بعود ضرنوب وقيل بعود خروب، فقالت له الملائكة (كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك⁽³⁾) فزيدت عليه عشر ليال وهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: 51] فهذا دليل أن المواعدة كانت أربعين ليلة كاملة، والله أعلم⁽⁴⁾.

وفي رواية قال له ربه حين أتاه: لم أفطرت يا موسى؟ وهو أعلم بالذي كان، فقال: يا رب إنني كرهت أن أكلمك إلا وفي طيب الرائحة، قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، ارجع حتى تصوم عشرة أيام ثم ائتني، ففعل موسى الذي أمره به ربه، فزاد على الثلاثين من ذي القعدة عشراً من ذي الحجة، وفي العشر أنزلت عليه التوراة وكلم فيها والله أعلم⁽⁵⁾.

أما عن حال قوم موسى ﷺ بعده، يخبرنا ابن عباس ﷺ أن موسى ﷺ قبل خروجه عنهم لميقات ربه قال لهم: (أطيعوا هارون فإنني قد استخلفته عليكم، فإنني ذاهب إلى ربي) ووعدهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم، واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح، وكانت الألواح من برد، فقربه الرب نجياً وكلمه، حتى سمع صريف⁽⁶⁾ القلم، وبلغنا أنه لم يحدث⁽⁷⁾ في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور⁽⁸⁾.

(1) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 86/13.

(2) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 60/2.

(3) انظر : تفسير الكشف والبيان/أحمد للثعلبي 274/4.

(4) معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 372/2.

(5) انظر : تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 1551/5.

(6) صوتها وصريرها وهي تجري بما تكتبه الملائكة .

(7) لم يكره ما يكره الناس من قضاء الحاجة.

(8) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 62/2.

أثناء غيبة موسى ﷺ عن بني إسرائيل محص الله بني إسرائيل، ليبين لنا كفرهم بنعم الله، فالله نجاهم من آل فرعون ولم يكادوا يعبرون البحر بعد أن رأوا المعجزة العظيمة في ممرهم من داخل البحر بعد أن انقسم البحر قسمين بقدرة الله، فإذا بهم حين رأوا قوما يعبدون الأصنام، قالوا كما يروى لنا القرآن العظيم: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَجَاهِلُونَ ﴾ [الأعراف: 178] عجيب أمر بني إسرائيل الذين ما كادوا يفلتون من قبضة فرعون وبطشه واستعباده لهم، وأن الله أنقذهم من الشرك والكفر إلى التوحيد والإيمان على يد رسوله ﷺ، فإذا هم يريدون استبدال التوحيد بالشرك ويطلبون من موسى ﷺ إلهاً، حين رأوا قوماً يعبدون الأصنام، حدث هذا بمجرد خروجهم من البحر سالمين، في معجزة خلاصهم، وتخليصهم من فرعون (1).

انتظر بنو إسرائيل عودة موسى من ميقات ربه، فقد عدوا عشرين يوماً وعشرين ليلة؛ ثم قالوا: "قد أخلفنا موسى الوعد!" ورؤى أن السامري قال لهم: "إن موسى لن يرجع، وإنه قد مات" (2) وأنهم عدوا عشرين يوماً بليلاتها فجعلوها أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا فعندها جعل لهم موسى السامري عجلاً فعبدوه (3)،

وكان من تزيين الشيطان لهم، وقد صنعه لهم السامري، والسامري هو موسى بن ظفر، وكان السامري قد أبصر جبريل ﷺ على فرس، يقال له فرس الحياة (4) وأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب، وكان مصنوعاً من الذهب والحلي التي أخذها بنو إسرائيل خلصة حين كانوا يخدمون عند نساء آل فرعون (5).

فقال لهم السامري حين مضى ثلاثون ليلة: يا بني إسرائيل إن معكم حلياً من حلي آل فرعون، وهذا حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم نحرقها، فأتوه ما كان عندهم، فأوقدوا ناراً فألقى الحلي في النار، فلما ذاب الحلي ألقى تلك القبضة من تراب في النار فصار عجلاً له جسداً له خوار، فخار خواره لم يثني (6) والخوار صوت البقر فكان العجل المصنوع من الذهب إذا دخل في فيه الهواء يصوت كالبقرة (7) حيث وضعه لهم في مهب الريح، فإذا هبت صوت (8)

(1) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي/274/4.

(2) انظر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري/160/2.

(3) انظر: تفسير القرآن العزيز/أبي زمنين/140/2.

(4) انظر: المسالك والممالك/أبو عبيد البكري/117/1.

(5) انظر: تفسير الخواطر/الشعراوي/332/1.

(6) انظر: تفسير القرآن العظيم/لابن أبي حاتم/1568/5.

(7) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن/الإيجي الشافعي/654/1.

(8) انظر: زهرة التفسير/محمد أبو زهرة/4699/9.

4- ضلالة بني إسرائيل تضع الأخوين النبيين في موقف صعب.

عاد موسى ﷺ من ميقات ربه، فرأى أن قومه عبدوا العجل ولم ينفعم الهدى، فأصابه ما أصابه من أسف وغضب وهم وغم، وقد بين لنا القرآن هذا المشهد العصيب في وصف دقيق مصور لردة فعل موسى ﷺ على قومه وأخيه، في تفصيل في القرآن الكريم لهذا الموقف فيقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعْجَلْتُمُوهُ أَمَرْتُ رَبِّيكُمْ وَأَلْفَىٰ الْأَلْوَابِحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۗ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَمْلِكُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِلِ الْأَعْدَاءِ وَلَا يَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ [الأعراف: 150]

انصرف موسى من عند ربه ولم يستطع أحد بعد ذلك أن ينظر في وجهه لما يغشاه من النور الذي تغشاه من ميقات ربه، حتى أن موسى كان يغطي وجهه بحريرة، وأنزل الله عليه الألواح بطور سيناء، نزلت من السماء فيها التوراة (1) فلما رأى ما أحدث قومه من بعده ارتعد وسقطت الألواح من يده فتكسرت (2). وذلك لما لحقه من فرط الدهشة وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل (3) وكان ذلك غضبا لله وحميةً لدينه، بينما هارون كان ألين منه جانبا، فكان أحب إلى بني إسرائيل من موسى ﷺ (4).

وصف القرآن الكريم موسى ﷺ حين رجع إلى قومه أنه غضبان أسفا، والأسف هو الشديد الغضب أو الذي به تغيظ على من أغضبه (5)، ثم ذم موسى ﷺ لما فعلوه وما خلفوه وما قاموه مقامه وهم خلفاء من بعده، إشارة منه إلى عبادة العجل مكان عبادة الله.

كان ما فعله قومه ليس بالهين، فقد اندهش ﷺ حزينا على ما أحدثوه، كيف يكون ذلك منهم بعد ما رأوا منه ﷺ توحيد الله ﷻ، ونفي الشركاء عنه، وإخلاص العبادة له وكيف كان يحملهم على التوحيد معه وكيف منعهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر من قبل

عندما قالوا له: ﴿يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٧٨﴾ [الأعراف: 178]

[138] وذلك قبل ميقات ربه، اندهش أسفا كيف أسرعوا إلى الكفر وهم من رأوا غير بعيد معجزة نجاتهم من فرعون، وظلمه وإغراق آل فرعون في البحر أمامهم، فكل هذا جعله في هذه النفسية

(1) انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/جار الله الزمخشري/2/160.

(2) انظر : المسالك والممالك/أبو عبيد عبد الله البكري/1/117.

(3) انظر : الرسل والرسالات/عمر الأشقر العتيبي/1/99.

(4) انظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل/النسفي/1/607.

(5) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/الطبري/13/120.

الآسفة الحزينة، لأن من حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه، وإذا لم يعتبروا بكل ما حُقَّ له الاعتبار، فكيف ومتى وبأي شيء سيعتبروا؟؟.

كان موسى عليه السلام يعلم بما أحدثه قومه من أمر عبادتهم للعجل قبل رجوعه إليهم، فقد أخبره الله سبحانه وتعالى عن ذلك وهو في الميقات فيقول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ [طه: 85] وبالرغم من ذلك كانت له عليه السلام ردة فعل شديدة وكأنه لم يعلم الأمر من قبل، ففي الحديث (ليس الخبر كالمعاينة)⁽¹⁾

إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا وسمع، (ألقى الألواح فانكسرت)⁽²⁾ لأنه لم يكن عليه السلام يتصور أن تصل درجة فتنتهم إلى هذه الدرجة وهذا الحد، لذلك حين رأى وسمع، ألقى الألواح فهم لا يستحقون كتاب هدى من الله. ورؤي أن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى موسى عليه السلام الألواح وتكسرت، رُفِعَ منها ستة أسباعها، وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رُفِعَ تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة، فجمعها وأودعها في تابوت السكينة⁽³⁾

قال لهم موسى عليه السلام بعدما هدأت ثورته: " يا قوم ألم يعدكم ريكم وعداً حقاً أن يعطيكم التوراة فيها بيان كل شيء"، وكان قد وعدهم أربعين يوماً، فأخلفوا الموعد وهو الأربعين يوماً، لأنهم عدوا الأيام والليالي فعدوا عشرين يوماً وعشرين ليلة ثم قالوا لهارون: " قد تم الأجل الذي كان بيننا وبين موسى " فعند ذلك أضلهم السامري⁽⁴⁾ مستغلاً أنهم طلبوا من موسى عليه السلام من قبل أن يجعل لهم آلهة كما للعمالق آلهة، حين مروا عن قبيلتهم في الشام وأروهم يتعبدون للأصنام.

لقد أنكر عليهم موسى عليه السلام ما فعلوه، وذكرهم بما وعدهم ربهم من النجاة والهداية بنزول التوراة، والنصر بدخول الأرض المقدسة، ولكنهم نسوا وعد الله لهم سريعاً، فقال موسى عليه السلام:

(1) صحيح ابن حبان 96/14/حديث صحيح، رجاله رجال الشيخين، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(2) مسند أحمد 147/4 بتحقيق أحمد شاكر وقال في التعليق: "إسناده صحيح"، والحاكم في المستدرک 321/2، وقال: "حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

(3) انظر: المسالك والممالك/أبو عبيد عبد الله البكري 117/1.

(4) انظر: تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 73/3.

"أردتم بسوء صنيعكم أن ينزل بكم غضب الله بطغيانكم الذي حذركم منه، فأخلفتكم عهدكم لي بالسير على سنتي والمجيء على أثرى " (1)

إن ما أحدثه بنو إسرائيل من عبادة للعجل لدليل على تأصل الوثنية فيهم، فعلى الرغم من دعوة موسى ﷺ لهم الأيام والليالي الطوال، ماضياً بدعوته إلى توحيد الله تعالى، ومحاربة الشرك والوثنية، ثم حين يترك أخاه هارون ﷺ فيهم، يطمع القوم في حلمه ولين جانبه، فينتهز السامري تلك الفرصة، ويضل القوم بعمل عجل من حلي الذهب والفضة على نحو خاص، بحيث إذا مر الهواء منه صوت كصوت العجل، واستغل سذاجتهم وجهلهم بحقيقة تلك الصنعة، وأقنعهم أن ذلك هو الذي ينبغي أن يُعبد، فيعود نبي الله موسى، فيحزن على ذلك العمل الحزن العميق، ويأسف غاية الأسف على إضاعة مجهوده بسبب ضعف قومه، واستعدادهم لكل أنواع التحريف (2).

والحقيقة لو أن السامري لم يجد فيهم ميلاً للكفر ما ابتدع فيهم ما فتنهم به، ولو كانوا على يقين من الإيمان كما علمهم موسى ﷺ ما افتتوا بالسامري.

5- ردة فعل موسى القوية على هارون، والقرآن يؤيد هارون

صب موسى ﷺ لجام غضبه على أخيه هارون ﷺ، كيف يستخلفه على بني إسرائيل فيعبدوا العجل في غيابه، فترة استخلافه عليهم، وقد كان لهارون ﷺ تبريره عن ذلك في موقف يصور فيه القرآن الكريم ما حصل بين الأخوين النبيين، فيقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَأَلْفَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: 150-151]

وقدم تبريراً آخر وضحته آية أخرى من قوله تعالى: ﴿قَالَ يَهْرُونَ مُأْمَنُكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا

﴿١٢٩﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٣٠﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِحِجَّتِي لِإِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٤٤﴾﴾ [طه: 92-94]

كانت ردة فعل موسى ﷺ شديدة تمعراً وغضباً لدين الله، وكانت شدتها على أخيه هارون فحين انتهى من كلامه مع بني إسرائيل، أخذ ﷺ برأس أخيه ممسكاً بشعره يجره إليه بذؤابته، لشدة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب ببطنته، ظاناً بأخيه أنه فرط فيما تكلف

(1) انظر : المنتخب في تفسير القرآن الكريم/لجنة من علماء الأزهر 464./1

(2) انظر : منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام/حمود الرحيلي 228/1.

به⁽¹⁾، قائلاً له: ما الذي منعك من إتباعي إلى جبل الطور، واللاحق بي مع من بقي مؤمناً، فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، حين وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في هذه الفتنة؟ ففي مفارقتهم زجر لهم، ودليل على الغضب والإنكار عليهم. فكيف خالفت أمري لك بالقيام لله، ومنابذة من خالف دينه، وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً؟ ألم أقل لك "اخلفني في قومي، وأصلح، ولا تتبع سبيل المفسدين"⁽²⁾.

رد عليه هارون عليه السلام مبرراً موقفه وما بدى له من رأي، طالباً من أخيه موسى العفو والغفران حين رأى سخط أخيه الكبير عليه، فلذلك بدأ هارون عليه السلام بقوله: يا ابن أم، مترقفاً له بذكر الأم التي هي عنوان الحنو والعطف، مع أنه أخاه لأبيه وأمه، فقد أضافه إلى الأم، إشارة إلى أنهما من بطن واحد، فذلك أدعى إلى العطف والرقّة، وأعظم للحق الواجب، ولأن أمهما كانت مؤمنة فاعتد بنسبها، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها⁽³⁾، وطلب منه أن لا يفعل هذه العقوبة منه لأخيه، فقد كان آخذاً عليه السلام برأسه يجره إليه، فقال له هارون عليه السلام: إن لي عذراً فقد خشيت أن تقول: فرقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي؟ فخفت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يقتتلوا وينفروا، ونقول: إني فرقت جماعتهم⁽⁴⁾

وجد تبرير هارون قبوله عند موسى عليه السلام فالتمس العذر له، فلو خرجتبعه جماعة من بني إسرائيل ولتخلف مع السامري الذين عبدوا العجل، ولربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم، فاعتبر هارون عليه السلام حدوث مثل هذا إخلال بوصية موسى عليه السلام في قوله (اخلفني في قومي وأصلح)، وعدم مراعاة لأوامره باستخلافه فيهم.

وأضاف هارون عليه السلام تبريره موقفه لأخيه أن بني إسرائيل استضعفته، ولم يسمعوا كلامه وعظته لهم، حتى أنهم كادوا يقتلونه، يبين ذلك قوله تعالى على لسان هارون في

سورة الأعراف: ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِالْأَعْدَاءِ

وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ [الأعراف: 150] فمفهوم كلامه عليه السلام أنه لم يأل جهداً في كفههم بالوعظ والإنذار، وبما بلغت طاقته من بذل القوة في إرجاعهم حتى قهره واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه بعد أن هددوه، ولم يكن معه من الأنصار إلا القليل، فقال لأخيه: فلا تشمت

(1) انظر: التفسير المنير/وهبة الزحيلي 265/16.

(2) انظر: المرجع السابق.

(3) انظر: السراج المنير/محمد الشريبي 519/1.

(4) انظر: زهرة التفاسير/محمد أبو زهرة 469/9.

بي الأعداء ولا تفعل بي ما هو أمنيته من الشماتة بشخصي، ولا تجعلني معهم في طابور كفرهم ولا تجعلني في موجدتك عليّ وعقوبتك لي قرينا لهم⁽¹⁾.

تعامل موسى ﷺ مع أخيه هارون بقسوةٍ دفعه إلى ذلك غيرته على انتهاك حقوق الله ﷻ، ظاناً منه أن أخاه لم يفهم ويمنعهم ويدرك حجم مخالفتهم، والحقيقة التي أخبرها القرآن الكريم تثبت عكس ذلك فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۗ﴾ [٩١-٩٠]

موسى ﷺ [٩١-٩٠]

يخبر الله تعالى عن نهي هارون ﷺ لقومه عن عبادتهم العجل وتحذيرهم من فعلها، وإخبارهم بأن هذا العجل إنما هو فتنة قد فتتهم الله بها، ليعلم صحيح الإيمان منهم من مريض القلب، الشاك في دينه. وقال لهم هارون إن ربكم الرحمن، وليس هذا العجل، فاتبعوني وأطيعوا أمري، في عبادة الله، ولا تتبعوا السامري في أمره لكم، واتركوا ما أنهاكم عنه.⁽²⁾ ولكن بني إسرائيل هم، هم، لا يتغيرون في كل الأزمنة والعصور هم، هم، معاندون، مجادلون، ماديون لا يترددوا عن قتل أنبيائهم إن لم يوافقوهم ويكونوا وفق أهوائهم ورغباتهم الدنيوية الطامعة الحقيرة، فلم يقبلوا من هارون ﷺ الوعظ والنصح وقابلوه بالجدود. بالرغم أن هارون ﷺ أجاد في موعظتهم وترتيبها بما يؤثر في نفوسهم، ولكنهم ردوا عليه قائلين: "لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى فلم يقبلوا حجته، وادعوا أنهم يقبلوا قول موسى إذا رجع، وأخبروه أنهم لن يتركوا عبادة العجل، حتى يقول لهم موسى فيه هذا، بل أكثر من ذلك فقد كادوا يقتلوا هارون ﷺ حين زاد في موعظته⁽³⁾ وبذلك يثبت القرآن أن هارون ﷺ لم يشارك في عبادة العجل، كما قالت التوراة المحرفة غير الصادقة، وكان هذا من أعظم الأدلة على تحريفها⁽⁴⁾.

عرف موسى ﷺ أن أخاه لم يتهاون فيما وكل إليه، وكان من أثر هذا الاستعطاف

في نفس موسى ﷺ بعد هذا الحادث دعاؤه له ولأخيه كما يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي

وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۗ﴾ [الأعراف: 151] فطلب ﷺ

من ربه أن يغفر له على ما أغلظ به من قول وفعل، وأن يغفر لأخيه ما عساه قصر فيه من مؤاخذه القوم، ويظهر حسن دعائه في بلاغة لفظه فلم يقل ﷺ وارحمنا، بل قال وأدخلنا في

(1) انظر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل/جار الله الزمخشري 160/1.

(2) انظر: التفسير المنير/وهبة الزحيلي 265/16.

(3) غرائب القرآن و رغائب الفرقان/النيسابوري 322/3 بتصرف .

(4) انظر: زهرة التفاسير/محمد أبو زهرة 469/9.

رحمتك ، لأنه وسعت كل شيء فاجعلنا يارب مغمورين فيها، ثم يُنهي بالثناء بما يدل على مزيد الثقة في الرجاء، فيقول "وأنت أرحم الراحمين" ويحمل دعاؤه لأخيه ولنفسه ما هو أقوى من الاعتذار لهارون ، وأدل على تخييب أمل الأعداء في شيء مما يثير حفيظة السماتة، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال الرحمة منتظمة لهما في الدنيا والآخرة⁽¹⁾.

(1) انظر : المنار/محمد رشيد رضا 180/9

المطلب الثالث

علاقة أخت موسى بأخيها موسى عليه السلام

من الطبيعي أن يجمع أفراد الأسرة المسلمة وحدة الألفة والمودة والتعاطف بين بعضهم البعض، فهذا مطلوب من المجتمع المسلم بأسره امتثالاً لقول رسولنا الكريم ﷺ : (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)⁽¹⁾ إذا كان هذا هو الواجب على المجتمع المسلم بأسره، فكيف بأفراد الأسرة المسلمة من أب وأم وأخوة وأخوات فإنهم يمثلون خلية من خلايا تكوين هذا المجتمع المسلم الكبير، فلذلك لا بد أن هذه الأسرة جسد واحد، إذا تأثر فيها فرد منها تأثر باقي الأفراد، وهذا ما حدث في أسرة موسى عليه السلام، هذه الأسرة المسلمة التي أوحى الله إلى الأم فيها بأن تلقي وليدها بالماء بعد أن ترضعه، ثم يربط على قلبها ويؤكد أنه سبحانه وتعالى سوف يرده إليها، ويكون لأخته الصالحة بإرادة الله الدور الكبير في رده إلى أمه، يدفعها إلى هذا الدور رغم خطورته حبها لأخيها الرضيع الذي ألفت به أمه في اليم لينجو من ذبح فرعون، فهذا النموذج الطيب من العلاقات الأخوية الصالحة الذي أورده القرآن، وبينه لنحتذي به أخوة وأخوات.

وستتضح هذه العلاقة الأخوية من خلال النقاط التالية :

1- أخت موسى عليه السلام توكلها أمها بمهمة ليست سهلة:

لا يتصور عقل أن تُلقى أمٌ بابنها في النهر، ولكنها القصة العجيبة التي تتجلى فيها إرادة الله وقدرته سبحانه وتعالى، فقد أوحى الله إلى أم موسى، فقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَافِي وَلَا تحزني ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ [القصص: 7] والمتأمل في نص السابق يدرك أن فيه ما يثير الغرابة والدهشة، وهو أن تلقي أم موسى أو أي أم غيرها رضيعها في النهر بعد أن ترضعه كما هو نص القرآن، إن ذلك لأمر عجيب، فلحظة إرضاع الأم لوليدها لحظة تتجسد فيها قمة مشاعر الأمومة من حب وحنان وعطف، فكيف تلقي به بعد ذلك وهي مازالت في هذه العاطفة، وهل من تخاف على ابنها القتل ترميه للغرق فكليهما موت ؟، ولكنه وحيٌ الله وإرادته المختارة، وتصريفه ملكه كيف يشاء، فأوحى الله إليها فألقته في اليم رغم كل ذلك، مع اليقين بأن الله سيرده إليها وسيجعله من المرسلين، ورغم هذا اليقين يبقى قلب الأم القلق، تريد أن تعرف ما يؤول إليه مآل ابنها، فاستعانت بابنتها خشية أن تخونها عاطفتها إن فعلت هي ذلك، فيكشف أمرها وتعرض ابنها

(1) صحيح البخاري/الإمام البخاري/باب رحمة الناس والبهائم 10/8

لقتل فرعون، فطلبت من أخت موسى أن تتنظره وتعرف ماذا يحدث له، كما يُخبر القرآن فيقول:

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: 11]

اسم أخت موسى التي أدت هذه المهمة مريم بنت عمران، فقد وافق اسمها اسم مريم أم عيسا المسيح عليه السلام⁽¹⁾ وهي أخت موسى عليه السلام لأبيه وأمه، ولولا كانت هذه الأخت حريصة على أخيها، وتعرف أمها أنها تحمل شعور الخوف على أخيها، ما أسندت إليها هذه المهمة الخطرة، فقالت لها أمها (قُصِّيهِ) أي تتبعي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا، أحيي ابني أو قد أكلته دواب النهر وحيثانه؟ أو انظري ماذا يفعلون به. ونسيت أم موسى عليه السلام ما وعداها بهربها، من شدة خوفها على رضيعها موسى عليه السلام⁽²⁾.

ونجد أن أخت موسى عليه السلام كانت مناسبة جدال هذه المهمة، يدفعها حبها لأخيها، وإشفاقها على حال أمها، أن تتوخى الحذر الشديد وهذا ما أخبر القرآن عنه في قوله تعالى:

(فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ) أي عن بعد تبصر ولا توهم أنها تراه، يقال: بصرت به جنب وعن جنبه إذا نظرت إليه عن بعد⁽³⁾ فقد قال ابن عباس: الجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى الشيء البعيد، والذي هو إلى جنبه لا يشعر به⁽⁴⁾.

فبصرت أخته وهو في التابوت يجري في الماء لتعلم من يأخذه ولكن عن بعد، ولم تدن منه ولم تقرب، لئلا يعلم أنها منه بسبيل، وهي مجانية له لا ترقبه وعينها إلى التابوت معرضة بوجهها عنه إلى غيره وهم لا يشعرون بذلك.

وقيل: إن أخته خرجت في سكك المدينة تبحث مخفية عنه، فرأته عند قوم من حاشية امرأة فرعون يطلبون به امرأة ترضعه حين لم يقبل المراضع⁽⁵⁾.

2- حذر أخت موسى عليه السلام، وحكمتها وسرعة تصرفها :

حين تبعت مريم أباها موسى وهو في التابوت في النهر ترفعه الأمواج وتخفضه محاولة أن لا يشعر بها أحد فينكشف أمرها، بغية أن تعرف أين يسير التابوت ومن سيأخذه، حتى وصل إلى قصر فرعون، فالتقطته جوارى امرأة فرعون آسية من النيل، فقد خرجن يغتسلن

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 80/13.

(2) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 53/19.

(3) معاني القرآن وإعرابه/للزجاج 13/4.

(4) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 238/7.

(5) انظر: تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 323/3.

فوجدن التابوت، فأدخلنه إلى آسية، فلما رأت موسى عليه السلام في التابوت وقعت عليه رحمتها وحنينها، ولما أخبرت به فرعون، أراد أن يذبحه، فلم تنزل تكلمه حتى تركه لها بعد أن قال لها : إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل، وأن يكون هذا الذي على يديه هلاكنا، وألقى الله عليه محبة موسى عليه السلام وعطف عليه بنفسه، وقالت امرأته آسية (1) : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ يَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: 10] أخبرت أخت موسى أمها بما رأت، وأن أباها أصبح بيد آل فرعون، فخافت عليه خوفاً شديداً، وانتابتها أفكار كادت تفقدها سيطرتها على كتمان الأمر، وكادت تجعلها تعلن أن موسى ابنها رضيعها، لولا تدخل العناية الإلهية وتنبيتها وتصييرها على ذلك وبيين الله سبحانه وتعالى موقفها في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرِمُوسَىٰ فَرِحًا بِأَنَّ كَادَتْ لِتُبَدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: 10] فقد عصمها الله من ذلك بتنبيتها وتذكيرها بوعد الله وعهده لها، وتداركها سبحانه وتعالى بالرحمة، فربط على قلبها، لم تكن تعلم أم موسى أن ابنها سيصل بتابوته إلى فرعون، فهي ترميه في اليم خوفاً من فرعون، وهذا ماجعلها في هذه الحالة، فقد أصبح في قصر فرعون ويمكنه ذبحه في أي وقت، وقيل أن سبب ما أصابها أنها سمعت الناس يقولون : اتخذه فرعون ولداً، وصاروا يقولون عن ابنها موسى عليه السلام : ابن فرعون ابن فرعون، فأدركت أمه الرقة وحث الولد، وضاق صدرها فكادت تقول : بل هو ابني وتُظهر المكتوم (2).

فمع أن فرعون والقبط كانوا يقتلون الذكور من بني إسرائيل ؛ خوفاً من هلاك فرعون وذهاب ملكه على يد واحد منهم، فجعل الله بلطفه ورحمته موسى يتربى في قصر فرعون، بل ألقى محبته في قلب فرعون وقلوب أهله، حتى صار أحب الخلق إليهم، وصاروا هم أشفق الناس وأرحمهم عليه، حتى خافوا هلاكه وطلبوا له المراضع ؛ لئلا يهلك، ولكن وعد الله لا بد أن ينجزه لأم موسى ويرد رضيعها إليها، فحرّم عليه المراضع وذلك في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ

نَصِيحَةٌ ﴾ [القصص: 12]

(1) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 5488/8.

(2) تأويلات أهل السنة/الماتريدي 151/8 بتصرف.

لم يقبل موسى ﷺ أن يرضع من أي امرأة حتى كاد أن يهلك⁽¹⁾، وكان يؤتى لموسى ﷺ بمرضع بعد مرضع، فلم يقبل ثدي امرأة منهم، فهم ذلك من في القصر.

ويبدو أن أخته مريم كانت تراقب عن كثب ما يجري في القصر، وبطريقة ما تدخلت فقالت: (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ) أي يتكفلون رضاعته، ويشفقون عليه، وينصحون له دون نصح غيرهم⁽²⁾، وفي قولها دليل على شدة حذرهما، في ذلك تعريض منها حتى لا يشعروا أنها أمه حيث قالت هل أدلكم على أهل بيت، ولم تقل: هل أدلكم على امرأة لها لبن وهي ترضع، ولعلها لو قالت لهم ذلك لوقع عندهم أنها أمه، ولكن دللتهم إلى بيت ليقع عندهم أنهم أهل بيت قُتل ولدهم ولهم ولد، فيمكن أن يكفلونه لكم ويقبلونه ويضمونه إلى أنفسهم⁽³⁾ وفيه أيضاً حرص وذكاء منها.

كما قالت لهم عن هذه المرضعة التي تعرضها، هي امرأة قُتل ولدها، فأحب شيء إليها أن تجد صدياً صغيراً ترضعه، وهم له ناصحون، قالوا لها : نعم، فأتينا بها، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم، فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها⁽⁴⁾ إلا أن هامان شك فيها، حين قالت (وَهَمَّ لَهُ نَصِيحُونَ) والنصح : إخلاص العمل من شائب الفساد، وهو نقيض الغش، ففهم أنهم ناصحون للولد، فقال لها هامان: خذوها حتى نخبرنا بقصة هذا الغلام يقصد موسى، فأخذت، فألهمها الله تعالى عند ذلك فقالت: إنما ذكرتُ النصيحة لفرعون لا غيره وليس للولد فقال هامان: دعوها فقد صدقت⁽⁵⁾.

(1) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 32./3.

(2) انظر : المرجع السابق .

(3) انظر : تأويلات أهل السنة/الماتريدي/149/8.

(4) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 239/7.

(5) انظر : بحر العلوم/السمرقندي 601/2.

المبحث الثاني

علاقة الإخوة بين صلاح وصلاح

وفيه مطلب واحد

علاقة ابني آدم هابيل وقابيل ببعضهما

المطلب الأول

علاقة ابني آدم عليه السلام هابيل وقابيل ببعضهما

من الطبيعي أن يؤثر الآباء على الأبناء نفس التأثير وبنفس الطريقة في الغالب، وقد يكون تأثير الأم على الأبناء أكبر بحكم تواجدها الأطول معهم، وقربها منهم وبسبب عاطفتها، ولكن ليس من المفروض أن يتأثر الأبناء بالآباء التأثير نفسه، وأن يستجيبوا الاستجابة ذاتها، أو أن يكون التحصيل لجميع الأخوة هو ذات التحصيل عند الواحد منهم، فهناك تفاوت في ذلك تبعاً لعوامل عدة إذا سلّمنا بأن الآباء لم يميّزوا بين الأخوة في المعاملة، ومن هذه العوامل: القدرات الاستيعابية من أخ إلى أخيه فهذه منح عقلية إلهية، أو التركيب النفسي المختلف من أخ إلى آخر المتعلق بالتأثيرات المجتمعية من داخل الأسرة أو من خارجها، ناهيك عن إرادة الله قبل كل شيء، فالهداية العامة بيد الله تعالى، وأن يكون الإنسان شقي أو تقى فهذا يقدره الله عليه.

لذلك فلا غرابة أن نجد فروقاً شاسعة بين الإخوة الأشقاء، أبناء الرحم الواحد والأب الواحد، فروق في نواحي كثيرة، ولكن من أخطر النواحي الاختلاف في الدين والعقيدة، فمن المؤسف أن يكون الأخوة الأشقاء كل في طريقٍ اتجاهاه مصاد لأخيه، والأكثر أسفاً إذا كان في الإخوة الأشقاء أبناء الرحم الواحد من يختار طريق الهدى إلى الجنان، ومن يختار طريق الضلالة إلى النار والعياذ بالله.

ولقد أورد لنا القرآن الكريم نموذجاً لأخوين، كلٌ منهما كان في طريقٍ معاكس مصاد للآخر، أحدهما اختار طريق الجنة والآخر مشى إلى طريق النار، إنهما ابنا آدم عليه السلام هابيل وقابيل، واللذان سنتعرف على العلاقة بينهما من خلال النقاط الآتية :

1- افتراق واسع بين الأخوين الشقيين في التقوى

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: 27]

تتكلم الآية الكريمة عن ابني آدم عليه السلام حيث قدم كل واحد منهما لله قرباناً، وعلى قول أغلب المفسرين أن ابني آدم هما قابيل وهابيل، بينما الحسن البصري يقول أنهما ليسا ابني آدم لصلبه؛ بل كانا رجلين من بني إسرائيل، وأن أول من مات آدم عليه السلام وليس هابيل (1) ومن وجهة نظره إن نسبتها إلى آدم في الآية الكريمة ؛ لأن كل البشر من آدم فكل واحد يُنسب إليه كقوله ولا يريد به ولد آدم لصلبه، فالبشر كلهم من بني آدم.

(1) انظر : التفسير الكبير/فخر الدين الرازي 204/11

ابن عباس رضي الله عنهما والكلبي⁽¹⁾ وغيرهما من أهل التأويل قالوا: "إنهما كانا ابني آدم لصلبه أحدهما يسمى قابيل، والآخر هابيل، وكان لكل واحد منهما أخت ولدت معه في بطن واحد، وكانت إحداهما جميلة، والأخرى دميمة، فأراد كل واحد منهما نكاح الجميلة، فتنازعا في ذلك؛ فقال أحدهما لصاحبه: تعال حتى تقرب قربانا، فإن تقبل قربانك فأنت أحق بها، وإن تقبل قرباني فأنا أحق بها، فقربا قربانتهما، فقبل قربان هابيل، ولم يُقبل قربان قابيل؛ فحسده ثم قتله كما سيأتي تفصيل ذلك.

كما قال القرطبي في ذلك: "الصحيح أنهما ابناه لصلبه"، وهذا قول الجمهور من المفسرين، وعلى هذا ابن عمر أيضاً⁽²⁾ وقد رد المفسر ابن عطية على قول الحسن البصري أنهما ليسا ابني آدم من صلبه وأنهما من بني إسرائيل قائلاً: "هذا وهم". وإن من أعظم الأدلة على أن ابني آدم الدين عنتهما الآية ليسا من بني إسرائيل، أن القاتل لم يعرف ماذا يفعل بأخيه بعد ما قتله، ولو كان من بني إسرائيل لدفنه لأن سنة الدفن كانت معروفة في بني إسرائيل، ولما أعياه دفن أخيه كما تبين من القرآن الكريم.

ونجد المفسر الماتريدي⁽³⁾ في تفسيره يوجهنا إلى الاهتمام بالعبرة من القصة وليس بمن هم أبطالها ويقول: إنما الحاجة منها معرفة ما فيها من الحكمة والعلم؛ ليُعلم ذلك ويُعمل به. ويذكر الماتريدي سبباً آخرًا لإيراد هذه القصص في القرآن الكريم وهو أن يبينها النبي ﷺ لأهل الكتاب الذين كانوا يخفون بعضاً منها ويحرفون بعض.

فيقول تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: 15].

(1) ابراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي، أبو ثور: الفقيه صاحب الإمام الشافعي. قال ابن حبان: كان أحد أئمة الدنيا فقها وعلما وورعا وفضلا، صنف الكتب وفرغ على السنن، وذب عنها، يتكلم في الرأي فيخطئ ويصيب. مات ببغداد شيخا. وقال ابن عبد البر: له مصنفات كثيرة منها كتاب ذكر فيه اختلاف مالك والشافعي وذكر مذهبه في ذلك وهو أكثر ميلا إلى الشافعي، الأعلام للزركلي 37/1.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن/القرطبي/132/6.

(3) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي: من أئمة علماء الكلام. نسبته إلى ماتريد-محلة بسمرقند- من كتبه (التوحيد، أوهاج المعتزلة، الرد على القرامطة، مأخذ الشرائع في أصول الفقه، وكتاب تأويلات أهل السنة، مات بسمرقند سنة 333هـ، الأعلام للزركلي 19/7.

كانت قصة ابني آدم في كتبهم، فأمر الله ﷻ أن يتلو عليهم ذلك على ما كان، ويبين لهم ما في كتبهم؛ ليعلموا أنه إنما علم ذلك من الله، لا بأحد من البشر؛ لأنه بُعث ﷺ عند دروس آثار الرسل، وانقطاع العلوم، وفيه دليل إثبات الرسالة المحمدية (1).

وبداية الحكاية ذكرها أهل العلم بالأخبار والسير، وهو أن حواء كانت تلد لآدم في كل بطن غلاما وجارية، فكان جميع ما ولدته أربعين ولداً في عشرين بطناً أولهم قابيل وتوأمته إقليما، وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث ثم بارك الله في نسل آدم.

قال ابن عباس ﷺ: " لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً " واختلفوا في مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم أن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة فحملت بقابيل وأخته فلم تجد عليهما وحماً (2) ولا وصبا ولا طلقاً ولم تر دماً وقت الولادة، وإن كان في هذا الكلام نظر، لأنه لما أهبط آدم وحواء إلى الأرض أُلقيت الشهوة في نفس آدم فأصاب حواء أي واقعها فحملت (3) وهذا ما يقوله آخرون : إنه لما هبط إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته فوجدت عليهما الوح والوصب والطلق والدم والله أعلم (4) وذلك بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدت له قابيل وتوأمته إقليما في بطن ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن والله أعلم (5).

كان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء غير توأمته التي ولدت معه، فكان آدم ﷺ يزوج غلام هذا البطن أنثى البطن الآخر، ويزوج أنثى هذا البطن غلام البطن الآخر، هكذا كان شريعة الزواج حينها.

وكان لآدم ﷺ ابنان هما قابيل وهابيل ومع كل منهما في نفس الرحم أنثى، وكان قابيل صاحب زرع، يزرع المحاصيل، بينما هابيل صاحب زرع، يرعى الغنم، وكان قابيل أكبر من هابيل بثلاث سنوات وقيل خمس سنوات وقد ذُكر في التوراة : أن هابيل قُتل وله عشرون سنة، وكان لقابيل يومئذ خمس وعشرون سنة (6)، وكانت له أخت أحسن من أخت هابيل فكانت

(1) انظر : تأويلات أهل السنة/أبو منصور الماتريدي/3/496.

(2) يقال للمرأة إذا حبلى واشتهت ، فإذا اشتدت شهوتها جداً، قيل: توحمت على حبلها فهي توحم وحماً، اصلاح المنطق /ابن السكيت 1/241.

(3) انظر : تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد/العجيلي/2/458.

(4) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن/البغوي/2/38.

(5) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي/4/48.

(6) انظر : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك/جمال الدين أبو الفرج/1/222.

أخت قابيل صاحب الحرث وضيئةً شديدة الجمال، وكانت أخت صاحب الغنم قبيحة، وذكر القرطبي في تفسيره أن اسم أخت قابيل اقليمياء وأخت هابيل اسمها ليوذا⁽¹⁾.

وحسب شرعة آدم ﷺ في الزواج طلب هابيل أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه قابيل ذلك وقال: ويحك أتريد أن تستأثر بوضاءتها عليّ، فهي أختي وُلدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوجها، فأمره أبوه أن يزوجه هابيل فأبى، فقال له أبوه: إنها لا تحل لك. فلم يقبل ذلك وقال: إن الله لم يأمرك بهذا وإنما هو من رأيك⁽²⁾ ثم رأيا أن يقدما قرباناً لله ﷻ ليعرفا أيهما أحق بهذه الأنتى الجميلة⁽³⁾.

لم يحضر آدم مشهد تقديم القران، فقد كان غائباً عن ولديه قابيل وهابيل إلى مكة ينظر إليها، حيث أمره الله فقيل: يا آدم، هل تعلم أن لي بيتاً في الأرض؟ قال: الهم لا، قال: فإن لي بيتاً بمكة فأتته، وقبل غيابه إلى مكة أراد أن يوصي على أولاده، فقال آدم ﷺ للسماء: احفظي ولدي بالأمانة، فأبت وقال للأرض ذلك فأبت، وقال للجبال فأبت، ثم قال لقابيل فقال قابيل: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك⁽⁴⁾.

وبعد غياب آدم ﷺ قدم كل من ابني آدم قربانه لله، كان قربان هابيل كبش أعين أقرن، فقد جاء بأحسن ما عنده من الضرع يتقرب به إلى الله، أما قربان قابيل صاحب الحرث كان صبراً من طعامه، ويقال حزمة سنبل، وجد فيها سنبله عظيمة ففركها وأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل⁽⁵⁾ وقد ملئت كتب التفسير بهذه الرواية، بل أكثر من ذلك في من جعلها علامة معروفة وأقر بها، فيقول صاحب الخازن: "وكانت هذه هي علامة تقبل القران حينذاك، فقد كانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها وإن لم تكن مقبولة لم تنزل النار بل تأكلها الطير والسباع⁽⁶⁾".

بينما صاحب الظلال الشهيد سيد قطب رحمه الله يقول: "كان كلا ابنا آدم في موقف

تقديم قربان، يتقربان به إلى الله (**فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ**) ونلاحظ الفعل تقبل مبني للمجهول ليفيدنا أمرين:

- (1) انظر : الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 6/135.
- (2) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 2/32.
- (3) انظر : نيل مرآة الزمان/قطب الدين 1/137.
- (4) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/محمد بن جرير 10/223.
- (5) انظر : موجز التاريخ الإسلامي/أحمد معمور العسيري 1/12.
- (6) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 2/32.

الأول : ألا نبحت نحن عن كيفية هذا التقبل ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير في روايات نرجح إنها مأخوذة عن أساطير العهد القديم.

والثاني: الإيحاء بأن الذي قُبل قربانه لا جريمة له توجب قتله، فالأمر لم يكن له يد فيه وإنما تولته قوة غيبية، بكيفية غيبية، تعلق على إدراك كليهما وعلى مشيئته⁽¹⁾

وفي رواية أخرى أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان ولم يكن غائباً، وناظر التقبل من هابيل دون قابيل، فقيل أن قابيل اتهم آدم ﷺ أنه دعا لهابيل ولم يدع له حيث قال لآدم ﷺ : "إنما تقبل الله منه لأنك دعوت له ولم تدع لي وتوعد أخاه فيما بينه وبينه بأن يقتله"⁽²⁾

وبذلك تقبل الله الكبش الطيب الذي قدمه هابيل، لأن صاحبه كان يتقي الله ويخشاه، ولم يتقبل من قابيل الزرع الفاسد الذي قدمه، فحسده قابيل وقتله، فكانت أول جريمة يرتكبها بشر على سطح الأرض. ويقال أن هذا الكبش الذي تقبله الله من هابيل جعل في الجنة أربعين خريفاً، وذكر أهل الكتاب وكثير من العلماء أنه الكبش الذي فدى الله به إسماعيل ﷺ حين همّ أبوه إبراهيم ﷺ بذبحه امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى⁽³⁾

2- تقوى الله عند الأخ الصالح، خير من حب الدنيا والنساء

حين تقبل الله سبحانه وتعالى قربان هابيل ولم يتقبل من قابيل غضب الأخير وتوعد أخاه بالقتل، ولكن هابيل لم يندفع وراء غضب أخيه وثورته التي أفقدته السيطرة ومكنت الشيطان منه، وقد صورت الآيات البيّنات موقف هابيل أروع تصوير فيقول الله تعالى على لسان هابيل: ﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 28]

[29-28]

تبين الآية الكريمة موقف هابيل ابن آدم ﷺ من أخيه قابيل حين توعد بالقتل، دون وجه حق، ولم يكن موقف هابيل في أن لا يبسط يده إلى أخيه بالقتل عن ضعف بدن أو عدم قوة، إنما كان موقفه عن قوة إيمان وعقيدة وخوف من الله، يؤكد ذلك ما روي عن ابن عباس ؓ: (وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التخرج أن يبسط إليه يده)⁽⁴⁾.

(1) انظر : في ظلال القرآن/سيد قطب 876/2.

(2) انظر : البداية والنهاية/ابن كثير 103/1.

(3) انظر : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي/عبد الملك العصامي 193/1.

(4) البداية والنهاية/أبو الفداء ابن كثير 103/1 بتصرف .

ففي الحديث يقسم ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه أن هابيل كان أقوى وأشد من أخيه قابيل ومع ذلك لم يمد يده إليه بالقتل، بل إن رد هابيل على أخيه قابيل عندما توعد بالقتل لدليل على خُلقٍ حسن، وخوفٍ من الله تعالى وخشيةٍ منه، فقد تورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله، وكانت كلمات هابيل في هذه الآية تحمل في طياتها الخنوع والخضوع والاستسلام لله تعالى. كما أنها تحمل حق الأخ على أخيه بما فيها من عدم اندفاع أو دفاع عن النفس، وكان يجب على قابيل أن يتأثر بها الأثر الذي يجعله يرجع عما وسوس إليه الشيطان، ولكنه اختار طريق الشقاء إلى جهنم والعياذ بالله، فقد كان مصراً على جريمته يسوقه الحسد الأعمى الذي لا يمكن أن يسكن نفساً طيبة تقية، فقد قال الأخ للأسف لأخيه (**لَأَقْتُلَنَّكَ**) مثيراً بذلك الاستتكار أن يحدث هذا بين الإخوة الأشقاء، أبناء أول نبي على الأرض، لأنه ينبعث عن شعور خبيث منكر لا يليق بمقامهم، دون أن يقيم للأخوة التي بينهما وزناً ودون أن يهتم بحرمة الدماء وبحق غيره في الحياة والذي حمله على ذلك الحسد له.

بينما يرد عليه الأخ التقي النقي قائلاً: (**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**) هكذا في براءة ترد الأمر إلى وضعه وأصله وفي إيمان يدرك أسباب القبول، وفي توجيه لأخيه أن يتقي الله، وفي هداية له إلى الطريق الذي يؤدي إلى القبول، وتعريض لطيف به لا يصرح بما يخدمه أو يستثيره فلم يقل له إنك ليس تقي أو إنك ليس أهلاً ليتقبل الله منك، في توجيه ووعظ له، إنما يتقبل الله الأعمال الصالحات والصدقات من عباده المتقين الذين يخشونه في السر والعلن وليس من سواهم من الظالمين الحاسدين لغيرهم على ما آتاهم الله من نعم، فعليك أن تكون من المتقين لكي يقبل منك الله. (1)

ويعلق أبو حيان على رد هابيل " إنما يتقبل الله من المتقين فيقول " لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعد بالقتل قال له: إنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي، فلم تقتلني؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعانٍ عديدة. (2)

(1) انظر : الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 6/130.

(2) انظر : تفسير البحر المحيط/الأبي حيان 2/461.

ثم يتجه في كلامه إلى بيان حق الأخ على أخيه فيقول (**لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ**) فالقتل بين الأخوة جريمة منكرة، تأباها شرائع الله تعالى وتنفرد منها العقول السليمة وقد أكد الأخ الظالم قابيل تصميمه على قتل أخيه هابيل بجملة قسمية (**لَآ قَتَلْتَنِكَ**) وهابيل هنا قد أكد عدم قتله له أيضاً بجملة قسمية أيضا وهي (**لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ**)

قيل: لم تكن المدافعة عن النفس جائزة في ذلك الوقت، وفي تلك الشريعة فلذلك لم يدافع هابيل عن نفسه من قتل أخيه رغم قوته، أو تحريا لما هو الأفضل والأكثر ثوبا وهو كونه مقتولا، لا قاتلا⁽¹⁾. فهذه الآية الكريمة تصور أكمل تصوير ما بين الأخيار والأشرار من تضاد⁽²⁾.

قالها هابيل بكل وداعة وسلام وتقوى، وباستجاء للضمير الإنساني لعل الأخ يرجع عن شره لأخيه، ثم قال له (**إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**) أخاف أن يراني ربي باسطا يدي إليك بالقتل. كان في هذا القول اللين ما يذهب الحقد ويهدئ الحسد، ويُسكِن الشر، ويمسح على الأعصاب المهتاجة، ويرد صاحبها إلى حنان الأخوة، وبشاشة الإيمان، وحساسية التقوى.

ويضيف الأخ الصالح إلى كلامه النذير والتحذير فيقول (**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**) بهذه الجملة يُذَكِّر هابيل أخاه قابيل بعقاب ما توعد به من قتل، ويؤكد عليه أنه لن يشترك معه في إثمه وسيترك مقاتلته، ليتحمل إثم قتله مع ماله من الآثام المتقدمة قبل ذلك فيكون إثمه مضاعفا، وعذابه شديداً⁽³⁾

وواضح من كلمات هابيل لقابيل (**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ**) أن قابيل لم يكن من المتقين المخلصين لله بل كان صاحب آثام من قبل ولذلك لم يُتَقَبَل قربانه.

ثم يُجَمِّل الأخ التقى لأخيه الشرير في النهاية أن ما قد يصيبه إنما جزاء الظالمين، لعل هذا يثنيه عما تراوده به نفسه، وليخجله من هذا الذي تحدثه به نفسه اتجاه أخ مسالم وديع تقي⁽⁴⁾.

(1) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/الألوسي 4/120.

(2) التفسير الوسيط/طنطاوي 4/120

(3) في ظلال القرآن/سيد قطب 2/876 بتصرف

(4) انظر : الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 6/130.

ولقد كان في سنة هابيل في امتناعه الرد عن نفسه في فتنة القتل، أمر لأمة الإسلام من نبيهم محمد ﷺ بانتهاج سنة هابيل عند الفتن، بل وقد سماه رسولنا الكريم بخير ابني آدم، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال عند فتنة عثمان ابن عفان ﷺ أشهد أن رسول الله ﷺ قال: (إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الساعي ، قال أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني قال: "كن كابن آدم". (1)

وهناك من يتوهم أن المراد من معنى " إنني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك " أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل فقد . قال ابن جرير: " الإجماع على خلاف ذلك

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال: (ما ترك القاتل على المقتول من ذنب) فلا أصل له ولا يعرف في شئ من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً. (2)

رغم أن هابيل تكلم كلمات معدودة إلا أنها كانت جامعة مانعة فقد أرشد أخاه بدايةً إلى أن الله تعالى إنما يتقبل الأعمال من المتقين، بتعريض منه أن يكون من المتقين، ثم أرشده إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من محبة ومودة وتسامح، ثم بين له أنه لا يمنع من بسط يده إليه إلا خوف من الله رب العالمين، ثم ذكّره إلى أن ارتكابه لجريمة القتل سيؤدي به إلى عذاب النار يوم القيامة، بسبب قتله لأخيه ظلماً وحسداً، ولكن للأسف لم ينفذ وقع هذا النصح الحكيم، والإرشاد القويم في نفس ذلك الأخ الحاسد الظالم (3)

3- قابيل يسن أول جريمة على الأرض ويقتل أخاه هابيل.

لم ينفذ قابيل النصح والوعظ والإرشاد الذي قدمه له أخوه هابيل من قلبه بكل صدق، فوقع الجريمة، بعد أن ذللت له نفسه كل عقبة، وطوعت له كل مانع، وسهلت له القتل، فقتل أخيه، ابن أمه وأبيه، فحق عليه أن يكون من الخاسرين، يبين الله ذلك في كتابه

العزیز: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَاصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: 30]

(1) مسند أحمد/الإمام أحمد/مسند سعد ابن أبي وقاص 161/3 إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات

من رجال الشيخين غير عياش بن عباس، فمن رجال مسلم وأخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

(2) انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة/الألباني 456/1.

(3) انظر : الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 138/6.

تشير الآية إلى شناعة جريمة القتل في ذاتها من حيث الباعث عليها، إذ الباعث عليها هو الحسد كما بينتها الآيات قبلها، ومن حيث الصلة بين القاتل والمقتول إذ هي صلة الأخوة التي تقتضي المحبة والمودة والتراحم، ومن حيث ذات الفعل فإنه أكبر جريمة بعد الإشراك بالله تعالى فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها، لأنه أول من سن القتل) (1)

فمعنى هذا أن قابيل يقاسم أهل النار العذاب، وعليه شطر عذابهم، لأن جريمته أنموذجاً شريراً مبتدعاً لأول مرة، زينته له نفسه أخاه فأصبح من الخاسر ينفي الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا فقد السند والعون لأن الأخوة صلة رحم قوية ورابطة متينة لمن يدركها وقد خسرها قابيل، كما وأصبح من الخاسرين في الآخرة، لأنه ارتكب جريمة من أكبر الجرائم وأشنعها وقد توعد الله مرتكبها بالغضب واللعنة والعذاب العظيم.

وقد صور القرآن العظيم في تعبير دقيق بليغ متمثلاً بلفظة "فطوعت" التي تشير إلى أنه كانت هناك بواعث متعددة تتجاذب في نفس قابيل القاتل، بواعث الشر التي تدعوه إلى الإقدام على قتل أخيه، ودوافع الخير التي تمنعه من الإقدام على قتله، وللأسف تغلبت دوافع الشر على دوافع الخير فقتل أخاه (2) حتى لا ينكح أخته، كان كل همه أن يتزوج هو من أخته التي ولدت معه ولا يسمح بها لأخيه هابيل مهما كانت النتائج متجاوزاً بذلك شريعة آدم عليه السلام في الزواج.

تعددت الروايات في كيفية قتل قابيل لأخيه هابيل، فقيل أتاها يوماً وهو نائم في الجبل، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات وتركه بالعراء. (3)

ويقال: إن آدم عليه السلام استبطأ ذات ليلة هابيل في الرعي، فبعث أخاه قابيل لينظر ما الذي أبطأ به؟ فلما ذهب إذا هو به، وكان حاقداً عليه شديد الحسد له، فقال له تُقبل منك ولم يُقبل مني، فقال له هابيل: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله، وقيل قتله بأن خنقه خنقا شديداً وعضا كما تفعل السباع فمات والله أعلم. (4)

(1) أخرجه البخاري في صحيحه 419/6 كتاب أحاديث الأنبياء ح 3335/مختصر صحيح البخاري/الألباني باب الأرواح جنود مجندة 404/2

(2) مفاتيح الغيب التفسير الكبير/فخر الدين الرازي 207/11 بتصرف

(3) انظر: تاريخ الطبري/ابن جرير الطبري 139/1، وفي تفسيره 223/10.

(4) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك/جمال الدين أبو الفرج 222/1

وقيل لما قصد قابيل قتله لم يدر كيف يقتله، فتمثل له إبليس وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخ رأسه بحجر آخر وقابيل ينظر إليه فعلمه القتل، فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين⁽¹⁾

فكيفية القتل لن تغير من الأمر شيئاً، فقد قتل أخاه ولم يرع وصية أبيه فيه، ولم يرع الأمانة التي استرعاها من رب العالمين، وسن بذلك قانون الإجرام الآدمي. وقيل لما قتل ابن آدم كان آدم بمكة، فقال آدم ﷺ: قد حدث في الأرض حدثاً، فأتى الهند فإذا بقابيل قد قتل هابيل⁽²⁾

وشربت الأرض دمه كما تشرب الماء فناده آدم ﷺ : أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري؟ ما كنت عليه رقيباً؟ فقال آدم ﷺ: إن صوت دم أخيك يناديني من الأرض فلم قتلت أخاك؟ فقال له قابيل إن كنت قتلته أين دمه؟ فمنع الله ﷻ على الأرض يوماً أن تشرب دماً بعدها أبداً، فأنتبت الشوك، ولم تشرب بعده دماً⁽³⁾.

وحزن آدم حزناً شديداً على قتل هابيل، وغضب غضباً شديداً على ابتداء قابيل لهذه الجريمة، ولقد سجل غير واحد من أهل التواريخ والسير كلمات منظومة على لسان آدم تبين مشاعر الحزن على ابنه هابيل تقول هذه الكلمات :

تغيرت البلاد ومن عليها	فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي طعم ولون	وقل بشاشة الوجه الصبيح
قتل قابيل هابيلاً أخاه	فوا حزناً مضى الوجه المليح ⁽⁴⁾

هناك من نفى أن يكون آدم قد كتب هذه الكلمات، وقد جمع القرطبي في جامعه أقوال العلماء الذين أنكروا نسبة الشعر لآدم ﷺ، فأورد القرطبي في تفسيره إنكار ابن عباس ﷺ لهذا الشعر فقال على لسانه : " من قال : إن آدم قال شعراً فقد كذب، فما قال آدم الشعر، وإن محمداً والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء "

(1) معالم التنزيل في تفسير القرآن/البغوي 40/2

(2) الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 51/4

(3) تفسير النكت والعيون/الماوردي 27/2

(4) نيل مرآة الزمان/قطب الدين اليونيني 217/1، 218، ومروج الذهب 39/1

وقيل : لما قُتل هابيل رثاه آدم وهو سرياني، فهي مرثية بلسان السريانية أوصى بها آدم عليه السلام إلى ابنه شيث فحفظت منه إلى زمن يعرب بن قحطان، فترجمه وجعلها شعراً، يعرب بن قحطان. (1) ولا أعتقد ذلك فيعرب عربي فصيح بينما الشعر ركيك ضعيف.

وأجمل رد على الشعر الذي نُسب إلى آدم رد الزمخشري صاحب الكشاف قال: "هذا كذب بحت، وما هذا الشعر إلا منحول ملحون، والأنبياء معصومون عن الشعر. كما أن هذا الشعر في غاية الركاكة لا يليق بالحمقى من المعلمين فكيف ينسب إلى من جعل الله علمه حجة على الملائكة" (2) وبذلك يكون نسبة هذا الشعر لآدم أمر مرفوض ومستنكر.

لما قُتل هابيل مكث آدم عليه السلام مائة سنة لا أكثر، ثم ولدت له حواء شيثاً ومعنى شيث هبة الله، فهو هبة الله لآدم بعد ما فقد هابيل، وقد علمه الله تعالى ساعات الليل والنهار، وأعلمه عبادة الخلق كل ساعة منها، وأنزل عليه هبة الله وصار وصي آدم عليه السلام ووليَّ عهده (3)

أما قابيل فقيل له: اذهب طريدا شريدا فرعا مرهوبا لا يأمن من يراه، فأخذ بيد أخته وذهب بها إلى عدن من أرض اليمن؛ واستوحش ولزم البرية، فأناه إبليس، فقال له: إنما أكلنا النار قربان هابيل لأنه كان يعبد النار ويخدمها، فانصب أنت ناراً يكون لك ولعقبك، فنصب ناراً وهو أول من نصب ناراً وعبدها. (4) وإن كان ذلك فيه نظر فقد روي عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على ملة الحق، وأن الكفر إنما حدث في القرن الذي فيه نوح وأنه أول نبي بُعث إلى الكفار. (5) وهذا يرد قول من زعم من أهل التاريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار والله أعلم. (6)

وقالوا: اتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطنبور، والمزامير، والعيديان، والطنابر، وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش حتى أغرقهم الله ﷻ بالطوفان أيام نوح عليه السلام وبقي نسل شيث. (7) والله أعلم .

(1) الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 140/6 بتصرف.

(2) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/الألوسي 120/4.

(3) انظر : الكشف والبيان في تفسير القرآن/الثعلبي 52/4.

(4) انظر : البداية والنهاية/ابن كثير 103/1.

(5) انظر : المسالك والممالك للبكري/أبي عبيد عبد الله الأندلسي 75/1.

(6) انظر : قصص الأنبياء/أبي الفداء إسماعيل الدمشقي 74/1.

(7) الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 53/4

4- غراب يعلم الأخ القاتل كيف يوارى سوءة أخيه

هدأت ثورة الشر لدى قابيل، بعدما قتل أخاه، واستيقظ على جثة أخيه القاتل وأصبح في مشكلة كبيرة، منعه حقه وحسده لأخيه أن يحسب لها حساباً أو يدير لها بالاً، وهي ماذا يفعل بالجثة، وقد حكى القرآن مبيناً بعض ما حدث بعد قتل الأخ أخاه فيقول الله تعالى :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوَيْلَيْتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: 31]

بدايةً اختلف العلماء في مكان وقوع جريمة القتل، فقيل في ثور جبل مكة، وقيل عند عقبة حراء، وقيل بالبصرة في موضع المسجد الأعظم، ويقال قتله بأرض الهند، ثم هرب إلى أرض عدن من اليمن⁽¹⁾. المهم أنه بعدما قتله لم يدر ماذا يفعل بجثة أخيه، فتقول الروايات أن قابيل حين قتل أخاه هابيل حمله على ظهره سنة، حتى تغير وأروح⁽²⁾ وأنتن⁽³⁾ وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله⁽⁴⁾.

فلما كان في الليلة الثالثة بعث الله غرابين يقتتلان فقتل أحدهما صاحبه وهو ينظر، ثم حفر بمنقاره في الأرض فلما فرغ من الحفر أخذ بمنقاره رجل الغراب الميت حتى قذفه في الحفرة، ثم سوى الحفرة بالأرض وقابيل ينظر، فذلك قوله تعالى ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ﴾ فندم قابيل وقال : ﴿ يُوَيْلَيْتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي ﴾

كان ندمه على عجزه أن يعلم من العلم مثل ما علم هذا الغراب، فيوارى سوءة أخيه مثلما فعل الغراب⁽⁵⁾.

وهكذا تتدخل السنة الإلهية في تعليم ابن آدم ما لم يعلم، فهابيل أول من مات على وجه الأرض فعجز قابيل القاتل على التخلص من جثة أخيه ومواراتها عن الأنظار، فأرسل الله تعالى طائراً يريه كيف يتحقق ذلك، كان هذا الطائر الغراب، والغراب: طائر معروف، فما الحكمة في كونه المبعوث دون غيره من الطيور أو الحيوان، هل لأنه يتشامخ به في الفراق والاعتراب والموت؟ أم لأن عادة الغراب دفن الأشياء . الله أعلم⁽⁶⁾

(1) الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 139/6

(2) "أروح اللحم : أنتن وسطعت له ربح خبيثة ،المرجع اللاحق

(3) مفاتيح الغيب التفسير الكبير/فخر الدين الرازي 209/11

(4) جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جريرالطبري 226/10

(5) انظر : تفسير مقاتل/مقاتل بن سليمان 470/1.

(6) انظر : النكت والعيون/الماوردي 27/2.

يخبر القرآن عن ندم قابيل (فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) فهل كان ندمه على قتل أخيه؟ وهل هذا هو الندم الذي يعتبر واحداً من شروط التوبة؟ فلنسمع رأي العلماء والمفسرين:

لم يكن ندم قابيل ندم توبة، فكان ندمه على عدم معرفة الدفن فندمه كان لأسباب منها: سخط أبويه وإخوته عليه، وعدم انتفاعه بقتل أخيه، فلم يكن ندمه من أجل الخوف من الله تعالى⁽¹⁾ ولم ينفعه هذا الندم كما هو الحال في ندم التائبين المعتبر به كشرط من شروط التوبة.

ولذا قال ابن عباس رضي الله عنه: لو كان ندمه على قتله لكان ندم توبة، بل ندم على حمله لا على قتله، فكان ندمه لعدم هدايته أن يفعل كما فعل الغراب بالغراب، وصار الدفن سنة في بني آدم⁽²⁾.

وقيل: ندمه كان على موت أخيه لا على ارتكاب الذنب، وذهب الماتريدي أن المقصود بقوله (فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) أي ندم الآخرة حين يرى من الله عاقبة جرمه والله أعلم⁽³⁾.

وقد صور القرآن الكريم ندمه على عجزه على مواراة جثة أخيه بلفظة (يَتَوَلَّى) والتي بمعنى الويل بحملي جيفة ميت، والتطواف به وذلك قبل أن يرى فعل الغراب⁽⁴⁾.

كما نلاحظ استخدام القرآن للفظه سوءة لإظهار بشاعة جريمة قابيل في قوله تعالى (فَأُورِيَ سُوءَةَ أَخِي) والتي تعني العورة فقد قيل: إنه حين قتل أخاه جرده من ثيابه التي تستره وأظهر عورته وتركه في القفار⁽⁵⁾. والله أعلم.

وقيل عورته: أي جيفته وفيه دليل على أن الميت كله عورة⁽⁶⁾ ويحتمل أن يراد بالسوءة: الحالة التي تسوء الناظر، فحالة هابيل وهو جثة مَرُوحَة تسوء الناظر إليها، وكذلك حال كل ميت حتى يدفن، فكرامة الميت دفنه، وفي القبور مانع من انتشار الذرات لأنها تحت الأرض⁽⁷⁾ ومدارة لما قد يسوء الناظر إلى الميت فيقال: من كرامة الميت على أهله تعجيله إلى حضرته⁽⁸⁾.

(1) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن/الثعالبي/2/372.

(2) انظر: لوامع الأنوار البهية/السفاري/2/4.

(3) انظر: تأويلات أهل السنة/الماتريدي/3/495.

(4) انظر: الوسيط في تفسير القرآن الكريم/النيسابوري/2/179.

(5) معاني القرآن وإعرابه/للزجاج/2/167.

(6) الكشف والبيان في التفسير/الثعالبي/4/51.

(7) بيان المعاني/عبد القادر العاني/3/352.

(8) الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة/السيوطي/1/74.

واختلف العلماء في قابيل، هل كان عند قتل أخيه من الكفار أو من العصاة، فقال قوم: كان كافراً، وقال آخرون: بل كان رجل سوء فاسقاً، والظاهر أنه من العصاة والله أعلم لأنه يقر بالله إلهاً حين قرب قربانه ولكنه لم يتقيه. (1)

ولكن المولى ﷺ يقول في حقه: (**فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) أي الذين خسروا أنفسهم وأهلهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فأسخط والديه عليه وبقي بلا أخ، وفي الآخرة فأسخط ربه تعالى، فأمر به إلى النار (2).

وظلت شريعة آدم ﷺ في الزواج من الأخوات عشرات السنين حتى كثر بنو آدم، فقال ابن جريج: لم يزل بنو آدم في نكاح الأخوات حتى مضى أربعة آباء، فنكح ابنة عمه وذهب نكاح الأخوات. (3)

(1) الجواهر الحسان في تفسير القرآن/الثعالبي/2/372

(2) تفسير الراغب الأصفهاني/الأصفهاني/4/328

(3) تفسير النكت والعيون/الماوردي/2/274

المبحث الثالث العلاقات الأخوية بين الخطيئة والتوبة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: يوسف عليه السلام وإخوته من أبيه بين الخطيئة والتوبة.

المطلب الثاني: الأخوة أصحاب الجنة بين الخطيئة والتوبة

المطلب الأول

وإخوته من أبيه بين الخطيئة والتوبة عليه السلام العلاقة بين يوسف

كما أسلفنا سابقاً يتأثر الأبناء بالآباء ولكن ليس التأثير نفسه والدرجة ذاتها في جميع الأبناء سواء ذلك في الخير أو في الشر، فيتذبذب هذا التأثير من أخ إلى أخيه صلاحاً كان أو طلاحاً، أو قد ينعدم هذا التأثير البتة، مع الجزم المطلق أن كل النتائج في النهاية إنما تخضع للمشيئة الإلهية، وقد قدمنا نموذج في الفصل الثاني "علاقة الآباء بالأبناء" يورده القرآن الكريم يظهر فيه تباين تأثير الأب على أبنائه فكان من الإخوة الصالح والطلح : إنه نموذج الأب المؤمن نوح عليه السلام الذي اختلف تأثيره على أبنائه، فنوح عليه السلام لم يأل جهداً إلى الرmq الأخير قبل الطوفان في التأثير على ابنه الكافر لعله يتبع الهدى، ولكن الأخير اختار أن يكون مع المغرقين الكافرين الذين نزل بهم عقاب ربهم في الدنيا في انتظار عقاب الآخرة، وبذلك لم يكن حظه من الإيمان والهدى مثل حظ إخوته الآخرين الذين تأثروا بأبيهم نوح عليه السلام واستجابوا لدعوته وكانوا من المؤمنين الناجين من الغرق، كما وأورد القرآن الكريم أيضاً نموذج آخر للإخوة أوردته في هذا الفصل، هذا النموذج لموسى وهارون عليهما السلام، وأختهما، فهم أبناء أم موسى التي أوحى الله لها، فكان من أبنائها اثنين من النبيين، كلهم الله موسى عليه السلام صاحب الرسالة وهارون عليه السلام النبي، وكذلك أختهما التي يورد القرآن دورها الخطير في إرجاع موسى إلى أمه كي تقر عيناً، ولينجز الله تعالى وعده لها، فلولا صلاحها ما أجادت الدور دون أن ينكشف الأمر، ولولا صلاحها ما كانت على هذا القدر الكبير في تحمل مسئولية متابعة أخيها ثم معرفة ما يدور في قصر فرعون دون أن يشكوا في أمرها، فيظهر جلياً في هذه الأسرة تأثير الأم الصالحة في بيتها وفي تربية أبنائها، وإن اختلفت نسبة التأثير من أخ إلى آخر ولكن الاستجابة في هذه الأسرة وبارادة الله كانت في الخير.

وهكذا ووفق المشيئة الإلهية نجد من الأبناء من يقتدي بوالديه ويسير على نهجهم ويكون امتداداً لهم، ومنهم من يختار لنفسه طريقاً مختلفاً، بينما من الطبيعي تأثر الأبناء بالآباء فإن كان الآباء من الأخيار واقتدى الأبناء بهم كانوا خلفاً لخير سلف، وإن كان الآباء من الأشرار وخرجوا عن عهد الله وميثاقه وشابههم الأبناء في ذلك مقلدين معطلين حواسهم التي لا بد أن يستخدموها في الدلالة على الهدى، كان الإخوة خلفاً لشر سلف إلا من رحم ربي.

ولقد أورد لنا القرآن الكريم نموذجاً مفصلاً يستعرض فيه حال إخوة لم يتأثروا بصلاح أبيهم التأثير ذاته رغم أن أبيهم نبي ابن نبي ابن نبي، إضافة إلى أن هناك عوامل أخرى تدخلت في هذا التأثير، إنهم الإخوة أبناء نبي الله يعقوب عليه السلام، الذين عملوا على قتل أخيهم يوسف

ﷺ والتخلص منه وفرقوا بينه وبين أبيه وشقيقه بنيامين عشرات السنين، ولكنهم في النهاية تابوا وأبوا إلى الله من بعد ما وقعوا في الخطيئة والإثم، وجعل الله قصتهم آيات للسائلين، فمن خلال قصة يوسف ﷺ، سنسلط الضوء على نفوس الإخوة التي تعكسها العلاقة الأخوية بين يوسف وإخوته من أبيه، وسنتعرف إلى هذه العلاقة الأخوية بين الخطيئة ثم التوبة عبر النقاط التالية:

1- الغيرة والحسد تدفع إخوة يوسف ﷺ للتخلص منه:

يقول الله في كتابه العزيز: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّالِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: 7-10]

تضمنت قصة يوسف ﷺ الكثير من العجائب، والعبء، والعظات، والأحكام، والأخلاق، وألوان الامتحان، والابتلاء، والفضل، والإحسان، بداية من حديث يوسف ويعقوب عليهما السلام ومجريات هذه القصة في وقائعها من تعبير الرؤيا، وحسد الإخوة، وحيلتهم في التفريق بين يوسف وأبيه، والجريمة التي ارتكبوها في حق أبيهم وحق أخيه، وهي إلقاءه بالبئر، ثم أحداث عجاب إلى أن تسلم مقاليد الخزائن في مصر، ثم قدوم إخوته من فلسطين إليه في مصر لطلب الميرة (1)

ورغم تلك الأحداث العجيبة المتوالية في قصة يوسف ﷺ والتي تتجلى فيها القدرة والعناية الإلهية، جعل المولى ﷺ جزئية قصة يوسف ﷺ مع إخوته بالذات آيات للسائلين، وقد كان في تنزيلها على نبينا وحبينا محمد ﷺ بما تحمله من بغي إخوته عليه وظلمهم له، وحسدهم إياه، كان فيها عظيم السلوى والتسليوية لقلبه ﷺ، من بغي كفار قريش عليه، وظلمهم له، وحسدهم إياه، لأن الله ﷻ أكرمه بالنبوة والرسالة والقرآن (2).

ولو سألنا من أي وجه جعل الله هذه العلاقة وقصتها بين الإخوة: (آيَاتٌ لِلِّسَّالِينَ) فالإجابة أنها آيات للسائلين من وجوه عديدة، فإذا كان السائل مسترشداً، فالقرآن كله حجة وآية لهذا المسترشد، وأما المتعنت فالقرآن آية وحجة عليه، كما أن قصة يوسف ﷺ آية لكل السائلين

(1) انظر : بصائر ذوي التمييز/الفيروز آبادي 257.

(2) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 562/15.

الذين يسألون من بعدها إلى آخر الدهر عن نبأ يوسف عليه السلام، فكل من سأل عن خبره ونبوته فالقصة له آية على وجه العموم.

وعلى وجه الخصوص وتتعلقها بأسباب النزول، وأنها آية لمن سأل النبي ﷺ عنها وهم اليهود، فالإجاب آية لهم، كما أنها آية وحجة لنبوة محمد ﷺ ورسالته؛ حيث أخبرهم في كتبهم بما لم يخبروا به أحد، فحين سمع اليهود النبي يقرأ سورة يوسف قالوا: يا محمد، من علمكها؟ قال: " الله علمنيها " فعجبوا من قراءته إياها على ما كانت في كتبهم؛ فدل هذا أنها من وحي الله تعالى (1).

وقيل معناها عبرة للمعتبرين، لأنها تشتمل على حسد إخوة يوسف وما آل إليه أمرهم في الحسد وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة وعلى الرق وعلى اللبث في السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره على فراق يوسف وما آل إليه أمره بعد ذلك وغيرها من الآيات (2) والله أعلم.

نبي الله يوسف عليه السلام هو الذي أوتي شطر الحُسْن والجمال، وهو ابن نبي الله يعقوب عليه السلام من زوجه راحيل، فنبي الله يوسف هو النبي ابن النبي ابن النبي، وقال رسول الله ﷺ عن يوسف عليه السلام هو " الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم جميعاً السلام (3).

وقد كان لنبي الله يوسف عليه السلام أخ واحد شقيق من أمه راحيل بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام (4) يقال له: بنيامين، وكانت أمهما راحيل قد ماتت وهما صغيران.

وفي القرآن ما يدل على أنهما شقيقان بتخصيص الأخوة لهما في سورة يوسف على

لسان إخوتهم من أبيهم فيقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا وَمَتَّوْنًا وَعُصْبَةٌ

إِنَّ أَبَانَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: 8]

وكان يعقوب عليه السلام يحب يوسف عليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حب الصغير وهي فطرة البشر وقد قيل لابنة الحسن: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق (5)

(1) انظر : تأويلات أهل السنة/الماتريدي 209/6 .

(2) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن/البيهقي 477/2.

(3) انظر : صحيح البخاري/باب لقد كان في يوسف 151/4.

(4) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن/محيي السنة، البيهقي 477/2.

(5) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ابن عطية 231/1

وقد خص الله يوسف عليه السلام من الميزات ما زاد تعلق والده يعقوب عليه السلام به وحبه له، ويقول الماتريدي في حب يعقوب ليوسف وشقيقه بنيامين: " لما رأى فيهما من الضعف في أنفسهما، والعجز في أبدانهما، ازدادت شفقتة لهما وعطفه عليهما، وهذا مما يكون فيما بين الخلق، أو كان ذلك منه لهما لصغرهما، وهذا أيضاً معروف في الناس أن الصغار من الأولاد يكونون عندهم أحب، وقلوبهم إليهم أميل، وعليهم أعطف، ولهم أرحم من الكبار منهم. وأخصهما بذلك لفضل خصوصية كانت لهما إما من جهة الدين، أو العلم، أو غيره، أو لأن يعقوب عليه السلام بُشر بنبوة يوسف عليه السلام فذلك كان يفضل على سائر أولاده، ويؤثره عليهم لذلك⁽¹⁾.

وقد بين القرآن الكريم خوفه على يوسف عليه السلام حين طلبه إخوته ليذهب معهم فيعبر

القرآن عن شعور يعقوب عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ

يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف: 13] فهذا ما جعل إخوة يوسف يحقدون

عليه ويخططوا للتخلص منه، وإخوة يوسف هؤلاء هم إخوته من أبيه، فقد وُلد ليعقوب عليه السلام اثنا عشر ولداً من أربع نسوة وهم: روبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يساكر، زبلون، وأمه لينة، يوسف، بنيامين وأمهما راحيل، دان، نفتالي وأمهما بلهة جارية راحيل، جاد، أشير وأمهما زلفة جارية لينة⁽²⁾، وأولاد يعقوب عليه السلام الاثنا عشر هم أصل الأسباط الإسرائيليين والله أعلم⁽³⁾.

فما سبق يتبين أن يوسف عليه السلام لم يكن له أخ شقيق إلا بنيامين، والباقيون هم إخوته لأبيه، وتمكن الحقد من هؤلاء الإخوة على أخيهم حسداً له، لأن يوسف عليه السلام أحب إلى أبيهم منهم، وتبالغ حسدهم وبدأوا بالتعرض له، حين تضاعف حب أبيهم له بسبب رؤيا الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر الساجدة له⁽⁴⁾.

فقال إخوة يوسف يقودهم الحسد: إن أبانا قدّم اثنين صغيرين في المحبة علينا، ونحن جماعة نفعنا أكثر من نفع هذين الاثنين⁽⁵⁾ واستخدموا جملة "نحن عصابة" وهي الجماعة ليس لها واحد من لفظها، والعصابة من الناسم عشرة فصاعداً، وقيل: إلى خمسة عشر⁽⁶⁾.

(1) انظر: تأويلات أهل السنة/الماتريدي 209/6.

(2) التوراة/سفر التكوين الإصحاح 35/33.

(3) انظر: موجز تاريخ اليهود/محمود قدح 274/1.

(4) أنوار التنزيل وأسرار التأويل/البيضاوي 156/3 بتصرف.

(5) بحر العلوم/السمرقندي 181/2.

(6) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 563/15.

وقيل : العصبية ما بين العشرة إلى الأربعين، وفي كلام العرب العصبية العشييرة ونحوها⁽¹⁾

ثم يحكموا على أبيهم يعقوب عليه السلام أنه في ضلال وذلك قولهم (**إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**) يجب الوقوف بحذر عند هذه الآية، فقد عنوا أن أباهم ضال في محبة يوسف وأخيه، ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكانوا كفارا⁽²⁾ إنما ذهبوا إلى أنه لم يصب في رأيه بتقديم منزلة الصغيرين يوسف وبنيامين عليهم وهم الكبار وهم الجماعة من البنين، فهم أولى بنظرهم بالمحبة منهما

استحكم الحسد في الإخوة وبلغ النهاية فقالوا : لا بد من ابعاد يوسف عن أبيه، وذلك إما بالقتل أو التغريب إلى أرض أخرى، فيحصل المراد، وهذا وجه في الشر لا يبلغ الحاسد أعظم منه، ثم يذكروا العلة من إجرامهم وهو قولهم (**يَحْتَلُّ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ**) فقد أقنعوا أنفسهم أن يوسف يشغل أباهم عنهم ويصرف وجهه إليه عنهم، فإذا فقدته أقبل عليهم بالميل والمحبة⁽³⁾.

بل أقنعوا أنفسهم لأبعد من ذلك في أن يكونوا بعد جريمتهم هذه قوما صالحين، وقد يكون مقصودهم من الصلاح، أنهم علموا الذي عزموا عليه هو من الكبائر فعزموا أن يتوبوا إلى الله ويصيروا من القوم الصالحين بعد ارتكابه، وقد يكون مقصودهم من الصلاح، صلاح الدين، فيصلح شأنهم عند يعقوب النبي، ويصير محبا لهم مشتغلا بشأنهم، أو أنهم بسبب بعد أبيهم عنهم مشوشون لا يتفرغون لإصلاح مهم، فإذا زالت هذه الوحشة بالتخلص من يوسف عليه السلام اتفرغوا لإصلاح مهماتهم، ذلك قولهم (**يَحْتَلُّ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ**) فأثبت ما سبق أن حسدهم لأخيهم عبارة عن كراحتهم حصول النعمة له⁽⁴⁾ وهي لزوم يعقوب النبي عليه السلام.

ومهما تكن تفسيرات جوابهم فكلها تثبت إصرارهم وسبق ترصدهم بشدة على ما اقترفوه، كما تثبت عليهم معرفتهم بأن هذا الذي يفعلونه كبيرة، بل ويعلمون أنه لا صلاح لهم بهذه الفعلة إلا بعد توبتهم أما قبل توبتهم لا يكونوا صالحين وفيه ما يدل على أن صحة التوبة من القتل في شرع من قبلنا، وشرعنا أكثر ترخيصاً وتيسيراً بالإجماع.⁽⁵⁾

(1) انظر : معاني القرآن وإعرابه/أبو إسحاق الزجاج/3/93.

(2) الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 5/3506 بتصرف.

(3) انظر : أحكام القرآن/للجصاص 4/381.

(4) انظر : مفاتيح الغيب، التفسير الكبير/الرازي 18/424.

(5) انظر : العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم/ابن الوزير القاسمي 9/24.

وفي قصتهم نكتة عجيبة، وهي أنهم عزموا على التوبة قبل الذنب، وكذلك المؤمن فعليه أن لا ينسى التوبة وإن كان مرتكباً للخطايا⁽¹⁾.

وبذلك كان قرارهم الأول نتيجة هذا الحسد القتل أو الإبعاد، فمن الذي أمر بالقتل من الإخوة؟ وفي الإجابة على ذلك قولان: الأول أن قاتل ذلك واحد من إخوته، فقيل: إنه شمعون أو روبيل. والقول الثاني: أنه ليس من قولهم، فقد شاوروا أجنبياً فأشار عليهم بقتله، ولم يكن من أحد من إخوته⁽²⁾.

ولكن إرادة الله ومشيبته جعلت أحدهم يقترح اقتراحاً آخرًا، كما أخبر بذلك المولى ﷺ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف: 10] وافق الإخوة على هذا الاقتراح وهو طرحه في غيابات الجب حتى يلتقطه أحد من المسافرين إن كانوا مصرين على إبعاده عن أبيهم، والالتقاط: أخذ الشيء من الطريق أو من حيث لا يحتسبه والسيارة هم المسافرون⁽³⁾.

نلاحظ أن هذا القاتل أقل إجراماً من إخوته فمن هو هذا القاتل؟ اختلفت الروايات في هوية هذا القاتل من بين الإخوة، فبعض الروايات أنه روبيل وكان أكبر القوم، وهو ابن خالة يوسف، وقيل كان القاتل شمعون، وقيل: هو يهوذا حيث أن يهوذا كان من أشدهم في العقل⁽⁴⁾، وهو الذي يقول بعد ذلك: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف: 80].

فقيل عن يهوذا: إنه كان أحسنهم فيه رأياً، لأنه أقربهم إليه سناً فقال لهم: لا تقتلوه، فإن القتل عظيم وألقوه في غيابة الجب، وسماه غيابة لأن ما غاب منه عن عين الناظر فهو غيابات، والجب إنما هو البئر الكبيرة غير المطوية، وسمي بذلك لأنه جبٌ فُطِعَ ولم يُطو. ⁽⁵⁾

والمفهوم من جملة (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) الحمل إلى ترك الفعل، وعدم الاقتناع به فكأنه قال لا تفعلوا شيئاً من ذلك وإن عزمتم على هذا الفعل، فافعلوا هكذا إن كنتم فاعلين⁽⁶⁾ ومن هذا نفهم أن هذا الأخ القاتل أقل من باقي إخوته حقداً وكرهاً ليوسف ﷺ.

(1) انظر: زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي 415/2.

(2) انظر: اللباب في علوم القرآن/سراج الدين الحنبلي 26/11.

(3) انظر: تفسير القرآن/السمعاني 11/3.

(4) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/الواحدي 539./1.

(5) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل/النسفي 97/2.

(6) لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 513/2.

2- مرادة الإخوة لتنفيذ الخطيئة ولكن " يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين "

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَأَتَاكَ مَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُنْصِحُونَ ﴿١١﴾
 أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ
 يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا
 لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا
 وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ [يوسف: 11-15]

بعد أن اتفق الإخوة على التخلص من يوسف لإبعاده عن أبيهم ظناً منهم أن بذلك
 يخلو لهم وجه أبيهم، كان أمامهم مشكلة وهي الانفراد بيوسف لتنفيذ الجريمة ولكن كيف وأبوهم
 لا يفارقه أبداً؟، فهذه جزئية لابد من اجتيازها، فقررروا مرادة أبيهم عنه بحجة الرتع واللعب.

والملاحظ من نص الآية والمنتدبر لمعناها، يتفهم أن أباهم يعقوب عليه السلام كان يدرك حسد
 أبنائه وحقدهم على يوسف عليه السلام، وذلك من قوله تعالى عنهم: (مَا لَكَ لَأَتَاكَ مَا عَلَى يُوسُفَ) دل
 ذلك على أنهم قد طلبوا من أبيهم أن يخرجوا بيوسف غير مرة قبل هذه وباء طلبهم بالرفض؛
 لأن مثل هذا الكلام لا يتكلم به مبتدأ على غير مسابقة شيء من أمثاله، كما أن قولهم:
 (وَإِنَّا لَمُنْصِحُونَ) يؤكد ذلك في محاولة منهم هذه المرة إقناع أبيهم، والناصح هو الدال على ما
 به نجاته، أو الدال على كل خير، والله أعلم⁽¹⁾.

وإن كان ما فعلوه بيوسف عليه السلام عكس ذلك تماماً، فقد أظهروا له إنما يريدون مصلحة
 يوسف عليه السلام في أن يلهو، وينشط ويسعى في الصحراء، وينظر ويعقل، فيعرف ما يعرف
 الرجل، وأكدوا لأبيهم أنهم لأخيهم حافظون، من أن يناله شيء يكرهه أو يؤذيه⁽²⁾.

وقد استخدم العرب لفظة يرتع بكسر العين، ويرتع من الرتعة، أي يتسع في الخصب،
 وكل مخصب فهو راتعوي من الرعي، فيكون معناها من قول أبناء يعقوب لأبيهم وهم يقنعونه
 بإرسال يوسف معهم حتى يرعى غنمه أو ماشيته ويلعب، فيجتمع له النفع والسرور⁽³⁾.

ويقول الزمخشري: " كان لعبهم الاستباق والانتضال، ليدربوا أنفسهم بما يحتاج إليه
 لقتال العدو لا للهو، بدليل قوله إنا ذهبنا نستبق، وإنما سموه لعباً لأنه في صورته⁽⁴⁾."

(1) تأويلات أهل السنة/الماتريدي 213/6

(2) جامع البيان في تأويل القرآن/الطبري 573/15

(3) معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 95/3.

(4) انظر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري 448/2.

ولعبهم هذا هو لعب مباح كاللعب بالخيل والرمي ونحوه، فلا وصم عليهم في ذلك، وليس باللعب الذي هو ضد الحق وقرين اللهو⁽¹⁾ وفي الآية دلالة على أن اللعب الذي ذكره كان مباحا لولا ذلك لأنكره يعقوب عليه السلام عليهم لما سأله إرسال يوسف عليه السلام معهم⁽²⁾

ولو حللنا رد يعقوب عليه السلام على طلب إخوة يوسف ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا وَأَخَافُ

أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ [يوسف] نجده يحمل في طياته الرفض وذلك من جهتين : الأولى عدم مقدرته على مفارقتها لتعلقه به، والثانية : خوفه عليه أن يأكله الذنب.

(وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ) دلت أن أرضهم كانت مُدَابَّة، أي مليئة بالذئاب⁽³⁾ ، والذي دفع يعقوب عليه السلام أن يذكر الذئاب دون غيرها من السباع الموجودة في الصحراء أنه عليه السلام رأى في منامه أن الذنب قد شد على يوسف فكان يحذره، ومن ثم قال هذا، فلقتهم العلة بعد ذلك وكانوا لا يدرون⁽⁴⁾.

وقيل : لا ينبغي لأحد أن يلقن ابنه الشر، فإن أبناء يعقوب لم يدروا أن الذنب يأكل الناس، حتى قال لهم أبوهم: إني أخاف أن يأكله الذنب فأخذوا ذلك منه.⁽⁵⁾

رد إخوة يوسف على تخوف أبيهم من الذنب بقسم كاذب، وهم متيقنون من كذبه ليسمح لهم باصطحاب يوسف فينفردوا به وينفذوا مخططهم الإجرامي فقالوا: ﴿ قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ [يوسف] وهكذا حلفوا لأبيهم كيف تخاف من أن يأكله الذنب من بيننا ونحن عشرة رجال، فيمثلهم تعصب الأمور وتكفي الخطوب فكيف يحدث هذا، إنهم إذا لقوم هالكون ضعفا وخورا وعجزا، وإنما إن مغبونون هالكون⁽⁶⁾ إنهم يستحقوا الهلاك إذا أكل الذنب بعضهم وهم حاضرون، ثم إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها⁽⁷⁾ وهكذا صدقهم يعقوب عليه السلام.

والمأمل بالنص يقرأ أن يعقوب عليه السلام قد اعتذر إليهم بعذرين، الأول أنه لا يقدر على

(1) انظر : المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز/ابن عطية 224/3.

(2) انظر : أحكام القرآن/للجصاص 381./4.

(3) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/الواحي 540/1.

(4) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 199/5.

(5) انظر : تفسير القرآن العظيم/لابن أبي حاتم 2108/7.

(6) جامع البيان في تأويل القرآن/الطبري 573/15 بتصرف.

(7) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري 449/2 بتصرف.

فراق يوسف عليه السلام، والثاني أنه يخاف عليه من الذئب، فلماذا رد إخوة يوسف عليه السلام على أحدهما دون الآخر؟ فالجواب لأن الأمر الأول هو الذي يغيظهم ويذيقهم الويل وهو عدم مفارقتهم ليوسف عليه السلام والذي من أجله خططوا وسينفذون جريمتهم، فلذلك أعاروه آذانا صما ولم يعبتوا به لأنه علتهم.

لم يزل إخوة يوسف يراودون أباهم في الكلام ويقنعونه حتى أرسله معهم على وجل وتخوف. فقيل: إنه لما أرسله معهم دعاه حين أرادوا الذهاب به، فضمه إليه ثم دعا له وقال: "اللهم اجعل دعائي جنة مما أتخوف عليه"⁽¹⁾ وأوصاهم عند خروجه أن يحسنوا إليه، ويتعاهدوا أمره، ويردوه إذا طلب الرجوع. فقبلوا ذلك منه. ويقال: إنه رفض أن يرسله معهم، حتاتوا يوسف فقالوا له: اطلب من أبيك لبيعك معنا لتلعب، فطلب يوسف ذلك من أبيه، فبعثه معهم والله أعلم⁽²⁾.

فلما ذهبوا به وأجمعوا رأيهم وعزموا على أن يجعلوه في غيابت الجب، يقول المولى تبارك وتعالى (**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**) أي: لتخبرنهم يا يوسف بما صنعوا بك، وهم لا يعلمون أنك أنت يوسف وكان ذلك وحياً⁽³⁾.

وقال الضحاك: لما ألقى يوسف في الجب، نزل إليه جبريل، عليه السلام، فقال له: يا يوسف: ألا أعلمك كلمات إذا قلتهم عجل الله بخروجك من هذا الجب. فقال: نعم، فقال له جبريل عليه السلام

قل يا صانع كل مصنوع، ويا جابر كل كسير، ويا شاهد كل نجوى ويا حاضر كل ملاء، ويا مفرج كل كربة، ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحشة: آتني بالفرج والرخاء، وأقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحدا سواك. فرددها يوسف عليه السلام، في ليلته مرارا فأخرجه الله عز وجل، في صبيحة ذلك اليوم من الجب والله أعلم⁽⁴⁾

وقد اختلفت الروايات في مدة مكوثه في البئر؟ فالأكثر: أنه بات فيها ثلاث ليالي والقول الآخر: أنه بات فيها ليلة واحدة والله أعلم⁽⁵⁾.

وهناك من المفسرين من ذهب إلى أن الوحي في الآية إلى يعقوب، وأكثر أهل التفسير على أن هذا الوحي إلى يوسف وليس إلى يعقوب، وفي الآية قول آخر أيضاً: وهو أن الوحي هاهنا هو بالإلهام، أما إتيان جبريل عليه السلام كان بعد هذا والله أعلم⁽⁶⁾

(1) تفسير القرآن العظيم/لابن أبي حاتم 2111/7 بتصرف.

(2) بحر العلوم/السمرقندي 183/2 بتصرف.

(3) زاد المسير في التفسير/جمال الدين الجوزي 147/4 بتصرف.

(4) الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 35133/5 بتصرف.

(5) انظر: تفسير القرآن/السمعاني 14/3.

(6) تفسير القرآن/السمعاني 14/3 بتصرف.

وفي وصف أخذهم يوسف عليه السلام قال السديّ : خرجوا به، وله عليهم كرامة، فلما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة، وجعل أخوه يضربه، فيستغيث بالآخر فيضربه فجعل " لا يرى منهم رحيمًا " فضربوه حتى كادوا يقتلونه. فجعل يصيح، ويقول: يا أبتاه! يا يعقوب! لو علمت ما صنع بابنك بنو الإماء. فلما كادوا يقتلونه، قال يهوذا: أليس قد أعطيتموني موتًا من الله لا تقتلونه، فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه، فجعلوا يدلونه في البئر وهو يتعلق بشفير البئر. فربطوا يديه ونزعوا عنه قميصه⁽¹⁾

فقال لهم : يا إخوتاه: ردوا عليّ قميصي، أتوارى به في الجب. فقالوا له: ادع الشمس والقمر، والأحد عشر كوكبا ليؤنسوك، فدلّوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، فكان في البئر ماء، فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فيها. فقام عليها، وجعل يبكي، فنادوه، فظن أنها رحمة منهم أدركتهم عليه، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه، فقام يهوذا فمنعهم، وقال: قد أعطيتموني موتًا ألا تقتلوه. وقيل: كان الجب الذي ألقوه فيه لا ماء فيه، فأحدث الله فيه ماء، حتى مال إليه الناس، وكان يهوذا يأتيه بالطعام⁽²⁾

ولكن قرارهم كان إلقاءه في بئر لعل أحد السيّارة تجده، كما يخبر بذلك القرآن:

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي الْوُحُوشِ غَيْرَ الْمَوْتِ وَالْوُحُوشُ قَدِيمَةٌ لَّهُمْ فَيُتَّخَذَ بِهَا لُبًّا وَاللَّهُ لَبِيبٌ عَلِيمٌ ﴾

[يوسف: 10] فدل على أن البئر به ماء وهو مورد للسيّارة للمسافرين.

بهذه القسوة يتبين كيف عامل الإخوة أخاهم الأصغر منهم سنًا نبي الله يوسف عليه السلام، ومدى قسوتهم إنما تبين مدى مكارم أخلاقه عليه السلام حين عفا عنهم في النهاية، بعد أن سببوا له سنين من الذل والعبودية ثم السجن، ناهيك عن حرمانه من أبيه وأخيه الصغير بنيامين.

3- إخوة مجرمون وذنب بريء ويعقوب يستعين بالله بصبرٍ جميل

يقول الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا بَنَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ

وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبْطُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَ عَلَى قَمِيصِهِ يَدٌ مِرْكَبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[يوسف: 16-18] بعد أن نفذ الإخوة جريمتهم بات عليهم أن يواجهوا أباهم بالخبر، وأن يحكوا على أبيهم براءتهم أمامه من هذا الفعل مع علمهم أن الأمر ليس بالهين، فأجمعوا على أن يقولوا

(1) انظر : تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 2109/7.

(2) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 35133/5.

لأبيهم أن الذئب أكله، وليتم الإحباك رجعوا إليه، ونضحوا دماً على قميص يوسف الذي كان يلبسه، من دم جدي ذبحوه، ثم أقبلوا على أبيهم عشاءً ليكون⁽¹⁾.

وكانوا تعلموا من يعقوب عليه السلام السبب الذي يدّعه أمامه كما ذكرت من قبل، فقالوا له (**قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)**) إنا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وجاءوا بقميصه عليه دم جدي فزعموا أنه دم يوسف، يصف المولى عليه السلام موقفهم بالكذب لأن هذا الدم دم كذب وهم كاذبون، بل كلامهم يحمل دليل كذبهم فقد قالوا لأبيهم : (**وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**) وذلك من قبل أن يُظهروا هذا الدليل وهكذا هو الكذاب، يتهم نفسه قبل أن يُوجه إليه اتهام، ويتكلم ويتصرف بمقتضى كذبه وإن حاول إيهام من حوله غير ذلك فينكشف، كما أن القميص كان غير ممزق، يبدو أن الذئب خلعه إياه ثم أكله حرصاً على القميص، أو أن يكون أكله دون أن يتمزق القميص، إنه الحسد والحق الذي أفقد الإخوة صواب الأمور وأنساهم حق الإخوة وصلة الأرحام والإنسانية.

قال ابن عباس ومجاهد : " لو كان أكله الذئب لخرق القميص، فكانت علامة الكذب ظاهرة فيه وهو صحة القميص من غير تخريق." ⁽²⁾

موقف صعب لنبي الله يعقوب لا يُحسد عليه، فقد حدث ما كان يخشاه، فقد ابنه العزيز على قلبه، والأسوأ أنه يشعر أن أبناءه هم من دبروا هذا الأمر، ولكن ردة فعله على هذا الخطب العظيم والمصيبة الكبيرة لم تخرجه عن أركان الإيمان، وخاصة الإيمان بالقضاء والقدر، والاستسلام لله ومشيبته باطمئنان اليقين، ويجسد هذا قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام:

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

[يوسف: 18]

كما تعجب يعقوب عليه السلام من صحة القميص، فقال لأبنائه بسخرية ممزوجة بالأسى رداً على الدليل الكاذب المُفترى: "يا بني والله ما عهدت الذئب حليماً، فما أرى بالقميص أثر ناب ولا ظفر، إن هذا لسبع رحيم." ⁽³⁾

وإن دل هذا على شيء إنما يدل على أن يعقوب عليه السلام لم يكن يصدقهم، بل قطع بخيانتهم واقتراءهم وكذبهم، ولم يصدق أن يوسف أكله الذئب لصحة القميص من غير تخريق ⁽⁴⁾ وكان متيقن أن هناك أمر ما زينته لهم أنفسهم واشتهته لهم، فضيّعوا أحاهم.

(1) تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 2/2110

(2) زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي 2/420

(3) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 915/518.

(4) انظر : أحكام القرآن/للجصاص 4/282.

طلب يعقوب عليه السلام من الله الصبر الجميل، وهو صبرٌ لا جزع ولا شكوى فيه (1) وذلك علامة الصبر مع الرضا، ولو سألنا : بأي شيء يحصل التجمل بالصبر ليكون صبرٌ جميل ؟ قيل: بمعرفتك بأن الله تعالى معك، وبراحة العافية، وإنما مثل الصبر مثل قذح أعلاه الصبر وأسفله العسل. ثم العجب كل العجب ممن لم يصبروا كيف لم يصبروا للحال ؟ ورب العزة يقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: 153] (2)

وفي حال يعقوب عليه السلام بيانٌ عما تقتضيه المصيبة من الصبر الجميل والاستعانة بالله عندما يعرض من الأمور القطعية القدرية، يعلمنا إياها القرآن من حال نبيه يعقوب عليه السلام عندما ابتليُّ بفقد ولده المقرب إليه، كيف حسن عزائه ورجوعه إلى الله تعالى والاستعانة به، وهو قول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: 156]

وختم كلامه عليه السلام مع أبنائه بعد هذا الخطب العظيم بهدوء وسكينة وتسليم لأمر الله وبالاستعانة به، كما يخبرنا المولى عليه السلام حكايةً عنه عليه السلام: (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) فيقول: أستعين بالله، وأطلب العون منه على ما تقولون وتكذبون في أمر يوسف (3)

4- تمكين ليوسف في الأرض وكذلك يجزي الله المحسنين :

يقول عليه السلام: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بَعْضُكُمْ فِي رِجَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يوسف: 58-62]

بعدما ألقى إخوة يوسف أخاهم في البئر، سننتقل بالمشهد بعد ذلك بسنين طوال، وقد مرت أحداث عظام حدثت مع يوسف عليه السلام فسبحان الذي جعل حال يوسف عليه السلام من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومِنَّة، ومن ذل إلى عز، ومن أمن إلى خوف ثم من خوف إلى أمن، ومن مُلك إلى رق، ثم من رقٍ إلى مُلك، ومن فُرقةٍ وشتاتٍ إلى انضمام وانتلاف، ومن سرورٍ إلى حزنٍ ثم من حزنٍ إلى سرور، ومن رخاءٍ إلى جَدبٍ ثم من جَدبٍ إلى

(1) انظر : بحر العلوم/السمرقندي 184/2.

(2) انظر : تفسير التستري/التستري 81/1.

(3) انظر : بحر العلوم/السمرقندي 184/2.

رخاء، ومن سعة إلى ضيق ثم من ضيق إلى سعة، حتى الوصول إلى عواقب حميدة، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولي الألباب.

ثم بعد سنين من بشاعة حيلة إخوة يوسف على أبيهم وخداعهم له وكذبهم عليه وقباحة مؤامرتهم ومكيدتهم لأخيهم التي كان فيها ما يثير الاشمئزاز على الصعيد الإنساني فكيف بها على صعيد الإخوة أبناء النبي، بعد هذه السنين كان يوسف عليه السلام في مصر، حيث من الله عليه فجعله على خزائن الأرض لحكمة أرادها سبحانه وتعالى ليجمع شمل النبيين.

حين عم القحط بلاد مصر، وصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وكان يوسف عليه السلام حينها قد احتاط للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وهدايا متعددة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع السنين، وكان رحمة من الله تعالى على أهل مصر (1)

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره (2) : لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان، بعث يعقوب عليه السلام ولده للميرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، لئينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته الحسنة، وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس يجلس عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وسقا (3).

فجاء إخوة يوسف عليه السلام من أرض كنعان (فلسطين) إلى مصر، يطلبون شراء القمح، لأن القحط عم بلاد الشام ومصر، وكان بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه وقد كان أبوه يعقوب عليه السلام وإخوته أهل بادية وإبل وشاة فحين أصابهم القحط دعاهم يعقوب عليه السلام وقال (4) : " يا بني بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام، فتجهزوا واذهبوا إليه لتشتروا منه الطعام " ، فلما دخلوا على يوسف، وهو في منصبه الرفيع، عرفهم حين نظر إليهم، لأن ملامح الكبار لا تتغير كثيرا، وهم له منكرون، لم يعرفونه، لأنهم فارقوه، وهو صغير حدث، والمامح في حال الصغر تتغير كثيرا في حال الكبر، ولأنهم قدروا هلاكه، وما دار في خلداهم أبداً أنه سيصير إلى ما صار إليه، ونسيانهم له بطول العهد.

(1) انظر : تفسير القرآن العظيم/ابن كثير 483/2.

(2) انظر : الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 220/9.

(3) الوسق: ستون صاعا، والصاع (2751 غم)، وعند الحنفية (3900 غم)

انظر : رسالة إلى أهل الثغر/ الأشعري 1/ 13.

(4) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن/محيي السنة البغوي 500/2.

بينما إخوته لم يعرفونه وذلك لحكمة أرادها الله ﷻ وهو قول الله تعالى: **(فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَمْ يُمُنِّكُوا)** والمنكر: هو الذي لا يُعرف في الشرع ولا في العقل. (1) والإنكار: ضد المعرفة، والمعرفة وعرفان الشيء: هو التفكير في أثره. (2)

وقد تكون حكمة ربنا سبحانه وتعالى من أن يعرفهم يوسف ﷻ ولا يعرفونه، ليسبق أبوهم يعقوب ﷻ قبلهم في معرفته تكرامة من الله له ﷻ، رغم أنهم هم الذين يقفون أمام يوسف ﷻ بيرونه ويراهم، وليس يعقوب ﷻ فبينه وبين يوسف مئات الكيلو مترات، كما أنهم هم المبصرون وليس يعقوب ﷻ.

ومن الأسباب التي جعلت إخوة يوسف ﷻ ينكرونه وذكرها المفسرون: بُعد العهد به وتغيير ملامحه أو لأنه كان مثلثا، أو لأنه كان حين دخلوا عليه على هيئة عظيمة من الملك (3) فلم يذهبوا ذلك المذهب، كما كان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه.

وقال عطاء: "إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وعلى رأسه تاج الملك. وقيل: لأنه كان بزي ملوك مصر عليه ثياب من حرير وفي عنقه طوق من ذهب". (4)

أما ما حصل بينه وبين إخوته تروي الروايات: أنه حين نظر إليهم يوسف ﷻ وكلموه بالعبرانية، قال لهم أخبروني من أنتم وما أمركم فأني أنكرت شأنكم؟ فقالوا له: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار من عندكم (5)

فقال لهم يوسف ﷻ: إنكم جئتم عيوننا لملككم؛ ولعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي، فأمر بحبسهم، فقالوا: لا والله ما نحن جواسيس، إنما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق يقال له: يعقوب نبي من أنبياء الله، فنحن بنو يعقوب النبي، وكنا اثني عشر رجلا؛ فهلك منا رجل في الغنم، ووجدنا على قميصه دما؛ فأتينا أبانا فأخبرناه بذلك.

ثم سألهم يوسف ﷻ يريد أن يعرف أخباراً زيادةً عن أخيه فقال: فكم أنتمها هنا؟ قالوا: عشرة، قال: وأين الآخر؟ ويريد بسؤاله ﷻ شقيقه بنيامين فقالوا: قد خلفنا عند أبينا؛ وهو أخانا من أم الذي هلك؛ فأبونا يتسلى به (6)

(1) انظر: تأويلات أهل السنة/الماتريدي 257/3.

(2) انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج/د. وهبة الزحيلي 192/12.

(3) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل/أبو القاسم بن محمد 392/1.

(4) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 234/5.

(5) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن/محيي السنة البغوي 500/2.

(6) كشف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري 485/2 بتصرف.

وأخذ يوسف عليه السلام ليتجاذب معهم أطراف الحديث، فعرف عليه السلام من حديثهم ماذا قالوا لأبيه حين ألقوه في البئر قبل أربعين سنة، كما قالوا له إن الذي أكله الذئب أحبنا إلى أبنينا.

أمر يوسف عليه السلام بتجهيزهم بجهازهم، ومعنى الجهاز المتاع والشائع أن هذا اللفظ يُطلق على مستلزمات العروس حين تزف إلى زوجها، فنقول جهاز العروس وهو متاعها الذي يلزمها في الحياة الزوجية والبيت الأسري الجديد، والمقصود بالجهاز في الآية الكريمة: حمل البعير بعدته وهو ما يحتاج إليه المسافر من زاد وغيره، والمراد به هنا الطعام الذي باعه يوسف عليه السلام لهم بناءً على ما طلبوا⁽¹⁾.

إن شوق يوسف عليه السلام وحنينه واشتياقه لأخيه هو الذي دفعه ليتجاذب مع إخوته أطراف الحديث إلى أن قال لهم: ﴿ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَخْ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ ﴾ [يوسف: 59]، ويقصد بنيامين، ألا ترون أنني أوفي الكيل، أي: أتمه ولا أبخس الناس شيئاً، فأزيدكم حمل بعير لأجل أخيك، وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم، وأنا خير المنزلين، وفي ذلك يصف نفسه عليه السلام بأنه خير المضيفين وقد كان أحسن ضيافتهم، كما كان قوله لهم أنه يوفي لهم الكيل؛ لأن أهل ذلك المكان كانوا ينقصون ويخسرون الكيل في الضيق؛ وهو قد أعطاهم الطعام على غير الحاجة بعكس غيرهم فقد كان جعل لغيرهم الطعام على الحاجة؛ لضيق الطعام، وكان ذلك حتى يرجعوا بأخيه.

ولأنه خشي أن لا يأخذوا كلامه مأخذ الجد ولا يكلموا أباهم في بنيامين بإقناع يحقق إحضاره إليه، نجده استنرد قائلاً: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴾ [يوسف: 60]

أي: ليس لكم عندي طعام أكيه لكم، ولا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك، وهو جزم على النهي⁽²⁾.

فما كان من إخوته بعد موقفه هذا كصاحب سلطان إلا أن قالوا: ﴿ قَالُوا سُرُودُ عَنَّا

أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف: 61] ومعنى ردهم الذي أخبر به القرآن: أي سنجتهد ونحتال عليه حتى ننتزعه من يده، وإنا لقادرون على ذلك لا يعيينا فنفسل، وإنا لفاعلون ذلك لانفرط فيه ولا نتوانى⁽³⁾.

شعر يوسف عليه السلام بتحمسهم لإحضار شقيقه بنيامين إليه في المرة القادمة، فعمل على تشجيعهم على ذلك، فأمر فتياه أن يعيدوا إليهم بضاعتهم التي جاءوا بها من بلادهم فلسطين ليبدلوها ببضاعة أخرى من مصر، وقد كانت بضاعتهم التي جاءوا بها، وردّها إليهم

(1) التسهيل لعلوم التنزيل/أبو القاسم، بن محمد 392/1 بتصرف

(2) معالم التنزيل في تفسير القرآن/محيي السنة، البيهقي 500/2 بتصرف

(3) تأويلات أهل السنة/الماتريدي 259/6 بتصرف

النعال والأدم، ويقال: إن بضاعتهم كانت دراهم حملوها لشراء الطعام، وعن بعضهم: أن بضاعتهم كانت ثمانية جرب من الحبال، والأصح هو الأول. (1)

وقد أعاد المفسرون موقفه هذا إلى عدة أسباب منها: إمعانه عليه السلام بالحفاوة بهم وطمأننتهم فيكون ذلك مدعاةً لعودتهم إذا انقلبوا إلى أهلهم وفرغوا جهازهم وظروفهم على أبعرتهم.

وهناك من فسّر الموقف بتخوفه عليه السلام أن لا يكون عند أبيه يعقوب عليه السلام المتاع ما يرجعون به ليمتاروا في المرة القادمة، وهو حريص على رجوعهم، وهناك من قال: أنه عليه السلام لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنًا.

ورأي آخر: أنه عليه السلام علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة، ولا يستحلون إمساكها فيرجعون (2) والله تعالى أعلم

كان يوسف عليه السلام حكيماً، فأظهر أنه يحب أن يرى أخاهم من أبيهم، دون أن يشعرهم بتلفه على ذلك، حتى لا يعرفوه فيكتفوا عن أبيه أمره، ويحولوا بينه وبين الاجتماع معه ومع أخيه، فأجرى تدبيره على تدرج ذلك (3)

5- خطة محكمة ليوسف عليه السلام لإحضار أخيه

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِّي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ [يوسف: 63-66]

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اتُّوْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ؕ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦١﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ ؕ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ [يوسف: 59-61]

(1) انظر: تفسير القرآن/السمعاني 44/3.

(2) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري 485/2.

(3) انظر: أحكام القرآن/الجصاص 390/4.

لما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم قالوا له : يا أبانا إن ملك مصر أكرمنا كرامة ما لو كان رجلاً من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته، وقال: انتنوني بأخيكم هذا الذي عكف عليه أبوكم بعد أخيكم الذي هلك، فإن لم تأتونني به فلا تقربوا بلادي، ولكن يعقوب ذكّرهم بما كان منهم من قبل سنين حين أمنهم على يوسف، وقال لهم : إذا أتيتم ملك مصر فاقروه مني السلام، وقولوا: إن أبانا يصلي عليك، ويدعو لك بما أوليتنا.⁽¹⁾

ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: إنه عند ملك مصر وأخبروه بالقصة، فقال: ولم أخبرتموه؟ قالوا: إنه أخذنا وقال: إنكم جواسيس عند ما كلمناه بلسان العبرانيين، وقصوا عليه القصة.⁽²⁾

ألح إخوة يوسف في طلبهم في أن يرسل معهم بنيامين إلى مصر ليكتال لنفسه، فهو إذا اكتال لنفسه واكتالوا هم لأنفسهم، فقد دخل الأَخ في عددهم، ونزداد كيل بغير، أي يخرج أخونا على بغير فيكال له عليه، وقالوا عنه ذلك كيل يسير: أي سهل المنال.⁽³⁾

وقيل في معناه قولان: أحدهما يسير على الملك أي سهل، والآخر ذلك الذي جئنا به كيل يسير لا يكفيناه، فنحن نحتاج أن يخرج أخونا معنا حتى يزداد.⁽⁴⁾

وكأن التاريخ يعيد نفسه لقد وقف إخوة يوسف هذا الموقف قبل أربعين سنة يراودون أباهم عن يوسف حتى سمح لهم بيوسف، ثم عادوا إلى أبيهم دونه رغم أنهم وعدوه بأن يحفظوه، وها هو الأمر نفسه مع بنيامين يراودونه عنه، وبطمئونه بأنهم سيحفظونه، ولكنه قال لهم : كذلك قلتم لي في يوسف، فقد ضمنتم لي حفظ يوسف وكذلك ضمانكم هذا عندي.⁽⁵⁾

هكذا قلتم لي في أمر يوسف، ولا أقدر أن آخذ عليكم من العهد أكثر ما أخذت عليكم

في يوسف من قبل، وقد بين القرآن الكريم قوله لهم فيقول الله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا

كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٦٤﴾ [يوسف: 64]

وفي قول يعقوب هذا دلالة أن من ظهرت منه تهمة أو خيانة في أمر، يجوز أن يتهم فيما لم يظهر منه شيء؛ حيث اتهمهم يعقوب في بنيامين بخيانة كانت منهم في يوسف؛ وإن لم يظهر له منهم في أخيه شيء، وهو حجة لأصحابنا أن من ظهر فسقه في شيء وكذبه في أمر، صار مجروح الشهادة في غيره.⁽⁶⁾

(1) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 159/19.

(2) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 237/5.

(3) انظر : تأويلات أهل السنة/الماتريدي 261/6.

(4) انظر : إعراب القرآن/النحاس 208/2.

(5) معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 118/3.

(6) انظر : تأويلات أهل السنة/الماتريدي 261/6.

سكت إخوة يوسف عن أبيهم بعدما ذكرهم بما فعلوه بيوسف من قبل، ثم فتحوا متاعهم من السفر وهو أوعيتهم وجواليقهم، فوجدوا بضاعتهم أي : دراهمهم أو أوراقهم المالية ردت إليهم، فعندها عادوا يلحون على أبيهم من جديد، ويرادونه بشدة على بنيامين أن يأخذه معهم إلى عزيز مصر في المرة القادمة، قائلين يا أبانا ما نبغ : أي ماذا نطلب أكثر مما حصل لنا، وماذا نقصد من إبلاغك طلب العزيز منا إن لم يكن الحق، ورد البضاعة شاهد على صدقتنا⁽¹⁾

يا أبانا: إن عزيز مصر أطف علينا وأكرمنا فهذه دراهمنا ردت إلينا، فاسمح لبنيامين معنا نمتار به لأهلنا بحمله إليهم قوتهم من مصر، فابعثه معنا لكي نحمل الطعام لأهلنا ونحفظ أخاننا من الضيعة ونزداد حمل بغير من أجله.⁽²⁾

اقتنع يعقوب وسلم أمره الله ولكنه قال لهم: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا ﴾ [يوسف: 66] يعني: تعطوني عهدا وثيقا عليكم أمام الله، وأن تقسمون لي بالله لتأتوني به إلا أن يحاط بكم، ومعنى يحاط بكم على أقوال مفسرين عدة: أن ينزل بكم أمر من السماء، أو من الأرض، أو أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك، أو أن تهلكوا جميعا، أو أن يأتكم من أمر الله تعالى ما يعذركم. فعلى هذا آتوه موثقهم وأعطوه عهدهم، فقال يعقوب عليه السلام: الله على ما نقول وكيل، أي كفيل وشهيد⁽³⁾.

وتظهر في الآيات عقيدة يعقوب عليه السلام السليمة الصحيحة، فقد فرق ما بين قدرة العبد وبين قدرة الله ومشينته، فقد أخذ العهد على أبنائه في حفظ بنيامين بقدر استطاعة البشر، وما دون ذلك فهو من أمر الله وقدرته وهو قوله ﴿لَا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ﴾

وهكذا نجد أن يعقوب عليه السلام قد سمح لهم مرة ثانية بابنه العزيز على قلبه بعد يوسف وهو بنيامين والذي حقد عليه إخوته مثل يوسف مشيراً القرآن إلى ذلك في قوله سبحانه وتعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف: 8]

فلما آتوه موثقهم وأعطوه عهدهم، فقال عندها يعقوب عليه السلام: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ وقد قال كعب: "لما قال يعقوب ذلك قال الله جل ذكره: وعزتي لأردن عليك كليهما بعد ما توكلت علي"⁽⁴⁾

(1) انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج/د وهبة الزحيلي 192/12

(2) انظر: بحر العلوم/السمرقندي 201/2

(3) انظر: المرجع السابق .

(4) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 237/5.

6- سنون الخطيئة الطوال لم تغير من حقد الإخوة على أخيهم

لولا قدر الله ومشيبته في لقاء الشقيقين في مصر ما سمح يعقوب عليه السلام لابنيه أن يصطحبوا معهم بنيامين إلى هناك، حيث يوسف عليه السلام الذي مازلوا له منكرون، ثم وافق يعقوب عليه السلام على اصطحابهم بنيامين معهم إلى مصر من بعد أن عاهدوه بموثق من الله أن يأتونه به إلا أن يحاط بهم، وفعلاً ذهبوا به إلى مصر إلى أخيه يوسف عليه السلام وهم لا يعلمون، وكان لقاء الأشقاء يوسف وبنيامين من بعد سنين في ما صوره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ يوسف: 69] وكان قدر الله تعالى أن يلتئم شمل الإخوة الأشقاء، يوسف عليه السلام وأخيه بنيامين من بعد سنين الفرقة، وضم يوسف عليه السلام إليه أخاه، وقال له: "لا تحزن ولا تستكن (1)".

قالها له في خلوة وحدهما، وقد تناولت ذلك بالتفصيل سابقاً في المطلب الأول من المبحث الأول من هذا الفصل، والآن على يوسف عليه السلام أن يكمل الخطة التي نجحت في إحضار أخيه، والآن عليه أن يكملها لإحضار أبيه وهو ما يتوق إليه.

فقال يوسف عليه السلام لشقيقه بنيامين: قد علمت اغتنام والدي علي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى مالم تفعل، فقال له بنيامين: لا أبالي يا أخي، فافعل ما بدا لك، قال يوسف عليه السلام: إني أدس صاعي في رحلك، ثم أنادى عليك بأنك قد سرقته، ليتيها لي ردك بعد تسريحك معهم، فقال له: افعل ما تريد (2).

فكان التدبير ليوسف عليه السلام فنجده يدبر بتدبير الله له، كيف يأخذ أخاه، فلا يرجع معهم إلى البادية في فلسطين تمهيداً منه للم شمله بأبيه يعقوب عليه السلام، فتظهر لنا الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة، الضابطة الصابرة التي بينها القرآن في المشهد التالي: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغِثَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف: 70-75]

(1) معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 119/3.

(2) انظر: توفيق الرحمن في دروس القرآن/فيصل النجدي 493/2.

هذا كان تدبير يوسف عليه السلام من أجل أن يأوي إليه أخاه ويجمع الشمل للجميع من جديد في مصر، فجعل السقاية في رحل أخيه، وقد تم تفصيل ذلك في المطلب الأول من المبحث الأول من هذا الفصل كما قلت ولكني سأسلط الضوء على ما قالوه الإخوة عن يوسف وبنيامين حين أعلن عن السرقة كما بين ذلك ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ

أَنْتُمْ سَرَّكُمْ كَانَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ [يوسف: 77]

وتمت الخطة التي وضعها يوسف من جديد حيث نادى عليهم أنهم سارقون بعد أن جعل صواع الملك في رحل أخيه، والصواع هو إناء يشرب فيه الملك ويأكل فيه الطعام، وكان من فضة، وقيل من ذهب، وقد جعله يوسف عليه السلام في رحل أخيه ليحتال على إمساكه معه، إذ كان شرع يعقوب أن من سرق استعبده المسروق له⁽¹⁾.

حين نادى المنادي بالسرقة أقبل إخوة يوسف ينفون عن أنفسهم هذه التهمة مؤكدين أنهم أولاد نبي الله يعقوب ولا يصدر منهم هذا، فكان رد حاشية العزيز: ما جزاء من نجد الصواع في رحله؟ فما كان من إخوة يوسف إلا أن أقرروا بالعقاب العادل الذي يستحقه من كان الصواع في رحله، وذلك ليقينهم من أنهم ليسوا سارقين.

وهو قوله تعالى: (كذلك كدنا ليوسف) أي: هكذا صنعنا ليوسف حتى يخلص أخاه لأبيه وأمه من إخوته لأبيه، بإقرار منهم أن له أن يأخذه منهم ويحتبسه في يديه، ويحول بينه وبينهم⁽²⁾. والجزاء العادل للسارق أن يُستعبد، ويؤخذ في السرقة في شرع آل يعقوب وليس في حكم الفراعنة، شرع العزيز بتفتيش رحال إخوة يوسف فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، تمكيناً للحيلة ورفعاً للتهمة، ثم استخرجها من وعاء أخيه ليصح ليوسف عليه السلام بذلك إمساك أخاه معه⁽³⁾.

وهذا التدبير والكيد ألهمه الله ليوسف عليه السلام وصنعه له وحكم يوسف عليه السلام بشريعة آل يعقوب عليه السلام، وليس بشريعة الفراعنة، فما كان ليوسف عليه السلام ليأخذ أخاه في دينهم وتبعاً لشرعهم أو عاداتهم وإن كان من حاشية حكمهم، لأنه إنما كان جزاء السارق عند الفراعنة أن يضرب ويضاعف عليه الغرم، ولكن حكم يوسف عليه السلام في هذه القضية بحكم آل يعقوب آبائه وأجداده،

وهذا رفعة وتمكين ليوسف من الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ [يوسف: 76]

(1) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل/أبو القاسم بن محمد 392/1.

(2) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 186/16.

(3) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 3605/5.

ولكن إخوة يوسف لم يدافعوا عن أخيهم بنيامين ولو باندهاش واستغراب لما حدث، فحين أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين (1) وقالوا: يا بنيامين أي شيء الذي صنعت، فضحتنا وسودت وجوهنا، - ثم قالوا له قول افتراء - يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت الصواع؟ وراحيل هي أم يوسف وبنيامين.

فرد عليهم بنيامين: بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه بالبرية، الذي وضع هذا الصواع في رحلي هو الذي وضع الدراهم في رحالكم (2).

بل كان تعليقهم أسوأ من ذلك، رد عكس حقدهم الذي مازال موجوداً عليه وعلي أخيه، ولم تفعل سنوات الخطيئة التي ارتكبوها مع يوسف قبل عشرات السنين شيئاً في هذا الحقد والحسد، فقد قالوا أمام العزيز وحاشيته كما بين ذلك الله في كتابه العزيز:

" قَالُوا إِن يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ

أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ [يوسف: 77]

حزن يوسف لهذا الرد الذي رده إخوته على الملاء، فلقد عبر إخوة يوسف عن طبعهم ونظرتهم السيئة نحو يوسف، فاتهموه بالسرقه وهو صغير، وأن الأخوين سارقان، فقالوا: إن يسرق بنيامين الصواع، فقد سرق أخوه يوسف من قبل، فهما في العادة والطبع سواء (3).

فأسرها وأضمرها في نفسه ولم يبدها لهم، واختلفت الروايات في ما أسره يوسف عليه السلام في نفسه فقيل: أسر في نفسه قوله أنتم شر مكانا، وقيل أن ما أسره في نفسه: المجازاة لهم على ما قالوا فيه، وقيل: أسر الحجة على ما قالوا ولم يرد أن يبين عذره في ذلك، وقيل: أسر في نفسه قولهم " فقد سرق أخ له من قبل " ولم يرد أن يذيع هذا وينشره (4).

وكانت نفسه تحدته وهو ينظر إليهم، بل أنتم شر مكاناً عند الله بما صنعتم من ظلمكم أخيكم وعقوق أبيكم وقد علم الله أن الذي تذكرونه كذب (5) وأنتم شر منزلة في السرقة، لأنكم سارقون بالصحة، سرقتمكم أحاكم من أبيكم والله أعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تصفون (6).

(1) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 242/5.

(2) انظر: المرجع السابق.

(3) انظر: الوسيط/الزحيلي 1128/2.

(4) انظر: إعراب القرآن/للنحاس 211/2.

(5) انظر: الوجيز الواحدي/الواحدي 555/1.

(6) انظر: الكشف عن غوامض حقائق التنزيل/الزمخشري 493/2.

وقد كان قولهم : إن يسرق فقد سرق أخ له، تبرؤ بذلك من فعله ومنه لأنه ليس من أهم، وأنه إن سرق فقد جذب عرق أخيه السارق لأن في الاشتراك في الأنساب تشاكلاً في الأخلاق. (1)

وقصة السرقة المزعومة التي يتكلم فيها الإخوة على المأ بعد كل هذا الزمن ويجعلوها صفة ليوسف وأخيه هي: " أن أمه ماتت وهو صغير، فكفلته عمته، بنت إسحاق، وهي أكبر أولاد إسحاق، كانت لها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثوها بالكبر من أختانها ممن وليها، ولما أراد أبوه أن يأخذه منها، ألبسته هذه المنطقة، وأختها تحت ثيابه، ثم أظهرت أنها سُرقت منها، ثم أخرجتها من تحت ثيابه، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة، جزاء له بما صنع (2)"

وقد قال السدي عن هذه الرواية أنها من أحسن ما قيل في السرقة المزعومة عن يوسف (3)، واختلفت روايات المفسرين في قصة السرقة المزعومة في أقوال للعلماء عديدة: ما بين صنما لخاله كان يعبد فشرقه منه بإيعاز أمه، وكانت مسلمة. (4) وقيل كان يخبئ الطعام من المائدة للفقراء. (5)

7- موقف صعب لإخوة يوسف ولكنه تدبير العزيز الحكيم

يقول تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَطَّالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِیَ أَبِی أَوْ یَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقُرْبَىٰ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ [يوسف: 78-82]

بعد إخراج الصواع من رحل بنيامين، قرر العزيز عليه السلام أن يعاقبه بالسرقة أمام الحضور، وعلى دين يعقوب عليه السلام وليس على دين الملك، فقد حكّم يوسف عليه السلام على أخيه

(1) انظر : النكت والعيون/الماوردي 64/3.

(2) انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج/وهبة الزحيلي 194/12.

(3) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 243/5..

(4) انظر : الهداية في بلوغ النهاية/مكي بن أبي طالب 3608./5

(5) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن/البغوي 506/2 .

بشرعة آل يعقوب عليه السلام، وليس بشرعة الفراعنة، وبشرعة يعقوب أن يكون السارق في حوزة من سرقه وفي خدمته، وهذا ما خطط له يوسف عليه السلام أن يبقى أخاه معه.

ورغم أن يوسف عليه السلام من حاشية الملك إلا أنه ما كان أن يأخذ أخاه في دين الفراعنة وتبعاً لشرعهم أو عاداتهم، فقد كان جزاء السارق عند الفراعنة أن يضرب ويضاعف عليه الغرم، ولكن حكّم يوسف عليه السلام في هذه القضية بحكم آل يعقوب آبائه وأجداده، وهذا رفعة وتمكين ليوسف من الله عز وجل وهو قوله تعالى : (تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ).

الآن أصبح إخوة يوسف في موقف صعب بعد أن فقدوا بنيامين، وكان أبوهم قد أخذ عليهم موثقاً من الله أن يعيدوا إليه بنيامين فماذا سيقولون له الآن؟.

فحاولوا أن يستعطفوا العزيز ليترك بنيامين ويأخذ أحداً منهم بدلاً من بنيامين رحمةً منه على أبيهم الشيخ الكبير، وأن يأخذ أحداً منهم بدلاً عنه، لأن أباهم يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك، وقالوا له: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) يعني في أفعالك كلها، وقيل من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة إلينا، وقيل إن رددت بنيامين إلينا وأخذت أحداً مكانه كنت من المحسنين. (1)

ولكن العزيز رد قائلاً : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَاهُ ۚ إِنَّا إِذَا

نَظَرْنَا لَهُمْ نَظَرِيْمُونَ ﴿٧٩﴾ [يوسف: 79]

ويبدو أن الإخوة حاولوا كثيراً مع يوسف لعله يخلي سبيل بنيامين نفهم ذلك من لفظة استنيسوا والتي تدل على المبالغة في بأسهم من رفض العزيز، رغم تكرار محاولاتهم في استعطافه. فلما بئس إخوة يوسف من تغيير موقف العزيز نحو بنيامين، عنده اعتزلوا الناس ليس معهم غيرهم، يتناجون ويتناظرون ويتشاورون فيما وقعوا فيه (2).

لأنهم إنما أخذوا بنيامين من أبيهم بعد الموثيق المؤكدة من الله، وبعد أن كانوا متهمين أمام أبيهم في يوسف، فإن لم يُعيدوا بنيامين إلى أبيهم ستحصل محن كثيرة، فلو لم يرجعوا إلى أبيهم تركوه وحده وهو شيخ كبير، وسيؤكد اتهامه لهم في يوسف من قبل، كما أن الأهل ينتظرون الطعام، وسيكونوا في نظر أبيهم أنهم لم يقيموا للموثيق المؤكدة التي عقدها أمام الله وزنا، فلهذا تشاور إخوة يوسف ليخرجوا بقرار ويطلبوا الرأي الأصح والأصوب (3).

(1) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 547/2.

(2) انظر : زاد المسير في علم التفسير جمال الدين/الجوزي 461/2.

(3) انظر : مفاتيح الغيب/الرازي 492/18.

فقال كبيرهم وهو يهوذا لأنه أكبرهم في العقل ولم يكن أكبرهم في السن، فهو الذي أشار عليهم من قبل حين أرادوا التخلص من يوسف أن لا يقتلوه وأن يلقوه في غيابات الجب، وهو الآن يرفض أن يرجع إلى أبيه حياء منه، أما الأكبر سناً فيهم روبيل⁽¹⁾.

فقال لهم كبيرهم حسب وصف القرآن له : لقد اجتمع عليكم أمران الآن، تفرطكم في يوسف في السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي، فسأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها، حتى يقدر لي المجيء وحدي أو مع أخي⁽²⁾.

ثم وصّاهم بأن يقولوا لأبيهم : ارجعوا إلى أبيكم فقولوا له، يا أبانا إن ابنك سرق ويحمل هذا الكلام معنيين، أحدهما أن ابنك عُلم منه السرقة، والمعنى الآخر أنه اتهم بالسرقة⁽³⁾.

وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ولم نعلم وقت أخذناه منك أنه سيسرق فلا نأخذه، ولأنهم يعلمون أن أباهم لن يصدقهم لما كان منهم من أمر يوسف من قبل قال لهم أخوهم : وقولوا لأبيكم إذا كنت لا تصدقنا (وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) . والمراد أسأل أهل القرية، ولا يختلف أهل العلم باللسان في ذلك، لأن القرية والعيير لا يخبران بصدقهم⁽⁴⁾ والأغلب أن مثل هذا الكلام إنما هو من باب المجاز، ولكن هناك من يمنعه من المجاز، وقيل وهل القرية تسأل؟ فنقول لأن المخاطب يعرف المعنى، ولو أردت أن تحول القرية إلى الجدران والبيوت لقليل: إنك مجنون، وأولاد يعقوب لما قالوا: (وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ) ما كانوا يريدون من أبيهم ولا يمكن أن يفهم أبوهم أنهم يريدون أن يذهب إلى القرية ويقف عند كل جدار ويسأله هل سرق ابني؟ أبدا، فما كانوا يريدون هذا ولا خطر ببالهم، ويعقوب أيضاً يفهم أنهم لم يريدوا هذا، فإذا كان المتبادر من هذا السياق أن المراد سؤال من يصح توجيه السؤال إليه، بقي الكلام حقيقة. فهذه الآية في مثل معنى الآيات قبلها، لا تختلف عند أهل العلم باللسان، أنهم إنما يخاطبون أباهم بمسألة أهل القرية وأهل العير؛ لأن القرية والعيير لا يثبتان عن صدقهم⁽⁵⁾.

8- هم وغمّ وصبرٌ ويقينٌ بالله وإخوة يوسف يستنكرون

يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ

(1) انظر : تفسير مقاتل بن سليمان/مقاتل بن سليمان 320/2.

(2) انظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 403/1.

(3) انظر : إعراب القرآن/النحاس 212/2 .

(4) انظر : الإعتصام/للشاطبي 256/3.

(5) انظر : تفسير الشافعي/الشافعي 982/2.

فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا وَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ
 ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ [يوسف: 83-86]

لم يصدق يعقوب عليه السلام رواية أبنائه عن بنيامين أنه سرق وأخذه العزيز على جريمته، وأنه استبقاه العزيز فيمصر معاقباً فقال لهم يعقوب: وما يدري هذا الرجل أي العزيز أن السارق يؤخذ بسرقة، إلا يقولكم⁽¹⁾ ففي مصر لا أحد يحكم بشريعة يعقوب وآبائه، بل الحكم في مصر بقانون الفراعنة، فقالوا له ما شهدنا إلا بما علمنا، ثم قال لأبنائه: بل اشتهدت وزينت لكم قلوبكم أمراً فصنعتموه فصبر جميل، وهو الصبر الحسن، من غير جزع، ولا أشكو فيه إلى أحد عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً، ويرد عليّ يوسف ويهوذا وبنيامين إنه هو العليم بمكانهم الحكيم فيحكم بردهم عليّ⁽²⁾ إنه عليم بحالي، حكيم في فعله وقضائه وقدره.

ثم أعرض بوجهه عن أولاده وجعل يتفجع ويتأسف، وقال يا أسفى على يوسف، وقد خرج مخرج الندبة، والأسف هو أشدّ الحزن والتندم والحسرة⁽³⁾ ثم في هذا المشهد وهو يتلقى خبر فقدان بنيامين، وأيضاً خبر عدم عودة يهوذا، ابنه الذي رفض أن يرجع إلى أبيه حياً منه على فقدان بنيامين، عندها ذكر يعقوب عليه السلام ولده يوسف عليه السلام فقال: يا حزنا على يوسف، وابيضت عيناه من الحزن ومن كثرة البكاء وهو مغموم مكروب، يتردد الحزن في جوفه ولم ينكلم بسوء، وما تكلم إلا خيراً، وكان كاظمٌ حزنه، ممسكٌ عليه لا يظهره ولا يشكوه، وقيل: لم يبصر بعينيه ست سنين وهو مكظوم مملوء من الحزن، لا يبته، مكبود، كמיד، حتى بلغ به الجزع درجةً، فكان لا يكلم أبنائه⁽⁴⁾.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لم يعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون عند المصيبة إلا أمة محمد، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه لم يسترجع⁽⁵⁾: إنما قال يا أسفى على يوسف؟⁽⁶⁾

استنكر إخوة يوسف على أبيهم أن يذكر يوسف، فأمر يوسف من وجهة نظرهم مضى عليه زمان ولا بد أن ينتهي، فأقسموا عليه في أسلوب تأنيب إنك لا تزال تذكر يوسف، لا تقتر من حبه، "حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا" وأصل الحرص: الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو

(1) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية/مكي ابن أبي طالب 3616/5.

(2) انظر: بحر العلوم/السمرقندي 206/2.

(3) انظر: مجاز القرآن/أبو عبيدة المصري 316/1.

(4) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 247/5.

(5) انظر: يسترجع من الاسترجاع: وهو قول إنا لله وإنا إليه راجعون.

(6) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/الطبري 53/13.

الهرم⁽¹⁾، والحرص: الذي أذابه الحزن أو العشق⁽²⁾ وقيل: الحرص هو البلاء لتألم القلب ومن الحرص يكون دون الموت، وهو فساد في العمل منشدة الحزن.

أقسم بنو يعقوب لأبيهم أنك ما تزال تذكر يوسف حتى تموت، وإنما كان حزن يعقوب ﷺ على دين يوسف لا على نفسه، لأنه علم أنه لو مات على دينه اجتمع معه في الآخرة الباقية، وإذا تغير دينه لم يجتمعا أبداً. وقد حكى عن سفيان أنه قال: إن يعقوب ﷺ لما جاءه البشير قال له يعقوب: على أي دين تركت يوسف؟ فقال: على دين الإسلام. قال: الآن تمت النعمة.⁽³⁾

ندم يعقوب ﷺ على ما صدر منه أمام أبنائه فهذا لا يتفق مع الصبر الجميل، وكيف يشكو لغير الله سبحانه وتعالى، فقال ﷺ لما رأى غلظة أبنائه وسوء لفظهم، كما يبين ذلك القرآن الكريم: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: 86] والبتّ يكون لأشد الحزن وقد سمي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه، حتى يبئنه، ويصدره لغير الله⁽⁴⁾

وقال المفسرون دخل على يعقوب جار له فقال له: يا يعقوب ما لي أراك قد انهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ قال: هشمي وأفناني ما ابتلاني الله به من مصاب يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟

قال: يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي، قال: فإني قد غفرتها لك وكان بعد ذلك إذا

سأله أحد قال (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ).⁽⁵⁾

وقيل: إن يعقوب مكث أربعة وعشرين عاما لا يدري أحى يوسف أم ميت حتى تمثل له ملك الموت فقال له: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، فقال له: أتشدك بإله يعقوب هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا، فعند ذلك قال: يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله⁽⁶⁾ والتحسس هو طلب الشيء بالحاسة ومعناه: اطلبوا وابتحثوا عن خبر يوسف

(1) انظر: جامع البيان عت تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 221/16.

(2) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 247/5.

(3) انظر: تفسير التستري/التستري 28/1.

(4) انظر: غريب القرآن/ابن قتيبة 190/1.

(5) انظر: تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 2186/7.

(6) انظر: المرجع السابق.

وأخيه⁽¹⁾ وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل إن التحسس بالحاء يكون في الخير، وبالجيم يكون في الشر، ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس، هنا تحسسوا من يوسف وأخيه لأنه أقيم من مقام عن، ويجوز أن يقال من للتبعيض ويكون المعنى تحسسوا خبراً من أخبار يوسف وأخيه⁽²⁾.

فلذلك قال لهم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون، عندها قال لهم : انطلقوا إلى مصر، فاطلبوا خبر يوسف وأخيه قالوا له : أما بنيامين فلا نترك الجهد في أمره، وأما يوسف فإنه ميت، وإنا لا نطلب الأموات، فقال لهم يعقوب: لا تقنطوا من رحمة الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الجاحدون لنعمة الله. ⁽³⁾ وطلب يعقوب من بنيه أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه قائلاً لهم : اذهبوا إلى هذا الذي طلب منكم أحاكم واحتال عليكم في أخذه فسلوه عنه وعن مذهبه⁽⁴⁾.

ف قيل : " إن يعقوب لم ينزل به بلاء قط إلا أتى حسن ظنه بالله ﷻ من ورائه " فلذا كان الطمع في يوسف، فأمر بنيه بالرجوع إلى الموضع الذي أتوا منه يلتمسون يوسف، وأخاه: بنيامين، وقال لهم لا تقنطوا من أنيروح الله عنا ما نحن فيه من الحزن⁽⁵⁾

9- عتاب الكرماء واعتراف الغفلاء وعفو المحسنين

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَاؤْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَنَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۗ إِنَّ اللَّهَ بَجَزَى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَتَىكَ لَأَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَأَلَّوْا لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ [يوسف: 88-93]

(1) انظر : تفسير القرآن/السمعاني 60/3.

(2) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 551/2 .

(3) انظر : بحر العلوم/السمرقندي 207/2.

(4) انظر : إعراب القرآن/النحاس 214/2.

(5) انظر : لهداية في بلوغ النهاية/مكي ابن أبي طالب 3621/5.

استجاب أبناء يعقوب لما قاله أبوهم وعادوا أدراجهم إلى مصر حيث عزيز مصر الذي ما زالوا له منكرين، وقبلوا وصية أبيهم، فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز: أي القادر المنيع، مسنا وأهلنا الفقر والحاجة إلى الطعام وعنوا بأهلهم من خلفهم، وجئنا ببضاعة مزجاة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها، وكانت بضاعتهم الصوف والسمن. وقيل: الصنوبر والحبة الخضراء.(1)

رجع إخوة يوسف ببضاعة مزجاة وهي البضاعة القليلة الرديئة، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها (2)

ثم قالوا للعزيز أوف لنا الكيل: أي أعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافي والمعنى إنا نريد أن نقيم لنا الزائد مقام الناقص والجيد مقام الرديء وتصدق علينا يعني وتفضل علينا بما بين الثمين الجيد والرديء ولا تنقصنا، هذا قول أكثر المفسرين(3).

ونلاحظ بلاغة القرآن العظيم في وصف المشهد حين توجهوا إلى مصر بقصد الميرة لما كان اشتد بهم من القحط، وقصدوا العزيز؛ وقوله: (فَأَرْوِ لَنَا الْكَيْلَ) بالفاء يدل على أنهم أسرعوا الكرة في هذه المرة وقالوا منادين بالأداة التي تنبه على أن ما بعدها له وقع عظيم (يَتَأَيَّهَا الْعَزِيزُ) ولما تطفوا بتعظيمه، ترققوا بقولهم: (مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ) أي نحن العصابة التي تراها و أهلنا الذين تركناهم في بلادنا خلفنا، والبلاغة في كلمة مسنا أي لابسنا ملابسنا نحسها ونشعرها(4).

لما كان يعقوب عليه السلام أمرهم بالتحسس من يوسف وأخيه، فالتحسس وجب عليه أن يتوسل إلى مطلوبه بجميع الطرق، فالغريق يتعلق بكل شيء، فبدأوا بالعجز والاعتراف بضيق اليد وإظهار الفاقة فرقق الله تعالى قلبه وفاضت عيناه(5).

كان الكلام الذي يعرضه إخوة يوسف عليهم السلام عن حالهم وعن حال أهلهم خلفهم يختلج في قلب يوسف عليه السلام حتى فاضت عيناه، فشرع يوسف عليه السلام في كشف أمره إليهم، فروي أنه حسر قناعه، فقال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون.

(1) انظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان/النيسابوري 121/4.

(2) لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 353/2 بتصريف.

(3) غرائب القرآن و رغائب الفرقان/النيسابوري 121/4 بتصريف.

(4) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/البقاعي 205/10 بتصريف.

(5) الجواهر الحسان في تفسير القرآن/الثعالبي 340/3 بتصريف.

وقال بعضهم: إنما قال ذلك حين سأل أخاه بنيامين: هل لك ولد؟ قال: نعم، ثلاثة بنين، قال: فما سميتهم؟ قال: سميت الأكبر يوسف قال: ولم؟ قال: محبة لك، لأذكرك به، قال: فما سميت الثاني؟ قال: ذنبا، قال: ولم سميت بالذنوب وهو سبع عاقر؟ قال: لأذكرك به، قال: فما سميت الثالث؟ قال: دماء، قال: ولم؟ قال لأذكرك به، فلما سمع يوسف المقالة خنقته العبرة، ولم يتمالك، فقال لإخوته: لما دخلوا عليه: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه⁽¹⁾

وقيل: إن إخوته أدوا إليه كتاب يعقوب وكان هذا الكتاب مكتوباً فيه: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر. أما بعد، فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء: أما جدي، فشددت يداه ورجلاه ورمى به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه بردا وسلاما، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عينا من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته لذلك، وأنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فإن رددته علي، وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك والله أعلم.⁽²⁾

عندها قال لهم يوسف **﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾** [يوسف: 89] فلو سأل سائل نعرف ما فعلوا بيوسف فماذا فعلوا بأخيه؟ فالجواب: التفريق بينهما في الصغر وما نالهما بسببهم من المحن إذ هم جاهلون، وقد نسب يوسف **﴿الذئب﴾** إخوته في خطابهم بالجهل، وهو إما إلى جهل المعصية، وإما إلى جهل الشباب وقلة الحكمة، فلما خاطبهم هذه المخاطبة، تنبهوا، ووقع لهم من الظن القوي وقرائن الحال أنه يوسف فقالوا: أنك لأنت يوسف مستفهمين، فأجابهم يوسف كاشفا عن أمره، قال أنا يوسف وهذا أخي.⁽³⁾

ثم تبين بلاغة القرآن في ألفاظه قباحة ما افترفوه بقوله تعالى: " هل علمتم " في هذا الاستفهام الذي معناه ما أعظم الأمر الذي ارتكبتن من يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيت. كما وفيه تصديق لقوله سبحانه: **(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ**

(1) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 253/5

(2) غرائب القرآن وعجائب الفرقان/النيسابوري 121/4 بتصرف.

(3) الجواهر الحسان في تفسير القرآن/الثعلبي 340/3 بتصرف.

يُوسُفَ وَأَخِيهِ) فإن قلت الذي فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذي فعلوه بأخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فإنهم لم يسعوا في حبسه ولا أرادوا ذلك فماذا فعلوا بينيامين؟ فالجواب إنهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذُكر يوسف بالاحتقار والامتهان، ولما اتهم بأخذ الصواع قالوا له : ما رأينا منكم يا بني راحيل خيرا (1).

ثم تتجلى أخلاق النبيين والرسل، فيوسف عليه السلام أوجد عذراً لإخوته عما اقترفوه وذلك قوله تعالى : (**إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ**) فهو جار مجرى الاعتذار عنهم (2)، كأنه قال : إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في أوان الصبا وزمان الجهالة، وإنما أراد عليه السلام من ذلك إزالة الخجل عنهم، فإن مطية الجهل تكون في الشباب .

وفيه إخبار أنهم كانوا جاهلين عند وقوع الفعل منهم، وأنهم لم يكونوا جاهلين في هذا الوقت فمن الناس من يستدل بذلك على أنهم فعلوا ذلك قبل البلوغ ، لأنهم لو فعلوه بعد البلوغ مع أنهم لم تظهر منهم توبة لكانوا جاهلين في الحال وإنما أراد جهالة الصبا لا جهالة المعاصي (3).

ونصح لهم عليه السلام في الدين، لأن العلم بقبيح ما ارتكبه في جهل يدعو إلى التوبة غالباً، وبذلك أثر عليه السلام كما هو عادة الأنبياء حق الله على نفسه في المقام الذي يتشفى المغيظ وينفت المصدر ويدرك ثأره الموتور. وقيل: إنما نفى العلم عنهم لأنهم لم يعملوا بعلمهم. (4)

ولما كلمهم بذلك قالوا أنك لأنت يوسف عرفوه بالخطاب الذي لا يصدر إلا عن حنيف مسلم عن منهج إبراهيم، أو بتبسمه عليه السلام فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم، أو رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء كان ليعقوب وسارة مثلها قال أنا يوسف (5). صرح يوسف عليه السلام باسمه تعظيماً لما جرى عليه من ظلم إخوته كأنه قال: أنا الذي ظلمتموني على أشنع الوجوه والله أوصلني إلى أعظم المناصب، أنا ذلك الأخ الذي قصدتم قتله ثم صرت كما ترون ولهذا قال: وهذا أخي مع أنهم كانوا يعرفونه، لأن مقصوده أن يقول وهذا أيضاً كان مظلوماً كما كنت صار منعماً عليه من الله وذلك قوله: (**قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا**) بكل خير دنيوي أو بكل عز وخير في الدنيا والآخرة، وقيل: منّ علينا بالسلامة في ديننا ودنيانا (6).

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل/البيضاوي 175/3 بتصرف.

(2) انظر : غرائب القرآن وعجائب الفرقان/النيسابوري 121/4.

(3) انظر: أحكام القرآن/الجصاص 394/4.

(4) انظر : غرائب القرآن وعجائب الفرقان/النيسابوري 121/4.

(5) انظر :الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 256/9

(6) انظر :لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 353/2..

ثم يبين يوسف عليه السلام أن ما منه الله عليه إنما لصبره وتقواه فإنه من يتق الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ويصبر عما حرم الله عليه، من الزنا ويصبر على العزوبة، ومن يتق معصية الله ويصبر، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

الآن يقر الإخوة بذنبهم إقراراً يتضمن استغفاراً مع استئذالهم ليوسف مقرين معذرين وذلك في قول الله سبحانه وتعالى عنهم : " **تَأَلَّفُوا لِقَدَّءَ آثَرِكُ اللّٰهُ عَلَيْنَا**) وآثرِك: لفظ يعم جميع التفضيل واختارك الله علينا بالعلم والحكمة والعقل والفضل والحسن والملك وإن كنا لخاطئين في صنيعنا بك.

يقبل يوسف عليه السلام الاعتذار منهم بل يقابله مزيداً من مكارم الأخلاق فيقول لهم "لا تثريب عليكم" والتثريب: هو اللوم والعقوبة وما جرى معهما من سوء معتقد ونحوه، وقد عبر بعض الناس عن التثريب بالتعيير⁽¹⁾ ولا تأنيب عليكم، ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، وأصل التثريب: الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز، فلا إفساد عليكم ما بيني وبينكم من الحرمة، وحق الأخوة. ولكن لكم عندي العفو والصفح.⁽²⁾

منه قول النبي صلى الله عليه وسلم كما أخرجه البخاري في صحيحه : (إذا زنت الأمة فتبين زناها، فليجلدها ولا يثرب، ثم إن زنت فليجلدها ولا يثرب، ثم إن زنت الثالثة، فليبعها ولو بحبل من شعر"⁽³⁾ أي لا يعيرها).

ثم دعا لهم يوسف وقال: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، وسألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي؟ قالوا: ذهب عيناه، فأعطاهم قميصه وقال لهم: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يعود مبصراً.⁽⁴⁾ ولو سألنا كيف أن يوسف عليه السلام عرف أن إلقاء القميص على وجه أبيه سيرد إليه بصره؟ فالجواب إن ذلك بوحى من الله وعلم منه سبحانه. وقيل إن ذلك القميص هو القميص الذي ألبسه الله لإبراهيم في النار، وكان من حرير الجنة، والله أعلم، وكان كساه إسحاق، وكان إسحاق كساه يعقوب، وكان يعقوب كساه يوسف عليه السلام⁽⁵⁾ والله أعلم .

(1) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ابن عطية 278/3.

(2) انظر: الهداية في بلوغ النهاية/مكي ابن أبي طالب 3629/5.

(3) صحيح البخاري/ كتاب البيوع / باب بيع العبد الزاني ح 1523، 71/ 2 .

(4) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 254/5

(5) انظر : الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 258/9

قال يهوذا: أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء، وقيل حملة وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً⁽¹⁾ وهذا القميص كان في قسبة من فضة معلقاً في عنق يوسف لما ألقى في الجب، وكان من الجنة والله أعلم⁽²⁾

10- عبير الحنين وتحقيق اليقين واعتراف الإخوة الخاطئين

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾^(١٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ^(١٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ آفَئُهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا قَالَتْ لِمَ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(١٦) قَالُوا إِنَّا بَنَاكَ أَتَيْنَا نَاكِثِينَ^(١٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^(١٨) [يوسف: 94-98]

وينتقل بنا المشهد الآن إلى تحقق اليقين بين يدي يعقوب عليه السلام فقد كان يقينه بالله أن الله سيجمعه بيوسف عليه السلام، حتى أنكر عليه أبناءه ذلك، فلما عادوا إلى أبيهم من عند يوسف عليه السلام وفي طريقهم إلى مكانه قبل الوصول وجد يعقوب ريح يوسف عليه السلام، وكان على مقربة من بيت المقدس، وقيل كان بالجزيرة والأول أصح لأن آثارهم وقبورهم حتى الآن هناك، وروي أن يعقوب وجد ريح يوسف وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أيام، فقد هاجت الريح فحملت عرقه إلى أبيه، وقيل أنه كان بينهما ثمانون فرسخاً، وقد كان فارقه قبل ذلك سبعا وسبعين سنة.⁽³⁾ وكان الذي حمل القميص يهوذا، فقد قال يهوذا ليوسف: أنا الذي حملت القميص إلى يعقوب بدم كذب فأحزنه، وأنا الآن أحمل قميصك إليه لأسره، فحملة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فخرج حافياً حاسراً يعض، وقال يعقوب عليه السلام لمن حضره من أهله وقربته وولد ولده: "(إني لأجد ريح يوسف)" فقد شم يعقوب عليه السلام ريح ابنه، فلو سألنا كيف وجد يعقوب ريحه وهو بمصر؟ ولم يجد ريحه من الجب وبعد خروجه منه، والمسافة هناك أقرب؟

نقول قد يكون الله تعالى قد أخفى أمر يوسف على يعقوب في بداية الأمر لتقع البلية التي يتكامل بها الأجر، وأوجد ريحه من المكان النازح عند تقضي البلاء ومجيء الفرج، وأن هذا القميص كان في قسبة من فضة معلقاً في عنق يوسف، فلما نشره فاحت روائح الجنان في الدنيا فاتصلت بيعقوب، فعلم أن الرائحة من جهة ذلك القميص⁽⁴⁾.

(1) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل/النسفي 133/2

(2) انظر: زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي 470/2

(3) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ابن عطية 278/3.

(4) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل/النسفي 133/2 .

وقيل: إن ریح الصبا استأذنت ربهَا في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل البشير فأذن لها، فلذلك يستروح كل محزون إلى ریح الصبا، ويجد المكروبون لها رَوْحاً، وهي ریح لينة تأتي من ناحية المشرق (1).

عندما وصلت العير حاملة أبناء يوسف عليه السلام وأبناء البشير، قال لهم يعقوب عليه السلام أنه يشم رائحة يوسف، ولكنه أتبعها بكلام آخر فقال للحاضرين معه من أولاده وأحفاده (لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ) أي لولا أن تضعفوا رأيي، والتفنيذ هو تضعيف الرأي أثر الكبر، أو التضليل واللوم والتعجيز والهرم (2).

فقال له الحاضرون: لقد ذهبت عن الصواب بالإفراط في محبة يوسف، وإكثار ذكره والتوقع للاقائه (3) فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره.

وعندما جاء البشير وعلى الأرجح أنه يهوذا الذي قال أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فأنا أذهب إليه اليوم بالقميص فأخبره أن ولده حي فأفرحه كما أحزنته (4).

قال ابن عباس: حمله يهوذا وخرج حافيا حاسرا يعدو حتى أتى أباه، وكانت المسافة ثمانين فرسخا، وألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، فعاد بصيرا بعدما كان عمي وعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن، فقال لهم يعقوب عندها

(لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ) من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا. (5)

وروي أنه قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة (6)

وقالوا يا أبانا استغفر لنا إنا كنا مذنبين، فقال لهم أبوهم سوف أستغفر لكم ربي، وقال أكثر المفسرين: أنه أخر الدعاء إلى السحر، وهو الوقت الذي يبينه لنا الرسول ﷺ في الحديث:

(1) انظر: زاد المسير في علم التفسير/جمال الدين الجوزي/2/470.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن/القرطبي/9/260.

(3) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل/البيضاوي/3/176.

(4) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري/16/259.

(5) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن/البغوي/4/276.

(6) انظر: زاد المسير/جمال الدين الجوزي/4/286.

(ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له). (1)

فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله ﷻ وقال: " اللهم اغفر لي جزعي على يوسف ، وقلة صبري عنه، واغفر لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف "، فأوحى الله تعالى إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين، وعن ابن عباس أنه يستغفر لهم ليلة الجمعة (2) وقيل كان يستغفر لهم كليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل آخر الدعاء إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء (3).

11- تحقق الرؤيا وسجود الأب والأم والإخوة ليوسف ﷺ

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَأَمِينٌ ﴿١١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رِيَّ حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي لَئِنِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: 99-101]

بعث يوسف ﷺ مع البشير إلى يعقوب ﷺ جهازا ومائتي راحلة، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده أجمعين، فتهيأ يعقوب ﷺ للخروج إلى مصر، فلما دنا من مصر، خرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند، وركب أهل مصر معهما، يتلقون يعقوب ﷺ، ويعقوب يمشي ويقود ركابه يهوذا، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس، فقال ليهوذا: هذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ابنك، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمُنِعَ من ذلك، وكان يعقوب ﷺ أحق بذلك منه وأفضل، فابتدأه يعقوب بالسلام وقال: السلام عليك أيها الذهاب بالأحزان عني. (4)

وعانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال يوسف: يا أبتِ بكيت علي حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى بني، ولكن خشيت أن تسلب دينك، فيحال بيني

(1) صحيح البخاري/كتاب التهجد/باب الدعاء والصلاة من آخر الليل 29/3.

(2) انظر : البداية والنهاية/ابن كثير 127/1 .

(3) انظر :معالم التنزيل في تفسير القرآن/البغوي 415/2.

(4) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 258/5.

وبينك⁽¹⁾. كان الموقف كما وصفه قوله ﷺ: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: 99]

ومعنى ادخلوا مصر أي : تمكنوا واسكنوا واستقروا في مصر، أما قوله آمنين : لأنهم فيما سبق كانوا يخافون ملوك مصر ولا يدخلون مصر لأنهم لا جواز لهم بذلك، فأمنهم يوسف ﷺ أو قصد آمنين مما كنتم فيه في باديتكم من الجذب والقحط⁽²⁾ أو لأن المصر كان أهله أهل كفر؛ فكأنهم خافوا الملك الذي كان فيه؛ فذكر لهم الأمن لذلك. والله أعلم.⁽³⁾

وآوى يوسف ﷺ إليه أبويه، أي ضم إليه أبويه، وقال أكثر المفسرين: إنهما أبوه وخالته ليا، لأن أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين⁽⁴⁾ وتزوج يعقوب بعدها أختها ليا فسمى القرآن الخالة أما، مثلما سمي العم أباً.

وفي بعض التفاسير أن الله ﷻ أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر⁽⁵⁾ والظاهر أنه لم يثبت ذلك، ولو ثبت مثله لاشتهر.

ثم رفع يوسف ﷺ أبويه على العرش والمقصود على السرير المنصوب للعرش، بمعنى أجلسهما عليه، وخرروا ليوسف ﷺ سجدا يعقوب ﷺ وخالته وإخوته، حيث كانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض، لأن ذلك لا يجوز إلا لله تعالى، وإنما سجود التحية هو الانحناء والتواضع على طريق التحية والتعظيم والتسليم لا على جهة العبادة والصلاة⁽⁶⁾.

وكان جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الناشئة في التعظيم والتوقير، والسجود له كان قبل الصعود على السرير، في أول الملاقاة لان ذلك هو وقت التحية، إلا انه قدم لفظا للاهتمام بتعظيمه⁽⁷⁾.

وقيل إنهم سجدوا لله شكرا له على ما أنعم به عليهم من الاجتماع مع يوسف ﷺ على الحال السارة بعد كل الأحداث المريرة وسنين الفرقة، وأرادوا بذلك التعظيم ليوسف ﷺ فأضاف

(1) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/الزمخشري 505/2.

(2) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن/الطبري 276/16 .

(3) انظر : تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 289/6.

(4) انظر : الدر المنثور/السيوطي 587/4.

(5) انظر : البحر المحيط/ابن حيان 347/5.

(6) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 556/2.

(7) انظر : روح البيان/إسماعيل الخلوئي 220/4.

السجود إلى يوسف مجازاً ، فعندها قال يوسف هذا تأويل رؤياي من قبل، يعني سجود الشمس والقمر والكواكب، فكان السجود في الرؤيا هو السجود في اليقظة وكان الشمس والقمر والكواكب أبويه وإخوته.⁽¹⁾ عند هذا المشهد اقتشعر جلد يوسف وقال (**يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**) يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حق .

وقوله تعالى : (**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ**) دل رفع أبويه على العرش على أن اتخاذ العرش والجلوس عليه لا بأس به؛ إذ لو كان لا يحل أو لا يباح ذلك؛ لكان يوسف لم يتخذه؛ ولا كان يعقوب جلس عليه، فدل ذلك منهما أنه مباح لا بأس به⁽²⁾ والله أعلم.

وقد اختلفوا في مدة غيبة يوسف عن يعقوب عليهما السلام، فقيل مائتان وعشرون سنة، وقيل أربعون سنة، وقيل سبعون سنة، وقيل ألقى يوسف عليه السلام في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد لقائه بيعقوب ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ابن عشرين ومائة سنة والله أعلم، وولد ليوسف عليه السلام من امرأة العزيز: افرايم وميشا ورحمة امرأة أيوب، وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة والله أعلم .⁽³⁾

وقد أحسن يوسف عليه السلام إلى إخوته حتى في انتقاء كلماته بعد العفو والصفح عليهم، فقد قال عليه السلام " (**أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ**) ولم يقل من الجب، استعمالاً للكرم لئلا يُذَكَّرَ إخوته صنيعهم حين ألقوه في الجب، وقيل : لأن نعمة الله عليه في النجاة من السجن أكبر من نعمته عليه في إنقاذه من الجب، وذلك أن وقوعه في البئر كان لحسد إخوته، ووقوعه في السجن مكافأة من الله لزلّة كانت منه.⁽⁴⁾

وقال عليه السلام أن إحسان الله إليه في مجيء بني يعقوب من البدو، أي قدومهم إليه معافين سالمين من البادية، والبادية هي أرض كنعان حيث كان يعقوب وبنوه أهل بادية ومواشي.

وقد تجلت صفاته الكريمة وأدبه الرفيع أكثر وأكثر حين قال تعالى:

﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ**

(1) انظر : أحكام القرآن/الجصاص 395/4.

(2) انظر : تأويلات أهل السنة/الماتريدي 289/6 .

(3) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 260/5.

(4) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 55/7.

أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾ [يوسف]

حيث نسب ما صدر من إخوته إلى الشيطان، ولم ينسبه إلى حسدهم وحقدهم عليه، فقال ﷺ اجتمعنا بعدما أفسد وألقى الشيطان بيني وبين إخوتي، إن ربي لطيف لما يشاء من الفرقة والجماعة، ذو لطفٍ وصنعٍ لما يشاء عالم بدقائق الأمور وحقائقها، إنه هو العليم الحكيم، اللطيف في فعالة، إن يشأ فرق، وإن يشأ جمع إنه هو العليم بما صنعوا، الحكيم إذ رد عليّ أبي، وجمع بيني وبين إخوتي (1).

حين خرج يعقوب إلى يوسف بمصر كان في اثنين وسبعين من ولده وولد ولده، فخرجوا منها مع موسى وهم ستمائة ألف (2)

وقال أهل التاريخ : أقام يعقوب بمصر بعد موافاته بأهله أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال وأهنأ عيش، ثم مات بمصر، ولما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر (3).

نقله يوسف ﷺ في تابوت من ساج إلى بيت المقدس ، ووافق ذلك يوم مات عيص وهو أخ يعقوب، فقد وُلد يعقوب وعيص لإسحاق ﷺ في بطن واحد ودفنهما يوسف ﷺ في قبر واحد، وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعة وأربعين سنة والله أعلم، ولذلك تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس أسوة بهم (4).

قالوا : فلما جمع الله ليوسف شمله وأقر له عينه وأتم له رؤياه، وكان موسعا له في ملك الدنيا ونعيمها علم أن ذلك لا يدوم له وأن لا بد له من فراقه، فأراد نعيماً هو أدوم منه، فاشتاقت نفسه إلى الجنة فتمنى الموت ودعا ربه، ولم يتمن نبي قبله ولا بعده الموت فقال:

(1) انظر : بحر العلوم/السمرقندي/211/2.

(2) انظر : تفسير القرآن العظيم/ابن أبي حاتم 2201/7.

(3) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل/الخازن 556/2.

(4) انظر : الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 268/9.

" رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تعبير الرؤيا، فاطر السماوات والأرض وخالقها وبارئها، أنت وليي ومعيني في الدنيا والآخرة تتولى أمري توفي، واقبضني إليك مسلما وألحقني بالصالحين بأبائي النبيين (1) ."

وكل ما حدث في قصة يوسف عليه السلام، وخاصة ذنب إخوته وتحويله على مكائد الشيطان، وشكره الله تعالى على ما خوله من الملك، ودعائه وسؤاله حسن الخاتمة، وجميل العاقبة، وطلب السعادة، والشهادة، وتعبير الكفار على الإعراض عن الحجة إشارات إلى أن في قصته عليه السلام عبرة للعالمين (2) كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ [يوسف: 111]

وبذلك صفح يوسف عليه السلام لإخوته ماصدر منهم رغم حجه ولم يكن ذلك إلا بسماح من الله رب العالمين الذي يغفر ويعفو عن المسيئين المخطئين إذا تابوا وأبوا وأصلحوا، فقد قيل أن عدد ذنوب إخوة يوسف من أول القصة إلى آخرها في السورة نيفا وأربعين ذنبا صفح الله عنها وغفرها لهم، ولم يغفر لإبليس الرجيم ذنبا واحدا، رغم عبادته منت قبل الله ، فأحبط الله جميع حسناته وقرباته وسائر أعماله في طول مدته وأخذها الله بذنب واحد، لأنه حسد آدم فاستكبر واستعلى على الله (3)

(1) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن/الثعلبي 260/5.

(2) انظر: بصائر ذوى التمييز/الفيروز آبادي 257.

(3) انظر: حز الغلاصم في إفحام المخاصم/ابن الحاج القناوي 123.

المطلب الثاني

علاقة الأخوة أصحاب الجنة بين الخطيئة والتوبة

هذا نموذج آخر من نماذج العلاقات الأسرية الأخوية التي يوردها لنا القرآن العظيم من نماذج العلاقات الأسرية بين الخطيئة والتوبة، فهؤلاء الإخوة هم أبناء لرجل صالح ولكنهم لم يتأثروا بأبيهم الخير، الذي كان يعرف حق ربه فيما أعطاه من نعم، ولم يحتذوا حذوه بعد موته، وكانوا يروا الصلاح من أفعال أبيهم ما هو إلا طيبة وحمافة، ورغم تباين تأثرهم بالصلاح من أبيهم من أخ إلى آخر، إلا أنه غلب شرهم على خيرهم، فنالوا جزاءهم في الدنيا، وأدركوا نتيجة خطأهم واعترفوا به في ندم وتوبة.

فمن قصة هؤلاء الإخوة سنسلط الضوء على العلاقة بينهم من خلال النقاط التالية:

1- الإخوة أصحاب الجنة كانوا عبرة لكفار قريش

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَتَوْا بِصِرْمِنَها

مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ [القلم: 17] لو سألنا من الذين ابتلاهم الله سبحانه وتعالى والمشار إليهم في الآية الكريمة؟ وبماذا ابتلاهم؟ وما وجه الشبه بينهم وبين أصحاب الجنة؟

إنهم كفار قريش، حيث كان موقفهم من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ومن الخير الذي يبسط به يده الكريمة إليهم من هداية وتوحيد ومعرفة للحق، إنما هو موقف متفق تمام الاتفاق مع موقف أصحاب الجنة، أولئك الإخوة الذين ورثوا عن أبيهم بستان عظيم فجددوا حق الله فيه، وكذلك كان مشركو قريش، بين أيديهم هذا الخير الذي أعطاهم الله إياه وهو الرسول الكريم، ولكنهم كانوا ما بين مغالين ومقتصدين، ثم إن المغالين منهم قد غلبوا المقتصدين، فكانوا جميعاً في هذا الموقف المنحرف من الخير الذي يدعوهم إليه الرسول الكريم سواء (1).

فابتلاهم الله بالشر بعد جحودهم لنعمة الخير، فامتنعهم بالقحط والجوع، حتى أكلوا الجيف، بسبب كفرهم بأنعم الله، وتكذيبهم لرسوله محمد، تماماً كما ابتلى من قبلهم أصحاب الجنة، بأن دمرها تدميراً، بسبب بخلهم وامتناعهم عن أداء حق الله منها (2).

ويبدو أن قصة أصحاب الجنة، كانت معروفة لأهل مكة، ولذا ضرب الله تعالى المثل بها حتى يعتبروا ويتعظوا، ووجه المشابهة بين حال أهل مكة، وحال أصحاب الجنة، يتمثل في أن كلا الطرفين قد منحه الله تعالى نعمة عظيمة، ولكنه قابلها بالجحود وعدم الشكر، فكانت نعمة

(1) التفسير القرآني للقرآن/عبد الكريم الخطيب 1102/15 بتصرف

(2) التفسير الوسيط للقرآن الكريم/ طنطاوي 47/15 بتصرف .

المال والبنين من أسباب بطر مشرقي قريش وطغيانهم وعدم هداهم، فساق القرآن الكريم قصة أصحاب الجنة، لتكون موعظة وعبرة لكل عاقل لعلمهم يرشدون، فأصحاب الجنة قد أنعم الله عليهم ببستانٍ، كثيف الأشجار ملتف الأغصان وافر الثمر، فأجمعوا على أن يحرموا الفقراء من هذا الخير العظيم فكانت النتيجة أن حرّموه هم أنفسهم لإنكارهم حق الله في أنعمه، فندموا وتابوا إلى الله، وكفار مكة أمدهم الله بالمال والولد والجاه والسيادة فلم يشكروا نعم الله عليهم بل كفروا بها بتكذيبهم الرسول، وإنكارهم التوحيد، وضلوا في أول الأمر الجنة السماوية التي بين أيديهم والمتمثلة برسول الهدى، وحرّموا زمناً من ثمرها الطيب المبارك، فقد كثر كفرهم عن أنبيائه، وانبروا يكيدون للإسلام وأهله كيّداً يزلزل الجبال، حين رأوا في هذا الدين خطراً على ما هم فيه من عقائد فاسدة، وأحوال كاسدة، وعادات بالية، وأوضاع اجتماعية مزرية، ورفضوا سيادتهم على رقاب المستضعفين، وامتصوا دماءهم، وقادوهم إلى حيث يريدون فحرموهم من الاتصال بجنة الهدى والإيمان على يد رسوله، ثم رجعوا بعد ذلك كله إلى الله نادمين مستغفرين، بعد أن مسهم بعض العذاب في الدنيا، عندما أصيبوا في بدر وغيرها، وبعد أن مات من مات منهم على شركه وكفره، وهكذا تجري أحداث قصة أصحاب الجنة خطوة خطوة، مع مسيرة المشركين، وموقفهم من جنة الحق وهي بين أيديهم (1).

إن قصة الإخوة أصحاب الجنة ليست من وحي الخيال، جاء بها القرآن فاخترق شخصياتها، ورتب أحداثها، وأجرى الحوار بين المشاركين فيها فقط إبرازاً لمعنى من المعاني، أو ضرباً لمثل من الأمثال، دون أن يكون لذلك وجود واقعي في الحياة، بل إنما يعبر القرآن عن واقع حيّ ملموس، ويذكر تاريخاً لأناس حدث منهم ذلك، لذا لم يُعنى القرآن بالأشخاص ولا المكان ولا الزمان، ولكن أراد من عرض قصة الإخوة موضع الحكمة فقط، فمعرفة الأسماء أو الزمان أو المكان لا يغير من الحقيقة شيئاً، فللقصة ما وراءها، وهو أن يعلم المشركون من أهل مكة وينظروا ماذا وراء الابتلاء، ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذابها فعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون، فقصة الإخوة أصحاب الجنة قصة من واقع البيئة يربطها الله سبحانه وتعالى بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين (2).

2- الإخوة أصحاب الجنة لم ينتهجوا نهج أبيهم في أداء حق الله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْمَتِهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾

[القلم: 17-18] أصحاب الجنة هم إخوة ورثوا هذه الجنة عن أبيهم وكان أبوهم رجلاً

(1) انظر : التفسير القرآني للقرآن/عبد الكريم الخطيب 1102/15.

(2) انظر : التفسير الموضوعي 2/مناهج جامعة المدينة العالمية 290/1

صالحاً، حدد أهل الاختصاص مكان هذه الجنة وحددوا صاحبها، فقالوا : إنه من أهل اليمن من صوران صنعاء، وقيل من أهل الحبشة، كما حددوا زمانه فقالوا : إنه كان بعد رفع عيسى عليه السلام والله أعلم⁽¹⁾.

وذكر بعض السلف : أن صوران، وقيل عنه اضروان هي قرية على فراسخ من صنعاء اليمن تقدر بستة أميال، وكان صاحب الجنة وأبناؤه من أهل الكتاب⁽²⁾. وقيل هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين، ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنان وزروع ونخيل، وكان أبوهم يجعل مما فيها حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام من كل شيء، فقال بنوه : المال قليل، والعيال كثير، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا⁽³⁾.

وقيل كان يتصدق، فكان بنوه ينهونه عن الصدقة، وكان يمسك قوت سنته، وينفق ويتصدق بالفضل⁽⁴⁾، وجاء أيضاً أنه كان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل، وما كان في أسفلاً لأكداس، وما أخطأه القطاف من العنب وما خرج عن البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت، فكان يجتمع من ذلك شيء كثير⁽⁵⁾.

وقصة الإخوة أصحاب البستان تتلخص في أنه كان هناك رجل صالح يخاف الله، ويعطي حقوق المساكين، ويعلن عن يوم الجني، ليحضر كل مستحق فيأخذ من خير الله ما يستحق، ثم توفي هذا الرجل وخلفه أولاده على البستان وكانوا كثرة، فلما قرب جني الثمار، انفقوا فيما بينهم أنهم لن يفعلوا كما كان أبوهم يفعل مع المساكين، وقالوا عن أبيهم : إنه كان رجلاً طيباً، أو كما قيل قالوا عنه أحق، وكان فرداً واحداً وتبعاته قليلة، أما نحن فجماعة ولنا أولاد، وبأي شيء يستحق المساكين في البستان؟ ونحن الذين قمنا بالحرث والزرع والتسميد. لا. لا. لن نعطي أحداً⁽⁶⁾، وعلى هذا اجتمعوا.

وهكذا جحدوا حق الله واعتبروا أن هذه النعمة لهم وليس لأحد حق فيها، ونسوا أن فعلهم هذا من فعل الشيطان، لأنه هو الذي يعد الإنسان بالفقر ويأمره بالفحشاء والمنكر بينما الله سبحانه وتعالى يأمر بالعدل والإحسان ويعد بالمغفرة والفضل.

(1) انظر : التفسير البياني للقرآن الكريم/بينت الشاطي 63/2.

(2) انظر : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/للجزائري 727/5.

(3) انظر : الوسيط في تفسير القرآن/المجيد النيسابوري 338/4.

(4) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 54/23.

(5) معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 207/5.

(6) التفسير الواضح/محمد محمود حجازي 727/3 بتصرف.

ويضرب الله سبحانه وتعالى هذه القصة لكفار قريش ليخبرهم أن هذا ابتلاء لهم، والابتلاء من البلوى التي تطلق على الاختبار والامتحان وقد يكون الابتلاء بالخير وقد يكون بالبشر⁽¹⁾ ويدل على ذلك قوله ﷺ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35] وأيضاً قوله ﷺ: ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168]

كان الإخوة مصرين على حرمان الفقراء فقد أقسموا على ذلك ولم يستثنوا حيث يقول الله تعالى: (إِذْ أَقْسَمُوا لِبَصْرِيئِهِمْ لَبِئْسَ مَا مَجِئَ بِهِمُ الْبَصْرُ) ففي القسم تأكيد وإصرار على حرمان الفقراء مما اعتادوا أخذه في حياة الأب الصالح، وعزم على منع الناس مما كان يعطيه هذا الرجل الصالح لمن يحضر الجداد من فقراء ومساكين، كما وافق الإخوة على أن يكون ذلك في الصباح الباكر، والصرم هو القطع والجز، فيقال: صرم فلان زرعه أي جزه وقطعه، ومنه قولهم: انصرم حبل المودة بين فلان وفلان، إذا انقطع.⁽²⁾

وَعُغِفَتْ قلوبهم فلم يستثنوا، ويقول الزجاج⁽³⁾ في معنى يستثنون: "أي حلفوا ولم يقولوا إن شاء الله"، فلما كان الوقت الذي تواعدوا فيه غدوا إلى جنتهم ليصرموها.⁽⁴⁾

والاستثناء تنزيه لله عن الشرك وسائر النقائص ومنها العجز لأن الذي يقول أفعل ولم يستثن أعطى لنفسه قدرة كقدرة الله الذي إذا قال أفعل فعل، ولا يعجز فهو هنا أشرك نفسه في صفة من صفات الله تعالى، فلذا كان الاستثناء تسيحاً لله وتنزيهاً له عن المشاركة في صفاته وأفعاله. وأما عن مشروعية الاستثناء في اليمين، ان من تركه يوقع في الإثم ولذا إذا حنث الحالف ولم يستثن، تلوثت نفسه بإثم كبير لا يُمحي إلا بالكفارة الشرعية التي حددها الشارع وهي إطعام أو كسوة عشرة مساكين أو عتق رقبة، فإن لم يقدر على واحدة من هذه الأنواع صام ثلاثة أيام ليمحي ذلك الذنب من نفسه.⁽⁵⁾

(1) انظر : تفسير القرآن العظيم/ابن كثير 223/8 بتصرف.

(2) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم/محمد سيد طنطاوي 43/15 بتصرف.

(3) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد سنة 241هـ ومات في بغداد سنة 855هـ، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد. وكان مؤدباً لابن وزير المعتضد العباسي "القاسم"، فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه، فجعله القاسم من كتابه، فأصاب في أيامه ثروة كبيرة. وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره.

(4) معاني القرآن وإعرابه/الزجاج 207/5.

(5) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/للجزائري 727/5 بتصرف

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَنْشَأُونَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: 29] وذهب بعض المفسرين إلى معنى ثاني لقوله تعالى: (وَلَا يَسْتَنْوُونَ) فقالوا: أي لا يستنون حق المساكين في الجنة، وإن كان أكثر المفسرين أنها بمعنى أنهم لم يقولوا بإنشاء الله (1).

3- احتياطات أخوية عالية لحرمان الفقراء من حقهم المعلوم

يقول الله تعالى في معرض حديثه عن الإخوة أصحاب الجنة في هذا الشأن: ﴿ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَعِدُوا عَلَيْنَا حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَيْنَا حَرِّ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القلم: 21-25]

أصر الإخوة على تنفيذ اتفاقهم الباطل واتخذوا الوسائل المناسبة لتحقيق الهدف المرجو لهم، ولننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون، فهاهم أولاء يصحون مبكرين كما دبروا، وينادي بعضهم بعضاً لينفذوا ما اعتزموا ويذكر بعضهم بعضاً ويوصي بعضهم بعضاً، ويحمس بعضهم بعضاً! ثم يمضي السياق في السخرية منهم، فيصورهم منطلقين، يتحدثون في خفوت، زيادة في إحكام التدبير، ليجنوا الثمر كله لهم، ويحرموا منه المساكين، وظنوا بأنفسهم أنهم قادرون على المنع والحرمان (2)، حرمان الفقراء والمساكين ولم يكونوا يعلموا أنهم إنما يحرمون أنفسهم وهم لا يشعرون، ثم تأخذهم المفاجأة التي لم يعملوا لها حساب حتى ظنوا أن هذه ليست جنتهم وأنهم ضلوا الطريق إليها، أما المفاجأة التي كانت تنتظرهم وكانت جزاءً وفاقاً من الله، أن الجنة قد أحرقت وثركت الأشجار سوداء دون ثمار، وهم مازالوا بأصوات مخفوضة غير رفيعة حتى لا يُسمع ما كانوا به يتشاورون كانوا يدعون بعضهم بعضاً، وهم إخوة كثر وكان ذلك في أول الصباح، وفعلاه بحذر شديد ليقطفوا غلة جنتهم دون أن يشعر بهم أحداً، ومن روعة ألفاظ القرآن المناسبة والمصورة للموقف قوله تعالى (وَعَدُوا عَلَيْنَا حَرِّ قَادِرِينَ) أي أنهم انطلقوا صباحاً على قصد تام أنهم قادرون على أن لا يدخلنها اليوم عليهم مسكين بل ويحصدوا الثمار ويحملونها إلى مخازنهم ولا يشعر بهم أحد من الفقراء والمساكين.

والحرد: يطلق على المنع وعلى القصد القوي والغضب أيضاً (3) فيقال: حاربت السنة إذا قل مطرها ومنعت ريعها، وحاربت الناقة إذا منعت لبنها فقل اللبن، وكان في ظنهم أنهم

(1) زاد المسير في علم التفسير/أبو الفرج الجوزي 322/4 بتصرف

(2) انظر : في ظلال القرآن/الشهيد سيد قطب 3666/6.

(3) التفسير الواضح/محمد محمود الحجازي 727/3 بتصرف.

قادرون على منع المساكين. وقيل: الحرد القصد والسرعة، فناسب هذا حالهم ، وهم قاصدون إلى جنتهم بسرعة ونشاط يقولون: نحن نقدر على صرامها، ومنع منفعتها عن المساكين⁽¹⁾.

4- "إن ربك لبالمرصاد" ثم يرى الإخوة ما ظلموا .

ونتابع أحداث هذه القصة وما حدث للجنة كما أوردها الله سبحانه وتعالى في كتابه

العزير: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتِ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم: 19-20] ثم يصور لنا القرآن العظيم ردة فعل الإخوة أصحاب الجنة بعد هذه المفاجأة فيقول الله تعالى في مجريات

القصة : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٣٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القلم: 26-27]

ظل الإخوة أصحاب الجنة في غفلتهم أو في كيدهم الذي بيئوه، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، مكروا وكان مكر الله أشد وأدهى، فإذا بشيء يجري من ورائهم في بهمة الليل وهم لا يشعرون، فإن الله لا ينام كما ينامون، وهو يدبر لهم غير ما يدبرون، جزاء على ما بيئوا من بطر بالنعمة ومنع للخير، وبخل بنصيب المساكين المعلوم، وكانت المفاجأة لهم التي تمت في خفية، وحركة لطيفة كحركة الأشباح في الظلام، والناس نيام فإذا بالجنة كالصريم⁽²⁾ أي كالليل الأسود الشديد الظلمة والسواد.

لم يتصوروا ذلك فظنوا أنهم مخطئوا الطريق، وأن هذا ليس طريق جنتهم، وهذه الجنة

ليست لهم فقالوا (إِنَّا لَضَالُونَ) ومن المفسرين من فسر الضلال الذي نسبه الإخوة إلى أنفسهم ضلال تيه وخطأ للمكان، واستبعد تفسيره بأنه ضلال دين وعقيدة.

فقد قال الجزائري⁽³⁾ صاحب تفسير أيسر التفاسير: "ولا داعي إلى تفسير الضالون بالضلال الذي هو خروج عن طاعة الله تعالى، بل المراد من الضلال، عدم اهتدائهم إلى جنتهم بأن ضلوا طريقها." ⁽⁴⁾ والحقيقة أن المعنى يحتمل ذلك لأن الإخوة بمجرد أن أدركوا ما حدث لجنتهم عرفوا أن هذا نتيجة ضلالهم ونتيجة خروجهم عن طاعة الله وجحودهم حق المساكين والفقراء في نعمة الله عليهم وفي ذلك إنكار لنعمة الله أصلاً، وفي ذلك الضلال البين، وكلمة بل نحن محرومون

(1) انظر : مفاتيح الغيب التفسير الكبير/الرازي/610/30 .

(2) في ظلال القرآن/الشهيد سيد قطب 6/3666 بتصرف.

(3) أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي: فاضل، مالكي، من قبيلة زواوة. ولد سنة 800 هـ وكانت إقامته بالجزائر، وله (اللامية) في علم الكلام، تسمى (الجزائرية في العقائد الإيمانية) في الأزهرية، شرحها الإمام

السنوسي توفي سنة 884 هـ. انظر الأعلام للزركلي 1/160

(4) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/الجزائري/5/413

تؤكد الذهاب إلى معنى الضلالة في البعد عن الدين ومعصية الله ﷻ مما جعل الله يحرمهم نعمته.

ثم حين تأكدوا أنها هي جنتهم ولم يضلوا الطريق، ولكنها احترقت ليلاً، أضربوا عن قولهم الأول إنا لضالون وقالوا (بَلْ عَنَّا مَحْرُومُونَ) حرماناً من الله منها، لعزمنا على منع المساكين من خيرها، وقد كان والدنا يمنحهم منها ويعطيهم شكراً لله وأداءً لحقه⁽¹⁾.

ولو سألنا من المحروم؟ وخاصة أنه روي عن الشعبي⁽²⁾ قوله: "أعياني أن أعرف ما المحروم"⁽³⁾ فقيل المحروم: هو الذي لا يبقى له مال، وقيل: هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته أو هو الذي أصابته الجائحة⁽⁴⁾.

ولكني أرى أن المحروم لا هذا ولا ذلك؟ إنما المحروم من أعطاه الله نعمة، أي نعمة كانت ثم حرم الناس منها، لأنه بذلك يحرم نفسه من الخير الكثير جزاء له على ما قدم وأعطى وعرف حق ربه في النعمة.

وبذلك اعترف الإخوة بأنهم ضلوا حين منعوا حقوق المساكين وغفلوا عن قدرة الله الكبير، وذهبوا إلى أبعد من هذا حين أيقنوا أنهم لم يحرموا بفعلهم المساكين لأن الله هو الرزاق المتين بيده رزق العباد، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَاخِرَةٌ فِي الْأَرْضِ الْآلَاءُ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 6]

وأيقن بذلك الإخوة أنهم هم المحرومون من التوفيق والهداية، حيث خرجوا عن أمر ربهم. وقسوا على عباده وخلقه⁽⁵⁾.

5- كان زمام أمر الإخوة أصحاب الجنة بيد الأكثرية الظالمة منهم

يقول الله تعالى في وصف مجريات الحدث: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْقُوا أَعْلَامَهُمْ فَبَدَّلَ بَيْنَهُمْ هَيْئًا فَاتَّبَعَتْ هَيْئًا رِزْقَهُمْ فَوَسَّخْنَا أَرْضًا فَسَاءَ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِزْقًا لِّمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 31]

﴿سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ﴾ [٣١] فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَبَدِّلَنَا

خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٣﴾ كَذٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ [القلم: 28-33]

(1) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/الجزائري 413/5 بتصرف.

(2) عبد الرحمن بن قاسم الشعبي، أبو المطرف: قاضي مالقة (بالأندلس) كانت تدور عليه الفتيا بقطرة أيام حياته. وكان يذهب إلى الاجتهاد. له (مجموع) في الأحكام، ومات سنة 499 هـ.

(3) جامع البيان في تأويل القرآن/ابن جرير الطبري 616/23 بتصرف.

(4) الجامع لأحكام القرآن/القرطبي 39/17 بتصرف.

(5) التفسير الواضح/محمد محمود حجازي 727/3 بتصرف.

يدل قوله تعالى: (إِذْ أَقْسَمُوا لَبَصَرِئُهَا مُصْبِحِينَ) أن معظمهم أخذوا هذا القرار الباطل، فالضمير في أَقْسَمُوا يعود على معظمهم باستثناء أحدهم تدل عليه الآيات بعدها، أن أوسطهم قد نهاهم عما اعتزموه من حرمان المساكين، ومن مخالفة ما يأمرهم شرع الله تعالى به⁽¹⁾ وذلك في قوله تعالى (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأْمُ لَكَؤُلَا لَاسِيْحُونَ) فيبدو أن هذا الأخ الذي وصفه القرآن أنه أوسطهم كان له رأي غير رأيهم، ولكنه تابعهم عندما خالفوه، ولم يصر على الحق الذي رآه فناله الحرمان كما نالهم، ثم يُذَكِّرهم حين أَلَمَت المصيبة بهم ما كان منه من نصحٍ وتوجيه بقوله لهم : (أَلْزَأْمُ لَكَؤُلَا لَاسِيْحُونَ) فعندها قالوا: (سَبَحْنَ رَبَّنَا إِنَّا كَانَّا لَمَلِيْحِينَ) ويعلق الشهيد الإمام سيد قطب⁽²⁾ على موقفهم هذا المنكسر الذليل فيقول " أو الآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان " وكطبيعة البشر يتصل كل شريك من التبعة عند ما تسوء العاقبة، ويتوجه باللوم إلى الآخرين، وها هم أولاء يصنعون⁽³⁾، فلو سار الأمر كما اتفقوا ما وجدنا أي منهم يتذكر نصيحة معارضة للنتائج الحاصل قدمها من قبل أح دلهم، بل نتوقع العكس، كأن يقول من قاده السوء لمن قدم النصيحة " رأيت، الحمد لله أنا لم نستمع إليك وإلا ما جنينا ما ترى " في أسلوب يحمل التهكم والسخرية من نصيحة الحق، هكذا هو حال الواقع..

ونرى استخدام القرآن الكريم لفظة أوسطهم واصفاً بها الذي ذكّرهم بالله من قبل، فماذا تحمل هذه اللفظة من صفة لقاتلها ؟

فسر النبي ﷺ الوسط بالعدل، فقال ﷺ: "والوسط العدل " ⁽⁴⁾ ويقول ابن عباس (أي أعدلهم وخيرهم⁽⁵⁾) وبعض أهل العلم أنه أوسطهم عقلاً، وأرجحهم رأياً، وأخيرهم تقوى⁽⁶⁾ ولكنه للأسف كان أضعف من أن يؤثر فيهم أو على الأقل كان عليه أن ينسحب ولا يشاركهم سوءهم.

(1) التفسير الوسيط للقرآن الكريم/محمد سيد طنطاوي 43/15

(2) سيد قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط سنة 1906م. تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة) وعمل في جريدة الأهرام. وأوفد في بعثة لدراسة (برامج التعليم) في أميركا، ولما عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الإنجليز، وطالب ببرامج تنمشى والفكرة الإسلامية. انضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها، ثم أعدمه جمال عبد الناصر سنة 1967م

(3) في ظلال القرآن/الشهيد سيد قطب 3666/6 بتصريف

(4) صحيح البخاري/كتاب التفسير، باب {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} 172/8، ح 4487.

(5) تفسير القرآن العظيم/ابن كثير 223/8 بتصريف .

(6) انظر : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/أبو بكر الجزائري 413/5.

قال لهم هذا الأخ الأوسط بعد ما حُرِّقَتْ جنتهم : ألم أقل لكم عندما عزمتم على منع المساكين هلا تسبحون الله وتستثنون عندما قلتهم لنصرمتها مصبحين؟ ألم أقل لكم هلا تنزهون الله فتطيعوا أمره؟ ولا تظنوا فيه العجز على الرزق والإعطاء ومعاقبة العاصي المتكبر؟.

فلما ذكَّروهم ذلك قالوا (سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) فتأبوا بهذا الاعتراف والله أعلم (1) وبعد ذلك ما كان منهم إلا أن دخلوا في عتاب لبعضهم البعض فيقول الله تعالى (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ) أي يلوم بعضهم بعضاً تتدماً وتحسراً على خطأهم في عزمهم على حرمان المساكين وعلى عدم الاستثناء في اليمين .

ويقول الإمام سيد قطب واصفاً لحالهم بعد ذلك: ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة أمام العقاب الرديئة، راجين أن يغفر الله لهم، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير(2)، فقالوا : يا ويلنا، إنا كنا طاغين وخارجين عن حدود العقل والشرع والسنن الإلهية غفلة منا وجهلاً بأنفسنا وبما يعاقب الله به أمثالنا (3) ثم ندموا وقالوا بعد أن رجعوا إلى أنفسهم باللوم وإلى الله بالتوبة راجين ربهم ولم ييأسوا من رحمته فقالوا عسى ربنا أن يبدلنا خيراً من تلك الجنة التي أبيدت، إنا إلى الله وحده راغبون ومتجهون، وللعلامة محمد متولي لشعراوي كلام جميل في ذلك فيقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى على لسان الإخوة حين تابوا إلى الله (إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ) يقول: أي راغبون في الطريق الموصل إليه تعالى، فقبل أن تقول: أنا راغب في الله، لا بد أن تكون أنت راغب إلى الله، فالمسألة ليست حب فقط بل حبيثمن وسعي وعمل يوصلك إلى ما تحب. (4)

ثم تنتهي قصة هؤلاء الإخوة بإنذار عام لا بد أن يعقله كل الناس ويقصد كفار مكة حينها

بوجه خاص فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَلِكَ الْمَثَبُ لِمَنْ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: 33] فكما عذبنا هؤلاء وأنزلنا بهم العقاب، كذلك نعذب قريشاً وننزله بهم.

وروي في التفسير: أن الله تعالى أنزل العذاب بهم يوم بدر، فإنهم لما خرجوا إلى بدر قالوا: لنقتلنهم ولنقتلن محمداً ولنأسرنهم، ونرجع إلى مكة فنطوف بالبيت ونحلق رعويسنا، ونشرب الخمر، وتعزف على رعويسنا القيان، وحلفوا على ذلك، فأخلف الله ظنهم ونزل بهم ما نزل من القتل والأسر. (5)

(1) انظر : التفسير الواضح/الحجازي، محمد محمود727/3.

(2) في ظلال القرآن/الشهيد سيد قطب 6/3666 بتصرف.

(3) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/أبو بكر الجزائري 5/413 بتصرف.

(4) الخواطر/محمد متولي الشعراوي 15/9102.

(5) انظر : تفسير القرآن/السمعاني 6/26.

فإن الله ابتلى الإخوة أصحاب الجنة بالنعمة ثم بسلبها فتأبوا، فليعلم المشركون من أهل مكة كيف يكون الابتلاء بالنعمة، فهذا هو العذاب العاجل الذي يرسله الله على الطغاة المتجبرين والكفار والمشركين، تماماً كهذا العذاب الذي أرسل في لحظة واحدة على أصحاب الجنة فأهلك الحرث والنسل، وعليهم أن ينظروا ماذا وراء الابتلاء، ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذابها، ألا إنه عذاب الآخرة، فيا أيها الناس إياكم والغرور، وإياكم ومخالفة أمر الله⁽¹⁾.
وليس العبرة من الآيات لأهل مكة فقط، إنما لكل من لا يعطي حق الله فيما تنعم عليه.

(1) انظر : التفسير الواضح/الحجازي، محمد 727/3.

نتائج ومعلومات بحثية

1. قرب الإخوة لبعضهم بعضا

الإخوة الأشقاء من أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ اقرب إلى بعضهم بعضا من الإخوة لأبٍ أو لأمٍ، وهذا ما أقره القرآن في قصة يوسف عليه السلام، ومن المؤكد أن العامل في ذلك هو الأم لأنها عامل مشترك، وما لها من تأثير طبيعي في العاطفة الواحدة، فانبعثت نفس الموجات العاطفية ذات التردد الواحد في الحب والمودة يؤدي إلى الاتحاد والانسجام النفسي العاطفي، فيحدث التقارب والتآلف للأشقاء دون الإخوة لأبٍ وهذا طبعاً في الغالب، ولكل قاعدة شواذها.

2. الحذر الشديد

لا تستبعد أبداً أن يكون من يؤذوك ويعادوك هم من يدانوك، فها هم إخوة يوسف هم من كادوا له ودبروا لإبعاده عن أبيهم حتى لو بقتله.

3. مكارم الأخلاق لها ثقل في الميزان

ما أجمل أن نتصف بالحلم والصفح الجميل وسعة الصدر والصبر على البلاء، فإن يوسف عليه السلام بعد أن مكّنه الله وجعله على خزائن الأرض، واجتمع بإخوته لم ينتقم لنفسه، بل صفح عن الزلة، وعفا مع القدرة على العقاب، واكتفى لهم بالإشارة والإشعار بأدب بما سبق من سوء صنيعهم معه ومع أخيه.

4. الدراسة المسبقة والنظرة البعيدة

تقدير الموقف جيداً من أهم عوامل النجاح، فقد كان طلب موسى عليه السلام لأخيه هارون النبوة معه ناتج عن إدراكه عليه السلام لطبيعة الأمر الذي أنيط به، وطبيعة المدعويين سواء فرعون وهامان وجنودهما، أو بني إسرائيل.

5. عش لله وفي الله وبالله.

قل ما أجمل أن تكون كل حياتنا وسكناتنا وحركاتنا لله عز وجل، فإنما حياتنا ومماتنا منه

وإليه، فقد قال موسى عليه السلام طلبه مشاركة أخيه له: ﴿كُنْ نَسِيحًا كَثِيرًا ۖ وَتَذَكِّرُ كَثِيرًا ۖ﴾ [طه] فبين عليه السلام أن ذلك بحق ربه لا بحظ نفسه، فلم يتشفع لأخيه بالنبوة لمصلحة ذاتية، أو غرض خاص إنما لله عز وجل.

6. حقيقة اليهود ليس للمعرفة فقط

على المسلمين في جميع بقاع الأرض عامة، وفي فلسطين خاصة أن يدركوا حقيقة اليهود في إلفهم للوثنية والمادية، وما تأصل في نفوسهم من المكر والخداع، وهو باق فيهم

ما داموا ، فهم الذين حرفوا الكتب، وقتلوا الأنبياء والرسل، وهم أهل المكر والخداع قديماً وحديثاً، وعليه لا بد أن تُعاد الحسابات.

7. الحساب القمري للزمن

نلاحظ أن القرآن عندما يذكر الزمن يتحدث بلفظة الليل وليس النهار، والسبب في ذلك عدم تحديد الزمن بدقة بالنهار، فالشمس تشرق وتغرب ثم تعود لتشرق، فإذا نظرت إلى قرص الشمس، لا يمكن أن تحدد في أي وقت من الشهر أنت ؟ أوله أو وسطه أو آخره، ولكن إذا جاء الليل بمجرد أن تنتظر إلى القمر تستطيع أن تحدد الزمن، فإذا كان القمر هلالاً نكون في أوائل الشهر، وإذا كان بدرًا فنحن في وسطه وهكذا، لأن هناك مقاييس دقيقة بالنسبة للقمر في عرف الناس، فالبدوي في الصحراء تجده يقول لك، هذا القمر ابن كذا ليلة.

8. نتعامل بأخلاقنا لا بأخلاقهم

لا بد أن لا نكافىء من عصى الله فينا بأن نعصي الله فيه، ونصبح متساويين، فمع أن فرعون وقومه كفرة، فإن هذا لا يبرر لبني إسرائيل سرقة حلي الفراعنة كما فعلوا، فلقد جعلها الله فتنة لإغوائهم، فالعجل الذي عبده مصنوع من الذهب الذي هو من أصل حرام، والحرام لا يأتي منه خير مطلقاً، فلا بد أن نأخذ العبرة من هذه الواقعة، وهي أن الحرام ينقلب على صاحبه شراً ووبالاً.

9. الحياء والإيمان قرينان

يقول الله تعالى على لسان موسى لقومه: ﴿يَقَوْمِ لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ فهذه الآية الكريمة تشعرنا بالأسى والحزن على ما أصاب كليم الله منهم، وهو منقذهم من فرعون وملئه، بل كانوا يتطاولون عليه بالكلام بما ينم عن عدم تقديرهم للهدى فيقول القرآن في ذلك: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: 129].

10. عليك بالعمل المخلص ودع النتيجة لصاحبها.

على الواعظ أن يبذل قصارى جهده في الوعظ وأن يحيط بمن يوعظه إحاطة تامة من جميع نواحي الإقناع في كلام جامع مانع، ثم الأمر كله أولاً وآخراً بيد الله، يهدي من يشاء.

11. شرعة الزواج أول الزمان

عن شريعة الزواج في أول الزمان كان يتزوج الذكر أخته التي لم تولد معه بل التي ولدت مع ذكر غيره، وغيره يتزوج أخته التي ولدت معه في نفس البطن، فلم يزل بنو آدم في نكاح الأخوات حتى مضى أربعة آباء ، فنكح ابنة عمه وذهب نكاح الأخوات.

12. أدب سام مفروض لأصحاب الزروع

من كان له من الزرع أو التمر ما يُجنى، ينبغي أن لا يجنيه ليلاً حتى لا يحرم الفقراء من الأكل منه وأن عليه أن يمنح من يحضر الجني، والقطع شيئاً يسيراً من زرعه أو ثمره، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء]

13. قدر الله حق قدره والنزم حدودك

من المستحب أن نستثني في كل قول في حال رضا أو غضب في حال عطاء أو منع، بنية الأجر ، من معنى أن الذي يقول أفعل ولم يستثن أعطى لنفسه قدرة كقدرة الله، الذي إذا قال فعل، ولا يعجزه شيء، فهو هنا أشرك نفسه في صفة من صفات الله تعالى فلذا كان الاستثناء تسبيحاً لله وتنزيهاً له عن المشاركة في صفاته وأفعاله.

14. القدوة الحسنة

من مشروعية التذكير بأحوال المبطلين والمعافين، أن نتسلى بهم، ونقتدي إلى طريق الشكر والصبر، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، بالخير والشر، وأسعد الناس الشاكرون عند السراء والصابرون عند الضراء.

15. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: 82]

إن صلاح الآباء وإيمانهم ينفع الأبناء، فقد انتفع أصحاب الجنة بصلاح أبيهم الذي كان يتصدق على المساكين من غلة بستانه، وعلامة انتفاعهم تويتهم فلم يختم عليهم بالكفر.

16. الهروب من المسؤولية

في الغالب في طبيعة البشر، أن يتصل الشركاء من التبعة عند ما تسوء العاقبة، ويتوجه باللوم على الآخرين وأنه هو من كان في الاتجاه الآخر الناجح .

17. الحسد يدفع إلى الآثام

الحسد هو الذي دفع إخوة يوسف أن يفعلوا به ما فعلوا، فالحسد من أمهات الكبائر، ولا وجه في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك فما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة في الشر والفساد إلا وقد دفع بها الحسد، فالحسد يقود صاحبه إلى استباحة أي شيء يشفي غليله.

18. قميص يوسف عليه السلام

كان لقميص يوسف عليه السلام دوراً بارزاً في قصته، حين جاء إخوته على قميصه بدم كذب ليثبتوا أن الذئب أكله، وحين قادت امرأة العزيز قميصه من دبر وفي ذلك دليل براءته من إرادة الزنا، وحين ألقى البشير قميصه على وجه أبيه فارتد بصيرا، وأن القرائن يعمل بها عند الاشتباه في الدعاوي.

19. الصبر الجميل

حكى لنا القرآن حال نبيه يعقوب عليه السلام عند ما ابتلي بفقد ولده العزيز كيف كان حسن عزائه ورجوعه إلى الله تعالى، والاستعانة به، حين قال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف] وذلك في شرعة بني إسرائيل، بينما في شرعة الإسلام ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة]، وهذا دليل على أن وحدة الأديان واحدة.

20. إعدل ولا تخشى سوء العواقب

العدل مطلوب في جميع الأمور وخاصة معاملة الوالدين للأولاد، والقيام بحقوق الزوجات، وغير ذلك في المحبة والإيثار ونحوها، لأن القيام بالعدل في ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها، ويحصل للعبد ما أحب، وفي الإخلال بذلك تفسد الأحوال، ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر؛ لهذا لما قدم يعقوب عليه السلام يوسف عليه السلام في المحبة، وجعل وجهه له، كاد ليوسف عليه السلام إخوته وحاولوا التخلص منه.

21. وسائل مشروعة من أجل الحقوق

جواز استعمال الحيل والمكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، كما كان من يوسف عليه السلام حين ضم إليه أخاه، أما الحيل التي يراد بها إسقاط واجب أو فعل محرم فإنها محرمة غير نافذة.

22. مَكَّن حجر الأساس

إن النشأة الأولى التي ينشأها المرء هي أساس عقيدته بعد ذلك، فقد كان للصالح الذي نشأ عليه يوسف عليه السلام الفائدة العظيمة في تغلبه على الأحداث الكبرى التي مر بها، وانتصر بها على المحن، وجاءه الفرج بعد الشدة، والعز والنصر بعد الذل والانتكاسار.

23. يحق الله الحق ولو بعد حين

إن العفة والأمانة والاستقامة مصدر الخير كله، للرجال والنساء، على حد سواء، وإن الاستمساك بالدين والفضيلة مصدر الاحترام وحسن السمعة، وإن الحق وإن حُجب زمناً، لا بد من أن يظهر ولو بعد حين.

الخاتمة

الحمد لله الذي به تتم الصالحات، وتكون الطيبات وتنتيسر الخيرات، فأحمدك ربي حمداً كثيراً طيباً، مباركاً فيه مباركاً عليه، ملؤه السموات والأرض وما بينهما وما دون ذلك، وما بين الثرى، على ما منحنتي من إتمام هذا البحث بهذا الشكل، فما كان توفيقي إلا منك وبك إلهي وسيدي ومولاي.

من لطف الله بعباده أنه سبحانه وتعالى أرسل لنا الرسل والنبیین منذرين ومبشرين، ودالين على الصراط المستقيم، وأنزل معهم الشرائع والسنن لتتبعها ونكون على الدين الحنيف، وكانت المعجزة الخالدة والمنهاج الأخير هو القرآن الكريم، الذي أمرنا ربنا باتباع نصوصه وتعهده بحفظه لنا، من أي تغيير أو تحريف.

ولقد كان للأسرة وعلائق أفرادها حيز لا بأس به شغل القرآن في قصصه، لأن الأسرة نواة المجتمع المسلم، ولا بد أن تكون هذه النواة قوية بإسلامها واستسلامها لله، ليحصل للمجتمع بمجموع مثلها القوة والعزة والمنعة.

وبعد هذا البحث الطويل والذي تتبعت فيه العلاقات الأسرية، واحتويتها من جميع جنباتها، أستنتج بعض النتائج العامة عن البحث، مع العلم أنني ختمت كل فصل من فصول رسالتي بنتائج بحثية مفيدة.

أولاً- النتائج

- 1- أن الله سبحانه وتعالى صاحب الكون والمتصرف فيه كيف يشاء، والمشرع له ، ولا بد للإنسان أن يذعن ويلتزم بالشرعية، فإن فعل كان له الفوز بالدارين الأولى والآخرة.
- 2- الهداية بيد الله سبحانه وتعالى، وكل شيء عنده بقدر، ولكن هذا لا نعلمه نحن فهو منوط بعلم الله، وهو لا يُسقط عنا تحملنا لمسئولية الدعوة في الهداية، فعلياً أن نعمل في ذلك بعزيمة، لعل الله يأخذ بأيدينا، أو تكون لنا الحجة في الآخرة لا علينا.
- 3- كلما كانت صلتك بالآخرين أقرب، كلما كانت المسئولية عليك أكبر، فمثلاً يتحمل الآباء والأمهات مسئولية الأبناء وصلاحهم، ويحاسبوا عليها إن قصرُوا، وقس على ذلك.
- 4- لا يمكن للحق والباطل من التعايش معاً أبداً، لا بد لأحدهما من المغادرة، فهما نقيضان متنافران وبشدة، وهذا يوجب علينا حسن اختيار الرفيق في كل شيء وأهم الأشياء الزواج.

5- ما أجمل أن تجد نفسك في الجنة مع ذراري كُثُرٍ تخصك، لم ترهم من قبل في حياتك الدنيا وتستعجب منهم ومن كثرتهم، فإنما هم نتاج زرعٍ أولٍ زرعته أنت ، فأحسنت غرسه وأجدت تسميده وسقيه ورعايته.

ثانياً- التوصيات :

1- أوصي نفسي أولاً، وطلبة العلم الشرعي بتدبر القرآن وفهم معانيه، فقراءته مع التدبر خير عند الله وأعظم من قراءته من غير تدبر، وخاصة تدبر الآيات التي تُظهر النواحي الأسرية الاجتماعية، وأخص الطلبة والطالبات المقدمين على الزواج أو حديثي الزواج.

2- أوصي المسلمين بالعودة إلى مقومات الأسرة الإسلامية والعمل بها، وترك ما دخل على أسرنا من حضارات غريبة غريبة، لا يتناسب نتائجها، مع تطلعاتنا إلى العودة إلى وطننا الأصلي "الجنة" الذي هاجرنا منه، ونتوق إلى العودة إليه إن شاء الله.

3- كما أوصي طلبة الدراسات العليا بأن يتناولوا أبحاثهم العلمية عن الأسرة، ويتوسعوا فيها ويضيفوا على الأبحاث السابقة كل جديد مقيس في الشرع، بما يخدم المجتمع، ليتناسب ذلك والتحديات التي تحق بالأسرة.

4- كما أوصي نفسي وأوصيكم أن لا تكون دراستنا وأبحاثنا، نظرية مجردة، تكون كتابات وحبر على ورق، بل لا بد أن تنغرس فينا واقعاً عملياً تطبيقياً، وإلا كنا كالذي يقول ولا يفعل وقد كبر مقتاً عند الله ذلك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين،

محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الخيِّرين

والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

الفهارس العامة

وتشتمل على:

أولاً: فهرس الآيات القرآنية.

ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم.

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع.

خامساً: فهرس الموضوعات.

أولاً: فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقمها	طرف الآية
البقرة		
102	30	﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ مِنْ .. ﴾
105	35	﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الصَّالِحِينَ .. ﴾
15	49	﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ فِي .. ﴾
289	51	﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾
16	83	﴿ وَإِنَّا خَافْنَا مِمَّا يَفْعَلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الَّذِينَ أَحْسَبُوا أَنَّهُم .. ﴾
145	112	﴿ وَإِذْ أُنزِلَتْ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيَاهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ .. ﴾
150	125	﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا .. ﴾
151	127	﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾
152	128	﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيْنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا .. ﴾
153	129	﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ .. ﴾
328	132	﴿ وَوَضَعْنَا يَدَ إِبْرَاهِيمَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَعْقُوبُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ .. ﴾
328	153	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾
368 ، 328	157	﴿ الَّذِينَ إِذَا أصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾
175	238	﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ رُكْبَاتًا .. ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
15	248	﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ لَهْمُ .. ﴾
136	286	﴿ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾
آل عمران		
249	33	﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾
250، 249	35	﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي تَوَدُّ .. ﴾
251	36	﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ تَوَدُّ .. ﴾
253، 54	37	﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ تَوَدُّ .. ﴾
254	38	﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ .. ﴾
62	41	﴿ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا .. ﴾
50	97	﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ اللَّهِ .. ﴾
1	110	﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ كُنُوتِمْ .. ﴾
النساء		
أ، 1، 17، 24	1	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَجَدَكُمْ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا مِثْمَهَا .. ﴾
367، 16	8	﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ... ﴾
15	54	﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَاهُمُ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ ... ﴾
180	163	﴿ وَإِلَىٰ .. وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
المائدة		
303	15	﴿ يَتَأَهَّلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا .. ﴾
302 ، 266	27	﴿ صدق الله .. قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾
306	28	﴿ لِيَنْبَسُطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ .. ﴾
309	30	﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾
313	31	﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ .. ﴾
الأنعام		
258	9	﴿ وَكَوَجَعْتُهُ مَلَكَ لَجَعَلْتُهُ رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾
211 ، 202	74	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ أَمَرَ أَنْتَ تَجِدُ أَصْنَامًا إِلَهًا إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي .. ﴾
171	82	﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾
53	85	﴿ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلِّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَاسْمِعِيلَ .. ﴾
249	162	﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
الأعراف		
102	19	﴿ وَيَقَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ مِنْ .. ﴾
106	23	﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَّ تَقْوِيرًا لَنَافِعْنَا لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾
60	55	﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾
195	59	﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ .. ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
224 ، 219	82	﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ .. ﴾
366	129	﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾
290	138	﴿ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾
288	142	﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّمَقْتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. ﴾
294 ، 293 ، 291	150	﴿ وَالْقَىٰ الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ أَعَجَلْتُمْ .. ﴾
295	151	﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَعَجَلْتُمْ .. ﴾
358	168	﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ شَٰدِيدًا .. ﴾
12	176	﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقِصَصَ ءَاتَيْنَاكُمْ .. ﴾
103 ، 109	189	﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا .. ﴾
التوبة		
15	24	﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُبْدًا .. ﴾
215 ، 214	114	﴿ .. فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ اللَّهُ .. ﴾
يونس		
175	87	﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِلْقَوْمِ كَمَا بِمِصْرَ بِيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ .. ﴾
هود		
361	6	﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهُ وَسُوْدَعَهَا .. ﴾
198	36	﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ أَنَا .. ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
199	40	﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴾
202 ، 198	42	﴿ صَدَقَ اللَّهُ .. وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ تَسَخَّرُوا .. ﴾
200 ، 199	43	﴿ سَتَأْوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا .. ﴾
201	45	﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ .. ﴾
203	46	﴿ لِئِنِّي أَخْطَأُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾
176	49	﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ .. ﴾
32	69	﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾
157 ، 34	71	﴿ وَأَمْرًا تَقَابُضًا فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾
38	72	﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾
38	73	﴿ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾
218	74	﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجِدِلْنَاهُ فِي قَوْمٍ لُوطٍ ﴾
218	75	﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾
221 ، 217	78	﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ عَنَّا وَإِنَّ لِإِبْرَاهِيمَ خِصْمًا ﴿٧٨﴾ ﴾
221	80	﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾
93	81	﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾
14	91	﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ ... ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
يوسف		
157	4	﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ .. ﴾
15	6	﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ﴾
318	7	﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَاءِ أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾
275	8	﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي الضَّلَالَةِ .. ﴾
322	10	﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنَلُوا يَوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾
323	11	﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَيَّ يَوسُفَ لِلْإِنْسَانِ .. ﴾
324 ، 320 ، 161	13	﴿ قَالَ إِنِّي لَبِئْسَ نَفْسٍ أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ لِلْإِنْسَانِ .. ﴾
324	14	﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾
326	16	﴿ وَجَاءُوا بِأَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾
327	18	﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ بِأَمْرِهِمْ .. ﴾
140 ، 114	21	﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
116 ، 115	23	﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾
116	25	﴿ وَأَسْتَبِقُ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصِيهِ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيْهَا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا قَال .. ﴾
117	28	﴿ فَلَمَّارَةً قَيْصِيهِ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾
139 ، 117	29	﴿ وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
118	30	﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنْهَى عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا ۗ ﴾
119	31	﴿ فَأَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لهنَّ مِثْكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مَنَهُنَّ ۗ ﴾
119	32	﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ زُودْتُهُنَّ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعْصَمَ ۗ ﴾
119	33	﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ۖ وَقَالَ ۗ ﴾
121	36	﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ۗ ﴾
139 ، 122	39	﴿ يَصْدِحِي السِّجْنَ ۖ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ۗ ﴾
123	43	﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ مِنَ ۗ ﴾
124	45	﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ۖ فَأَرْسِلُونِ مِنْهُمَا ۗ ﴾
125	52	﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۗ ﴾
125	53	﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۖ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۖ إِلَّا مَا رَجَعَا رَبِّي ۖ إِنَّ رَبِّي ۗ ﴾
125	54	﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا ۗ ﴾
328	58	﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ۖ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ۗ ﴾
277	59	﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنَ أَبِيكُمْ ۖ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ۗ ﴾
331	60	﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ ۖ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ۗ ﴾
331	61	﴿ قَالُوا سَتَرُوا عَنَّا آيَاتِهِ وَانَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ ۗ ﴾
280	63	﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخِنَانًا ۗ ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
333	64	﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنَ كُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنَ كُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا .. ﴾
334	66	﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا ﴾
276	68	﴿ وَإِنَّهُ لَدُوْعٌ لِّمَا عَلَّمْنَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾
335	69	﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا خَيْرَ .. ﴾
281	70	﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا .. ﴾
336	76	﴿ نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾
336	77	﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي .. ﴾
338	78	﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ ءَابَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا إِنَّا كُمْ .. ﴾
339	79	﴿ قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ ءِنَّا ﴿٧٩﴾ .. ﴾
322	80	﴿ فَلَنْ أُنْبِئَ بِأَرْضٍ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾
341	83	﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ ءَأَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ؕ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ ﴿٧٩﴾ .. ﴾
162	84	﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ ﴿٧٩﴾ .. ﴾
342	86	﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾
343	88	﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ لَا .. ﴾
345	89	﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾
164	94	﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ .. ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
350	99	﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ وَ قَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ .. ﴾
353	100	﴿ وَ رَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ .. ﴾
إبراهيم		
146	35	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ إِنِّي ۖ أَجْعَلُ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ .. ﴾
،149، 137 238 ، 49	37	﴿ فَأَجْعَلْ أَقْصَاةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ... ﴾
46	38	﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلَمُ ۖ وَمَا نَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّكَ .. ﴾
36	39	﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّكَ .. ﴾
،147، 142 174	40	﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا إِنِّي .. ﴾
214	41	﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾
الحجر		
103	29	﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾
253	42	﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾
15	59	﴿ إِلَآءَ آلِ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾
93	65	﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَ امضُوا إِنَّا .. ﴾
220	68	﴿ قَالَ إِنَّ هَذِهِ لَأَهْلِيَّ ذِي الْقُرْبَىٰ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾
217	71	﴿ قَالَ هَذِهِ لَأَهْلِيَّ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
92	74	﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾
النحل		
16	72	﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَحِبُّوا إِلَيْهَا وَتَرْحَمُوا عَلَيْهَا ذَلِكَ لِمَنِ خَشِيَ اللَّهَ خِيفَ مِنْهُ مِنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَخِيفَةٌ .. ﴾
211 ، 144	120	﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾
144	123	﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾
الإسراء		
197	3	﴿ ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾
208	23	﴿ وَلَا تَقُلْ لِمَا آفَى وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾
188	44	﴿ تَسْبِغُ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّغْ بِهِ آخِرًا .. ﴾
الكهف		
142	46	﴿ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زَيْنَةَ الْكَلْبِ وَالْبَيْتِ الْأَصْلِحِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ أَمْ لَا .. ﴾
12	64	﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ آثَارَهُمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾
مريم		
59	2-1	﴿ كَمِيعَصَ ﴿١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ ﴾
57	4	﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ ﴿٢﴾ .. ﴾
61	7	﴿ يَذْكُرْنَا إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِغُلَامٍ أَسْمُهُ يَجِيءُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾
61	8	﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ ﴿٣﴾ .. ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
256	16	﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾
258	17	﴿مِنْ دُونِهِمْ حَمَّابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾
259	22	﴿فَحَمَلَتْهُ فَانَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾
261	27	﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾
261	28	﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا لِلرَّحْمَنِ...﴾
263	30	﴿...إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ الرَّحْمَنِ...﴾
263	32	﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾
212، 211	41	﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾
213	46	﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾
214	47	﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَعْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾
287	53	﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ جَمِينًا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾
156	54	﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾
طه		
175، 79	14	﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾
78	17	﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾
98	27	﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
288 ، 285	29	﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾
288	30	﴿هَارُونَ أَخِي﴾
365 ، 285	33	﴿كُنْ نَسِيحًا كَثِيرًا﴾
287	36	﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾
245	39	﴿...وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي...﴾
246	40	﴿صَدَقَ اللَّهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ آيِسًا...﴾
292	85	﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾
285 285	87	﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾
295	90	﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ أَفَلَا...﴾
293	92	﴿قَالَ يَهْرُونَ مُأْمَنُكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ﴾
107	123	﴿قَالَ أَهِيطُ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي وَحِيَةٌ...﴾
الأنبياء		
358	35	﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾
56	37	﴿فَنَقَّبَلْنَا رَبِّهَا يَقْبُولِي حَسَنًا وَأُنْبِتْنَاهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلْنَاهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ...﴾
57	38	﴿هَذَا لَكَ دَعَاؤُكَ يَا رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً...﴾
30	63	﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَطِيقُونَ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
28	71	﴿ وَبَعَثْنَا لوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾
185، 184	79	﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۗ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَانُوا .. ﴾
182	80	﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ وَكَّانُوا .. ﴾
192	81	﴿ وَاسْتَيْمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ .. ﴾
156	85	﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾
60، 58	89	﴿ وَزَكَرْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾
54	90	﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ إِنَّهُمْ ﴿٨٢﴾ .. ﴾
الحج		
15	13	﴿ يَدْعُوا لِمَنْ صَرَّهُ ۗ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ۗ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾
144	78	﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۗ قَلِيلَةٌ أَيْبِكُمْ إِتْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ ﴾
النور		
24	32	﴿ وَأَنْكَحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ ۗ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ .. ﴾
الفرقان		
142	74	﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ۗ إِنَّا بِكَ أَلَاءٌ .. ﴾
الشعراء		
215	86	﴿ وَأَعْفِرْ لَائِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
النمل		
15	7	﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ طَاقِبِمْ أَنَسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا خَبِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ مِّمَّنْ لَعَلَّكُمْ ... ﴾
183	15	﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ ... ﴾
190 ، 188	16	﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴿١٦﴾ ﴾
191	17	﴿ وَحِشْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾
ت	40	﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴿٤٠﴾ ﴾
218 ، 90	55	﴿ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۗ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾
92	56	﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ ۗ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ ط ... ﴾
92	57	﴿ فَأَبْجَيْنَا فُؤَادَهُ لِمِثْلٍ مِّثْلٍ ۚ إِلَّا أَمْرًا تَهُدِّيهِ فَمُرَّطَوٰهُ ۚ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾
111	63	﴿ تَعَلَّىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾
القصص		
241	4	﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ ط طَافِيَةً مِّنْهُمْ .. ﴾
242	7	﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَرْمُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَاكْفِيهِ فِي الْيَمِّ .. ﴾
244	8	﴿ فَأَلْقَطَهُ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴿٨﴾ ﴾
299	9	﴿ وَقَالَتْ أُمَّرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَأَنْقُضُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ ﴿٩﴾ ﴾
299 ، 246	10	﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَىٰ قَدْرًا ۖ وَإِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا .. ﴾
298 ، 12	11	﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبِي ۖ فَبَصَّرْتِ بِهِ ۖ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
299 ، 247	12	﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ... ﴾
230	22	﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾
227	23	﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَرَدَّ... ﴾
230	24	﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَىٰ الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾
231 ، 75 ، 74	25	﴿ فَبَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا... ﴾
229 ، 75	26	﴿ يَتَأْتٍ اسْتَشْجِرُهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَشْجَرَتِ القَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾
، 76 ، 75 ، 74 232	27	﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ بِحَدِيثِ وَابْنِ مَرْثَدَةَ هَتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي وَرَدَّ... ﴾
233	28	﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ وَرَدَّ... ﴾
77 ، 73	29	﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ... ﴾
286 ، 284	34	﴿ وَأَخِي هَمْرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ... ﴾
288 ، 287	35	﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا... ﴾
204	56	﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾
89	74	﴿ وَلَوْطَأُ عَيْنَتَهُ حُمْكًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرَبَةِ الَّتِي كَانَتْ وَكَانُوا... ﴾
العنكبوت		
89 ، 27	26	﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
218	31	﴿ صَدَقَ اللَّهُ.. إِنَّا مُهَلِّكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرَبَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
174	45	﴿ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْبِرِ الصَّلَاةَ سَاقِطَةً .. ﴾
الروم		
24 ، 16	21	﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ ﴾
لقمان		
170 ، 169	12	﴿ وَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ . ﴾
170	13	﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ ﴾
172	14	﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ .. ﴾
173	16	﴿ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي .. ﴾
176 ، 174	17	﴿ يَبْنَىٰ أَقْبِرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا .. ﴾
176	18	﴿ وَلَا تَصْعَقْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ .. ﴾
الأحزاب		
221	6	﴿ الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُمَّهُنَّ وَأَوْلَادُ الْأَرْحَامِ حَكِيمًا .. ﴾
84	7	﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ .. ﴾
سبأ		
188	10	﴿ ...يَجِبَالٍ أُولَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرِ فِي .. ﴾
الصفات		
197	75	﴿ وَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
144 ، 83	77	﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾
30	89	﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾
28	99	﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾
154	102	﴿ فَأَمَّا بَلَّغَ مَعَهُ السَّعَىٰ فَكَالَ يَبْقَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَازِرِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾
94	137	﴿ وَإِلَّا كَفَرْنَا لَنَرُوهُنَّ عُلُوبَهُنَّ مُصْبِحِينَ ﴾
ص		
190	3	﴿ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾
188	18	﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾
186 ، 180 ، 189	20	﴿ وَسَدَدْنَا مُلَكُومًا آيَاتِنَا الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾
189	35	﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبَغِّى لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾
68 ، 66 ، 63	41	﴿ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ مَسْنَى الشَّيْطَانِ يُنْصَبُ وَعَذَابٍ ﴾
71	44	﴿ وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾
104	82	﴿ فَيَعْرِزُكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴾
104	83	﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾
غافر		
246	19	﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
148	60	﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي .. ﴾
فصلت		
140	33	﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾
الشورى		
273	49	﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْ شَاءَ إِنَّ شَاءَ أَمْثُوا .. ﴾
243	51	﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ أَمْثُوا .. ﴾
الزخرف		
211	26	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيهِ وَقَوْمِهِ إِئِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾
262	48	﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْتَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ ﴾
الأحقاف		
206	15	﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ ثَلَاثُونَ .. ﴾
204	17	﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ أَنْ تُعْبَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ثَلَاثُونَ .. ﴾
206	18	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ .. ﴾
الحجرات		
17	10	﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
17	13	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ .. ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
الذاريات		
31	24	﴿ هَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾
136 ، 36	29	﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾
224	35	﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
القمر		
197	10	﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴾
220	37	﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ ﴾
الحديد		
197	26	﴿ صَدَقَ اللَّهُ .. وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ الْحَدِيدَ .. ﴾
المتنحة		
261	12	﴿ صَدَقَ اللَّهُ .. وَلَا يَأْتِينَ بِنَبْهَتَيْنِ يَقْرَيْنَهُ، يُشْرِقْنَ .. ﴾
التحريم		
15	6	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا .. ﴾
90 ، 86 ، 84	10	﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ ثُوْجٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَاتَا تَحْتًا .. ﴾
96	11	﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي .. ﴾
الملك		
111	5	﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾

الصفحة	رقمها	طرف الآية
246	14	﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٤)
القلم		
356	17	﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ (١٧)
360	19	﴿ فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَيْفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾
359	21	﴿ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴾
360	26	﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾
361	28	﴿ قَالُوا وَسَطِمْ لِرِوَاقِ لَكُمْ لَوْلَا نُسَخِّحُونَ ﴾
363	33	﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَمَّا لُبِئَ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٣)
نوح		
197	6-5	﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾
195 ، 194	23	﴿ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ الْهَيْكَلَ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٣٣)
83	26	﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٣٦)
195	27	﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾
200	28	﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا .. ﴾
الإنسان		
11	28	﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ (٢٨)

الصفحة	رقمها	طرف الآية
التكوير		
359	29	﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾
التين		
51	2-1	﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴾
الماعون		
175	4	﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾
المسد		
133 ، 129	1	﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾

ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الصفحة	طرف الحديث
147	أجاب الله تعالى، دعوة إبراهيم في ولده، فلم يعبد
270	إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه فإن لم تفعلوا
347	إذا زنت الأمة فتبين زناها، فليجلدها ولا يثرب، ثم إن
77	إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبرهما
129	أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من صخرة بسفح هذا الجبل
144	أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص
100	أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد
292	ألقى الألواح فانكسرت
45	إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، وأستودعكما إياه
43	أما علمت أن إبراهيم شكاً إلى ربه
75	امشي خلفي، وانعتي لي الطريق
25	إن إبليس يضع عرشه على الماء

الصفحة	طرف الحديث
122	أن الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة وتأويله
123	أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم
41	أَنَّ الْغَيْرَاءَ لَا تُبْصِرُ أَسْفَلَ الْوَادِي مِنْ أَعْلَاهُ
44	إن أول من سعى بالصفاء والمروة هاجر أم إسماعيل
233	إن سئلت: أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: أبرهما
190	إن عفريتاً من الجن جعل يفتك عليّ البارحة
43	إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
67	إن نبي الله أيوب <small>عليه السلام</small> لبث به بلاؤه ثمانية عشر
253	أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ
188	إننا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو
51	إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا...
51	إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاءَ عُرَاءَ غَزَلًا ثُمَّ قَرَأَ {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا
151	إِنَّمَا بُنِيَتْ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ

الصفحة	طرف الحديث
151	إِنَّمَا بُنِيَتْ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ
207	إِنَّهُ لَا يَسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يَسْتَغَاثُ بِاللَّهِ
309	إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةً الْقَاعِدِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ
153	إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَإِنْ آدَمَ لَمَنْجِدِلٍ
109	أَهْيَنُوهُمْ وَلَا تَظْلُمُوهُمْ؛ فَلَقَدْ سَبَّوْا اللَّهَ عِزَّ وَجَلِّ مَسْبُوبَةٍ
87	أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا...
1	تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوْا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ
297	تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحِمِهِمْ وَتَوَادِهِمْ وَتَعَاطِفِهِمْ
138	تَسْمَوْنَ بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَحِبُّونَ الْأَسْمَاءَ إِلَى اللَّهِ: عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ
270	تَتَكَحَّ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعِ مَالِهَا وَجَمَالِهَا وَحَسْبِهَا
55	ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ
231	الحياء من الايمان
396	خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ

الصفحة	طرف الحديث
60	خير الذكر الخفي وخير الرزق ما
148	الدعاء هو العبادة
146	رَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ
115	فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن
205	فهلا تركت الشيخ في منزله فأتيناها"وله صحبة
77	قضى أكثرهما وأطيبهما، فإن رسول الله ﷺ إذا قال فعل
147	كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ: "إِنَّ أَبَاكُمْ...
99	كانت امرأة فرعون تُعَذَّبُ بالشمس، فإذا انصرفوا
157	الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف ابن يعقوب
41	كلوا، غارت أمكم
100	كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع
86	كيف لم يسمها الله تعالى؟ أي امرأة نوح وامرأة لوط فقال النبي ﷺ
310	لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول

الصفحة	طرف الحديث
189	لقد أوتيت مزامراً من مزامير آل داوود
43	لقد جعل الله بين جنبيك من العلم
110	لما حملت حواء طاف عليها إبليس عليه اللعنة، وكان...
72	اللهم إني أعوذ بك من جار عينه تراني
133	اللهم سلط عليه كلبك يأكله
190	لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس
292	ليس الخبر كالمعاينة
144	ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك
171	ليس كما تظنون، وإنما هو ما قال لقمان لابنه: لا تشرك...
74	ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة
183	مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ
86	ما بغت زوجة نبي قط ولا ابتلي
309	ما ترك القاتل على المقتول من ذنب

الصفحة	طرف الحديث
41	ما تريد من عجوز حَمراء الشَّدَقِين
41	ما غرت من امرأة ما غرت من
253	ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا
205	مَا نزل في آلِ أَبِي بكر من القرآن غير بَرَاءتي
ت	من لا يشكر الناس لا يشكر الله
109	نسبت النصارى إلى الله من الظلم العظيم ما
362	والوسط العدل
306	وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين
252	ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم
43	يا أمير المؤمنين ما أستطيع أن
49	يا أيها الناس كتب عليكم السعي فاسعوا
132	يا بني فلان إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله
134	يا بنية أحسنني إلى أبي عبد الله، فإنه أشبه

الصفحة	طرف الحديث
25	يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج
83	يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض
48	بِرَحْمِ اللَّهِ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْلَا أَنَّهَا عَجَلَتْ لَكَانَ زَمْرًا عَيْنًا مَعِينًا
350	ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة	اسم العلم
28	ابن إسحاق
38	ابن القيم
31	ابن حجر العسقلاني
122	ابن دينار
42	ابن رشد
12	ابن فارس
51	ابن قتيبة
13	الرازي
87	الزمخشري
52	سفيان بن عيينة
65	الشافعي
34	الشوكاني
72	الضحاك
65	الغزالي
39	القاسمي
17	القرطبي
20	محمد أبو زهرة
13	مناح القطان
51	الفاكهي
172	ابن منبه

الصفحة	اسم العلم
172	سعيد ابن المسيب
188	عمر بن عبد العزيز
188	مقاتل
211	السدي
230	الحسن
286	عطاء
315	الكلبي
315	الماتريدي
370	سيد قطب
369	الشعبي

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

1. الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان/ بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (المتوفى: 1429هـ)/ الناشر: دار العاصمة/ الطبعة: الأولى، 1417 هـ
2. إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراف الساعة/ حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري (المتوفى: 1413هـ)/ الناشر: دار الصمعي للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية/ الطبعة: الثانية، 1414 هـ
3. الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة/ ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: 643هـ)/ تحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله/ الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - الطبعة: الثالثة، 1420 هـ - 2000 م
4. أحكام القرآن/ أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: 370هـ)/ المحقق: محمد صادق القمحاوي - عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف/ الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت/ تاريخ الطبع: 1405 هـ
5. أحكام القرآن/ علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى: 504هـ)/ المحقق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية/ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/ الطبعة: الثانية، 1405 هـ
6. إحياء علوم الدين/ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ)/ الناشر: دار المعرفة - بيروت
7. الأخبار الطوال/ أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (المتوفى: 282هـ)/ تحقيق: عبد المنعم عامر/ الناشر: دار إحياء الكتب العربي/ الطبعة: الأولى، 1960 م
8. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه/ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (المتوفى: 272هـ)/ المحقق: د. عبد الملك عبد الله دهيش/ الناشر: دار خضر - بيروت/ الطبعة: الثانية، 1414 هـ

9. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار/ أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المكي المعروف بالأزرقى (المتوفى: 250هـ)/المحقق: رشدي الصالح ملحق/الناشر: دار الأندلس للنشر - بيروت
10. الآداب الشرعية والمنح المرعية/ محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: 763هـ)/الناشر: عالم الكتب
11. الأديان والمذاهب/ مناهج جامعة المدينة العالمية/الناشر: جامعة المدينة العالمية
12. إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع / محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني/الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى - 1418 هـ
13. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري/أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: 923هـ)/الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر/الطبعة: السابعة، 1323 هـ
14. أركان الإيمان/ علي بن نايف الشحود/الطبعة: الرابعة، مزودة ومنقحة، 1431 هـ - 2010 م
15. أساس البلاغة/ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)/تحقيق/ محمد باسل /الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، 1419 هـ
16. الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)/المحقق: علي محمد الجاوي/الناشر: دار الجيل، بيروت/الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م
17. أسد الغابة/ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ)/الناشر: دار الفكر - بيروت/ عام النشر: 1409 هـ - 1989
18. الأسرة المسلمة في العالم المعاصر / د وهبة بن مصطفى الزحيلي/الناشر : دار الفكر المعاصر - دمشق/الطبعة : الثانية، 1418 هـ

19. الأسرة على مشارف القرن 21 / عبد المجيد منصور/ الناشر : دار الفكر المعاصر - دمشق/الطبعة : الثانية، 1418 هـ
20. الإسلام يتحدى / وحيد خان الناشر : دار الفكر المعاصر - دمشق/الطبعة : الثانية، 1418 هـ
21. الأسماء والصفات للبيهقي/ أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)حققه عبد الله بن محمد الحاشدي/قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي / الناشر: مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1993 م
22. الإشارات إلى معرفة الزيارات/ علي بن أبي بكر بن علي الهروي، أبو الحسن (المتوفى: 611هـ)/ الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة/الطبعة: الأولى، 1423 هـ
23. الأصنام/أبو المنذر هشام بن محمد ابن السائب ابن بشر الكلبى (المتوفى: 204هـ)/ المحقق: أحمد زكي باشا/الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة/الطبعة: الرابعة، 2000م
24. أصول التفسير/ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ)/الناشر: دار الوطن/الطبعة: الأولى
25. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن/محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : 1393هـ)/الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان/ عام النشر : 1415 هـ - 1995 م
26. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن/محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : 1393هـ) /الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان/ عام النشر : 1415 هـ - 1995 م
27. إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان/الناشر : مؤسسة الرسالة/الطبعة : الطبعة الثالثة، 1423هـ 2002م

28. **الاغتصام/ إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ)/** تحقيق ودراسة/محمد بن عبد الرحمن الشقير/الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م
29. **إعراب القرآن/ أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: 338هـ)/** علق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم/الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت/الطبعة: الأولى، 1421 هـ
30. **الأعلام/خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)/**الناشر/ دار العلم للملايين/الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م
31. **الإعلام بما في دين النصارى من الفساد / أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (المتوفى: 671هـ)/**المحقق: د. أحمد حجازي السقا/الناشر: دار التراث العربي - القاهرة
32. **إغاثة اللهفان من مصيد الشيطان/محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)/**المحقق: محمد حامد الفقي/الناشر: مكتبة المعارف، الرياض
33. **إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل/ سليمان بن سحمان بن مصلح بن حمدان بن مصلح بن حمدان بن مسفر بن محمد بن مالك ، النجدي (المتوفى: 1349هـ) /**المحقق: عبد السلام بن برجس بن ناصر العبد الكريم/الناشر: دار العاصمة/الطبعة: 1409 هـ / 1989
34. **آكام المرجان في أحكام الجان/ محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقيّ الحنفي، أبو عبد الله، بدر الدين ابن تقي الدين (المتوفى: 769هـ)/**المحقق: إبراهيم محمد الجمل/الناشر: مكتبة القرآن - مصر - القاهرة
35. **آل رسول الله وأولياؤه/ محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي (المتوفى: 1421هـ)**

36. الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار/أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي (المتوفى: 558هـ)/المحقق: سعود بن عبد العزيز الخلف/الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية
37. الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية/ سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى: 716هـ)/المحقق: سالم بن محمد القرني/ الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض/الطبعة: الأولى، 1419هـ
38. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل/ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي (المتوفى: 928هـ)/المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة/الناشر: مكتبة دنديس - عمان
39. أهداف التربية الإسلامية/ د ماجد عرسان الكيلاني الأردني/الناشر: دار القلم/الطبعة: الأولى
40. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/ جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري/ الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية/الطبعة: الخامسة، 1424هـ/2003م
41. البحث الصريح في أيما هو الدين الصحيح/ زيادقبن يحيى النصب الراسي (كان حيا: ق 11هـ) /المحقق: سعود بن عبد العزيز الخلف/الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية /الطبعة: الأولى، 1423هـ / 2003م
42. بحر العلوم/ أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: 373هـ)
43. البحر المحيط في التفسير/ أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)/المحقق: صدقي محمد جميل/الناشر: دار الفكر - بيروت/الطبعة: 1420 هـ
44. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد/ أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجبية (المتوفى: 1224هـ)/المحقق: أحمد عبد الله /الناشر: حسن عباس- القاهرة/الطبعة: 1419 هـ

45. **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد** / أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ) / المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان / الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة / الطبعة: 1419 هـ
46. **البدء والتاريخ** / المطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى: 355 نحو هـ) / الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد
47. **البداية والنهاية** / أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) / المحقق: علي شيري / الناشر: دار إحياء التراث العربي / الطبعة: الأولى 1408، هـ - 1988 م
48. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** / مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ) / المحقق: محمد علي النجار / الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة
49. **بيان المعاني** / عبد القادر بن ملاً حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: 1398هـ) / الناشر: مطبعة الترقى - دمشق / الطبعة: الأولى، 1382 هـ - 1965 م
50. **بيان حقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل** / صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان / الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة
51. **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة** / أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (المتوفى: 520هـ) / حقه: د محمد حجي وآخرون / الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان / الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988 م
52. **البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف** / إبراهيم بن محمد بن محمد كمال الدين ابن أحمد بن حسين، برهان الدين ابن حمزة الحسني الحنفي الدمشقي (المتوفى: 1120هـ) / المحقق: سيف الدين الكاتب / الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت
53. **تاريخ ابن الوردي** / عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (المتوفى: 749هـ) / الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت / الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م

54. تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس/ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري (المتوفى: 966هـ)/الناشر: دار صادر - بيروت
55. تاريخ الفكر الديني الجاهلي/ محمد إبراهيم الفيومي (المتوفى: 1427هـ)/الناشر: دار الفكر العربي/الطبعة: الرابعة 1415هـ-1994
56. تاريخ المدينة لابن شبة/ عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة بن ربيعة النميري البصري، أبو زيد (المتوفى: 262هـ)/حقيقه: فهيم محمد شلتوت/عام النشر: 1399 هـ
57. تاريخ بغداد / أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)/المحقق: الدكتور بشار عواد معروف/الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت/الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002 م
58. تاريخ بيت المقدس/ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)/المحقق: محمد زينهم محمد عزب/الناشر: مكتبة الثقافة الدينية
59. تاريخ دمشق لابن القلانسي/ حمزة بن أسد بن علي بن محمد، أبو يعلى التميمي، المعروف بابن القلانسي (المتوفى : 555هـ)/المحقق : د سهيل زكار/ الناشر : دار حسان للطباعة والنشر، لصاحبها عبد الهادي حرصوني - دمشق /الطبعة : الأولى 1403 هـ - 1983 م
60. تأملات قرآنية / محمد المغاسي/ الناشر: دار الجيل الجديد - بيروت الطبعة: 1413 هـ
61. التبصرة لابن الجوزي/ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)/الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م
62. التبصرة لابن الجوزي/ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)/الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م
63. تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين في القرآن الكريم/ علي محمد محمد الصلابي/الناشر: مكتبة الصحابة، الشارقة، مكتبة التابعين، مصر - القاهرة/الطبعة: الأولى، 142 هـ - 2001 م

64. تحفة الحبيب على شرح الخطيب/ سليمان بن محمد بن عمر البُجَيْرِمِيّ المصري الشافعي (المتوفى: 1221هـ)/الناشر: دار الفكر
65. التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية/ فالح بن مهدي بن سعد بن مبارك آل مهدي، الدوسري (المتوفى: 1392هـ)/الناشر: مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة/الطبعة: الثالثة، 1413هـ
66. تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد/ عبد الهادي بن محمد بن عبد الهاديين بكري بن محمد بن مهدي بن موسى بن عجيل (العجيلي) (المتوفى: ق 13هـ)/المحقق: حسن بن علي العواجي /الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، 1419هـ
67. تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد/عبد الهادي [هادي] بن محمد بن عبد الهادي [هادي] بن بكري بن محمد بن مهدي بن عجيل (العجيلي) (المتوفى: ق 13هـ)/الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، 1419هـ/ 1999م
68. تخجيل من حرف التوراة والإنجيل/ صالح بن الحسين الجعفري أبو البقاء الهاشمي (المتوفى: 668هـ)/المحقق: محمود عبد الرحمن قدح/الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، 1419هـ/1998م
69. التدوين في أخبار قزوين/ عبد الكريم بن محمد بن، أبو القاسم الرافعي القزويني (المتوفى: 623هـ)/المحقق: عزيز الله العطاردي/الناشر: دار الكتب العلمية/الطبعة: 1408هـ-1987م
70. تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي/ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر/ الناشر: غراس للنشر والتوزيع/الطبعة: الأولى، 1424هـ/2003م
71. تراث أبي الحسن الحرّالي المراكشي في التفسير/ الحرّاليّ أبو الحسن عليّ بن أحمد بن حسن التّجيبّي الأندلسيّ (المتوفى: 638هـ)/تحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي/الناشر: منشورات المركز الجامعي - الرباط/الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م

72. **التسهيل لعلوم التنزيل/ أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبى الغرناطى (المتوفى: 741هـ)/المحقق: الدكتور عبد الله الخالدى/الناشر: شركة دار الأرقم بن أبى الأرقم - بيروت/الطبعة: الأولى - 1416 هـ**
73. **التسهيل لعلوم التنزيل/ أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبى الغرناطى (المتوفى: 741 هـ /المحقق: الدكتور عبد الله الخالدى/الناشر: شركة دار الأرقم بن أبى الأرقم - بيروت/الطبعة: الأولى - 1416 هـ**
74. **التعليق على فتح الباري/عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش (المتوفى: 1409هـ)/اعتنى به: عبد العزيز بن أحمد بن محمد المشيخ**
75. **التعليقات السنوية على العقيدة الواسطية/ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل ابن حمد المبارك الحريملى النجدى (المتوفى: 1376هـ/تحقيق: عبد الإله بن عثمان الشائع/الناشر: دار الصمىعى للنشر والتوزيع/الطبعة: الأولى، 1427 هـ - 2006 م**
76. **تفسير ابن عرفة/ محمد بن محمد ابن عرفة الورغمى التونسى المالكى، أبو عبد الله (المتوفى: 803هـ)/المحقق: جلال الأسيوطى/الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت /الطبعة: الأولى 2008م**
77. **تفسير أبى السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ أبو السعود العمادى محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)/الناشر: دار إحياء التراث العربى - بيروت**
78. **تفسير الإمام الشافعى/ الشافعى أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبى القرشى المكى (المتوفى: 204هـ)جمع: أحمد بن مصطفى الفران/الناشر: دار التدمرية - السعودية/الطبعة الأولى: 1427-2006 م.**
79. **التفسير البيانى للقرآن الكريم/ عائشة محمد على عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطى (المتوفى: 1419هـ)/دار النشر: دار المعارف - القاهرة/الطبعة: السابعة**
80. **تفسير التستري/أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التستري (المتوفى: 283هـ)جمعها: أبو بكر محمد البلدى/المحقق: محمد باسل عيون السود/الناشر: منشورات محمد علي بيضون/ دارالكتب العلمية- بيروت/الطبعة: الأولى- 1423 هـ**

81. تفسير الشعراوي - الخواطر/ محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ)/الناشر: مطابع أخبار اليوم/عدد الأجزاء: 20
82. تفسير القرآن/ أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: 489هـ)/لمحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم/الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية/الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م
83. تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)/ أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ)/المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي/الناشر: دار ابن حزم - بيروت/الطبعة: الأولى، 1416هـ
84. تفسير القرآن العزيز/ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَين المالكي (المتوفى: 399هـ)/المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - الكنز/الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة/الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2002م
85. تفسير القرآن العزيز/ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَين المالكي (المتوفى: 399هـ)/المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن الكنز/الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة/الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2002م
86. تفسير القرآن العظيم/ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)/المحقق: سامي بن محمد سلامة/الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع/الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999م
87. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم/ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: 327هـ)/المحقق: أسعد محمد الطيب/الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية/الطبعة: الثالثة - 1419هـ
88. تفسير القرآن من الجامع لابن وهب/ أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري (المتوفى: 197هـ)/المحقق: ميكلوش موراني/الناشر: دار الغرب الإسلامي/الطبعة: الأولى، 2003م

89. **التفسير القرآني للقرآن** / عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد 1390هـ) / الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة
90. **تفسير الماتريدي** (تأويلات أهل السنة) / محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ) / المحقق: د. مجدي باسلوم / الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان / الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م
91. **تفسير الماوردي = النكت والعيون** / أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) / المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم / الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان
92. **تفسير المراغي** / أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ) / الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر / الطبعة: الأولى، 1365 هـ - 1946 م
93. **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج** / د. وهبة بن مصطفى الزحيلي / الناشر: دار الفكر المعاصر - دمشق / الطبعة: الثانية، 1418 هـ
94. **التفسير الموضوعي** / مناهج جامعة المدينة العالمية الناشر: جامعة المدينة العالمية
95. **التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه** / أحمد بن عبد الله الزهراني / الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
96. **تفسير النسفي** (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) / أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـ) / حقه وخرج أحاديثه: يوسف علي بدوي / راجعه: محيي الدين ديب مستو / الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت / الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م
97. **التفسير الواضح / الحجازي**، محمد محمود / الناشر: دار الجيل الجديد - بيروت / الطبعة: العاشرة - 1413 هـ
98. **التفسير الواضح / الحجازي**، محمد محمود / الناشر: دار الجيل الجديد بيروت / الطبعة: - 1413 هـ
99. **التفسير الوسيط للزحيلي** / د. وهبة بن مصطفى الزحيلي / الناشر: دار الفكر - دمشق / الطبعة: الأولى - 1422 هـ

100. التفسير الوسيط للقرآن الكريم/ محمد سيد طنطاوي/الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة/الطبعة: الأولى
101. تفسير عبد الرزاق/أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع (المتوفى: 211هـ)/الناشر: دار الكتب العلمية/تحقيق: د. محمود محمد عبده/الناشر: دار الكتب العلمية/الطبعة الأولى، سنة 1419هـ
102. تفسير مجاهد/أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: 104هـ) /المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل /الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر/الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1989 م
103. تفسير مقاتل بن سليمان/ أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير (المتوفى: 150هـ)/المحقق: عبد الله محمود شحاته/الناشر: دار إحياء التراث - بيروت/الطبعة: الأولى - 1423 هـ
104. تفسير يحيى بن سلام/ يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء (المتوفى: 200هـ)/تحقيق: هند شلبي/الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م
105. تلقح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير/جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي [508هـ - 597هـ]/الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت/الطبعة: الأولى، 1997م
106. تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء/ أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بـ «ابن خمير» (المتوفى: 614هـ) /المحقق: محمد رضوان الداية /الناشر: دار الفكر المعاصر - لبنان /الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1990
107. تنظيم الإسلام للمجمع/ الشيخ محمد أبو زهرة/ الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الرابعة، 1425هـ/2004م
108. تهذيب الأسماء واللغات/ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ) عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية /يطلب من: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

109. التوسل في كتاب الله عز وجل / طلال بن مصطفى عرقسوس / الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة / الطبعة: السنة السادسة والثلاثون، 124 - 1424هـ/2004م.
110. التوضيح عن توحيد الخلاق / سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: 1233هـ)/ الناشر دار طيبة، الرياض، المملكة السعودية/ الطبعة: الأولى، 1404هـ/ 1984م
111. توفيق الرحمن في دروس القرآن/ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل ابن حمد المبارك الحريملي النجدي (المتوفى: 1376هـ)/ الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية - الرياض، دار العليان للنشر والتوزيع، القصيم - بريدة/ الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1996 م
112. التيجان في ملوك حمير/ عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ)/ تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية/ الناشر: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية/ الطبعة: الأولى، 1347 هـ
113. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ عبد الرحمن بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)/ عبد الرحمن بن معلا / الناشر: مؤسسة الرسالة/ الطبعة: الأولى 1420 هـ - 2000 م
114. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق/ الناشر: مؤسسة الرسالة/ الطبعة: الأولى 1420 هـ - 2000 م
115. تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه - شخصيته وعصره/ علي محمد محمد الصلّابي/ الناشر: دار التوزيع والنشر القاهرة / الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2002 م
116. تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن/ أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: 1376هـ)/ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية / الطبعة: الأولى، 1422 هـ

117. **جامع الأصول / أبو السعادات مبارك / الناشر: دار ابن خزيمة/الطبعة: الأولى، 1420هـ/200م**
118. **جامع البيان في تأويل القرآن / محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)/المحقق: أحمد محمد شاكر/الناشر: مؤسسة الرسالة/الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م**
119. **الجامع الكبير - سنن الترمذي / محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)/المحقق: بشار عواد معروف/الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت/سنة النشر: 1998 م**
120. **الجامع المسند الصحيح = صحيح البخاري/محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي / المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر/الناشر: دار طوق النجاة /الطبعة: الأولى، 1422**
121. **الجامع لأحكام الصلاة وصيغة صلاة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ/ شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية /جمع : أبي عبد الرحمن عادل بن سعد/الناشر: الكتاب العالمي للنشر، بيروت - لبنان / /الطبعة: الأولى، 1427 هـ - 2006 م**
122. **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)/تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش/الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة/الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964**
123. **الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان /جمع: أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياري /الناشر: مكتبة ابن عباس، مصر /الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م**
124. **الجنة والنار من الكتاب والسنة المطهرة/عبد الرحمن بن سعيد بن علي بن وهف القحطاني (المتوفى: 1422هـ)/تحقيق: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني/الناشر: مطبعة سفير، الرياض/توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض/الطبعة: الثالثة**
125. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح/ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي**

- الدمشقي (المتوفى: 728هـ) / تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم
/ الناشر: دار العاصمة، السعودية/ الطبعة: الثانية، 1419هـ / 1999م
126. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن** / أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف
الثعالبي (المتوفى: 875هـ) / المحقق: الشيخ محمد علي / الناشر: دار إحياء التراث
العربي - بيروت / الطبعة: الأولى - 1418 هـ
127. **الحاوي في تفسير القرآن** / محمد الحاوي / الناشر: مؤسسة الرسالة / الطبعة: الطبعة
الثالثة، 1423هـ 2002م
128. **الحد الفاصل بين الإيمان والكفر** / عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف / الناشر: الدار
السلفية، الكويت / الطبعة: الخامسة، 1408 هـ - 1988 م
129. **حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر** / شيبث بن إبراهيم
بن محمد بن حيدرة، أبو الحسن القفطي، ضياء الدين المعروف بابن الحاج القناوي
(المتوفى: 598هـ) / المحقق: عبد الله البارودي / الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية -
بيروت / الطبعة: الأولى
130. **حقيقه السنة والبدعة** / عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى:
911هـ) / المحقق: ذيب بن مصري بن ناصر القحطاني / الناشر: مطابع الرشيد
131. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** / أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن
موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ) / الناشر: السعادة - بجوار محافظة
مصر، 1394هـ - 1974م الناشر / دار الكتاب العربي - بيروت
132. **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر** / عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار
الميداني الدمشقي (المتوفى: 1335هـ) / حقيقه: محمد بهجة البيطار / الناشر: دار
صادر، بيروت / الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1993 م
133. **حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم** / محمد حسين هيكل (المتوفى: 1376)
134. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون** / أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف
بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: 756هـ) / الدكتور أحمد محمد
الخرائط / الناشر: دار القلم، دمشق

135. الدر المنثور بالتفسير بالمأثور/ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)/الناشر: دار الفكر - بيروت
136. الدر المنثور في طبقات ربات الخدور/ زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فواز العاملي (المتوفى: 1332هـ)/الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر/الطبعة: الأولى، 1312 هـ
137. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية/ سعود بن عبد العزيز الخلف/الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الرابعة، 1425هـ/2004م
138. دراسات في تاريخ العرب القديم/ محمد بيومي مهران/الناشر: دار المعرفة الجامعية/ الطبعة: الثانية مزيدة ومنقحة
139. الدرر السنية في الأجوبة النجدية/ علماء نجد الأعلام/المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم/الطبعة: السادسة، 1417هـ/1996م
140. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة/ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)/الناشر: عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود، الرياض
141. دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ/ شحاتة محمد صقر/الناشر: / دَارُ الْفُرْقَانِ لِلتَّرَاثِ - البحيرة
142. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم/ عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: 808هـ)/المحقق: خليل شحادة/الناشر: دار الفكر، بيروت /الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988 م
143. ذيل مرآة الزمان/ قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (المتوفى: 726 هـ)/بإشراف: وزارة التحقيقات الحكومية والأمور الثقافية للحكومة الهندية/الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة/الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1992 م
144. ذيل مرآة الزمان/ قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (المتوفى: 726 هـ)/بإشراف: وزارة التحقيقات الحكومية والأمور الثقافية للحكومة الهندية/الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة/الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1992 م

145. رسالة الشرك ومظاهره/مبارك بن محمد الملي الجزائري (المتوفى: 1364هـ)/الناشر:
دار الراجية للنشر والتوزيع/الطبعة: الأولى (1422هـ - 2001م)
146. رسالة في الرد على الرافضة/ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي
(المتوفى: 1206هـ)/المحقق: ناصر بن سعد/الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود،
الرياض، السعودية
147. الرسل والرسالات/ عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي/ مكتبة الفلاح للنشر
والتوزيع، الكويت، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت /الطبعة: الرابعة، 1410 هـ -
1989 م
148. الرسل والرسالات/ عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي/الناشر: مكتبة الفلاح
للتوزيع والتوزيع، الكويت، دار النفائس للنشر والتوزيع، / الطبعة: الرابعة، 1410 هـ -
1989 م
149. الرقة والبكاء/ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي
الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: 281هـ)/تحقيق: محمد خير
رمضان يوسف /دار النشر: دار ابن حزم، بيروت - لبنان /الطبعة: الثالثة، 1419
هـ - 1998 م
150. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ شهاب الدين محمود بن عبد
الله الحسيني الألويسي (المتوفى: 1270هـ)/المحقق: علي عبد الباري عطية/الناشر:
دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى، 1415 هـ
151. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام/ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد
الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: 581هـ)/المحقق: عمر عبد السلام السلامي/الناشر:
دار إحياء التراث العربي، بيروت/الطبعة: الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2000م
152. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام/أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد
الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: 581هـ)/المحقق: عمر عبد السلام السلامي/الناشر:
دار إحياء التراث العربي، بيروت/الطبعة: الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2000م

153. **الرَّوْضُ البَّاسِمُ فِي الذَّبِّ عَن سُنَّةِ أَبِي القَاسِمِ** - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ / ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (المتوفى: 840هـ)/الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع
154. **زاد المعاد في هدي خير العباد/محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)/الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت/ الطبعة: السابعة والعشرون ، 1415هـ /1994م**
155. **زهرة التفاسير/ محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة/الطبعة: الأولى**
156. **سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد/ محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: 942هـ)/ تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض/الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م**
157. **سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد/محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: 942هـ)/تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود/الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان /الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م**
158. **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني/ شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: 977هـ)/الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) القاهرة/عام النشر1285هـ**
159. **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها/أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ)/الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض/الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)**
160. **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة/أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ)/ دار النشر: دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، 1412 هـ / 1992 م**

161. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي/ عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (المتوفى: 1111هـ)/المحقق: عادل عبد الموجود- علي محمد معوض/الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م
162. السنن الكبرى/ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ)حققه: حسن عبد المنعم شلبي/الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت/الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م
163. السنن الكبرى/ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ) حققه: حسن شلبي/الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت/الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م
164. سير السلف الصالحين/ إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: 535هـ)/تحقيق: د. كرم بن حلمي بن فرحات بن أحمد/الناشر: دار الراجية للنشر والتوزيع، الرياض
165. السيرة النبوية لابن هشام/ عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ)/المحقق: طه عبد الرؤوف سعد/الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة
166. سيكولوجية العلاقات الأسرية / محمد إبراهيم الفيومي(المتوفى: 1427هـ)/الناشر: دار الفكر العربي/الطبعة: الرابعة 1415هـ-1994
167. السيوف المشرقة ومختصر الصواعق المحرقة/ نصير الدين محمد الشهير بخواجه نصر الله الهندي المكي/تحقيق: الدكتور مجيد الخليفة /الناشر: مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة/الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م
168. شرح الشفا/ علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: 1014هـ) /الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت /الطبعة: الأولى، 1421هـ
169. شرح العقيدة الطحاوية/ عبد الرحمن بن ناصر بن براك بن إبراهيم البراك/إعداد: عبد الرحمن بن صالح السديس/الناشر: دار التدمرية/الطبعة: الثانية، 1429 هـ - 2008م

170. الشرح الممتع على زاد المستقنع/المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ) دار النشر: دار ابن الجوزي/الطبعة: الأولى، 1422-1428هـ.
171. شرح بلوغ المرام/ عطية سالم الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى - 1418 هـ
172. الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق/ عبد العزيز صالح/الناشر: مكتبة دار الزمان
173. شعب الإيمان/ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجِردِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)/حققه : الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد/الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض/الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م
174. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام/محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (المتوفى: 832هـ)/الناشر: دار الكتب العلمية/الطبعة: الأولى 1421هـ-2000م
175. الصحاح تاج اللغة / أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ)/تحقيق: أحمد عبد عطار/الناشر: دار العلم للملايين - بيروت/الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987
176. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ)/المحقق: شعيب الأرنؤوط/الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت/الطبعة: الثانية، 1414 - 1993
177. الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه/ أبو أحمد محمد أمان بن علي جامي علي (المتوفى: 1415هـ)/الناشر: المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، 1408هـ
178. صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني/الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة /الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م
179. الصلاة على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فضلها ومعناها وكيفيةها ومواقعها والتحذير من تركها/ شحاتة محمد صقر/الناشر: مكتبة دار العلوم، البحيرة (مصر)

180. صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم/ عاطف إبراهيم المتولي رفاعي/إشراف:
حاتم محمد منصور مزروعة/الناشر: رسالة ماجستير، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية
العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية (ماليزيا)/عام النشر: 1432 هـ - 2011م.
181. الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق/ سليمان بن سحمان بن مصلح بن
حمدان ، النجدي (المتوفى: 1349هـ)/المحقق: عبد السلام بن برجس بن ناصر بن
عبد الكريم/الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، السعودية/الطبعة:
الخامسة، 1414هـ/ 1992م
182. عالم الجن والشياطين/ عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي/الناشر: مكتبة
الفلاح، الكويت/الطبعة: الرابعة، 1404 هـ - 1984 م
183. عالم الملائكة الأبرار/ عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي/الناشر: مكتبة
الفلاح، الكويت/الطبعة: الثالثة، 1403 هـ - 1983 م
184. العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع/ محمود السيد شيخون/الناشر:
الجامعة الإسلامية/الطبعة: السنة العاشرة، العدد الأول، جمادى الآخرة 1397هـ مايو
- يونية 1977 م
185. العثمانية/ عمرو بن بحر بن محبوب، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى:
255هـ) /تحقيق: عبد السلام محمد هارون/الناشر: دار الجيل، بيروت/الطبعة:
الأولى، 1411 هـ
186. العدة شرح العمدة/عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد، أبو محمد بهاء الدين المقدسي
(المتوفى: 624هـ)/الناشر: دار الحديث، القاهرة/الطبعة: بدون طبعة/ النشر:
1424هـ 2003 م
187. العَدْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ/ محمد الأمين بن محمد المختار
بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1393هـ)/المحقق: خالد بن عثمان
السبت/إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد/الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة
المكرمة/الطبعة: الثانية، 1426 هـ
188. العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية)/شمس الدين، أبو
العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: 1188هـ)/المحقق: أبو
محمد أشرف بن عبد المقصود/الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض/الطبعة:
الأولى، 1998

189. عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله/ عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن حمد العباد البدر/ الناشر: دار ابن خزيمة/ الطبعة: الأولى، 1420هـ/2000م
190. العلمانيّة - نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلاميّة المعاصرة/سفر بن عبد الرحمن الحوالي/ الناشر: دار الهجرة
191. عمدة القاري شرح صحيح البخاري/ أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: 855هـ)/ الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت
192. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم/ ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله (المتوفى: 840هـ)/ تحقيق: شعيب الأرنؤوط/ الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت/ الطبعة: الثالثة، 1415 هـ - 1994 م
193. غاية الأمان في تفسير الكلام الرباني/ أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، شهاب الدين الشافعي ثم الحنفي (المتوفى: 893هـ)/ تحقيق: محمد مصطفى كوكسو (رسالة دكتوراه)/ الناشر: جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية - تركيا/ عام النشر: 1428 هـ - 2007 م
194. غاية الأمان في تفسير الكلام الرباني/ أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، شهاب الدين الشافعي ثم الحنفي (المتوفى: 893هـ)/ دراسة وتحقيق: محمد مصطفى كوكسو (رسالة دكتوراه)/ الناشر: جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية - تركيا/ عام النشر: 1428 هـ - 2007 م
195. غرائب التفسير وعجائب التأويل/ محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرمانى، ويعرف بتاج القراء (المتوفى: نحو 505هـ) / دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلاميّة - جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت
196. غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: 850هـ)/ المحقق: الشيخ زكريا عميرات/ الناشر: دار الكتب العلميّة - بيروت/ الطبعة: الأولى - 1416 هـ

197. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**/نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري (المتوفى: 850هـ)/ الشيخ زكريا عميرات /الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى 1416 هـ
198. **غريب القرآن**/ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)/المحقق: أحمد صقر/الناشر: دار الكتب العلمية/السنة: 1398 هـ - 1978 م
199. **فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي** - قسم العقيدة/عبد الرزاق عفيفي (المتوفى: 1415هـ)
200. **فتح الباري شرح صحيح البخاري** /أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي/ الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379/رقم كتبه: محمد فؤاد عبد الباقي/قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب
201. **فتح البيان في مقاصد القرآن**/ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن البخاري القنوجي (المتوفى: 1307هـ)/راجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري/الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت/عام النشر: 1412 هـ - 1992 م
202. **فتح البيان في مقاصد القرآن**/ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: 1307هـ)/ راجعه: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري/ الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت/عام النشر: 1412 هـ - 1992 م
203. **فتح البيان في مقاصد القرآن**/ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: 1307هـ)/راجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري/ الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت/عام النشر: 1412 هـ - 1992 م
204. **الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني**/محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)/حققه ورتبه: أبو مصعب «محمد صبحي» بن حسن حلاق/الناشر: مكتبة الجيل الجديد، صنعاء - اليمن

205. فتح القدير/ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)/الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت/الطبعة: الأولى - 1414 هـ
206. فتوح مصر والمغرب/عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم المصري (المتوفى: 257هـ)/الناشر: مكتبة الثقافة الدينية/عام النشر: 1415 هـ
207. الفصل في الملل والأهواء والنحل/ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ) /الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة
208. الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية/ نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: 920هـ)/الناشر: دار ركابي للنشر - الغورية، مصر/الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1999 م
209. الفوائد/ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)/الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الثانية، 1393 هـ - 1973 م
210. في ظلال القرآن/ سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ)/الناشر: دار الشروق - بيروت - القاهرة/الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ
211. القاموس المحيط/ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ)/تحقيق /مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة/الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان /الطبعة: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م
212. القرآن الحكيم (تفسير المنار)/ محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين (المتوفى: 1354هـ)/الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب/سنة النشر: 1990 م
213. القرآن ونقض طعائن الرهبان/ د صلاح عبد الفتاح الخالدي / الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م
214. القرآن ونقض مطاعن الرهبان/د صلاح عبد الفتاح الخالدي /دار النشر: دار القلم - دمشق/ الطبعة الأولى: 1428 هـ - 2007 م

215. **القصة في القرآن الكريم/ مريم السباعي / الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع/الطبعة: الطبعة الثالثة 1421هـ - 2000م**
216. **قصص الأنبياء/ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)/تحقيق: مصطفى عبد الواحد/الناشر: مطبعة دار التأليف - القاهرة/الطبعة: الأولى، 1388 هـ - 1968 م**
217. **القصص في القرآن الكريممفهومه ومنطوقه/عبد الكريم الخطيب/ الناشر/ دار العلم للملايين /الطبعة: الخامسة - أيار / مايو 2002 م**
218. **قفو الأثر في صفوة علوم الأثر/ محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي القادري التاذفي، الحنفي رضي الدين المعروف بـ ابن الحنبلي (المتوفى: 971هـ)/المحقق: عبد الفتاح أبو غدة/ الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب /الطبعة: الثانية، 1408هـ**
219. **القول المبين في سيرة سيد المرسلين/ محمد الطيب النجار (المتوفى: 1411هـ)/الناشر: دار الندوة الجديدة بيروت - لبنان**
220. **الكامل في التاريخ/ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ)/ عمر عبد السلام تدمري/ الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، 1417هـ / 1997م**
221. **الكامل في التاريخ/ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ)/تحقيق: عمر عبد السلام تدمري/ الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، 1417هـ / 1997م**
222. **كتاب الأمراض والكفارات/ ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: 643هـ)/المحقق: أبو إسحاق الحويني الأثري /الناشر: دار ابن عفان/الطبعة: الأولى**
223. **الكتاب المقدس /العهد القديم والعهد الحديث/للنصارى واليهود**

224. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد،
الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ) /الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت
/الطبعة: الثالثة - 1407 هـ
225. الكشف والبيان عن تفسير القرآن/ أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق
(المتوفى: 427هـ)/تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور/الناشر: دار إحياء التراث
العربي، بيروت - لبنان/ الطبعة: الأولى 1422، هـ - 2002 م
226. الكنز الجليل في تفسير الإنجيل/حبيب سعيد الناشر: دار التدمرية/الطبعة: الثانية،
1429 هـ
227. لباب التأويل في معاني التنزيل/ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر
الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: 741هـ) /المحقق: تصحيح محمد
علي شاهين /الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت /الطبعة: الأولى - 1415 هـ
228. اللباب في علوم الكتاب/ أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي
الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)/المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ
علي محمد معوض/ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان /الطبعة: الأولى،
1419 هـ -1998م
229. لسان العرب/ محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور
الأنصاري الإفريقي (المتوفى: 711هـ)/الناشر: دار صادر - بيروت /الطبعة: الثالثة
- 1414 هـ
230. لطائف الإشارات = تفسير القشيري/ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري
(المتوفى: 465هـ)/المحقق: إبراهيم البسيوني/الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب
- مصر
231. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة
المرضية/ شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي
(المتوفى: 1188هـ)/الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها - دمشق/ الطبعة: الثانية -
1402 هـ - 1982 م

232. **مباحث العقيدة في سورة الزمر/ ناصر بن علي عايض حسن الشيخ/الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، 1415هـ/1995م**
233. **مباحث في علوم القرآن/مناح بن خليل القطان (المتوفى: 1420هـ)/الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع/الطبعة: الطبعة الثالثة 1421هـ - 2000م**
234. **مجاز القرآن/ أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (المتوفى: 209هـ)/المحقق: محمد فواد سزكين/الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة/الطبعة: 1381 هـ**
235. **مجاز القرآن/أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (المتوفى: 209هـ)/المحقق: محمد فواد سزكين/الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة/الطبعة: 1381 هـ**
236. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/ أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: 807هـ)/حسام الدين القدس /الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة/ 1414 هـ، 1994 م**
237. **مجموع الفتاوى/ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ)/المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم/الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية/عام النشر: 1416هـ/1995م**
238. **محاسن التأويل /محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: 1332هـ)/المحقق: محمد باسل عيون السود/الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى - 1418 هـ**
239. **المحبر/ محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (المتوفى: 245هـ) /إيلزة ليختن شتير/الناشر:/ دار الآفاق الجديدة، بيروت**
240. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)/المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد/ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى - 1422 هـ**
241. **المحكم والمحيط الأعظم/ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: 458هـ]/المحقق: عبد الحميد هنداوي/الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 م**

242. **المختصر النصيحي في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح** / المهلب بن أحمد بن أبي صفرة أسيد (المتوفى: 435هـ) / المحقق: أحمد بن فارس السلوم / الناشر: دار التوحيد، دار أهل السنة - الرياض / الطبعة: الأولى، 1430هـ - 2009م
243. **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر** / محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ) / المحقق: روحية النحاس / دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا / الطبعة: الأولى، 1402هـ - 1984م
244. **مختصر صحيح الإمام البخاري** / أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: 1420هـ) / الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض / الطبعة الأولى، 1422هـ - 2002م
245. **مختصر صحيح الإمام البخاري** / أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ) / الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض / الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002م
246. **المختصر في أخبار البشر** / أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: 732هـ) / الناشر: المطبعة الحسينية المصرية
247. **مذكرة التوحيد** / عبد الرزاق عفيفي (المتوفى: 1415هـ) / الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية / الطبعة: الأولى، 1420هـ
248. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان** / أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (المتوفى: 768هـ) / وضع حواشيه: خليل المنصور / الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان / الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1997م
249. **مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع** / عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفى الدين (المتوفى: 739هـ) / الناشر: دار الجيل، بيروت / الطبعة: الأولى، 1412هـ

250. مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع/ عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي (المتوفى: 739هـ)/الناشر: دار الجيل، بيروت/الطبعة: الأولى، 1412 هـ
251. المسالك والممالك/ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (المتوفى: 487هـ)/الناشر: دار الغرب الإسلامي/عام النشر: 1992 م
252. المستدرک على الصحيحين/أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ)/تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا/الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى، 1411 م
253. مسند الإمام أحمد بن حنبل/ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)/المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون/الناشر: مؤسسة الرسالة/الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م
254. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم/الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)/المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي/الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت
255. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير/المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو 770هـ)/الناشر: المكتبة العلمية - بيروت
256. معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول/ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى: 1377هـ)/المحقق: عمر بن محمود أبو عمر/الناشر: دار ابن القيم - الدمام/الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1990 م
257. المعارف/ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)/تحقيق: ثروت عكاشة/الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة/الطبعة: الثانية، 1992م
258. معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه/ عبد الرحمن محمد عبد المحسن الأنصاري/الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة/الطبعة: السنة الثامنة والعشرون - 1417هـ - 1418هـ

259. معالم التنزيل في تفسير القرآن / محيي السنة، أبو محمد الحسين الشافعي (المتوفى : 510هـ)/المحقق: عبد الرزاق المهدي/الناشر: دار إحياء التراث العربي/الطبعة: الأولى، 1420
260. معاني القرآن وإعرابه/ إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: 311هـ) المحقق: عبد الجليل عبده شلبي/الناشر: عالم الكتب - بيروت/الطبعة: الأولى 1408 هـ
261. معترك الأقران في إعجاز القرآن/ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)/دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م
262. معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسَمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)/ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)/دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م
263. معجم العلوم الاجتماعية / إبراهيم مذكور/ الناشر: دار القلم - دمشق /الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م
264. معجم مقاييس اللغة/أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)/المحقق/ عبد السلام محمد هارون/ الناشر: دار الفكر/عام النشر: 1399هـ - 1979م
265. معنى لا إله إلا الله/أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي (المتوفى: 794هـ) /المحقق: علي محيي الدين علي القرة /الناشر: دار الاعتصام - القاهرة/ الطبعة: الثالثة، 1405هـ/ 1985م
266. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير/ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)/الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت/الطبعة: الثالثة - 1420 هـ
267. مفردات القرآن - نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية/ عبد الحميد الفراهي الهندي (المتوفى: 1349هـ)/المحقق: د/ محمد أجمل أيوب الإصلاحي/الناشر: دار الغرب الإسلامي/الطبعة: الأولى، 2002 م

268. المفردات في غريب القرآن/ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني(المتوفى: 502هـ)/الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت/الطبعة: الأولى 1412 هـ
269. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ الدكتور جواد علي (المتوفى: 1408هـ)/ الناشر: دار الساقى/ الرابعة 1422هـ/ 2001م
270. من أنساب الأشراف/ أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَدْرِي (المتوفى: 279هـ)/تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي/الناشر: دار الفكر- بيروت/الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م
271. مناظرة بين الإسلام والنصرانية/ الشيخ الدكتور محمد جميل غازي والأستاذ إبراهيم خليل أحمد واللواء المهندس أحمد عبد الوهاب/الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض - المملكة العربية السعودية/الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1992 م
272. المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسديّة/ أبو البقاء هبة الله محمد بن نما الحلبي (المتوفى: ق 6هـ) /المحقق: (محمد عبد القادر خريسات، صالح موسى درادكة) (كلية الآداب - الجامعة الأردنية)/الناشر: مكتبة الرسالة الحديثة، عمان /الطبعة: الأولى، 1984م
273. المنتخب في تفسير القرآن الكريم/ لجنة من علماء الأزهر /الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر، طبع مؤسسة الأهرام /الطبعة: الثامنة عشر، 1416 هـ - 1995 م
274. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك/ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)/المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا/الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992م
275. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك/ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)/المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا/الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م

276. منتهى السؤال على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم/
عبد الله بن سعيد بن محمد عبادي اللّحجي الحضرمي الشحاري، ثم المرأوعي، ثم
المكي (المتوفى: 1410هـ)/الناشر: دار المنهاج - جدة/الطبعة: الثالثة، 1426 هـ /
2005 م
277. منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب/ عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن
عثمان آل معمر (المتوفى: 1244هـ)
278. منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب/ عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن
عثمان آل معمر (المتوفى: 1244هـ)
279. المنق في أخبار قريش/ محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، البغدادي
(المتوفى: 245هـ) خورشيد أحمد فاروق/الناشر: عالم الكتب، بيروت/الطبعة: الأولى،
1405 هـ - 1985 م
280. منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس/ عبد اللطيف بن
عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: 1293هـ)/الناشر: دار
الهداية للطبع والنشر
281. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف
النووي (المتوفى: 676هـ)/الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت/الطبعة:
الثانية، 1392هـ
282. منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين/ د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي/الناشر:
عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة /الطبعة: الأولى،
1424هـ/2004م
283. موارد الظمان لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق
حسان/عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلطان (المتوفى: 1422هـ)/الطبعة:
الثلاثون، 1424 هـ
284. الموالات والمعاداة في الشريعة الإسلامية/محماس بن عبد الله بن محمد
الجلعود/الناشر: دار اليقين للنشر والتوزيع/الطبعة: الأولى، 1407 هـ - 1987 م

285. موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام/ أحمد معمور العسيري/ الناشر:
غير معروف (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض)/ الطبعة: الأولى، 1417هـ
- 1996 م
286. موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة/محمود بن عبد الرحمن
قدح/الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة/الطبعة: السنة التاسعة والعشرون
(1419/1418هـ)
287. موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور/ أ. د. حكمت بن بشير بن
ياسين/الناشر: دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية/الطبعة: الأولى،
1420 هـ - 1999 م
288. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية/ أحمد عبد الوهاب/الناشر: مكتبة
وهبة/طبعة: أولى
289. موسوعة فقه القلوب/ محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري/ الناشر: بيت الأفكار
الدولية
290. الموطأ/ الإمام مالك بن أنس/ الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال
الخيرية والإنسانية - أبو ظبي - الإمارات - الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004
291. نزهة المجالس ومنتخب النفائس/ عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري (المتوفى):
894هـ// الناشر: المطبعة الكاستلية - مصر/ عام النشر: 1283هـ
292. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب/ابن سعيد الأندلسي/المحقق: الدكتور نصرت
عبد الرحمن/ الناشر: مكتبة الأقصى، عمان - الأردن
293. نظام الأسرة في الإسلام/ محمد عقلة/ الناشر: دار الفكر المعاصر -
دمشق/الطبعة: الثانية، 1418 هـ
294. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن
أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ)/الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

295. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ)/الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة
296. النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام/ أحمد محمد بن علي بن محمد الكرجي القصباب (المتوفى: نحو 360هـ)/تحقيق: علي بن غازي التويجري/دار النشر: دار القيم - دار ابن عفان/ الطبعة: الأولى 1424 هـ - 2003 م
297. نهاية الأرب في فنون الأدب/ أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: 733هـ)/الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة/ الطبعة: الأولى، 1423 هـ
298. نهاية الأرب في فنون الأدب/أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: 733هـ)/الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة/ الطبعة: الأولى، 1423 هـ
299. النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات/ أبو محمد عبد الله بن (أبي زيد) عبد الرحمن النفزي، القيرواني، المالكي (المتوفى: 386هـ)/تحقيق/ الدكتور/ عبد الفتاح محمد الحلو/الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت/ الطبعة: الأولى، 1999 م
300. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى/محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)/المحقق: محمد أحمد الحاج/الناشر: دار القلم- دار الشامية، جدة - السعودية/ الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1996
301. الهداية إلى بلوغ النهاية / أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: 437هـ)/المحقق: مجموعة رسائل جامعية /الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - جامعة الشارقة/ الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م
302. الهدى النبوي في تربية الأولاد في ضوء الكتاب والسنة/ د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني/ الناشر: مطبعة سفير، الرياض/توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض

303. هل بشر الكتاب المقدس بمحمد صلى الله عليه وسلم؟/ منقذ بن محمود السقار/الناشر: دار الإسلام للنشر والتوزيع/الطبعة: الأولى، 1428 هـ - 2007 م
304. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ)/تحقيق: صفوان عدنان داوودي/دار النشر: دار القلم ، الدار الشامية - دمشق، بيروت/الطبعة: الأولى، 1415 هـ
305. وسطية أهل السنة بين الفرق/محمد با كريم محمد با عبد الله/الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع/ الطبعة: الأولى 1415هـ-1994م
306. الوسيط في تفسير القرآن المجيد/أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ)/تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود/ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1994 م
307. وظيفة الصورة الفنية في القرآن/عبد السلام أحمد الراغب/ الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر - حلب /الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م
308. الولاء والبراء في الإسلام/ أبو عاصم الشحات شعبان محمود عبد القادر البركاتي المصري/الناشر: دار الدعوة الإسلامية/الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م

خامساً: فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
أ	آية
ب	إهداء
ت	شكر وتقدير
1	المقدمة
3	أولاً : أهمية الدراسة
3	ثانياً : أسباب اختيار الموضوع
4	ثالثاً : أهداف البحث وغاياته
4	رابعاً : الدراسات السابقة
4	خامساً : منهج البحث
5	سادساً : خطة البحث
التمهيد	
10	أولاً : معنى العلاقات الأسرية لغة واصطلاحاً
12	ثانياً : معنى القصة القرآنية لغة واصطلاحاً
14	ثالثاً : الألفاظ القرآنية المناظرة لكلمة الأسرة
16	رابعاً : أنواع الأسر في المجتمع الإسلامي
17	خامساً : مفهوم الأسرة لدى الأديان

الصفحة	الموضوع
20	سادساً : المفهوم اللاديني للأسرة
21	سابعاً : التيارات المضادة للأسرة المسلمة
الفصل الأول علاقة المرء بزوجه	
26	المبحث الأول: علاقة الرجل الصالح بزوجه الصالح
27	المطلب الأول: علاقة إبراهيم <small>عليه السلام</small> بسارة .
40	المطلب الثاني: علاقة إبراهيم <small>عليه السلام</small> بهاجر.
53	المطلب الثالث: علاقة زكريا <small>عليه السلام</small> بزوجه.
63	المطلب الرابع: علاقة أيوب <small>عليه السلام</small> بزوجه.
73	المطلب الخامس: علاقة موسى <small>عليه السلام</small> بزوجه.
81	المبحث الثاني: علاقة الرجل الصالح بامرأته السيئة
83	المطلب الأول: علاقة نوح <small>عليه السلام</small> بزوجه.
89	المطلب الثاني: علاقة لوط <small>عليه السلام</small> بزوجه .
95	المبحث الثالث: علاقة المرأة الصالحة بزوجها الكافر
96	المطلب الأول: علاقة آسية بفرعون
101	المبحث الرابع: الأزواج بين الخطيئة والتوبة
102	المطلب الأول: علاقة آدم بحواء عليهما السلام .
113	المطلب الثاني: علاقة عزيز مصر بزليخا .
127	المبحث الخامس: علاقة الرجل السيئ بامرأته السيئة

الصفحة	الموضوع
128	المطلب الأول: علاقة أبو لهب بزوجه أم جميل
136	نتائج ومعلومات بحثية
الفصل الثاني علاقة الآباء بالأبناء	
143	المبحث الأول: علاقة الأب الصالح بالابن الصالح
144	المطلب الأول: علاقة أبي الأنبياء إبراهيم ؑ بإبنته من بعده
149	المطلب الثاني: علاقة إبراهيم الأب بإسماعيل الابن عليهما السلام
157	المطلب الثالث: علاقة نبي الله يعقوب ؑ بابنه يوسف ؑ
168	المطلب الرابع: علاقة لقمان الحكيم ؑ بابنه
180	المطلب الخامس: علاقة داوود الأب بسليمان الابن عليهما السلام
193	المبحث الثاني: علاقة الأب الصالح بابنه السيء
194	المطلب الأول: علاقة نوح ؑ بابنه
204	المطلب الثاني: علاقة الوالدين الصالحين بصاحب المقولة القرآنية "أف لكما"
210	المبحث الثالث: علاقة الابن الصالح بأبيه الطالح
211	المطلب الأول: علاقة إبراهيم ؑ بأبيه آزر
216	المبحث الرابع: علاقة الأب الصالح بابنته
217	المطلب الأول: علاقة لوط ؑ بابنتيه
225	المطلب الثاني: علاقة الرجل الصالح ختن موسى ؑ بابنتيه.
234	المبحث الخامس: علاقة الأم بولدها

الصفحة	الموضوع
235	المطلب الأول: علاقة هاجر بولدها إسماعيل <small>عليه السلام</small>
241	المطلب الثاني: علاقة أم موسى بموسى <small>عليه السلام</small>
249	المطلب الثالث: علاقة امرأة عمران بمريم عليها السلام
256	المطلب الرابع: علاقة مريم بابنها عيسى <small>عليه السلام</small>
266	نتائج ومعلومات بحثية
الفصل الثالث علاقة الأخوة بعضهم ببعض	
274	المبحث الأول: علاقة الصلاح بين الإخوة
275	المطلب الأول : علاقة يوسف <small>عليه السلام</small> بأخيه بنيامين
284	المطلب الثاني: علاقة موسى <small>عليه السلام</small> بأخيه هارون <small>عليه السلام</small>
297	المطلب الثالث: علاقة أخت موسى بأخيها موسى <small>عليه السلام</small>
301	المبحث الثاني: علاقة الإخوة بين صلاحٍ وصلاح
302	المطلب الأول: علاقة ابني آدم <small>عليه السلام</small> هابيل وقابيل ببعضهما
316	المبحث الثالث: العلاقات الأخوية بين الخطيئة والتوبة
317	المطلب الأول: يوسف <small>عليه السلام</small> وإخوته من أبيه بين الخطيئة والتوبة.
355	المطلب الثاني: الأخوة أصحاب الجنة بين الخطيئة والتوبة
الخاتمة	
370	أولاً: النتائج
371	ثانياً: التوصيات

الصفحة	الموضوع
الفهارس العامة	
373	أولاً: فهرس الآيات القرآنية.
393	ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
401	ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم.
403	رابعاً: فهرس المصادر والمراجع.
438	خامساً: فهرس الموضوعات.

ملخص الرسالة

تتعلق هذه الرسالة كما هو واضح من عنوانها بالعلاقات الأسرية التي أوردها القرآن الكريم في قصصه، وقد تم عرض ذلك من خلال .

أولاً:-

العلاقات بين الأزواج ، والعلاقات بين الآباء والأمهات وأبناءهم وبناتهم، وكذلك العلاقات بين الإخوة.

ثانياً:-

من خلال جمع هذه القصص في موضوع واحد رغم بعدها الزمني والمكاني.

ثالثاً:-

ومن خلال تسليط الضوء على هذه العلاقات من جميع الجهات، والخروج بالاستفادة منها.

رابعاً:-

لقد خلصت الباحثة إلى طائفة كبيرة من النتائج البحثية بعد كل فصل من فصول الرسالة.

خامساً:-

أبرزت الباحثة في نهاية بحثها التوصيات المتعلقة بموضوع الرسالة.

Abstract

This study aims at explaining the familial relations as revealed in the stories of the holy Quran. The study explains:

First

The relation between spouses, fathers and mothers with their children, and relations between siblings.

Second

This was explained through combining the stories according to one theme despite the differences of time and place.

Third

This was also explained through focusing on such relations from all angles so as to get the most benefit out of it.

Fourth

The researcher concluded a number of findings after each chapter of the study.

Fifth

At the end of the study, the researcher suggested a number of recommendations relevant to the subject of the study.